

الرواية التي باعت أكثر من ٢٢ مليون نسخة حول العالم

خالد حسيني

عدّاء

الطائرة الورقية

مكتبة بغداد

[twitter@baghdad_library](https://twitter.com/baghdad_library)

«مُفجعة»
التايمز

«مُلهمّة»
الدائلي تلجراف

«لا تُنسى»
إيزابيل أَلليندي

«مُحرّك المشاعر»
الصنداي إكسبرس



الطبعة العربية الأولى ٢٠١٢
دار بلومزبري – مؤسسة قطر للنشر
مؤسسة قطر، فيلا رقم ٣، المدينة التعليمية
صندوق بريد ٥٨٢٥
الدوحة، دولة قطر
www.bqfp.com.qa

The Kite Runner

Copyright © 2003 TKR Publications. LLC

الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة

حقوق الترجمة © إيهاب عبد الحميد ٢٠١٢

جميع الحقوق محفوظة
لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة بدون الحصول
على الموافقة الخطية من الناشر باستثناء في حالة الاقتباسات المختصرة بالدراسات
النقدية أو المراجعات.

الترقيم الدولي: 9789992178966

Printed and bound by CPI Group (UK) Ltd, Croydon, CR0 4YY



خالد حسيني
عداء
الطائرة الورقية

ترجمة
إيهاب عبد الحميد



دار بلومزبري - مؤسسة قطر للنشر
BLOOMSBURY
QATAR FOUNDATION
PUBLISHING



مؤسسة قطر
Qatar Foundation

إهداء

إلى حارس وفرح
نور عيني،
وإلى أطفال أفغانستان.

شكر وعرفان

إنني مدين لهؤلاء الزملاء لما قدموه من نصح أو مساعدة أو دعم: الدكتور ألفريد ليرنر، دوري فاكيس، روبين هيك، الدكتور تود دراوي، الدكتور روبرت تول، والدكتورة ساندي تشن. والشكر موصول أيضًا للينييتي باركر من مركز المجتمع القانوني لما قدمته من نصح بخصوص إجراءات التبني، وللسيد داود وهاب لإفادتي بخبرته في أفغانستان. كما أشعر بالامتنان تجاه صديقي العزيز تميم أنصاري لما قدمه من إرشاد ودعم، وكذا للأصدقاء في ورشة الكتاب بسان فرانسيسكو على آرائهم وتشجيعهم. كما أود أن أشكر والدي، أقدم أصدقائي ومصدر الإلهام في كل ما هو نبيل في «بابا»، وأمي التي كانت تدعولي وتنذر لي نذرًا في كل مرحلة من مراحل تأليف هذا الكتاب، وخالتي التي كانت تشتري لي الكتب وأنا صغير. ويمتد الشكر إلى علي، ساندي، داود، وليد، رايا، شالا، زهرة، روب، الذين قرأوا قصصي. وأود أن أشكر الدكتور والسيدة قيومي - والديَّ الآخرين - على دعمهما الدافئ المستمر.

ويجب أن أشكر وكيلتي وصديقتي، إلياني كوستر، على حكمتها وصبرها وكرمها. كما أشكر سيندي سبيجل، محررتي الحسيفة، ذات النظرة المدقة التي ساعدتني على فتح أبواب كثيرة في هذه الحكاية. وأود أن أشكر سوسان

بيترسن كنيدي للمجازفة بنشر هذا الكتاب، وكذا فريق العمل الدؤوب في
ريفرهيد لعملهم عليه. وأخيرًا، لا أعرف كيف أشكر زوجتي الحبيبة، روبا-
وأنا مدين لرأيها- على طيبتها وكرمها، إذ قرأت، وأعادت القراءة، وساعدتني
على تحرير كل مسودة من مسودات هذه الرواية. لصبرك وتفهمك، سوف
أحبك دائمًا، روبا جان.

عداء الطائرة الورقية

ديسمبر ٢٠٠١

في الثانية عشرة من عمري، أصبحت ما أنا عليه الآن. حدث ذلك في يوم قارس البرودة ملبّد بالغيوم من شتاء ١٩٧٥ أتذكر اللحظة بدقة، وأنا منكمش خلف جدار طيني متصدع، أختلس النظر إلى الزقاق القريب من الجدول المتجمد. حدث ذلك منذ زمن طويل، لكنني تعلمت أن ما يقولونه عن الماضي، عن قدرتك على دفنه، خطأ. لأن الماضي يشق طريقه. والآن، وأنا أستعيد ما جرى، أدرك أنني ظلت أختلس النظر إلى ذلك الزقاق المهجور للسنوات الست والعشرين الأخيرة من حياتي.

في أحد أيام الصيف الماضي، هاتفني صديقي رحيم خان من باكستان. وطلب مني أن أذهب لرؤيته. وأنا أقف في المطبخ والسماعة على أذني، عرفت أن من على الخط لم يكن رحيم خان وحسب، بل ماضٍ مثقل بذنوب لم يُكفّر عنها. بعد أن وضعت السماعة، ذهبت للتمشية عند بحيرة «سبريكلز» في الطرف الشمالي لمتنزه «جولدن جيت». تلاًأت شمس العصر على صفحة المياه حيث تُبحر العشرات من القوارب الصغيرة، يدفعها نسيم منعش. ألقيت نظرة لأعلى فأبصرت طائرتين ورقيتين حمراوين بذيلين

أزرقين طويلين، تحلقان في السماء. كانتا ترقصان عاليًا فوق الأشجار على الطرف الغربي من المتنزه، فوق طواحين الهواء، تسبحان جنبًا إلى جنب كعينين تنظران من علٍ إلى سان فرانسيسكو، المدينة التي أسميها الآن وطني. وفجأة همس صوت حَسَن في رأسي: «من أجلك، ألف مرة ومرة». حسن عداء الطائرة الورقية صاحب الشفة الأرنبية.

جلست على مصطبة قرب صفصافة. فكرت في شيء ذكره رحيم خان قبل أن ينهي المكالمة، شيء أشبه بخاطرة راودته: «ثمة طريقة لتعود صالحًا من جديد». رفعت بصري نحو هاتين الطائرتين التوأمين. فكرت في حسن. فكرت في بابا، في علي، في كابول. فكرت في الحياة التي عشتها حتى جاء شتاء ١٩٧٥ فغيّر كل شيء. وجعلني ما أنا عليه اليوم.

كنت أنا وحسن، ونحن طفلان، نتسلق أشجار الحور في مدخل دار والدي، ونزعج جيراننا بقطعة مرآة نعكس بها أشعة الشمس داخل بيوتهم. كنا نجلس متقابلين على فرعين من الفروع العالية، تتدلى أقدامنا الحافية، وتمتلئ جيوب سروالينا بالتوت الجاف وحببات الجوز. كنا نتناوب على اللعب بالمرآة ونحن نأكل التوت، ونتراشق به، ونقهقه ضاحكين. ما زلت أرى حسنًا فوق الشجرة، ونور الشمس يخفق عبر أوراق الشجر على وجهه المستدير، وجه يشبه الدُّمى الصينية المصنوعة من الخشب الثقيل: أنفه المفلطح الواسع، وعيناه المائلتان الضيقتان مثل أوراق البامبو، عينا تبدوان، بحسب الضوء، ذهبيتين، وخضراوين، بل وياقوتيتين. ما زلت أرى أذنيه الصغيرتين المنخفضتين وتلك الذقن البارزة المدببة، وكأنها زائدة لحمية أضيفت في اللحظة الأخيرة. والشفة المشقوقة، على يسار خط المنتصف بقليل، حيث ربما انزلقت الأداة من يد صانع الدُمى الصينية، أو أصابه الإجهاد واللامبالاة.

كنت أحرّض حسنًا أحيانًا، من فوق تلك الأشجار، على استخدام نبلة في رشق كلب جارنا الأعور الجيرمان شيرد بحبات الجوز. لم يرغب

حسن في ذلك قطُّ، ولكن حين كنت أطلب منه، أطلب منه حقًّا، لم يكن يرد طلبي. لم يرد حسن لي طلبًا قطُّ. وكانت رمية نبلة قاضية. وكان علي، والد حسن، يأتي لِيُمسك بنا ويستشيط غضبًا، أو بقدر ما يمكن لشخص في رقة علي أن يستشيط غضبًا. كان يهز إصبعه تجاهنا ويشير إلينا بالنزول من فوق الشجرة. كان يأخذ المرأة ويقول لنا ما قالته له أمه، إن الشيطان أيضًا يعبث بالمرأة، يعبث بها ليشتت أذهان المسلمين في أثناء الصلاة. وكان يضيف دائمًا، وهو يعبس في وجه ابنه:

- ويضحك وهو يفعل ذلك.

وكان حسن يغمغم، وهو ينظر إلى قدميه:

- حاضر يا أبي.

لكنه لم يشِ بي قطُّ. لم يقل قطُّ إن اللعب بالمرأة، شأنه شأن رشق كلب الجيران بحبات الجوز، فكرتي أنا.

كانت أشجار الحور تصطف على جانبي المدخل المرصوف بالطوب الأحمر، وكان يُفضي إلى بوابة من الحديد المشغول، تفتح بدورها على امتداد للمدخل في ضيعة أبي. كانت الدار تستوي على الجانب الأيسر من المدخل المرصوف بالطوب، وكانت الباحة الخلفية في نهايته.

أجمع الناس على أن والدي، بابا، شيد أجمل دار في ضاحية وزير أكبر خان، وهي ضاحية جديدة راقية في القسم الشمالي من كابول. وكان بعضهم يرونها أجمل دار في كابول كلها. يفضي مدخل واسع، تصطف على جانبيه شجيرات الورد، إلى الدار المترامية الأطراف، ذات الأرضيات الرخامية والنوافذ الواسعة. كان البلاط الفسيفسائي المعقد، الذي انتقاه بابا بنفسه في أصفهان، يغطي أرضيات الحمامات الأربعة. وكانت المفروشات الموشاة

بالذهب، التي أحضرها بابا من كلكتا، معلقة على الجدران، ومن السقف المقبَّب تتدلى ثريا من الكريستال.

في الطابق العلوي كانت غرفتي، وغرفة بابا، ومكتبه، المعروف أيضًا بـ«غرفة التدخين»، وكان معبأً على الدوام برائحة التبغ والقرفة. كان بابا وأصدقاؤه يضطجعون فيها على مقاعد جلدية سوداء بعد أن يقدم علي لهم العشاء. يحشون غلايينهم - عدا بابا الذي كان يسمي تلك العملية «تسمين الغليون» - ويناقشون موضوعاتهم الثلاثة الأثيرة: السياسة والبيزنس وكرة القدم. أحيانًا كنت أطلب من بابا أن أجلس معهم، لكنه كان يقف في مدخل الغرفة ويقول:

- اذهب الآن. هذا وقت الكبار. لماذا لا تذهب لتقرأ كتابًا من كُتُبك؟

ثم يغلق الباب، ويتركني أتساءل لماذا كان الوقت عنده دائمًا وقت الكبار. كنت أجلس بجوار الباب، وركبتي مضمومتان إلى صدري. أحيانًا أجلس هناك لساعة، وأحيانًا لساعتين، أنصت إلى ضحكهم، وثرثرتهم.

كانت جدران غرفة المعيشة في الطابق السفلي مقوسة، بها خزانات مصممة على مقاساتها. بداخلها صورٌ عائلية مؤطرة: صورة قديمة غير واضحة لجدي بصحبة الملك نادر شاه، التقطت في ١٩٣١، قبل عامين من اغتيال الملك؛ يقفان وعند أقدامهما غزال ميت، ينتعل كل منهما حذاءً يصل إلى الركبتين، ويعلق على كتفه بندقية. وصورة لليلة زفاف والديّ، بابا متأنق في حلته السوداء وأمي أميرة شابة مبتسمة في رداء أبيض. وصورة لبابا وأقرب أصدقائه وشريكه في العمل، رحيم خان، يقفان أمام دارنا، من دون ابتسام. أنا طفل في تلك الصورة وبابا يمسك بي، ويبدو عليه الإرهاق والعبوس. أنا بين ذراعيه، لكن أصابعي تقبض على خنصر رحيم خان.

كانت الجدران المقوسة تفضي إلى غرفة الطعام، وفي وسطها طاولة من خشب الماهوجني تسع ثلاثين ضيفاً من دون عناء - ولما كان أبي يعشق الحفلات الصاخبة، فقد كانت تستضيف هذا العدد كل أسبوع تقريباً. وعلى الطرف الآخر من غرفة الطعام مدفأة رخامية عالية، مضاءة دوماً بوهج برتقالي ينبعث من النار في الشتاء.

كان ثمة باب زجاجي كبير يفتح بمزلاج على شرفة شبه دائرية تطل على باحة خلفية مساحتها فدانان و صفوف من أشجار الكرز. وكان باباً وعلي قد زرعا بستاناً صغيراً بالخضراوات على طول الجدار الشرقي: طماطم، ونعناع، وفلفل، وصف من الذرة لم تثمر قطُّ. وكنا أنا وحسن نسميه «جدار الذرة العليّة».

على الطرف الجنوبي من البستان، في ظلال شجرة بشملة، كان بيت الخدم، كوخ طيني صغير متواضع يعيش فيه حسن ووالده.

هناك، في ذلك الكوخ الصغير، وُلد حسن في شتاء ١٩٦٤، بعد عام واحد من وفاة أُمِّي في أثناء ولادتي.

في الثمانية عشر عاماً التي عشتها في تلك الدار، لم أدخل مسكن حسن وعلي إلا بضع مرات. عندما كانت الشمس تنحدر خلف التلال وينتهي لعبنا في النهار، كنا نفترق. أجتاز أنا شجيرات الورد باتجاه منزل بابا، ويسير حسن إلى الكوخ الطيني الذي ولد فيه، وعاش فيه طيلة حياته. أتذكره بيتاً صغيراً نظيفاً معتماً، يضيئه مصباحا كيروسين. كان على جانبي الغرفة مرتبتان، وبينهما بساط بالٍ وارد هرات بحواف منسولة، وكُرسي بثلاث أرجل، وطاولة خشبية في الركن كان حسن ينجز عليها رسومه. كانت الجدران عارية، إلا من سجادة وحيدة عليها كلمتا الله أكبر مطرزان بالخرز. اشتراها بابا لعلي في إحدى رحلاته إلى مشهد.

في ذلك الكوخ الصغير وضعت «صنوبر»، أم حسن، ابنها في نهار شتوي بارد عام ١٩٦٤. وفيما نزلت أمي حتى الموت في أثناء ولادتي، فقد حسن أمه بعد أقل من أسبوعين من ولادته. فقدَها بمصيرٍ كان معظم الأفغان يعدونه أسوأ كثيرًا من الموت: هربت مع جماعة من المغنين والرقاصين الجوالين. لم يتكلم حسن عن أمه قطُّ، وكأنها لم توجد من الأساس. وكنت أتساءل دائمًا إذا ما كان يحلم بها، بما كانت عليه ملامحها، أو بمكانها أين صار. كنت أتساءل إذا كان يتوق للقيها. أكان يتحرق شوقًا إليها، كما كنت أتحرق شوقًا إلى الأم التي لم ألتق بها قطُّ؟ ذات يوم، كنا نمشي من دار والدي إلى سينما «زينب» لمشاهدة فيلم إيراني جديد، سالكين الطريق المختصر عبر ثكنات الجيش قرب مدرسة «استقلال» الإعدادية - كان بابا قد حرّم علينا اتخاذ هذا الطريق، لكنه كان في باكستان مع رحيم خان في ذلك الوقت. وثبنا من فوق السور الذي يحيط بالثكنات، وقفزنا عابرين جدولاً صغيراً، واندفعنا في الحقل الترابي المفتوح حيث تتراكم الأتربة على مدرعات مهجورة. كان عدد من الجنود يحتشدون في ظلال إحدى تلك المدرعات، يدخنون السجائر ويلعبون الورق. رأنا أحدهم، فلكز جاره، ونادى على حسن:

- هاي، أنت! أنا أعرفك.

لم نكن قد رأيناه من قبل. كان رجلاً قصيراً وبديناً برأس حليق ولحية نابذة. وقد أرعبتني الطريقة التي كثر بها وهو ينظر لنا بخبث. فتمتمت لحسن:

- واصل السير.

زعق الجندي:

- أنت! أيها الهزاره! انظر إليّ عندما أكلمك!

ناول سيجارته لجاره، وصنع دائرة بإبهامه وسبابته. وأدخل الإصبع الوسطى من يده الأخرى في الدائرة. وأخذ يدخلها ويخرجها، ويدخلها ويخرجها.

- أنا أعرف أمك، هل تعرف ذلك؟ أعرفها معرفة حميمة. أتيتها من الخلف عند ذلك الجدول هناك.

ضحك الجنود. وأطلق أحدهم صوتًا كالصرير. قلت لحسن:

- واصل السير! واصل السير!

كان الجندي يقول مبتسمًا، وهو يصفح الآخرين:

- كم كان فرج أمك صغيرًا وضيقًا وحلوا كالسكر!

لاحقًا، في الظلام، بعد بدء الفيلم، سمعت حسنًا ينشج بجواري. كانت الدموع تنساب على خديه. مددت يدي عبر مقعدي، وأحطته بذراعي، وجذبتة تجاهي. أراح رأسه على كتفي. همستُ في أذنه:

- كان يظنك شخصًا آخر. كان يظنك شخصًا آخر.

قليل لي إن أحدًا لم يندهش حقًا لهرب صنوبر. نعم، استغرب بعض الناس زواج علي، الحافظ للقرآن، من صنوبر، امرأة تصغره بتسعة عشر عامًا، امرأة جميلة، إنما فاحشة لا تعرف الحياء، وكان مسلكها مصداقًا لسمعتها السيئة. كانت، مثل علي، مسلمة شيعية تنتمي عريقًا للهزاره. كما كانت ابنة عمه، ومن ثمَّ كان من الطبيعي أن يختارها زوجة. ولكن بخلاف أوجه الشبه تلك، لم يكن هناك ما يجمع بين علي وصنوبر، وخصوصًا في المظهر. بينما كانت صنوبر قد أغوت بعينيها الخضراوين اللامعتين ووجهها العفريت، كما يُشاع، عددًا لا يُحصى من الرجال وأوقعتهم في حبال الخطيئة، وُلد علي بشل

في عضلات أسفل وجهه، وهي حالة جعلته عاجزًا عن الابتسام وخلفت وجهه عبوسًا دائمًا. لم يكن من المعتاد أن ترى عليًا صاحب الوجه الحجري سعيدًا، أو حزينًا، لأن عينيه البنيتين المائلتين كانتا فقط تلمعان بابتسامة أو تفيضان أسى. يقولون إن العيون نوافذ على الروح؛ وهي مقولة لا تصدق على أحد بقدر ما تصدق على علي، الذي لم يكن بوسعه أن يفصح عن دواخله إلا من خلال عينيه.

لقد سمعتُ أن مشية صنوبر الموحية وأعطافها الخاطرة كانت تثير في الرجال خيالات الخيانة. لكن شلل الأطفال كان قد ترك عليًا بساق يُمنى ضامرة ملتوية ليست أكثر من جلد على عظم لا يفصل بينهما إلا طبقة من العضلات في رقة الورقة. أتذكر في أحد الأيام، عندما كنت في الثامنة، وعلي يصطحبني إلى السوق لشراء بعض أرغفة الـ«نان»، كنت أمشي خلفه، أهمهم، محاولًا أن أقلد مشيته. كنت أراقبه وهو يورجح ساقه العجفاء وكأنما يكنس بها الأرض، أراقب جسده وهو يميل بكامله إلى اليمين بصعوبة كلما ثبتت تلك القدم. وبدأ لي عدم انكفائه مع كل خطوة معجزة صغيرة. وعندما جربتها، كدت أقع في بالوعة. وجعلني ذلك أقهقه. التفت علي، وضبطني وأنا أقلده. ولم يقل شيئًا. لا وقتها، ولا بعدها. فقط واصل السير.

كان وجه علي ومشيته يخيفان بعض الأطفال الصغار في الحي. لكن المشكلة الحقيقية كانت مع الأطفال الكبار؛ كانوا يطاردونهم في الشارع، ويقلدونه وهو يعرج. ووصل الأمر بالبعض أن يدعوهم «بابالو»، أو «البعبع». كانوا يصيحون:

– هاي، بابالو، مَنْ أكلت اليوم؟

وينطلقون في جوقة من الضحك.

- من أكلت يا بابالو يا صاحب الأنف المفلطح؟

كانوا يسمونه «صاحب الأنف المفلطح» بسبب ملامح الهزاره المنغولية المميزة لحسن وعلي. وكانت تلك، لسنوات، هي كل معلوماتي عن الهزاره: أنهم من نسل المغول، ويشبهون الصينيين بعض الشيء. كانت الكتب المدرسية لا تكاد تأتي على ذكر لهم، ولا تشير لأسلافهم إلا عابراً. وفي أحد الأيام، كنت في مكتب بابا، أفتش في حجياته، فعثرت على أحد كتب التاريخ القديم التي تعود لأمي. كان مؤلفه إيراني يدعى خورامي. نفختُ التراب عنه، وتسلفت به إلى الفراش تلك الليلة، وذُهلّت عندما وجدت فصلاً كاملاً عن تاريخ الهزاره؛ فصلاً كاملاً مخصصاً لقوم حسن! وفيه، قرأت أن قومي، البشتون، قمعوا الهزاره واضطهدوهم. وذكر الكتاب أن الهزاره حاولوا أن يثوروا ضد البشتون في القرن التاسع عشر، لكن البشتون «سحقوهم بعنف يعجز عن وصفه اللسان». وذكر الكتاب أن شعبي قتلوا الهزاره، وطردهم من أراضيهم، وحرقوا بيوتهم، وباعوا نساءهم. وذكر الكتاب أن من بين الأسباب التي دعت البشتون لاضطهاد الهزاره أن البشتون كانوا سُنة، والهزاره شيعة. وذكر الكتاب الكثير من الأمور التي لم أكن أعرفها، أشياء لم يأت على ذكرها المدرسون في المدرسة. ولم يأت على ذكرها بابا أيضاً. كما ذكر أشياء كنت أعرفها بالفعل، من قبيل أن الناس يسمون الهزاره: «الحمير شيالي الأحمال، ذوي الأنوف المفلطحة، أكلة الفئران». كنت قد سمعت بعض الأطفال في الحي يزعمون على حسن بتلك الأسماء.

في الأسبوع التالي، بعد انتهاء الحصة، أطلعتُ مدرسي على الكتاب مشيراً إلى الفصل الخاص بالهزاره. قلبَ صفحتين، ثم غمغم، وأعاد إليّ الكتاب. وقال وهو يللملم أوراقه:

- هذا هو الشيء الوحيد الذي يبرع فيه الشيعة؛ تقديم أنفسهم كشهداء.

تشنَّج أنفه وهو ينطق بكلمة شيعة، كما لو كان مرضًا.

ومع أن صنوبر كانت تنحدر من العرق نفسه وتجري في عروقها الدماء نفسها، فقد كانت تشارك أطفال الحي في معايرة زوجها. وقد سمعت أنها لم تكن تخفي احتقارها لهيئته.

كانت تقول باستهزاء:

- هل هذا زوج؟ لقد رأيت حميرًا عجائز يصلحون أزواجًا أكثر مما يصلح.

في نهاية المطاف، كان معظم الناس يشتبهون في أن تلك الزيجة لم تكن سوى تسوية جرت بين علي وعمه، والد صنوبر. قالوا إن عليًا تزوج من ابنة عمه بغرض استعادة بعض الشرف لاسم عمه الملطَّخ، مع أن عليًا، الذي تيتَّم في الخامسة من عمره، لا يحوز أي ممتلكات أو ميراث ذي شأن.

لم ينتقم علي من أي من المتحرشين به، وأظن أن جزءًا من ذلك يرجع إلى عجزه عن الإمساك بهم بسبب ساقه الملوية التي يجرجرها خلفه. لكن السبب الأهم هو أن عليًا كان مُحَصَّنًا ضد إهانات المعتدين؛ كان قد وجد فرحته، ترياقه الشافي، في اللحظة التي وضعت فيها صنوبر حسنًا. وقد تم الأمر بكل بساطة. فلا طيبب توليد، ولا طيبب تخدير، ولا أجهزة خيالية بشاشات. فقط صنوبر ممددة على مرتبة جرداء مبقعة بصحبة علي وقابلة لتساعدتها. ولم تكن بحاجة إلى قدر كبير من المساعدة على أية حال، لأن حسنًا، حتى عند الولادة، كان مخلصًا لطبعه: لم يكن قادرًا على إيذاء أي شخص. بضع همهمات، ودفعتين، وخرج حسن. خرج مبتسمًا.

وكما أسرَّت القابلة منفلتة اللسان إلى خادمة أحد الجيران، التي أخبرت بدورها كل من كان يعطيها أذنه، فقد ألقت صنوبر نظرة على الطفل بين ذراعي علي، ورأت الشفة المشقوقة، وأطلقت ضحكة مريرة، قائلة:

- ها نحن! الآن أصبح لديك طفل عبيط يمكن أن توكل له مهمة
الابتسام بدلاً منك!

ورفضت حتى أن تحمل حسناً، وبعدها بخمسة أيام فقط، رحلت.

استأجر بابا المرضعة نفسها التي أرضعتني لترعى حسناً. وأخبرنا علي
أنها كانت هزارة زرقاء العينين من «باميان»؛ مدينة بها تماثيل عملاقة لبوذا.
وكان يقول لنا:

- كم كان صوتها عذباً حين تغني.

كنا أنا وحسن نسأله:

- ماذا كانت تغني؟

وذلك، مع أننا كنا نعرف بالفعل - فقد أخبرنا علي مرات لا تُحصى. لكننا
كنا نريد أن نسمع علياً يغني.
كان يتنحنح ويبدأ:

على جبلٍ عالٍ أقف

أصرخ باسم علي، أسد الله

يا علي، يا أسد الله، يا ملك الرجال

أنزل الفرع على قلوبنا الحزينة

ثم يذكرنا بأن ثمة رابطة أخوة بين من يرضعون من الصدر نفسه، رابطة
لا يستطيع حتى الزمن أن يفصم عراها.

أنا وحسن رضعنا من الصدر نفسه. خطونا أولى خطواتنا على العشب
نفسه في الباحة نفسها. وتحت السقف نفسه، نطقنا بأولى كلماتنا.

كانت أولى كلماتي: «بابا».

وكانت أولى كلماته: «أمير». اسمي.

حين أسترجع ذلك الآن، أعتقد أن أساس ما جرى في شتاء ١٩٧٥ -
وكل ما تلاه - يكمن بالفعل في هاتين الكلمتين.

تقول المأثورات إن أبي، ذات مرة، صارع دبًا أسود في بلوشستان بيديه العاريتين. لو كانت القصة عن أي شخص آخر، لرفضت وقيل عنها إنها «لاف»، ضرب من المبالغات التي اعتادها الأفغان - وتمثل ما يشبه بلاء قومياً للأسف؛ فحين يتفاخر أحدهم بابنه الطبيب، فثمة احتمال أن يكون ابنه قد اجتاز اختبار علم الأحياء في المدرسة الثانوية. لكن أحداً لم يشكك قط في مصداقية أي قصة تتعلق بابا. ولو شككوا، لردت عليهم تلك الندوب الثلاث المتوازية التي تخط مساراً متعرجاً على ظهر بابا من أعلى لأسفل. لقد تخيلت مباراة المصارعة التي خاضها بابا مرات لا تحصى، بل وحلمت بها. وفي تلك الأحلام، لا يسعني أن أميز بين بابا والدب.

كان رحيم خان أول من أطلق اللقب الذي صار اسم الشهرة الدائم لبابا، «طوفان أغا». كان اسماً مناسباً له. فقد كان أبي قوة من قوى الطبيعة، نموذجاً عملاقاً للرجل البشتون بلحية كثيفة، وشعر بني مجعد جامع أشعث مثل الرجل نفسه، ويدين تبدوان قادرتين على انتزاع صفصافة من جذورها، ونظرة صارمة «تجعل الشيطان يخز على ركبتيه طالباً الرحمة»، بحسب تعبير رحيم خان. في الحفلات، عندما يرعد بطوله

الذي يزيد على ١٩٠ سنتيمتراً، داخلًا الغرفة، كانت العيون تستدير إليه مثلما يستدير عبّاد الشمس إلى الشمس.

كان من المستحيل تجاهل بابا، حتى في نومه. كنت أحشو أذني بالقطن، وأسحب البطانية على رأسي، لكن أصوات شخير بابا - التي تشبه هدير محرك سيارة - تظل تخترق الجدران. وكانت غرفتي على الجانب الآخر من الردهة في مواجهة غرفة نوم بابا. وما زلت محتارًا حتى الآن كيف كانت أُمي تنام معه في الغرفة نفسها. وهو موضوع ضمن قائمة طويلة من الموضوعات التي كنت سأسأل أُمي عنها لو قابلتها.

في أواخر الستينيات، وأنا في الخامسة أو السادسة من العمر، قرر بابا أن يشيّد دارًا للأيتام. سمعت القصة من رحيم خان. قال لي إن بابا رسم التصميم بنفسه مع أنه لا يتمتع بأي خبرة معمارية على الإطلاق. وقد حثه المتشككون على أن يكف عن حماقته ويستأجر مهندسًا معماريًا. وبالطبع، رفض بابا، وهز الجميع رؤوسهم يأسًا أمام عناده. ثم نجح بابا وهز الجميع رؤوسهم مهابة أمام نجاحه. تكفل بابا بنفقات تشييد دار الأيتام ذات الطابقين، في شارع متفرع من طريق «جاده ميوند» الرئيسي جنوبي نهر كابول، من ماله الخاص. وقال لي رحيم خان إن بابا مَوَّل شخصيًا المشروع بالكامل، فدفع للمهندسين، والكهربائيين، والسباكين، والعمال، ناهيك عن مسؤولي المدينة الذين كانوا «يريدون تزييت شواربهم».

استغرق تشييد دار الأيتام ثلاثة أعوام. وكنت قد أتممت الثامنة حينها. أتذكر اليوم السابق على افتتاح الدار، حين اصططحبني بابا إلى بحيرة «غارغا»، شمالي كابول بيضعة أميال. طلب مني أن أحضر حسناً أيضًا، لكنني كذبت وأخبرته أن حسناً يعاني من إسهال. أردت بابا لي وحدي. ثم إنني وحسناً كنا عند بحيرة «غارغا»، ذات مرة، نرمي الحصى على سطح

الماء، واستطاع حسن أن يجعلها تنط ثماني مرات، أما أكثر ما استطعت أنا إنجازه كان خمس مرات. وكان بابا هناك، يشاهدنا، وربت على ظهر حسن، بل أحاط كتفيه بذراعه.

جلسنا على طاولة على ضفاف البحيرة، أنا وبابا فقط، نتناول البيض المسلوق مع ساندويتشات الكفتة والمخلل، ملفوفة في خبز الـ«نان». كان الماء داكن الزرقة وأشعة الشمس تتلألأ على صفحته التي بدت كسطح زجاجي لامع. في أيام الجمعة، كانت البحيرة تعج عادة بالعائلات التي تخرج لقضاء نهارٍ في الشمس. لكننا كنا في منتصف الأسبوع ولم يكن هناك سواي وبابا، وسائحين بشعر طويل ولحيتين - كنت أسمعهم يسمونهم الـ«هيزز». كانا يجلسان على المرسى، وأقدامهما تتأرجح في المياه، وفي يد كل منهما سنارة. سألت بابا لماذا يطيلون شعرهم، لكن بابا زامٍ ولم يجب. كان يجهز الكلمة التي سيلقيها في اليوم التالي، يتصفح كومة من الأوراق المكتوبة بخط اليد، ويضيف ملاحظة هنا وأخرى هناك بقلم رصاص. قضمتُ بيضتي وسألت بابا إذا كان صحيحًا ما ذكره لي صبيٌّ في المدرسة، أنك إذا أكلت قطعة من قشرة البيض، سيكون عليك أن تتبولها. فزام أبي ثانية.

تناولت قزمة من ساندويتشي. ضحك أحد السائحين ذوي الشعر الأشقر وخبط الآخر على ظهره. من تلك المسافة، وعبر البحيرة، تهادت شاحنة منعطفة حول التل. وتلألأ ضوء الشمس على مرآتها الجانبية.

قلت:

- أعتقد أن عندي سرطانًا.

رفع بابا رأسه من الأوراق التي ترف في النسيم. وقال لي إنه يمكنني إحضار الصودا بنفسِي، فما عليَّ إلا أن أفتح حقيبة السيارة.

خارج دار الأيتام، في اليوم التالي، كان الحضور أكثر عددًا من الكراسي. واضطر الكثيرون لمشاهدة حفل الافتتاح وقوفًا. كان يومًا عاصفًا، وكنت أجلس إلى جوار بابا على المنصة الصغيرة أمام المدخل الرئيسي للمبنى الجديد. كان بابا يرتدي حلة خضراء ويعتمر قبعة من جلد الكاراكول. وفي منتصف الكلمة، أطاحت الريح بقبعته وضحك الجميع. وأشار لي أن أمسك بقبعته، وكنت سعيدًا، لأن هذا سيجعل الجميع يرون أنه أبي أنا، باباي أنا. استدار إلى الميكروفون ثانية وقال إنه يتمنى أن تكون البناية أكثر ثباتًا من قبعته، وضحك الجمع ثانية. وعندما أنهى بابا كلمته، وقف الناس وهتفوا وصفقوا طويلاً. وبعدها، صافحوه، بل جاء بعضهم ليشعّث شعري ويصافحني أنا أيضًا. كنت فخورًا جدًا بابا، بكلينا.

لكن على نجاحات بابا، كان الناس ينظرون له دومًا بعين الشك. قالوا لبابا إنه لم يُخلق للبيزنس وعليه أن يدرس القانون مثل والده. فأثبت بابا خطأهم جميعًا، فلم يكتف بإدارة عمله الخاص، وإنما أصبح أحد أكثر تجار كابول ثراء. إذ أسس بابا ورحيم خان شركة لتصدير السجاد حققت نجاحًا واسع النطاق، وصيدليتين، ومطعمًا.

وعندما استهان الناس ببابا وقالوا إنه لن يحظى أبدًا بزوجة كريمة الأصل - إذ لم تكن تجري في عروقه دماء ملكية، في نهاية المطاف - عقد قرانه على أمي، صوفيا أكرمي، المرأة التي نالت تعليمًا عاليًا وكانت تُعد، على وجه العموم، إحدى أكثر سيدات كابول احترامًا وجمالًا وفضيلة. إذ لم تكن تُدرّس الآداب الفارسية الكلاسيكية في الجامعة فحسب، بل كانت سليلة أسرة ملكية، وهي الحقيقة التي حرص على تأكيدها نكاية في المتشككين حين كان يدعوها «أميرتي».

باستثناء صارخ متمثل في شخصي، كيف أبي العالم من حوله على هواه.

كانت المشكلة، بالطبع، أن بابا كان يرى العالم بالأسود والأبيض. وكان هو من يقرر ما الأسود وما الأبيض. لا يمكنك أن تحب شخصًا يعيش بتلك الطريقة من دون أن تخافه، بل من دون حتى أن تكرهه قليلًا.

عندما كنت في الصف الخامس، كان لدينا مؤلًا يعلمنا الإسلام، اسمه الملا فتح الله خان، كان رجلًا قصيرًا بدينًا، بوجه مليء بندوب حب الشباب وحس غليظ. كان يكلمنا عن فضائل الزكاة وفريضة الحج، وعلمنا تفاصيل أداء الصلوات الخمس، الـ«نماز»، وجعلنا نحفظ آيات من القرآن. وإن لم يترجم لنا الكلمات قط، كان يشدد، أحيانًا بمساعدة فرع صفصاف مشطوف، على ضرورة أن ننطق الكلمات العربية نطقًا سليمًا حتى يسمعنا الله أفضل. وقال لنا يومًا إن الإسلام يعتبر شرب الخمر إثماً رهيبًا، وإن الذين يشربون سوف يُعاقبون على فعلهم يوم القيامة. في تلك الأيام، كان الشراب شائعًا بدرجة ما في كابول. لم يكن أحد ليجلدك علنًا بسببه، لكن الأفغان الذين يشربون كانوا يفعلون ذلك في أماكنهم الخاصة، بداعي الاحترام. كان الناس يشترون الـ«سكوتش» باعتباره «دواء» في كيس ورقي بني اللون من «صيدليات» معينة. وحين يغادرون يخفون الكيس عن الأنظار، مما يجذب أحيانًا نظرات متلصصة ناقمة من جانب أولئك الذين يعرفون سمعة المحل في تلك المعاملات.

كنا في مكتب بابا بالطابق العلوي، غرفة التدخين، عندما أخبرته بما علّمنا إياه الملا فتح الله خان في الفصل. كان بابا يصب لنفسه الويسكي من البار أنشأه في ركن الغرفة. أنصت، هز رأسه، وتناول رشفة من شرابه، ثم غاص في أريكته الجلدية، ووضع المشروب، وأجلسني على حجره. شعرت وكأنني أجلس على جذع شجرة. سحب نفسًا عميقًا ثم زفر من أنفه، واستمر هسيس الهواء يتخلل شاربته لزمّن بدا لي أبديًا. لم أستطع أن أقرر ما إذا كنت أرغب في معانقته أم في القفز من فوق حجره هلعًا.

قال بصوته الغليظ:

- أرى أنك خلطت بين ما تتعلمه في المدرسة وبين التعليم الحقيقي.

- لكن إذا كان ما قاله صحيحًا فهل يجعلك ذلك آثمًا، بابا؟

- هممم.

طحن بابا مكعب ثلج بين أسنانه:

- هل تريد أن تعرف ما يعتقده أبوك عن الإثم؟

- نعم.

- إذن سأخبرك، لكن عليك أن تفهم هذا أولاً، وأن تفهمه الآن يا أمير:

لن تتعلم أي شيء ذي قيمة من هؤلاء البلهاء الملتحين.

- هل تقصد الملا فتح الله خان؟

أشار بابا بكوبه، فطقطق الثلج:

- أقصدهم كلهم. أتبول على لحي كل أولئك القردة مُدَّعي الصلاح.

شرعتُ أقهقهه. كانت صورة بابا وهو يتبول على لحية أي قرد، مُدَّعي

صلاح أو غيره، أكثر مما أحتمل.

- إنهم لا يفعلون شيئًا إلا التسبيح وقراءة كتاب كُتب بلسان لا يفقهونه حتى.

أخذ رشفة.

- وليكن الله في عوننا جميعًا إذا سقطت أفغانستان في أيديهم.

استطعت أن أقول بين نوبات القهقهة:

- لكن الملا فتح الله خان يبدو لطيفًا.

- وكذلك «جنكيز خان». لكن يكفي هذا. لقد سألت عن الإثم وأنا أريد أن أقول لك. هل تنصت؟

قلت:

- نعم.

ثم ضمنتُ شفتيّ، لكن ضحكة خرجت من أنفي محدثة صوتًا كالشخير، فقهقهت ثانية.

حدجني بابا بعينين حجريتين، وعندها توقفتُ عن الضحك.

- أريد أن أتحدث إليك رجلًا لرجل. هل تعتقد أنك تستطيع تحمل ذلك لمرة واحدة؟

همهمتُ، وأنا أتعجب، ليس للمرة الأولى، من مقدرة بابا على إيلامي لهذا الحد باستخدام هذا القدر القليل من الكلمات:

- نعم، بابا جان.

كنا في لحظة طيبة عابرة - لم يكن بابا يتكلم معي كثيرًا، ناهيك عن جلوسي على حجره - وكنت سأصبح أحمق إن ضيَّعت الفرصة.

قال بابا:

- عظيم.

لكن عينيه كانتا حائرتين:

- الآن، أيًا كان ما يعلمك الملا، هناك إثم واحد فقط، واحد فقط، وهو السرقة. كل إثم آخر سرقة من نوع ما. هل تفهم هذا؟

- لا، بابا جان.

قلت لها وكنت أتمنى لو أنني فهمت. إذ لم أكن أريد أن أحبطه ثانية.

تنهد بابا في نفاد صبر، وأوجعني ذلك أيضًا، لأنه لم يكن رجلًا نافذ الصبر. تذكرت كل الأوقات التي ظل فيها خارج المنزل حتى حلول الظلام، كل الأوقات التي تناولت فيها عشاءي وحيدًا. كنت أسأل عليًا أين بابا، ومتى سيرجع، مع أنني كنت أعرف جيدًا أنه في موقع البناء، يتابع هذا، ويشرف على ذلك. ألا تتطلب تلك الأمور صبرًا؟ كنت قد بتُّ أكره بالفعل كل الأطفال الذين يشيد دار الأيتام لأجلهم، وأحيانًا كنت أتمنى لو أنهم ماتوا جميعًا مع آبائهم.

قال بابا:

- عندما تقتل رجلًا، فأنت تسرق حياة، تسرق حق زوجته في أن يكون لها زوج، تسرق من أطفاله أباهم. عندما تكذب، تسرق حق شخص في معرفة الحقيقة. عندما تغش، تسرق الحق في المنافسة الشريفة. هل تفهم؟ فهمت. عندما كان بابا في السادسة، تسلل لص إلى دار جدي في منتصف الليل. وقد تصدى له جدي، وكان قاضيًا محترمًا، لكن اللص طعنه في حلقه، فأرداه قتيلاً على الفور - وسرق من بابا أباه. قبض أهل البلدة على القاتل قبيل ظهر اليوم التالي، وتبين أنه متشرد من منطقة كُندوز. شنقوه على فرع شجرة بلوط قبل ساعتين من صلاة العصر. رحيم خان، وليس بابا، هو من أخبرني بتلك القصة. كنت دائمًا أعرف أشياء عن بابا من الآخرين.

قال بابا:

- ما من فعل أخبث من السرقة يا أمير. الرجل الذي يسطو على ما ليس له، سواء كان حياة أم رغيغ «نان»... أنا أبصق على هذا الرجل. وإن لقيته في طريقي، ليكن الله في عونته. هل تفهم؟

كانت صورة بابا وهو يصرع لصًا مبهجة ومرعبة في آن.

- نعم، بابا.

- إذا كان ثمة إله، فأمل أن تكون لديه مشاغل أهم من كوني أشرب الـ«سكوتش» أو أكل لحم الخنزير. والآن، انزل. كل هذا الكلام عن الإثم جعلني عطشان من جديد.

راقبته وهو يملأ كوبه على البار وتساءلت كم من الوقت سيمر قبل أن نتكلم ثانية بالطريقة التي تكلمنا بها للتو؛ فالحقيقة أنني كنت أشعر طوال الوقت كما لو أن أبي يكرهني قليلاً. ولمَ لا؟ ففي نهاية المطاف، أنا من قتل زوجته الحبيبة، أميرته الجميلة، ألم أفعل؟ وكان أقل ما يمكن أن أفعله هو أن أكون من اللياقة بما يكفي لأكبر شبيهاً به ولو قليلاً، لكنني لم أصبح شبيهه على الإطلاق.

* * *

في المدرسة، كنا نلعب لعبة تسمى «شير جانجي»، أو «معركة القصائد». كان مدرس اللغة الفارسية يدير اللعبة وكانت تسير على النحو التالي: تتلو بيتاً من قصيدة ويكون أمام خصمك ستون ثانية للرد بيت يبدأ بالحرف نفسه الذي انتهيت به. كان كل من في صفّي يريدونني في فريقهم، لأنني عندما بلغت الحادية عشرة، كان بوسعي إلقاء عشرات الأبيات من شعر الخيام، وحافظ، ومن ديوان «المثنوي» الشهير للرومي. ذات مرة، واجهتُ الصف بأكمله وحدي وفُزتُ. وأخبرت بابا ليلتها، لكنه اكتفى بأن أوماً برأسه، وغمغم: «عظيم».

هكذا كنت أهرب من جفاء أبي، في كُتب أمي المتوفاة. فيها وفي حسن بالطبع. قرأت كل شيء، الرومي، حافظ، سعدي، فيكتور هوجو، جول فيرن،

مارك توين، إيان فليمنج. عندما فرغتُ من كتب أمي - ليس كتب التاريخ المملة، فلم تكن تستهويني كثيرًا، وإنما الروايات والملاحم - أخذت أنفق مصروفي على الكتب. كنت أشتري كتابًا كل أسبوع من المكتبة المجاورة لسينما بارك، وبدأت أأخزنها في كراتين عندما امتلأت الأرفف.

بالطبع، الزواج من شاعرة أمرٌ، وأن يكون لك ابن يفضل دفن وجهه في كتب الشعر بدلًا من الصيد... حسنًا، لم يكن ذلك ما حلم به بابا. فالرجال الحقيقيون لا يقرؤون الشعر - وحاشا لله أن يكتبوه! الرجال الحقيقيون - الصبية الحقيقيون - يلعبون الكرة كما كان أبي يلعب عندما كان صغيرًا. وهذا شيء يستحق الولع به. في ١٩٧٠، أخذ بابا استراحة من تشييد دار الأيتام وسافر لقضاء شهر في طهران لمشاهدة مباريات كأس العالم في التلفزيون، ففي ذلك الوقت لم يكن التلفزيون قد دخل أفغانستان بعد. وسجل اسمي في فريق لكرة القدم ليشير فيّ الولع نفسه. لكنني كنت مثيرًا للشفقة، لاعبًا أرعن، ليس أكثر من عبء على الفريق، دائمًا في طريق فرصة تمرير أو أقطع، بشكل غير متعمد، مسارًا مفتوحًا. كنت أتناقل في الملعب على ساقين هزيلتين، أصرخ طالبًا تمريرات لا تأتي. وكلما حاولت أكثر، ملوحيًا بذراعي فوق رأسي كالمسعود وزاعقًا «أنا فاضي! أنا فاضي!» تجاهلوني أكثر. لكن بابا لم يستسلم. فعندما اتضح له بما لا يدع مجالًا للشك أنني لم أرث عنه ولو نذرًا يسيرًا من مواهبه الرياضية، قرر أن يحولني إلى مشجع متحمس. وبالطبع كان بوسعي أن أنجح في هذا، أليس كذلك؟ تظاهرتُ بالاهتمام لأطول وقت ممكن. كنت أהלل معه عندما يسجل فريق كابول في شباك قندهار، وأكيل السباب للحكم عندما يحتسب ضربة جزاء ضد فريقنا. لكن بابا أحس بافتقاري للاهتمام الحقيقي واستسلم للحقيقة المرة: أن ابنه لن يكون أبدًا لاعبًا أو متفرجًا لكرة القدم.

أتذكر أن بابا اصطحبني ذات مرة إلى مسابقة الـ«بُزكشي» السنوية التي كانت تقام في أول أيام الربيع، رأس السنة. كانت الـ«بُزكشي»، وما زالت، اللعبة الوطنية الحماسية في أفغانستان. وفيها يكون على الـ«شبنداز»، وهو فارس لا يُشق له غبار يرعاه عادة أحد المشجعين الأثرياء، أن يخطف جثة عنزة أو ماشية من وسط المعمعة، ثم يحمل تلك الجثة ويدور حول الاستاد بأقصى سرعة، وأن يسقطها في دائرة الهدف، فيما يحاول فريق من الـ«شبنداز» الآخرين مطاردته ويفعلون كل ما بوسعهم - الرفس، الخمش، الضرب بالسوط، اللكم - ليخطفوا الجثة منه. في ذلك النهار كان الجمهور يجأر من الإثارة فيما كان الفرسان في الملعب يصرخون بصيحات المعركة ويتدافعون نحو الجثة وسط سحابة من الغبار. كانت الأرض تتزلزل تحت قرقة الحوافر. وكنا نشاهد من المدرجات العليا فيما كان ركاب الجياد ينهبون الأرض نهبًا، يهتفون ويصرخون، والزبد يتطاير من أشداق جيادهم. وفي لحظة أشار بابا إلى أحدهم:

- أمير، هل ترى ذلك الرجل الذي يجلس هناك مع هؤلاء الرجال الملتفين حوله؟

كنت أراه.

- إنه «هنري كيسنجر».

قلت:

- أوه!

لم أكن أعرف مَنْ هو «هنري كيسنجر»، وكان يمكن أن أسأل. لكن في تلك اللحظة، كنت أتابع في هلع أحد الـ«شبنداز» وهو يسقط عن سرجه

ويُدهس تحت حوافر لا حصر لها. سقط جسده واندفع بين سنايك الخيل
فصار مثل دمية ممزقة، وأخيرًا تدرج حتى سكن عندما تجاوزته المعمة.
اختلج مرة واحدة ثم رقد بلا حراك، ساقاه محنيتان في زاويتين غير طبيعيتين،
وبركة من دمائه تتسرب بين الرمال.

وشرعتُ أبكي.

بكيت طوال طريق العودة إلى البيت. أتذكر كيف كانت يدا أبي تقبضان
على عجلة القيادة. تنقبضان وتنسطان. غالبًا، لن أنسى ما حييت تلك
الجهود المضنية التي بذلها بابا لإخفاء نظرة الاشمئزاز على وجهه وهو
يقود في صمت.

لاحقًا تلك الليلة، وأنا أمر أمام مكتب أبي سمعته يتحدث إلى رحيم خان.
ضغطتُ أذني على الباب المغلق.

كان رحيم خان يقول:

- كن ممتنًا لأنه بصحة جيدة.

- أعرف، أعرف. لكنه طوال الوقت يدفن نفسه في تلك الكتب أو يروح
ويجيء في المنزل كما لو كان تائهاً في حلم ما.

- ثم؟

- لم أكن هكذا!

بدا صوت بابا محبَطًا، وبه شيء من الغضب.

ضحك رحيم خان.

- الأطفال ليسوا كتب تلوين. لا يمكنك أن تملأهم بألوانك المفضلة.

- أقول لك، لم أكن كذلك على الإطلاق، لا أنا ولا أي من الأطفال الذين كبرت معهم.

- تعرف، أحيانًا تبدو لي أكثر من عرفت من الرجال تمحورًا حول الذات. كان رحيم خان الشخص الوحيد الذي أعرفه ويستطيع أن يسلم من قول شيء كهذا لبابا.

- ليس للأمر علاقة بذلك.

- لا؟

- لا.

- بـمَ إذن؟

سمعت جلد مقعد بابا يصصر وهو يعتدل عليه. أغمضت عيني، وضغطت أذني على الباب أكثر، راغبًا في السماع، وراغبًا عن السماع.

- أحيانًا أنظر من هذه النافذة فأراه يلعب في الشارع مع أولاد الحي. أرى كيف يهددونه، ويأخذون منه ألعابه، ويعطونه دفعة هنا وصفعة هناك. ولا يرد أبدًا. أبدًا. فقط... يطأطئ رأسه و...

قال رحيم خان:

- هو إذن ليس عنيفًا.

- ليس ذلك ما أقصده يا رحيم، وأنت تعرف ذلك. هذا الصبي ينقصه شيء ما.

- نعم، لمسة من الخسة.

- ليس للدفاع عن النفس علاقة بالخسة. هل تعرف ما الذي يحدث عندما

يغيظه أطفال الحي؟ يتقدم حسن ويذود عنه. رأيت ذلك بأم عيني. وعندما يرجعان إلى المنزل، أسأله: «ما هذه الخدش في وجه حسن؟» فيقول: «لقد سقط على الأرض». أقول لك يا رحيم، هذا الصبي ينقصه شيء ما.

قال رحيم خان:

- عليك فقط أن تتركه يجد طريقه.

- وإلى أين يتجه؟ الصبي الذي لا يدافع عن نفسه يصبح رجلاً لا يستطيع الدفاع عن أي شيء.

- أنت تُسطّح الأمور كالعادة.

- لا أعتقد!

- أنت غاضب لأنك تخشى ألا يحمل عنك عبء أعمالك في المستقبل.

قال بابا:

- من الذي يُسطّح الأمور الآن؟ انظر، أعرف أنك متعلق به وهو متعلق بك وأنا سعيد بذلك. أشعر بالحسد، لكنني سعيد. وأنا أعني ذلك. إنه بحاجة لشخص... يفهمه، لأنني، يعلم الله، لا أفهمه. لكن ثمة شيء في أمير يربكني بطريقة لا يمكنني التعبير عنها. يبدو الأمر وكأنه...

كان يمكنني أن أراه وهو يفتش عن الكلمات الدقيقة، ويصل إليها. خفّض صوته، لكنني ظللت أسمعه.

- إذا لم أكن قد رأيت الطبيب يسحبه من زوجتي بأم عيني، لما صدقت قطُّ أنه ابني.

* * *

في الصباح التالي، وحسن يعد الإفطار، سألني إذا كان ثمة ما يضايقني.
فزجرته، وقلت له أن يُعنى بشؤونه.
كان رحيم خان مخطئاً في موضوع لمسة الخسة.

في ١٩٣٣، العام الذي وُلد فيه بابا والعام الذي بدأ فيه ظاهر شاه حكمه لأفغانستان الذي استمر أربعين عامًا، جلس أخوان شابان من عائلة ثرية ومحترمة في كابول خلف عجلة قيادة سيارة والدهما الـ«فورد» الرياضية المكشوفة. كانا منتشيين بالحشيش وثمانين بالنبيذ الفرنسي، فصدما رجلًا وزوجته من الهزاره وأردياهما قتيلين على الطريق إلى بغمان. واقتادت الشرطة الشابين اللذين كانا يشعران بقدر من الندم ومعهما الابن اليتيم للزوجين القتيلين ذو الأعوام الخمسة ليقفوا أمام جدي، الذي كان قاضيًا مرموقًا وصاحب سمعة لا غبار عليها. بعد سماع رواية الأخوين وبعد أن طلب والدهما الرحمة، أمر جدي الشابين بالتوجه إلى قندهار على الفور والالتحاق بالجيش لسنة واحدة - مع أن عائلتهما كانت قد استطاعت بشكل ما أن تحصل لهما على إعفاء من التجنيد. جادل والدهما، لكن من دون حماس، وفي النهاية، وافق الجميع على أن العقاب ربما كان قاسيًا لكنه عادل. أما اليتيم، فقد تبناه جدي واصطحبه ليعيش في منزله، وعهد إلى الخدم الآخرين تأديبه، إنما بالرحمة واللين. كان هذا الصبي هو علي. نشأ بابا وعلي معًا رفيقين في اللعب - على الأقل حتى أعاق شلل

الأطفال ساق علي - مثلما نشأت أنا وحسن بعدها بجيل . كان بابا دائماً يحكي لنا عن الشقاوات التي كان يمارسها هو وعلي، وكان علي يهز رأسه ويقول:

- لكن، أغا صاحب، احك لهما من كان الرأس المدير في تلك الشقاوات ومن كان الفاعل المسكين؟

وكان بابا يضحك ويلقي بذراعه حول علي .

لكن بابا لم يُشر في أي من تلك القصص إلى علي بوصفه صديقه .

والغريب أنني بدوري لم أعتقد قط أنني وحسنًا صديقان . ليس بالمعنى الدارج على أية حال . دعك من أننا كنا نعلم نفسينا قيادة الدراجة من دون استخدام اليدين، أو تصنيع كاميرا قادرة على التقاط الصور باستخدام كرتونة . ودعك من أننا كنا نقضي الشتاء بأكمله نُطِير طائرات ورقية، ونعدو خلف طائرات ورقية . ودعك من أن وجه أفغانستان، بالنسبة إليّ، هو وجه صبي ناحل العظام، حليق الرأس، بأذنين منخفضتين، صبي له وجه دميمة صينية تنيره دومًا ابتسامة من شفة أرنبية .

دعك من كل هذا . لأن التاريخ لا يسهل تجاوزه . ولا الدين . في نهاية المطاف، أنا بشتون وهو هزارة، أنا سُني وهو شيعي، وتلك حقيقة لم يكن لأي شيء أن يغيرها، أي شيء .

لكننا كنا طفلين تعلمنا الحبو معًا، وتلك حقيقة أيضًا لا يستطيع التاريخ أو العرق أو المجتمع أو الدين أن يغيرها . لقد قضيت معظم سنواتي الاثنتي عشرة الأولى وأنا ألعب مع حسن . أحيانًا تبدو لي طفولتي بأكملها يومًا صيفيًا طويلًا بطيئًا أقضيه مع حسن، يطارد أحدهما الآخر بين الأشجار المتشابكة في باحة والدي، نلعب الاستغماية، وعسكر وحرامية، ورعاة البقر والهنود، وتعذيب

الحشرات - وكانت أعظم إنجازاتنا في هذا المجال من دون منازع تلك المرة التي انتزعنا فيها الشوكة من نحلة وربطنا خيطاً حول الحشرة المسكينة، يردها إلى موضعها كلما حاولت الطيران.

كنا نطارِد الـ«كوتشي»، البدو الذين يخترقون كابول في طريقهم إلى جبال الشمال. نسمع قوافلهم تقترب من حيناً، وثغاء خرافهم، ومأمة ماعزهم، وجلجلة الأجراس حول أعناق بعيرهم. نعدو إلى الخارج لمراقبة القافلة وهي تتهاذى عبر شوارعنا، رجال بوجوه متربة ترك عليها الطقس آثاره، ونساء في شيلان ملونة طويلة، وعقود، وأساور فضية حول معاصمهن وكواحلهن. نرشق ماعزهم بالحصى. ونرش بغالهم بالمياه. وأجعل حسناً يجلس على «جدار الذرة العلية» ويطلق بنبلته الحصى على مؤخرات الإبل.

شاهدنا أول فيلم من أفلام الغرب معاً، «ريو برافو»، بطولة «جون واين»، في سينما بارك، قبالة مكتبتى المفضلة. أتذكر وأنا أتوسل لبابا أن يصطحبنا إلى إيران لنقابل «جون واين». انفجر بابا في عاصفة من ضحكه المجلجل - صوت لا يختلف عن محرك شاحنة عند رفع سرعة دورانه - وعندما بات بمقدوره أن يتكلم مجدداً، شرح لنا فكرة الأداء الصوتي، ما أصابنا أنا وحسناً بذهول. وشدهنا. «جون واين» لا يتكلم الفارسية حقاً وليس إيرانياً! إنه أمريكي، تماماً مثل الرجال والنساء الودودين طويلي الشعر الذين كنا نراهم يتسكعون في كابول، يرتدون قمصانهم الرثة ذات الألوان الزاهية. شاهدنا «ريو برافو» ثلاث مرات، لكننا شاهدنا فيلمنا المفضل بين أفلام الغرب، «العظماء السبعة»، ثلاث عشرة مرة. وفي كل مرة، كنا نبكي في النهاية عندما يدفن الأطفال المكسيكيون «تشارلز برونسون» - الذي تبين لنا أنه، بدوره، ليس إيرانياً.

كنا نتجول في الأسواق ذات الرائحة العطنة في حي «شهر نو» - أو المدينة

الجديدة - في كابول، غربي ضاحية وزير أكبر خان. نتكلم عن الفيلم الذي شاهدناه للتو أيًا كان، ونمشي وسط الحشود الصاخبة في البازارات. نشق طريقنا بين التجار والمتسولين، نتسكع في الأزقة الضيقة التي تعج بصفوف من دكاكين صغيرة مكدسة بالبضائع. كان بابا يعطي كلاً منا مصروفًا أسبوعيًا قدره عشرة أفغاني وكنا ننفقه على الكوكا كولا الدافئة وآيس كريم ماء الورد المغطى بالفستق المطحون.

في سنوات الدراسة، كان لدينا نظام يومي. ففيما أسحب نفسي من الفراش وأجر جر قدمي متجهًا إلى الحمام، يكون حسن قد اغتسل، وصلى صلاة الصبح مع علي، وأعد إفطاري: شاي ساخن مع ثلاثة مكعبات من السكر وشريحة من الـ«نان» المحمص عليها مربى التوت الحامض، المفضلة لديّ، جميعها موضوعة بترتيب على طاولة الطعام. وفيما أكل وأشكو من فروضي المنزلية، كان حسن يعد فراشي، ويلمع حذائي، ويكوي ملابسي التي سأرتديها في هذا اليوم، ويجمع كتبي وأقلامي. كنت أسمعه يغني لنفسه في الردهة وهو يكوي، يغني أغاني هزازه قديمة بصوته الحاد. ثم نستقل أنا وبابا سيارته الـ«فورد موستانج» السوداء - وهي سيارة كانت تجتذب نظرات الحسد في كل مكان لأنها السيارة التي يقودها «ستيف ماكوين» في «بوليت»، الفيلم الذي ظل يُعرض في سينما واحدة لمدة ستة أشهر. كان حسن يبقى في المنزل ويساعد عليًا في الأشغال اليومية: غسيل الملابس يدويًا ونشرها لتجف في الباحة، كنس الأرضيات، شراء أرغفة الـ«نان» الطازجة من السوق، نقع اللحم للعشاء، ري العشب.

بعد المدرسة نلتقي أنا وحسن، نسحب كتابًا، ونسلق تلاً على شكل قبة يقع شمالي ضيعة أبي في وزير أكبر خان. كانت ثمة مقبرة قديمة مهجورة على قمة التل بها صفوف من شواهد قبور بلا أسماء، تسد

ممراتها تشابكات من الأجمة. وقد أصابت مواسم الأمطار والثلوج بوابتها الحديدية بالصدأ، وخلّفت أسوارها الحجرية البيضاء الواطئة حطامًا. كانت ثمة شجرة رمان قرب مدخل المقبرة. وذات يوم صيفي، استخدمتُ واحدة من سكاكين المطبخ الخاصة بعلي لأنقش اسمينا عليها: «أمير وحسن، سلطانًا كابول». وقد أضفت تلك الكلمات صبغة رسمية على الأمر: الشجرة كانت شجرتنا. بعد المدرسة كنت أنا وحسن نتسلق فروعها ونقطف ثمار الرمان الحمراء بلون الدم. وبعد أن نأكل الثمار ونمسح أيادينا في العشب، أقرأ لحسن.

جالسًا معقود الساقين، وشعاع الشمس وظلال أوراق الرمانة تتراقص على وجهه، كان حسن يتتزع قبضات من العشب من الأرض وأنا أقرأ له قصصًا لم يكن بمقدوره قراءتها بنفسه؛ فشأنه شأن علي ومعظم الهزاره. كان مصير حسن أن يشبَّ أميًا قد تقرر لحظة ولادته، بل ربما في الدقيقة التي زُرعت فيها نطفته في رحم صنوبر غير المضياف - ففي نهاية المطاف، ما حاجة الخادم للقراءة والكتابة؟ لكن على أميته، أو ربما بسببها، كان حسن ينجذب إلى أسرار الكلمات، يغويه عالم سري محرّم عليه. قرأت له الأشعار والقصص، وأحيانًا الفوازير - وإن توقفت عن قراءة الأخيرة عندما رأيته أفضل مني كثيرًا في حلها. وهكذا قرأت له أشياء لا تستلزم تحديدًا، مثل المغامرات التعسة للملا الأهوج نصر الدين وحماره. كنا نجلس بالساعات تحت تلك الشجرة، نجلس حتى تخبو الشمس في الغرب، ونصر على أن الضوء يكفي لقصة أخرى، لفصل آخر.

كان أكثر ما يعجبني في أثناء القراءة لحسن لحظة أن تأتي علينا كلمة كبيرة لا يعرف معناها، فأغيطه، وأفصح جهله. ذات مرة، كنت أقرأ له قصة من قصص الملا نصر الدين حين أوقفني.

- ما معنى هذه الكلمة؟

- أي كلمة؟

- «مأفون».

قلت وأنا أبتسم:

- ألا تعرف معناها؟

- لا، أمير أغا.

- لكنها كلمة شائعة جدًا.

- ومع ذلك، لا أعرف معناها.

حتى لو كان يشعر بنبرة الإغظة القارصة في كلامي، فوجهه المبتسم لا ينم عن ذلك.

قلت:

- كل زملائي في المدرسة يعرفون معناها. لنرى. «مأفون». إنها تعني: ذكي أو نابه. سوف أضعها لك في جملة: «فيما يتعلق بالكلمات، نجد حسنًا مأفونًا».

قال وهو يوميء برأسه:

- آها.

دائمًا ما كنت أشعر بالذنب بعدها. ومن ثمَّ أحاول تعويضه بأن أعطيه واحدًا من قمصاني القديمة أو لعبة مكسورة. كنت أقول لنفسي إن ذلك تعويض كاف على مزحة لا ضير منها.

كان الكتاب المفضل لدى حسن بلا منازع هو الـ «شاهنامه»، ملحمة أبطال الفرس القدماء التي تعود للقرن العاشر. كان يحب كل الفصول، كل الشاهات القدماء، «فريدون» و«زال» و«رودابه». لكن قصته المفضلة، وقصتي أيضًا، كانت «رستم وسهراب»، حكاية المحارب العظيم رستم وجواده الوثاب رخش. حيث يصيب رستم عدوه المقدام بجرح قاتل في المعركة، ليكتشف أن سهراب هو ابنه المفقود منذ زمن طويل. ويصغي رستم الذي يعتصر الحزن قلبه إلى كلمات ابنه المحتضر:

إن كنت أبي حقًا، إذن فقد خَضِبْتَ حِسامَكَ بالدم الحي
لوليدك. وما فعلتَ ذلك إلا بوحى من مكابرتك. فقد أردتُ
أن أدفع بك إلى الحب، وتوسلت إليك أن تكشف لي اسمك،
فقد أردتُ أن أحفظ فيك الذكريات التي روتها أُمي. لكن
توسلي لقلبك راح عبثًا، والآن فات وقت اللقيا...

كان حسن يقول:

- اقرأها لي ثانية من فضلك، أمير أغا.

وأحيانًا كانت عينا حسن تطفران بالدمع وأنا أقرأ له تلك الفقرة، وكنت أتساءل دومًا على مَنْ كان يبكي، على رستم الذي عصف به الحزن فراح يمزق ملابسه ويهيل التراب على رأسه، أم على سهراب المحتضر الذي كان كل ما يتوق إليه هو حب والده؟ شخصيًا، لم أكن أرى المأساة في مصير رستم. ففي نهاية المطاف، أليست الرغبة في قتل الأبناء دفيئة في أعماق قلوب كل الآباء؟

ذات يوم، في يوليو ١٩٧٣، دبَّرتُ ملعوبًا آخر لحسن. كنت أقرأ له، وفجأة بدأت أحيّد عن القصة المكتوبة. كنت أظاهر بأنني أقرأ من الكتاب، فأقلب الصفحات بانتظام، لكنني كنت قد تركت النص تمامًا، واستوليت

على القصة، واختلقت قصتي. كان حسن، بالطبع، غافلاً عن ذلك. بالنسبة إليه، كانت الكلمات على الصفحات خليطاً من الشفرات، مستعصية على التفسير، وغامضة. كانت الكلمات أبواباً سرية أملك أنا كل مفاتيحها. وبعدها سألته إن كانت القصة قد أعجبته، وخرجت قهقهة من حلقي، عندما بدأ حسن في التصفيق.

قلت:

- ماذا تفعل؟

رد وهو يواصل التصفيق:

- تلك أفضل قصة قرأتها لي منذ فترة طويلة.

ضحكتُ:

- حقاً؟

- حقاً.

غمغمتُ:

- أمر مذهل!

وكنت أعني ذلك. كان ذلك... غير متوقع على الإطلاق.

- هل أنت متأكد يا حسن؟

كان ما زال يصفق.

- عظيمة، أمير أغا. هل تقرأ لي مزيداً منها غداً؟

- مذهل!

قلتها ثانية وأنا محبوس الأنفاس، أشعر مثل رجل يكتشف كنزًا دفينًا في
باحته الخلفية. وفيما كنا ننزل التل، كانت الأفكار تتفجر في رأسي مثل ألعاب
نارية في حقول شمن. (لقد قال «أفضل قصة قرأتها لي منذ فترة طويلة». لقد
قرأت له كثيرًا من القصص.) كان حسن يسألني عن شيء ما.

قلت:

— ماذا؟

— ما معنى تلك الكلمة: «مذهل»؟

ضحكتُ. ضممته في عناق ووضعت قبلة على خده.

جفل واحمر خداه وقال:

— علامَ كان هذا؟

دفعته بودّ، وابتسمت قائلاً:

— أنت أمير يا حسن. أنت أمير وأنا أحبك.

في الليلة نفسها، كتبت أولى قصصي القصيرة. استغرقت ثلاثين دقيقة.
كانت حكاية قصيرة كئيبة عن رجل عثر على كأس سحرية وعرف أنه إذا
بكى داخل الكأس، فإن دموعه تتحول إلى لآلئ. لكن مع أنه ظل فقيرًا
طيلة حياته، فقد كان سعيدًا، ونادرًا ما كان يذرف الدمع. لذا بدأ يبحث عن
وسائل للحزن حتى يبكي فتجعله دموعه ثريًا. وفيما كانت اللآلئ تتراكم،
كان طمعه يزداد. وتنتهي القصة بالرجل وهو يجلس على جبل من اللآلئ،
يمسك سكينًا بيده، ويبكي في الكأس بلا انقطاع وجثمان زوجته الحبيبة
مذبوح بين ذراعيه.

في تلك الليلة، ارتقيت السلم ودخلت غرفة تدخين بابا، وفي يدي الورقتان اللتان كتبت عليهما القصة. كان بابا ورحيم خان يدخان الغليون ويرشفان البراندي عندما دخلت.

قال بابا وهو يغوص في أريكته ويشبك يديه خلف رأسه:
- ما الأمر يا أمير؟

كان الدخان يدوم حول وجهه. وقد أصابتني نظرتة بجفاف في حلقي. تنحنحت وقلت له إنني كتبت قصة.

أوما أبي وابتسم ابتسامة خفيفة لم تنم إلا عن اهتمام متصنع. قال:
- طيب، هذا عظيم، أليس كذلك؟

ولم يزد حرفاً. فقط نظر إليّ عبر سحابة من الدخان.

ربما وقفت هناك أقل من دقيقة، لكن، في هذا اليوم، بدت تلك واحدة من أطول دقائق حياتي. كانت الثواني تتهادى، يفصل بين الثانية والأخرى دهر. وبات الهواء ثقيلاً، ورطباً، مُصمّماً تقريباً. كنت أتنفس بصعوبة. وواصل بابا التحديق بوجهي، ولم يطلب أن يقرأها.

وكالمعتاد، أنقذني رحيم خان. إذ مد إليّ يده ومنحني ابتسامة لا شيء فيها مصنوع:

- هل يمكنك أن تعطيني إياها، أمير جان؟ يسعدني كثيراً أن أقرأها.

لم يكن بابا يستخدم اللفظة الحميمة «جان» لمخاطبتي إلا فيما ندر.

هز بابا كتفيه وقام واقفاً. بدت عليه الراحة، كما لو كان رحيم خان قد أنقذه هو الآخر.

- نعم، أعطها لـ «كاكا» رحيم. سأصعد إلى للطابق العلوي للاستعداد.
وعلى إثر ذلك، غادر الغرفة. كنت أحب بابا، في أغلب الأوقات،
لدرجة العبادة، أما في تلك اللحظة، فقد تمنيت لو أفتح أوردتي وأصفي
دماءه الملعونة من جسدي.

بعد ساعة، فيما كانت العتمة تتسلل إلى سماء الليل، استقلا سيارة أبي
وتوجها لحضور إحدى الحفلات. وفي طريقه للخارج، جلس رحيم خان
على ركبته قبالي وناولني قصتي وورقة مطوية أخرى. لمع وجهه بابتسامة،
وغمز لي:

- هذه لك. اقرأها لاحقًا.

ثم صمت وأضاف كلمة واحدة شجعتني على مواصلة الكتابة أكثر من
أي إطراء قاله لي أي محرر فيما بعد. كانت تلك الكلمة: «برافو».

بعد أن غادرا، جلستُ على فراشي وتمنيت لو كان رحيم خان أبي. ثم
فكرت في بابا وصدره الكبير الرائع والإحساس الطيب الذي يملكني حين
يضميني إليه، ورائحة كولونيا «بروت» التي تفوح منه في الصباح، وكيف
تدغدغ لحيته وجهي. اجتاحني ذلك الشعور المفاجئ بالذنب فاندفعتُ
إلى الحمام وتقيأت في الحوض.

لاحقًا في تلك الليلة، وأنا قابع في الفراش، قرأت ملاحظة رحيم خان
مرة بعد مرة. وكانت تلك كلماته:

أمير جان،

لقد استمتعت كثيرًا جدًا بقصتك، ما شاء الله، لقد منحك الله
موهبة خاصة. ومن واجبك الآن أن تشحذ تلك الموهبة، لأن
الإنسان الذي يضيع مواهب منحها له الله ليس إلا حمارًا. لقد

كتببت قصتك الأولى بلغة سليمة وأسلوب شيق. لكن الأكثر إثارة في قصتك احتواؤها على مفارقة. ربما لا تعرف حتى معنى الكلمة. لكنك سوف تعرف يومًا ما. إنها شيء يسعى إليه بعض الكتاب طوال حياتهم المهنية ولا يصلون إليه أبدًا. وقد حققتها أنت في قصتك الأولى.

بابي مفتوح لك وسيكون دومًا مفتوحًا لك يا أمير جان. وسوف أسمع أي قصة تريد أن تقصها عليّ. برفو.

صديقك رحيم

وكأنما كانت ملاحظة رحيم خان طوق النجاة، أمسكتُ بالقصة وأسهرت نازلاً إلى الردهة حيث كان علي وحسن نائمين على مرتبة. كانت تلك أول مرة ينامان فيها في المنزل، إذ كُلف علي برعايتي في غياب أبي. هزرتُ حسنًا لأوقظه وسألته إذا ما كان يرغب في سماع قصة.

فرك عينيه المسدودتين بالنعاس وتمطّى:

- الآن؟ كم الساعة الآن؟

قلت هامسًا كي لا أوقظ عليًا:

- لا تهتم بالساعة. هذه القصة ليست كأي قصة. لقد كتبتها بنفسني.

أشرق وجه حسن.

قال وهو يسحب عنه البطانية:

- إذن يجب أن أسمعها.

قرأتها له في غرفة المعيشة إلى جوار المدفأة الرخامية. لم أمارحه تلك المرة وأحيد عن الكلمات؛ كان الأمر يخصني! كان حسن الجمهور المثالي من أوجه كثيرة، فهو ينغمس بالكامل في الحكاية، وتتحول تعبيرات وجهه

مع تغير النغمات في القصة. عندما قرأت الجملة الأخيرة، صفق تصفيقاً صامتاً بيديه.

قال ببشاشة:

- ما شاء الله، أمير أغا. برافو!

قلتُ وأنا أذوق للمرة الثانية - وكم كان المذاق حُلواً - ثاني رأي إيجابي:

- هل أحببتها؟

قال حسن:

- يوماً ما، إن شاء الله، سوف تصبح كاتباً عظيماً، ويقرأ الناس قصصك في العالم كله.

قلت وقد أحبته لذلك:

- أنت تبالغ يا حسن.

أصر قائلاً:

- لا. سوف تصبح عظيماً ومشهوراً.

ثم توقف، كما لو كان على وشك إضافة شيء. وزن كلماته وتنحنح، ثم قال بخجل:

- لكن أسمح لي بأن أسأل سؤالاً حول القصة؟

- طبعاً.

قال:

- طيب.

ثم صمت.

قلت:

- أخبرني يا حسن.

وابتسمتُ، مع أن الكاتب الذي لا يشعر بالأمان في داخلي بات، فجأة، غير واثق من رغبته في السماع.

قال:

- طيب. إذن كان لي أن أسأل: لماذا قتل الرجل زوجته؟ الحقيقة، لماذا كان يجب عليه أصلاً أن يشعر بالحزن كي يذرف الدموع؟ ألم يكن يمكنه أن يشم بصلة وحسب؟

بُهِتُ. تلك النقطة تحديداً، وكان من الواضح أنها غباء محض، لم تخطر على بالي. حركت شفتي بلا صوت. وبدأ أنه في الليلة نفسها التي تعلمتُ فيها أحد أهداف الكتابة، «المفارقة»، تعرفت أيضاً على إحدى فخاخها، «ثغرة الحكمة». علّمها لي حسن من بين كل الناس. حسن الذي لم يكن يعرف القراءة ولم يكتب كلمة واحدة طيلة حياته. وفجأة، همس في أذني صوت بارد ومظلم: ماذا يعرف هو، هذا الهزاره الجاهل، هذا الذي لن يصبح شيئاً أكثر من طبّاخ؟ كيف يجرؤ على انتقادك؟

«حسنًا»، بدأتُ أتكلم، لكنني لم أتم جملة قط. لأن أفغانستان تغيرت، فجأة، إلى الأبد.

هدر شيء كالرعد. ارتجّت الأرض قليلاً وسمعنا طلقات نارية «راتات تات تات».
هتف حسن:
- أبي!

هبنا على أقدامنا وركضنا خارجين من غرفة المعيشة. وجدنا علياً يعرج
كالسعران عبر الردهة.
صرخ حسن:

- أبي! ما هذا الصوت؟
مد يديه تجاه علي، فأحاطنا علي بذراعيه. وبرق نورٌ أبيض، أنار السماء
بالفضي. ثم برق ثانية، وأعقبته وصلة من الطلقات النارية.
قال علي بصوت أجش:

- إنهم يصطادون البط. إنهم يصطادون البط بالليل، تعرفان. لا تخافا.
دوّت صفارة إنذار عن بعد. وتهشم زجاج في مكان ما وصرخ شخص ما.
سمعتُ الناس في الشارع، وقد فزعوا من نومهم وهم لا يزالون في بيعاماتهم

على الأرجح، بشعر مهوَّش وعيون منتفخة. كان حسن يبكي. فجذبه علي واحتضنه برقة. لاحقًا، أقول لنفسي إنني لم أشعر بالحسد تجاه حسن، على الإطلاق.

بقينا قابعين هكذا حتى ساعات الصباح الأولى. استمرت الطلقات والانفجارات أقل من ساعة، لكنها أخافتنا حد الرعب، لأن أيًا منا لم يسمع طلقات نار في الشوارع من قبل. وهكذا، كانت أصواتًا غريبة بالنسبة إلينا. إذ لم يكن قد وُلد بعدُ ذلك الجيل من الأطفال الأفغان الذين لن تعرف آذانهم شيئًا سوى أصوات القنابل والنيران. قبعنا في غرفة الطعام في انتظار شروق الشمس، غير مدركين أن ثمة أسلوب حياة قد انتهى. أسلوبنا نحن في الحياة. إن لم يكن الآن، فقد كانت، على الأقل، بداية النهاية. حيث ستأتي النهاية، النهاية الرسمية، في إبريل ١٩٧٨ مع انقلاب الشيوعيين، ثم في ديسمبر ١٩٧٩، مع اجتياح الدبابات الروسية الشوارع ذاتها التي كنا نلعب فيها أنا وحسن، جالبة معها الموت لأفغانستان التي أعرفها، ومعلنة بداية عصر سفك الدماء الذي لم ينتهِ إلى الآن.

قبل شروق الشمس، تهادت سيارة بابا في المدخل. أغلق بابهُ بعنف وتعالى وقع خطواته وهو يعدو على السلم. ثم ظهر لنا في الباب ورأيت شيئًا على وجهه، شيئًا لم أتبينه على الفور لأنني لم أراه قطُّ من قبل: الخوف. هتف وهو يجري نحونا، فاتحًا ذراعيه تمامًا:

-أمير! حسن! أغلقوا كل الطرق والهاتف لا يعمل. لقد كنت غاية في القلق! تركناه يحيطنا بذراعيه وشعرتُ، في لحظة جنون خاطفة، بالسعادة لما حدث تلك الليلة أيًا ما كان.

* * *

لم يكن إطلاق النار يستهدف البط، بل تبين أنه لم يستهدف أحدًا في تلك الليلة، ليلة ١٧ يوليو ١٩٧٣ واستيقظت كابول في الصباح التالي لتجد أن الملكية أصبحت من الماضي. كان الملك ظاهر شاه في إيطاليا. وفي غيابه أنهى ابن عمه داود خان حكمه الذي استمر أربعين عامًا بانقلاب غير دموي.

أتذكرني وحسنًا منكمشين في الصباح التالي خارج مكتب أبي، فيما يرتشف بابا ورحيم خان الشاي وينصتان إلى الأخبار العاجلة للانقلاب في راديو كابول.

همس حسن:

- أمير أغا؟

- ماذا؟

- ما معنى «الجمهورية»؟

هزرت كتفي:

- لا أعرف.

في راديو بابا، كانوا يقولون تلك الكلمة، «الجمهورية»، ويكررونها مرة بعد مرة.

- أمير أغا؟

- ماذا؟

- هل تعني «الجمهورية» أنني وأبي سيكون علينا أن نغادر؟

رددت هامسًا:

- لا أظن.

فكّر حسن في الأمر.

- أمير أغا؟

- ماذا؟

- لا أريدكم أن يرسلوني أنا وأبي بعيدًا!

ابتسمت.

- «بَسْ»، يا حمار. لن يرسلكما أحد بعيدًا.

- أمير أغا؟

- ماذا؟

- هل تريد أن نذهب لتسلق شجرتنا؟

اتَّسَعَتْ ابتسامتي. كانت تلك مزية أخرى في حسن؛ يعرف دائمًا متى يقول الشيء المناسب - كانت الأخبار في الراديو قد أصبحت مملة. ذهب حسن إلى كوخه ليستعد، وعدوت أنا إلى الطابق العلوي لأسحب كتابًا. ثم ذهبتُ إلى المطبخ، وحشوتُ جيوبي بحفنات من حبات الصنوبر، وعدوت إلى الخارج لأجد حسنًا في انتظاري. اندفعنا عبر البوابة الأمامية وانطلقنا باتجاه التل.

عبرنا الشارع السكني وشرعنا في اجتياز رقعة قاحلة من الأرض الجافة تُفضي إلى التل عندما فوجئنا بحجر يضرب حسنًا في ظهره. التففنا وسقط قلبي. كان آصف واثنان من أصدقائه، والي وكمال، يقتربون منا.

كان آصف ابن أحد أصدقاء أبي، محمود، الذي يعمل طيارًا. وكانت

أسرته تعيش على بعد بضعة شوارع جنوبي منزلنا، في مجمّع سكني راقٍ له أسوار عالية تنتصب فيه أشجار النخيل. إذا كنت طفلاً تعيش في ضاحية وزير أكبر خان، فأنت تعرف آصف وقبضته المشهورة المصنوعة من النحاس المقاوم للصدأ، وسيكون من حسن طالعك ألا تكون قد جربتها شخصياً. كان آصف، الذي وُلد لأم ألمانية وأب أفغاني، صاحب الشعر الأشقر والعينين الزرقاوين، أطول كثيراً من بقية الأطفال. وكانت سُمعته بأنه متوحش، وقد استحقها عن جدارة، تسبقه في الشوارع. كان يمشي في الحي بين صديقيه المطيعين مثل جنكيز خان وهو يذرع أرضه بصحبة حاشيته التي تتمنى رضاه. كانت كلمته قانوناً، وإذا أردتَ قدرًا من المعرفة القانونية، فإن تلك القبضة النحاسية تتكفل بتعليمك. لقد رأيتَه يستخدم تلك القبضة على طفل من حي «كارته جهار». ولن أنسى ما حييت كيف كانت عينا آصف، الزرقاوان، تلمعان في جنون، وكيف كان يتسم، كيف كان يتسم، وهو يوسع الطفل المسكين ضرباً ويفقده الوعي. كان بعض الصبية في وزير أكبر خان قد أطلقوا عليه آصف «جوشخاور»، أو آصف «آكل الأذان». بالطبع، لم يكن أحد منهم يجرؤ على النطق بتلك الكلمة في وجهه إلا لو كان يريد أن يحل به نفس المصير الذي حل بالطفل المسكين الذي ألّمح بحماقة لهذا الاسم ذات مرة عندما تعارك مع آصف على طائرة ورقية فانتهى به الأمر وهو يصطاد أذنه اليمنى من قناة موحلة. بعدها بسنوات، عرفتُ كلمة إنجليزية تصف آصف، كلمة لا يوجد لها مقابل جيد بالفارسية: «سوسيوباتي» أو الكاره للمجتمع.

كان كثير من صبيان الحي ينگلون بعلي، لكن آصف كان أكثرهم قسوة. وهو، في واقع الأمر، من ابتكر لقب «بابالو» للاستهزاء به.

- هاي، بابالو، من أكلت اليوم؟ هه؟ تعال يا بابالو ابتسم لنا!

وفي الأيام التي كان يشعر فيها بالإلهام، كان يُتَبَّل سخافته قليلاً:

- هاي، أيها البابالو ذو الأنف المفلطح، من أكلت اليوم؟ قل لنا أيها الحمار ذو العيون المائلة!

الآن، كان يخطو باتجاهنا، يده في وسطه، وحذاؤه يركل التراب.

صاح آصف وهو يشير إلينا:

- صباح الخير يا «كونيس»!

«يا شاذ»، كانت تلك شتيمة أخرى من شتائم المفضلة. تراجع حسن خلفي فيما كان الصبية الثلاثة الأكبر سنًا يقتربون. وقفوا أمامنا، ثلاثة صبية طوال يرتدون الجينز وتيشيرتات. عقد آصف ساعديه الغليظتين على صدره وهو يطل علينا جميعًا من عليائه، ولاح على شفثيه طيف ابتسامة وحشية. لم تكن المرة الأولى التي يخطر لي فيها أن آصف ليس عاقلًا تمامًا. وفكرت أيضًا كم أنني محظوظ لأن بابا هو أبي، وهو السبب الوحيد، في ظني، الذي جعل آصف يمتنع عن التحرش بي بما يتجاوز الحد.

أشار بذقنه إلى حسن وقال:

- هاي، يا صاحب الأنف المفلطح. كيف حال البابالو؟

لم يرد حسن وتراجع خطوة أخرى خلفي.

قال آصف، من دون أن تتراجع ابتسامته:

- هل سمعتم الأخبار يا صبيان؟ لقد رحل الملك. في داهية! فليحيا

الرئيس! أبي يعرف داود خان، هل تعرف ذلك يا أمير؟

قلتُ:

- وأبي أيضًا.

في الحقيقة لم يكن لديّ أي فكرة إذا كان ذلك صحيحًا أم لا.
قلّدتني آصف بصوت أشبه بالزقزقة:

- وأبي أيضًا.

قهقه كمال ووالي معًا، وتمنيت لو أن بابا هنا.

واصل آصف:

- طيب، داود خان تعشّى في منزلنا العام الماضي. ما رأيك يا أمير؟

تساءلتُ هل سيسمع أحد صراخنا لو صرخنا في تلك البقعة النائية من الأرض. كانت دار بابا تبعد نحو كيلو متر، وتمنيت لو بقينا في المنزل.

قال آصف:

- هل تعرف ماذا سأقول لداود خان عندما يأتي إلى منزلنا لتناول العشاء المرة القادمة؟ سوف أدرّش معه قليلًا، رجلًا لرجل، «مرد» لـ«مرد»، وأقول له ما قلته لأمي. عن هتلر. كان هناك قائد. قائد عظيم. رجل صاحب رؤية. سوف أقول لداود خان أن يتذكر أنهم لو تركوا هتلر ينهي ما بدأه، لكان العالم مكانًا أفضل الآن.

- بابا يقول إن هتلر كان مجنونًا، وقد أمر بقتل كثير من الأبرياء.

سمعت نفسي أقول هذا قبل أن أتمكن من وضع يدي على فمي.

غمغم آصف:

- يتكلم مثل أمي، وهي ألمانية؛ كان عليها أن تفهم أفضل. هذا ما يريدون هم أن تصدّقه، أليس كذلك؟ لا يريدونك أن تعرف الحقيقة.

لم أعرف من «هم» الذين يتكلم عنهم، أو أي حقيقة كانوا يخفونها، ولم أرغب في أن أعرف. تمنيت لو لم أقل شيئًا. تمنيت مرة أخرى لو أنظر لأجد بابا يأتي صاعدًا التل.

قال آصف:

- لكن عليك أن تقرأ الكتب التي لا يعطونك إياها في المدرسة. أنا قرأت. وفتحت عيناى. الآن أصبحت عندي رؤية، وسوف أعرضها على رئيسنا الجديد. أتعرف ما هي؟

هزرتُ رأسي. ولكنه كان سيخبرني بأية حال؛ آصف يجيب دائمًا عن أسئلته. انتقلت عيناه الزرقاوان إلى حسن:

- أفغانستان أرض البشتون. كانت كذلك دومًا، وستظل كذلك دومًا. نحن الأفغان الحقيقيون، الأفغان الأنقياء، لا صاحب الأنف المفلطح هذا. إن قومه يلوثون وطننا. يوسخون دماءنا.

أشاح يديه في قوة وكأنه يكنس شيئًا.

- أقول إن أفغانستان للبشتون. تلك رؤيتي.

عاد آصف بنظره إليّ. بدا كأنه شخص صحا من حلم جميل. قال:

- فات أوان هتلى. لكن أواننا لم يفت.

دس يده في جيب بنطاله الخلفي وسحب شيئًا.

- سوف أطلب من الرئيس أن يفعل شيئًا لم يكن لدى الملك القوة لفعله.

أن يخلص أفغانستان من كل الهزاره الـ«كثيف»، الأوساخ.

قلت:

- دعنا نمضِ يا آصف. نحن لا نضايقك.

وكرهتُ الرعشة في صوتي.

رد آصف:

- أوه! أنتما تضايقانني.

ورأيت، وقلبي يغوص بين ضلوعي، ما أخرجه من جيبه. طبعًا. كانت قبضته النحاسية المقاومة للصدأ تتلألأ في الشمس.

- أنتما تضايقانني كثيرًا جدًّا. الواقع أنك تضايقني أكثر من هذا الهزاره. كيف تتكلم معه، وتلعب معه، وتتركه يلمسك؟

كان صوته يقطر بالاشمئزاز. هزَّ والي وكمال رأسيهما وزاما مؤمنين. ضيقَ آصف عينيه، وهز رأسه. وعندما تكلم ثانية بدا صوته غريبًا كهيشته:

- كيف يمكنك أن تسميه «صديقك»؟

كدت أصرخ: «لكنه ليس صديقي! إنه خادمي!» هل كنت أعتقد ذلك حقًّا؟ بالطبع لا. لا. كنت أعامل حسنًا جيدًا، تمامًا مثل صديق، بل أفضل، كأخ. ولكن إذا كان الأمر كذلك، فلماذا عندما كان أصدقاء بابا يأتون لزيارتنا بصحبة أطفالهم، لم أدعُه قطُّ لمشاركتنا في اللعب؟ لماذا كنت ألعب مع حسن فقط عندما لا يكون ثمة أطفال آخرون؟

وضع آصف القبضة النحاسية في أصابعه. وحدجني بنظرة ثلجية.

- أنت جزء من المشكلة يا أمير. إذا لم يأوِ البلهاء أمثالك وأمثال والدك هؤلاء القوم، لكنا قد تخلصنا منهم الآن. لكانوا يتعفنون الآن في «هزاره جات» حيث ينتمون. أنت عار على أفغانستان.

نظرت في عينيه المجنونتين فأدركت أنه يعني ما يقول. إنه ينوي حقاً أن يؤذيني. رفع آصف قبضته واتجه نحوي.

سمعتُ حركة سريعة مضطربة من خلفي. ومن زاوية عيني رأيت حسناً ينحني ويتصبب بسرعة. وتحولت عينا آصف نحو شيء خلفي ثم اتسعتا من المفاجأة. ورأيت النظرة المندهشة نفسها على وجهي كمال ووالي اللذين كانا يريان بدورهما ما يجري خلفي.

استدرتُ فوجدتني وجهًا لوجه مع نبلة حسن. كان حسن قد شدَّ الشريط المرن العريض إلى أقصاه إلى الخلف. وفي القوس كان حجر بحجم الجوزة. كان حسن يوجه النبلة مباشرة لوجه آصف. وكانت يده ترتعش من شد الشريط المرن وقطرات من العرق تنضح على جبينه.

قال حسن بصوت هادئ:

- من فضلك اتركنا لحالنا، أغا.

أشار إلى آصف بقوله «أغا»، ووجدتني أتساءل لو هلة كيف يعيش المرء بذلك الإحساس الراسخ بموقعه في الهرم الاجتماعي.

صرَّ آصف على أسنانه.

- ضعها جانباً أيها الهزاره عديم الأم.

قال حسن:

- من فضلك اتركنا لحالنا، أغا.

ابتسم آصف.

- ربما لا تلاحظ، لكننا ثلاثة وأنتما اثنان.

هز حسن كتفيه. لو رآه غريب لما أدرك أنه خائف. لكن وجه حسن كان أول ذكرياتي، وأعرف جيدًا أدق انفعالاته، أعرف كل خلجة وكل رعشة تموج على صفحته. وأدركت أنه كان مرعوبًا. كان مرعوبًا جدًا.

- أنت صبح، أغا. لكن ربما لم تلاحظ أنني أنا الممسك بالنبلّة. إذا قمت بأي حركة سيكون عليهم أن يغيروا اسمك من آصف «آكل الآذان» إلى «آصف الأعور»، لأن هذا الحجر مصوّب إلى عينك اليسرى.

قال ذلك بهدوء حتى إنني أرهفت السمع كي أتلمس الخوف الذي كنت أعرف أنه يختبئ وراء الصوت الهادئ.

ارتجف فم آصف. وتابع والي وكمال ذلك الحوار بما يشبه الانبهار. لقد تحدى شخصٌ معبودهما. أذله. والأسوأ من ذلك، أن هذا «الشخص» هزازه هزيل. نقل آصف نظرتيه بين الحجر وحسن. وأمعن في وجه حسن. ولا بد أن ما وجدته فيه أقنعه بجدية نوايا حسن، لأنه أنزل قبضته.

قال آصف بجدية:

- عليك أن تعرف شيئًا عني أيها الهزازه. أنا شخص صبور جدًا. لن ينتهي هذا الأمر اليوم. صدقني.

ثم التفت إليّ:

- لم ينتهِ الأمر بالنسبة إليك أيضًا يا أمير. يومًا ما، سأجعلك تواجهني رجلًا لرجل.

تراجع آصف خطوة، فتراجع تابعا.

قال:

- لقد ارتكب خادمك الهزاره خطأ فادحاً اليوم يا أمير!

ثم استداروا مبتعدين. تابعتهم وهم ينزلون التل ويختفون خلف جدار. كان حسن يحاول أن يربط النبلة حول وسطه بيدين مرتعشتين. كان فمه ملوياً لأعلى فيما يُفترض أنه ابتسامة طمأنة. وتطلب الأمر خمس محاولات كي يربط بنطاله. لم يقل أيّ من أي شيء ونحن نسير باتجاه البيت مرتعدين، وعند كل ناصية، كنا نشعر أن آصف وصديقيه ينصبون لنا فخاً. لكنهم لم يفعلوا وكان المفترض أن يهدئ ذلك من روعنا قليلاً. لكننا لم نهدأ. على الإطلاق.

* * *

لسنين تلت، ظلت كلمات «التنمية الاقتصادية» و«الإصلاح» تتراقص على كثير من الشفاه في كابول. لقد سقطت الملكية الدستورية، واستُبدلت بالجمهورية، يقودها رئيس الجمهورية. لبعض الوقت، اجتاح البلاد شعور بعودة الفتوة والعزيمة. كان الناس يتحدثون عن حقوق الإنسان والتكنولوجيا الحديثة.

وفي أغلب تلك الفترة، حتى وزعيمٌ جديدٌ يعيش في أرج - القصر الملكي في كابول - سارت الحياة كما كانت من قبل. كان الناس يذهبون إلى أشغالهم من السبت إلى الخميس، ويجتمعون يوم الجمعة في المتنزهات، وعلى ضفاف بحيرة غارغا، وفي حدائق بغمان. وكانت الحافلات والشاحنات متعددة الألوان المحتشدة بالركاب تتدفق في شوارع كابول الضيقة، تسبقها الصيحات المتواصلة لمساعدى السائقين الذين يجلسون منفرجي السيقان على الأبواب الواطئة لصناديق الشاحنات، ويصرخون في السائق بالاتجاهات بلكتهم الكابولية الغليظة. وفي عيد الفطر، يرتدي

الكابوليون ملابسهم الجديدة ويزورون أقاربهم. يتبادل الناس العناق والقبلات، ويحيون بعضهم بعبارة «عيد مبارك». ويفتح الأطفال الهدايا ويلعبون بالبيض المسلوق الملون.

ذات يوم، في مستهل الشتاء التالي عام ١٩٧٤، كنت ألعب مع حسن في الباحة، بنني قلعة من الثلج، عندما ناداه علي وطلب منه أن يدخل الدار.
- حسن، أغا صاحب يريد أن يتكلم معك!

كان يقف قرب الباب الأمامي، برداء أبيض، ويداه مدسوستان تحت إبطيه، ينفخ البخار من فمه مع أنفاسه.

تبادلنا الابتسام أنا وحسن. لقد ظللنا في انتظار تلك الدعوة طيلة اليوم:
كان عيد ميلاد حسن. قال حسن:

- ما الهدية يا أبي، هل تعرف؟ هلا أخبرتنا؟

كانت عيناه مشرقتين.

هزّ علي كتفيه قائلاً:

- أغا صاحب لم يقل لي.

ألححتُ عليه:

- هيا يا علي، أخبرنا. هل هو كتاب رسم؟ ربما مسدس جديد؟

مثل حسن، لم يكن علي قادرًا على الكذب. كل عام كان يتظاهر بأنه لا يعرف ماذا اشترى بابا لحسن أو لي في أعياد ميلادنا. وكل سنة، كانت عيناه تفضحانه فنخدعه بمعسول الكلام. مع ذلك، بدا أنه يقول الحق تلك المرة.
لم يفوت بابا عيد ميلاد حسن قط. في البداية، كان يسأل حسنًا عما يريده،

لكنه كفَّ عن ذلك، إذ كان حسن دائماً أكثر حياءً من أن يطلب هدية. وهكذا، أصبح أبي يختار شيئاً بنفسه كل شتاء. اشترى له عربة يابانية لعبة في أحد الأعوام، وقطاراً كهربائياً بقضبان في عام آخر. والعام الماضي، فاجأ بابا حسناً بقبعة رعاة بقر تشبه قبعة «كلينت إيستوود» في فيلم «الطيب والشرس والقييح»، الذي حل محل «العظماء السبعة» كأفضل أفلام الغرب بالنسبة إلينا. وطيلة ذاك الشتاء ظللنا أنا وحسن نتبادل ارتداء القبعة، وندندن بأعلى صوتنا موسيقى الفيلم الشهيرة ونحن نتسلق أكوام الثلج ونطلق الرصاص بعضنا على بعض.

خلعنا قفازينا وخذائنا الثقيلين بالثلوج على الباب الأمامي. وعندما دخلنا الردهة، وجدنا بابا يجلس بجوار موقد الحطب المصنوع من الحديد الزهر، ومعه رجل هندي أصلع، يرتدي حلة بنية وربطة عنق حمراء.

قال بابا وهو يبتسم بخجل:

- حسن، تعال قابل هدية عيد ميلادك.

تبادلتُ نظرات خاوية مع حسن. لم يكن ثمة صندوق ملفوف أمامنا. ولا حقيبة. ولا لعبة. فقط علي يقف خلفنا، وبابا مع هذا الرفيق الهندي الضئيل الذي يشبه، إلى حدٍّ ما، مدرّساً للرياضيات.

ابتسم الرجل الهندي ذو الحلة البنية ومد يده لحسن. قال:

- أنا الدكتور «كومار». تسرني مقابلتك.

كان يتحدث الفارسية بلكنة هندية غليظة مكسرة.

قال حسن بتشكُّك:

- السلام عليكم.

ونكس رأسه في أدب، لكن عينيه كانتا تبحثان عن أبيه خلفه. اقترب علي ووضع يده على كتف حسن.

رأى بابا عيني حسن الحذرتين والمرتبكتين.

- لقد استدعيت الدكتور «كومار» من نيودلهي. الدكتور «كومار» جراح تجميل.

قال الرجل الهندي، الدكتور «كومار»:

- هل تعرف معنى هذا؟

هز حسن رأسه. نظر إليّ كي أساعده، لكنني هزرت كتفي. كل ما أعرفه أنك تذهب إلى الجراح ليصلحك عندما تعاني من التهاب الزائدة الدودية. كنت أعرف ذلك لأن أحد زملائي في الفصل قد توفي متأثرًا بها في العام السابق وقال لنا المدرس إنهم تأخروا كثيرًا قبل أن يأخذوه إلى جراح. نظر كلانا إلى علي، لكنك بالطبع لا تستطيع أن تفهم منه شيئًا. كان وجهه خاليًا من الانفعالات كالعادة، مع أن شيئًا جادًا كان يلوح في عينيه.

قال الدكتور «كومار»:

- طيب، مهمتي هي إصلاح الأشياء في أجساد الناس. أحيانًا في وجوههم.

قال حسن:

- أوه!

نظر من الدكتور «كومار» إلى بابا إلى علي. لمست يده شفته العليا.

كررها ثانية:

- أوه!

قال بابا:

- هدية غير عادية، أعرف. وعلى الأرجح ليست ما كان في بالك، لكنها هدية ستظل معك إلى الأبد.

قال حسن:

- أوه!

لعق شفثيه. تنحنح.

- أغا صاحب، هل س... هل س...

تدخل الدكتور «كومار» وهو يبتسم بحنو:

- لن يحدث. لن تتألم على الإطلاق. في الواقع، سوف أعطيك دواء ولن تتذكر أي شيء.

قال حسن:

- أوه!

وابتسم بارتياح. بقدر من الارتياح على أية حال.

- لستُ خائفًا، أغا صاحب، كنت فقط...

ربما خُدع حسن، لكنني لم أخدع. كنت أعرف أن الأطباء عندما يقولون إن الأمر لن يؤلم، فاعلم أنك في مشكلة. تذكرت في ارتياح ختاني في العام السابق. قال لي الطبيب الكلام نفسه، وأكد لي أنه لن يؤلم على الإطلاق. لكن عندما زال أثر المخدر في تلك الليلة، شعرت بأن شخصًا ضغط قطعة فحم ساخنة حمراء على عضوي. لماذا انتظر بابا حتى أصبحت في العاشرة قبل أن يُجري لي الختان، ذلك ما لم أفهمه، وأحد الأمور التي لن أسامحه عليها.

تمنيت لو أن لديّ أنا أيضًا ندبةً تستدر عطف بابا. لم يكن ذلك عدلاً.
لم يفعل حسن أي شيء ليكسب محبة بابا: كل ما فعله أنه وُلد بتلك الشفة
الأرنبية الغبية.

سارت الجراحة على ما يرام. صُدمنا جميعًا بعدما أزالوا الشاش، لكننا
احتفظنا بابتساماتنا كما طلب منا الدكتور «كومار». لم يكن الأمر سهلاً، لأن
شفة حسن العليا كانت شبكة متنافرة من نسيج متورّم غير ملتئم. توقعتُ أن
يصرخ حسن فرعًا عندما ناولته الممرضة المرأة. أمسك عليّ بيده ونظر
حسن فيها نظرة طويلة متأملة. ثم غمغم بشيء لم أفهمه. وضعتُ أذني على
فمه. فهمس بها ثانية:

— «تشكر».

ثم التوت شفتاه، وعرفت تلك المرة ما يفعله بالضبط. كان يبتسم. كما
ابتسم وهو يخرج من رحم أمه.

هدأ الانتفاخ، والتأم الجرح مع الوقت. وسرعان ما أصبح مجرد خط
طولي متعرج في شفته. وفي الشتاء التالي، بات مجرد ندبة خفيفة. ويا لها
من مفارقة. ففي ذلك الشتاء توقف حسن عن الابتسام.

الشتاء.

هاك ما أفعله في أول أيام هطول الثلج كل عام: أخرج من المنزل في الصباح الباكر، بالبيجاما، أحتضن البرد القارس بذراعيّ. أجد المدخل، وسيارة أبي، والجدران، والأشجار، والأسطح، والتلال، مغمورة تحت ثلج بارتفاع قدم. أبتسم. السماء زرقاء صافية، وبياض الثلج الشاهق يحرق عينيّ. أغترف قبضة من الثلج الطازج وأضعها في فمي، أصغي إلى السكون المكتوم الذي لا يكسره سوى نعيق الغربان. أنزل درجات السلم الخارجي، حافي القدمين، وأنادي على حسن أن يخرج لنرى.

كان الشتاء الفصل المفضّل لكل أطفال كابول، على الأقل أولئك الذين يستطيع آباؤهم شراء موقد حديدي جيد. وكان السبب بسيطاً: تُغلق المدارس في فصل الثلوج. كان الشتاء بالنسبة إليّ يعني الانتهاء من القسمة المطولة وذكر عاصمة بلغاريا، وبداية ثلاثة أشهر من لعب الورق قرب المدفأة مع حسن، أفلام روسية مجانية في سينما بارك في صباح الثلاثاء، «قورمه» اللفت الحلو على الأرز في الغداء بعد صباح قضيناه في تشكيل رجال من الثلج. والطائرات الورقية بالطبع. تطير الطائرات الورقية. والعدو وراءها.

بالنسبة إلى قلة من الأطفال سيئي الحظ، لا يمثل الشتاء نهاية السنة الدراسية. كان هناك ما يسمى بالفصول الشتوية التطوعية. وبالطبع، لم يكن أي من الأطفال الذين أعرفهم يتطوع قطُّ للذهاب إلى تلك الفصول برغبته؛ بل كان الآباء يسجلون أسماءهم كمتطوعين. لحسن حظي، لم يكن بابا من هؤلاء. أتذكر طفلاً اسمه أحمد، كان يعيش على الجهة الثانية من شارعنا. كان أبوه طبيباً، على ما أظن. كان أحمد مصاباً بالصرع، يرتدي دائماً صدرية صوفية ونظارة سميكة بإطارات سوداء. كان أحد ضحايا آصف المنتظمين. كل صباح، ومن نافذة غرفة نومي، كنت أراقب خادمهم الهزاره وهو يجرف الثلج من المدخل، مُخلِياً الطريق للأوبل السوداء. كنت حريصاً على مراقبة أحمد ووالده وهما يدخلان السيارة، أحمد في صدرته الصوفية ومعطفه الشتوي، وحقيبتة المدرسية محشوة بالكتب والأقلام الرصاص. أنتظر حتى ينطلقا بالسيارة، وينعطفوا حول الناصية، ثم أنزلق عائداً إلى فراشي في بيجامتي المصنوعة من الفانلة. أسحب البطانية حتى ذقني وأراقب التلال المكلفة بالثلوج في الشمال عبر النافذة. أراقبها حتى أنجرف للنوم ثانية.

كنت أحب شتاء كابول. أحبه للثلج الذي ينقر نافذتي ليلاً بنعومة، وللثلج الذي يجرش تحت حذائي المطاطي الأسود ذي الرقبة، لدفع موقد الحديد الزهر والرياح تصفر في الباحات والشوارع. وأحبه أكثر لأنه، فيما تتجمد الأشجار وتكتسي الطرقات بالثلوج، يذوب الثلج بيني وبين بابا قليلاً. والسبب في ذلك كان الطائرات الورقية. كنت أنا وبابا نعيش في البيت نفسه، إنما نسبح في فلكين مختلفين. وكانت الطائرات الورقية شريحة التقاطع، الرقيقة كورقة، بين هذين الفلكين.



كل شتاء، كانت أحياء كابول تنظم مسابقة لمصارعة الطائرات الورقية.

وإذا كنت صبيًا تعيش في كابول، فإن يوم المسابقة، من دون شك، ذروة فصل البرودة. لم أنم قط في ليلة المسابقة. كنت أتقلب من جنب لجنب، أصنع حيوانات بالظل على الحائط، بل أجلس في الشرفة في الظلام، ببطانية ملفوفة حولي. كنت مثل جندي يحاول النوم في خندقه عشية معركة كبرى. ولم يكن الأمر يختلف كثيرًا، ففي كابول، كانت مصارعة الطائرات تشبه قليلًا خوض حرب.

وكما في أي حرب، عليك أن تعد نفسك للمعركة. لفترة، ظلمت أنا وحسن نصنع طائراتنا الورقية الخاصة. كنا ندخر مصروفنا الأسبوعي في الخريف، نُسقط المال في حصان خزفي صغير ابتاعه بابا ذات مرة من هرات. وعندما كانت رياح الشتاء تشرع في الهبوب وتنهمر الثلوج مدرارًا، كنا ندير المشبك أسفل بطن الحصان. نذهب إلى السوق ونشتري البامبو والصمغ والخيط والورق. نقضي ساعات كل يوم ونحن نشحذ البامبو للدعامات الطولية والعرضية، نقص الورق المصنوع من نسيج خاص يحلق بسهولة في الهواء. ثم بالطبع، كان علينا أن نصنع خيطنا الخاص، الـ«تار». والـ«تار»، وهو الخيط الحاد المغطى بالزجاج، بالنسبة إلى الطائرة بمثابة الطلقة في خزانة البندقية. كنا نذهب إلى الباحة ونغمس ما يصل إلى خمسمائة قدم من الخيط في خليط من الزجاج المجروش والصمغ. ثم نعلق الخيط بين الأشجار، ونتركه ليجف. في اليوم التالي، نلف الخيط المجهز للمعركة حول بكرة خشبية. وحين تذوب الثلوج وتبدأ أمطار الربيع في الهطول، يحمل كل صبي في كابول حكاية عما في أصابعه من جروح أفقية بعد شتاء كامل من مصارعة الطائرات الورقية. أتذكر كيف كنت أنا وزملائي في الفصل نجتمع، ونقارن ندوب معاركنا في أول أيام المدرسة. كانت الجروح حارقة، لا تلتئم إلا بعد نحو أسبوعين، لكنني لم أكن أبالي. كانت تذكارات من فصل حبيب

مر من جديد مرور الكرام. ثم ينفخ كابتن المدرسة في صافرته ففسير في طابور إلى قاعات الدرس، ونشعر من لحظتها باشتياق للشتاء القادم، بينما يستقبلنا طيف عام دراسي طويل آخر.

لكن سرعان ما بدا واضحًا أنني وحسنًا كنا مصارعين للطائرات الورقية أفضل منا صانعين لها. إذ كان يحدث دائمًا خطأ في التصميم يؤدي إلى هلاك الطائرة المحتوم دائمًا. وهكذا بدأ بابا يأخذنا إلى «سايفو» لشراء طائراتنا الورقية. كان «سايفو» عجوزًا ضريّرًا يعمل أصلًا «موتشي»، إسكافيًا. لكنه كان أيضًا أشهر صانع طائرات ورقية في المدينة، يعمل في كوخ ضئيل في «جاده ميوند»، ذلك الشارع المزدهم جنوبي الضفاف الموحلة لنهر كابول. أتذكر أنه كان عليك أن تنحني لدخول ذلك المتجر الذي لا يزيد حجمه عن زنزانة، ومن ثمّ ترفع بابًا علويًا لتنزل درجات سلم خشبي إلى القبو العطن حيث يخزّن «سايفو» ما تشتهيه الأنف من طائرات ورقية. كان بابا يشتري لكل منا ثلاث طائرات متطابقة وبكرات من الخيط المزجج. وإذا غيرت رأيي وطلبت طائرة أكبر وأكثر أناقة، كان بابا يشتريها لي - ويشتريها لحسن أيضًا. أحيانًا كنت أتمنى ألا يفعل ذلك. أن يؤثرني بشيء.

كانت مسابقة مصارعة الطائرات الورقية تقليدًا شتويًا قديمًا في أفغانستان. تبدأ في الصباح الباكر ولا تنتهي إلا عندما لا يبقى في السماء سوى الطائرة الفائزة وحدها - أذكر أن المسابقة استمرت في إحدى السنوات حتى حلول الليل. اجتمع الناس على الأرصفة والأسقف لتشجيع أطفالهم. واحتشدت الشوارع بمصارع الطائرات الورقية، يرتجون وهم يشدون خيوطهم، محدقين في السماء وقد ضيقوا أعينهم، محاولين التمرّك في وضع يسمح لهم بقطع خيط الخصم. وكان هناك مساعدٌ لكل مُصارع طائراتٍ - في حالتي كان حسن - يُمسك البكرة ويفكُّ الخيط.

في إحدى المرات، أخبرنا طفلٌ هنديٌّ مشاكسٌ كانت عائلته قد انتقلت إلى الحي مؤخرًا أن مصارعة الطائرات الورقية في بلاده لها قواعد وتنظيمات صارمة. وقال بفخر:

- عليك أن تلعب في ساحة محدّدة، وعليك أن تقف في زاوية مناسبة مع الريح. ولا يمكنك استخدام الألمنيوم في صنع خيطك المزجج.

نظرنا أنا وحسن كلٌّ إلى الآخر، وانفجرنا ضاحكين. سوف يعرف الطفل الهندي قريبًا ما عرفه البريطانيون في أوائل القرن، وما سوف يعرفه الروس لاحقًا في الثمانينيات: إن الأفغان شعبٌ مستقل. الأفغان يراعون العادات لكنهم يبغضون القواعد. وهكذا الحال مع مصارعة الطائرات الورقية. كانت القواعد بسيطة: لا قواعد. طير طائرتك. اقطع طائرات الخصوم. حظ سعيد.

إلا أن ذلك لم يكن كل شيء. فالمتعة الحقيقية تبدأ عند قطع طائرة. هنا يأتي دور عدائي الطائرات الورقية، أولئك الأطفال الذين يطاردون الطائرة التي تجرفها الريح عبر شوارع الحي حتى تسقط بشكل لولبي في حقل، أو تهوي في باحة، أو على شجرة، أو فوق سطح. كانت المنافسة تصل إلى درجة عالية من الشراسة، فتجد جحافل من عدائي الطائرات الورقية يجتاحون الشوارع، ويتدافعون كهؤلاء الإسبان الذين قرأت عنهم ذات مرة، هؤلاء الذين يركضون هربًا من الثيران. في إحدى السنوات تسلق أحد أطفال الحي شجرة صنوبر وراء طائرة. انقصر فجأة فرعٌ تحت ثقله فهوى من ارتفاع ثلاثين قدمًا. تعرض لكسر في الفقرات ولم يمش ثانية. لكنه سقط ويدها تشبثان بالطائرة الورقية. عندما يضع عداء طائرات يده على طائرة، لا يمكن لأحد أن يأخذها منه. لم تكن قاعدة. كانت عادة.

بالنسبة إلى عدائي الطائرات الورقية، كانت أكثر جائزة تشهيقها الأنف

آخر طائرة تسقط في مسابقة الشتاء. كانت وسام شرف، شيئًا يُعرض فوق المدفأة كي يثير إعجاب الضيوف. عندما كانت السماء تخلو من الطائرات ولا تبقى سوى الطائرتين الأخيرتين، كان كل عداء طائرات يتهيأ لفرصة الحصول على الجائزة. يتمركز في البقعة التي يعتقد أنها تمنحه نقطة انطلاق متقدمة عن الآخرين. والعضلات المشدودة تستعد للانبساط. والأعناق تشرئب. والعيون ترفُّ. وتندلع المعارك. وعندما تُقطع آخر طائرة تنفتح أبواب الجحيم.

على مدار السنوات، رأيت كثيرًا من الصبية يعدون وراء الطائرات الورقية. لكنَّ حسنًا كان أفضل عداء طائرات رأيتَه في حياتي بلا منازع. كانت طريقته في الوصول إلى البقعة التي ستهبط فيها طائرة قبل أن تهبط طريقة خارقة، كما لو أن لديه بوصلة داخلية.

أتذكر أنني وحسنًا كنا نعدو وراء طائرة ورقية ذات يوم شتوي ملبد بالغيوم. كنت أجري وراءه في شوارع الحي، نقفز فوق قنوات، ونعرج إلى شوارع ضيقة. كنت أكبر منه بسنة، لكن حسنًا كان يجري أسرع مني، وكنت أتخلف عنه.

صحتُ قائلاً، وكانت أنفاسي ساخنة ومتقطعة:

- حسن! انتظر!

استدار وأشار إليَّ بيده، ثم ناداني، قبل أن يستدير حول ناصية أخرى:

- من هنا!

نظرت إلى أعلى، فرأيت أن الاتجاه الذي كنا نجري فيه عكس الاتجاه الذي تنجرف إليه الطائرة.

صرختُ عاليًا:

- إننا نفقدها! إننا في الاتجاه الخطأ!

سمعته ينادي من بعيد:

- ثق بي!

وصلتُ إلى الناصية ورأيت حسنًا يعدو كالسهم في طريقه، رأسه لأسفل، لا ينظر حتى إلى السماء، والعرق يغمر ظهر قميصه. تعثرت في حجر ووقعت - لم أكن أبطأ من حسن فحسب وإنما أشدَّ خَرَقًا أيضًا؛ لطالما حسدته على قدراته الرياضية الطبيعية. عندما وقفت على قدمي مترنحًا، لمحت حسنًا يختفي حول ناصية شارع آخر، جريت أعرج خلفه، ومسامير من الألم توخز ركبتيَّ.

رأيت أننا قد انتهينا إلى طريق ترابي ممهد قُرب مدرسة استقلال الإعدادية. كان ثمة حقل على أحد الجانبين ينمو فيه الخس صيفًا، وصف من أشجار التوت الحامض على الجانب الآخر. وجدت حسنًا يجلس القرفصاء أسفل إحدى الأشجار، يلتهم حفنة من التوت الجاف.

- ماذا نفعل هنا؟

كنت ألهث، ومعدتي مغمومة من الإعياء.

ابتسم.

- اجلس معي، أمير أغا.

ارتميت إلى جواره، وسندت على كومة من الثلج الهش، وأنا ألهث.

- أنت تضيِّع وقتنا. لقد كانت متجهة إلى الجهة الأخرى، ألم ترَ؟

رمى حسن توتة في فمه وقال:

- سوف تأتي.

كنت أتنفس بالكاد ولم يبدُ على صوته حتى التعب.

- كيف تعرف؟

- أعرف.

- كيف تستطيع أن تعرف؟

استدار إليّ. وتدحرجت بضع حبات عرق من رأسه الأقرع.

- هل يمكن أن أكذب عليك، أمير أغا؟

فجأة قررتُ أن ألاعبه قليلاً.

- لا أعرف. هل يمكن؟

قال وهو يرميني بنظرة استنكار:

- سوف أكل التراب قبلها.

- حقاً؟ ستفعل ذلك؟

رمقني بنظرة مرتبكة.

- أفعل ماذا؟

قلت:

- تأكل التراب إذا طلبت منك.

كنت أعرف أنني أقسو عليه، مثلما عيّرتَه بعدم معرفته لبعض الكلمات

الكبيرة. لكن ثمة شيء فاتن - وإن كان بطريقة مريضة - في إغاطة حسن. مثل لعبة تعذيب الحشرات التي كنا نلعبها. باستثناء أن حسنًا كان الآن النملة وكنت أنا من أمسك بالعدسة المكبرة.

تطلّع إليّ طويلًا. كنا نجلس هناك، صبيّان أسفل شجرة توت حامض، فجأة ننظر، ننظر حقًا، كل إلى الآخر. وقتها تكرر الأمر ثانية: تبدّل وجه حسن. ربما لم يتبدل، ليس فعليًا، لكن فجأة انتابني شعور أنني أنظر لوجهين. الوجه الذي أعرفه، وجه كان أولى ذكرياتي، وآخر، وجه ثان، كامن تحت السطح مباشرة. رأيت ذلك يحدث من قبل - لطالما كان يصدمني قليلًا. وقد ظهر، ذلك الوجه الآخر، لجزء من لحظة، فقط بما يكفي ليتابني ذلك الشعور غير المريح بأنني ربما رأيته في مكان ما من قبل. ثم طَرَف حسن، فعاد لحاله الأول، حسن فقط.

قال أخيرًا وهو ينظر إليّ مباشرة:

- إذا طلبت فسوف أفعل.

نكستُ عينيّ. حتى اليوم ما زلت أجد صعوبة في التحديق مباشرة في عيون أناس مثل حسن، أناس يقصدون كل كلمة ينطقونها. أضاف:

- لكنني أتساءل: هل يمكن أن تطلب مني أن أفعل ذلك، أمير أغا؟

وبالطبع، بتلك البساطة، ألقى هو الآخر باختباره الصغير إليّ. إذا كنت ألاعبه وأتحدى إخلاصه، سيلاعبني، ويختبر أخلاقي.

تمنيتُ لو لم أكن قد بدأت تلك المحادثة. أجبرت نفسي على الابتسام.

- لا تكن غيبًا يا حسن. أنت تعرف أنني لا يمكن أن أفعل ذلك.

ردّ حسن ابتسامتي. وإن بدت ابتسامته تلقائية. قال:

- أعرف.

ذلك هو حال الناس الذين يقصدون كل ما يقولون. يعتقدون أن الآخرين يفعلون مثلهم.

قالها حسن مشيرًا إلى السماء:

- ها هي.

وقف على قدميه ومشى بضع خطوات إلى اليسار. نظرت إلى أعلى، ورأيتُ الطائرة تتهاوى تجاهنا. سمعت وقع أقدام، وصرخات، معمرة من عدائي الطائرات الورقية تقترب. لكنهم كانوا يضيّعون وقتهم. لأن حسنًا كان يقف وذراعه مفتوحان، مبتسمًا، ينتظر الطائرة. وليحرمني الرب - إن كان موجودًا، على أية حال - من نور عينيّ، لو كان ما أقوله كذبًا: لقد سقطت الطائرة بين ذراعيه الممدودتين.

* * *

في شتاء عام ١٩٧٥، رأيت حسنًا يعدو خلف طائرة للمرة الأخيرة.

عادة، ينظّم كل حي مسابقته. لكن في ذلك العام، كانت مسابقة كبرى ستُنظّم في حينًا، وزير أكبر خان، وكانت أحياء أخرى - «كارته جهار»، «كارته بروان»، «ميكرو ريان»، «كوته سنجي» - مدعوة للمشاركة. لم يكن بوسعك الذهاب إلى أي مكان من دون أن تسمع كلامًا عن المسابقة المرتقبة. وقال الناس إنها ستكون أكبر مسابقة منذ خمسة وعشرين عامًا.

في إحدى ليالي ذلك الشتاء، وقبل أربعة أيام فقط من السباق، جلست أنا وبابا في غرفة مكتبه في مقعدين جلديين وثيرين بالقرب من وهج المدفأة.

كنا نرشف الشاي، ونتكلم. كان علي قد أعد لنا العشاء - بطاطس وقرنبيط بالكاراي مع الأرز - وانتهى بذلك شغله هو وحسن لتلك الليلة. كان بابا يسمّن غليونه، وكنت أطلب منه أن يحكي لي قصة الشتاء الذي نزل فيه قطيع من الذئاب من الجبال في هرات وأجبروا الناس على البقاء في منازلهم لأسبوع كامل، عندما أشعل عود ثقاب وقال بشكل عابر:

- أعتقد أنك ربما تفوز بالمسابقة هذا العام. ما رأيك؟

لم يكن لي رأي. ولم أعرف ماذا أقول. هل هذا هو المطلوب؟ هل يكون قد مرّر لي المفتاح للتو؟ لقد كنت مصارع طائرات جيد. جيد جدًا في الواقع. بل كدت أفوز في مسابقة الشتاء بضع مرات - وفي مرة، وصلت إلى الثلاثي النهائي. لكن الاقتراب من الفوز ليس مثل الفوز، أليس كذلك؟ بابا لم يكن يقترب. كان يفوز لأن الفائزين يفوزون فيما يعود الباقيون جميعًا إلى منازلهم. كان بابا معتادًا على الفوز، الفوز بكل ما يعقد العزم عليه. أفلا يحق له توقع الأمر نفسه من ابنه؟ وتخيل فحسب. لو فزت بالفعل...

دخّن بابا غليونه وتكلم. تظاهرتُ بأنني مصغ. لكن ما كان بوسعي أن أصغي، ليس تمامًا، لأن ملاحظة بابا العابرة زرعت بذرة في رأسي: قرار بأن أفوز في مسابقة الشتاء تلك. سوف أفوز. ليس هناك خيار آخر. سوف أفوز، وأعدو وراء تلك الطائرة الأخيرة. وأعود بها إلى المنزل وأريها لبابا. أريه مرة واحدة وللأبد أن ابنه يستحق. وبعدها، ربما تنتهي أخيرًا حياتي كشبح في البيت. تركت نفسي أحلم: تخيلت الكلام والضحك على العشاء بدلًا من الصمت الذي لا يكسره سوى رنين الفضيات والتجشؤ من آن لآخر. تراءت لي صورة لنا ونحن نطلع في جولة الجمعة في سيارة بابا إلى بغمان، نقف في الطريق عند بحيرة غارغا لتتناول السالمون المرقط المقلي مع البطاطس. سوف نذهب إلى حديقة الحيوان لنشاهد الأسد مرجان، وربما

لن يتشاءب بابا ويختلس نظرات لساعة معصمه طوال الوقت. بل ربما يقرأ بابا واحدة من قصصي. كنت سأكتب له مائة قصة لو اعتقدت أنه سيقراً ولو واحدة. ربما يناديني «أمير جان» مثلما يفعل رحيم خان. بل ثمة احتمال، مجرد احتمال، أن أنال العفو أخيراً على قتلي لأمي.

كان بابا يحكي لي عن المرة التي قطع فيها أربع عشرة طائرة في يوم واحد. ابتسمت، وأومأت، وضحكت في اللحظات المناسبة، لكنني لم أنصت لكلمة مما قال. إن أمامي مهمة الآن. ولن أخذل بابا. ليس تلك المرة.



هطل الثلج بغزارة في الليلة السابقة على المسابقة. كنت أجلس مع حسن وأرجلنا تحت الكرسي نلعب «بنجبار»، فيما كانت فروع الأشجار تخشخش من الريح وتنقر النافذة. نهاراً، كنت قد طلبت من علي أن يعد لنا الكرسي - الذي كان في الأساس سخاناً كهربائياً تحت طاولة واطئة مغطاة بلحاف سميك. حول الطاولة، رتب الحشيات والوسائد، بما يسع حتى عشرين شخصاً يمكنهم الجلوس ومد أرجلهم أسفله. وكنت أنا وحسن نقضي الأيام الثلجية بأكملها مستكينين في دفء الكرسي نلعب الشطرنج، والورق - الـ «بنجبار» في أغلب الأحيان.

قتلت عشرة حسن الديناري، ولعبتُ له ولدين وستة. في الغرفة المجاورة، في مكتب بابا، كان بابا ورحيم خان يناقشان أمور العمل مع رجلين آخرين - تعرّفت على أحدهما وهو والد آصف. من الجدار، كنت أسمع وشيش أصوات أخبار راديو كابول.

قتل حسن الستة والتقط الولدين. في الراديو كان داود خان يعلن شيئاً عن استثمارات أجنبية.

قلت:

- يقول إننا، يومًا ما، سيكون لدينا تلفزيون في كابول.

- من؟

- داود خان يا حمار، الرئيس.

قهقهه حسن. قال:

- سمعت أن لديهم تلفزيونًا بالفعل في إيران.

تنهدتُ.

- أولئك الإيرانيون...

بالنسبة إلى كثير من الهزاره، تمثل إيران مكانًا له قداسته - ربما لأن معظم الإيرانيين، مثل الهزاره، شيعة. لكنني تذكرت شيئًا قاله لي مدرّسي ذلك الصيف عن الإيرانيين، إنهم بشوشون وكلامهم معسول، يربّتون على ظهرك بيد وينشلون جيبيك بالأخرى. حكيت لبابا عن ذلك فقال لي إن مدرّسي واحد من أولئك الأفغان الحاقدين، حاقدين لأن إيران كانت قوة صاعدة في آسيا، في حين لا يستطيع معظم الناس في جميع أنحاء العالم حتى أن يحددوا موقع أفغانستان على خريطة العالم. قال وهو يهز كتفيه:

- من المؤلم أن أقول هذا. لكن حقيقة تؤلمك خير من كذبة ترضيك.

قلت:

- سوف أشتري لك واحدًا في يوم ما.

أشرق وجه حسن.

- تلفزيون؟ بجد؟

- طبعًا. وليس أبيض وأسود. على الأرجح سنكون كبارًا وقتها، لكنني سأشتري لنا اثنتين: واحدًا لك وواحدًا لي.

قال حسن:

- سوف أضعه على طاولتي، حيث أحتفظ برسومي.

أحزنني كلامه بشكل ما. حزنت لحال حسن، للمكان الذي يعيش فيه، وكيف يقبل حقيقة أنه سيكبر في هذا الكوخ الطيني في الباحة، كما كبر والده. سحبت آخر ورقة، ولعبت له بنتين وعشرة.

التقط حسن البنتين.

- تعرف، أعتقد أننا سنجعل أغا صاحب فخورًا جدًا غدًا.

- هل تعتقد؟

قال:

- إن شاء الله.

رددتُ:

- إن شاء الله.

لكن الدعاء لم يخرج من شفتي بالصدق نفسه. كان ذلك هو حسن. كان نقيًا جدًا، تشعر دائمًا بالتصنع وأنت في صحبته.

قتلتُ شايبه ولعبت له ورقتي الأخيرة، الآس البستوني. كان عليه أن يلتقطه. فُزت أنا، ولكن بينما كنت أخلط الورق للدور الجديد، راودني شك في أن حسنًا جعلني أفوز.

- أمير أغا؟

- ماذا؟

- تعرف... أحب المكان الذي أعيش فيه.

كان دائماً يفعل ذلك، يقرأ أفكاره.

- إنه منزلي.

قلت:

- أيّاً كان. استعد لخسارة جديدة.

صبيحة اليوم التالي، قال لي حسن وهو يغلي الشاي للإفطار، إنه رأى حلمًا:
 - كنا عند بحيرة غارغا، أنا وأنت وأبي وأغا صاحب ورحيم خان، وآلاف
 الناس الآخرين. كان الجو دافئًا ومشمسًا، والبحيرة صافية كمرآة. لكن لم يكن
 أحدٌ يسبح لأنهم قالوا إن وحشًا جاء إلى البحيرة. كان يسبح في القاع، ينتظر.
 صبَّ لي كوبًا وأضاف السكر، ونفخ فيه بضع مرات، ثم وضعه أمامي.
 - لذا كان الجميع خائفين من نزول الماء، وفجأة تخلع يا أمير أغا
 حذاءك وقميصك، وتقول «لا يوجد وحش. سأثبت لكم جميعًا». وقبل
 أن يمنعك أحد، قفزت في الماء، وبدأت تسبح بعيدًا. ونزلت أنا خلفك
 وسبحنا نحن الاثنين.

- لكنك لا تعرف السباحة.

ضحك حسن:

- إنه حلم، أمير أغا، يمكن أن تفعل أي شيء. على أية حال، كان الجميع
 يصرخون: «اخرجوا! اخرجوا!» لكننا واصلنا السباحة في الماء البارد. سبحنا
 حتى منتصف البحيرة ثم توقفنا عن السباحة. استدرنا نحو الشاطئ ولوَّحنا

للناس. بدوا صغارًا مثل النمل، لكن كان بوسعنا أن نسمع تصفيقهم. إنهم يرون الآن. لا يوجد وحش، ماء فقط. ثم غيروا اسم البحيرة بعد ذلك، وأسموها «بحيرة أمير وحسن، سلطاني كابول»، وأصبحنا نتقاضى أجرًا من الناس ليسبحوا فيها.

قلت:

- ما المعنى إذن.

مسح لي المربي على رغيف الـ«نان» ووضعته في طبق.

- لا أعرف. كنت آمل أن تخبرني أنت.

- حسنًا، إنه حلم عقيم. لا شيء يحدث فيه.

- أبي يقول إن الأحلام تعني شيئًا دائمًا.

ارتشفتُ بعض الشاي.

- لماذا لا تسأله إذن؟ إنه ذكي جدًا.

قلتها بجفاء أكثر مما نويت. لم أنم الليلة الفائتة. وكان عنقي وظهري مثل الزنبرك الملفوف، وعيناي تحرقانني. مع ذلك، كنت خسيسًا مع حسن. وكدت أعتذر، ثم تراجعته. وفهم حسن أنني عصبي فحسب. يفهمني حسن دائمًا.

في الطابق العلوي، سمعت الماء يجري في حمام بابا.

* * *

تألفت الشوارع بثلج طازج وكانت السماء زرقاء ناصعة. كان الثلج يغطي أسطح البيوت ويثقل على فروع أشجار التوت، بطيئة النمو، التي تصطف

في شارعنا. في الليل، كان الثلج قد شق طريقه في كل شق وقناة. ضيقت عيني أمام البياض الشاهق فيما كنت أخرج مع حسن من البوابة الحديدية. أغلق علي البوابة وراءنا. وسمعتة يتمتم بأدعية - يودّع ابنه بالدعاء دائماً.

لم أر في حياتي هذا العدد من الناس في شوارعنا. كان الأطفال يتراشقون بكرات الثلج، يصطخبون، بعضهم يطارد بعض، ويقهقهون. وكان مصارعو الطائرات الورقية يتشاورون مع مساعديهم القابضين على البكرات، يرتّبون استعدادات اللحظة الأخيرة. ومن الشوارع المجاورة، سمعت ضحكاً وثرثرة. كانت الأسطح تعج بالمتفرجين، يضطجعون على كراسي الحديدية، والبخار يتصاعد من ترامس الشاي، وموسيقى أحمد ظاهر تصدح من أجهزة الكاسيت. كان أحمد ظاهر، ذو الشعبية الكاسحة، قد أحدث ثورة في الموسيقى الأفغانية وأثار غضب المحافظين بإضافة جيتارات كهربائية، وآلات إيقاعية، وأبواق إلى الطبلّة وأرغن الهارمونيوم التقليديين. وعلى الخشبة أو في الحفلات، كان يتخلى عن الجدية التي تقترب من العبوس لدى المغنيين الأقدم، بل كان يبتسم وهو يغني - حتى للنساء أحياناً. حوّلت عينيّ إلى سطحنا، فوجدت بابا ورقيم خان يجلسان على مصطبة، يرتديان سويترات صوفية، ويرتشفان الشاي. لوّح بابا بيده. ولم أستطع أن أحدد إن كان لي أم لحسن.

قال حسن:

- علينا أن نستعد.

كان ينتعل حذاء من أحذية الجلّيد ويرتدي «شابان»، قفطاناً أخضر فاتحاً، على سويتر ثقيل وبنطال باهت من القطيفة. كان نور الشمس يغمر وجهه، وفيه رأيت كيف التأمّت الندبة الوردية فوق شفته.

فجأة شعرت برغبة في الانسحاب، أن ألملم حاجياتي وأرجع إلى المنزل. فيم كنت أفكر؟ لماذا أضع نفسي في ذلك الموقف، وأنا أعلم النتيجة جيدًا؟ كان بابا على السطح، يراقبني. كنت أحس بنظراته مثل لهيب شمس لافحة. سيكون الفشل هذه المرة من العيار الثقيل، حتى بالنسبة إليّ.

قلتُ:

- لست متأكدًا من أنني أريد أن أطير طائرة اليوم.

رد حسن:

- إنه يوم جميل.

راوحت بين قدمي. وحاولت أن أبعد نظري عن سطح دارنا.

- لا أعرف. ربما يجدر بنا أن نرجع إلى المنزل.

خطا حسن نحوي، وقال، بصوت خفيض، شيئًا أخافني قليلًا:

- تذكّر، أمير أغا. لا يوجد وحش في البحيرة، فقط يوم جميل.

كيف يمكن أن أكون كاتبًا مفتوحًا هكذا أمامه، بينما، في نصف الأوقات، لا يكون لديّ أدنى فكرة عما يدور في رأسه. كنت أنا من يذهب إلى المدرسة، من يعرف القراءة والكتابة. كنت أنا الذكي. لم يكن بمقدور حسن أن يقرأ كتاب النصوص للصف الأول، لكنه كثيرًا ما يقرأني. كان ذلك مُقلقًا إلى حد ما، لكن من المريح أيضًا أن تجد شخصًا يعرف تمامًا ما تحتاجه.

قلتُ وأنا أشعر ببعض التحسن، وهو ما فاجأني شخصيًا:

- لا يوجد وحش.

ابتسم.

- لا يوجد وحش.

- هل أنت متأكد؟

أغمض عينيه، وهز رأسه.

نظرتُ إلى الأطفال وهم يجرون في الشوارع، ويتراشقون بكرات الثلج.

- إنه يوم جميل، أليس كذلك؟

قال:

- إلى الطيران.

طراً بيالي ساعتها أن حسناً ربما قد اختلق حلمه. هل كان ذلك ممكناً؟
قررت أنه مستحيل. لم يكن حسن بذلك الذكاء. أنا لم أكن بذلك الذكاء.
لكن سواء كان مُختلقاً أو غير مُختلق، فقد خلّف الحلم السخيف بعضاً من
القلق بداخلي. ربما كان عليّ أن أخلع قميصي، وأسبح في البحيرة. لمَ لا؟

قال:

- هيا بنا.

أشرق وجه حسن وقال:

- عظيم.

رفع طائرتنا، الحمراء ذات الإطار الأصفر، التي تحمل توقيع «سافيو»
المميز تحت موضع التقاء القوائم المتقاطعة والمركزية مباشرة. لعق
إصبعه ورفعها عاليًا، مُختبرًا الريح، ثم جرى في اتجاهها - في تلك
الأوقات القليلة التي كنا نطير فيها الطائرات صيفًا، كان يرفس بعض
التراب ليرى إلى أي اتجاه تطوّحها الريح. دارت البكرة في يديّ حتى

توقف حسن، على بعد نحو خمسين قدمًا. رفع الطائرة فوق رأسه، مثل بطل أوليمبي يرفع ميداليته الذهبية. شددت الحبل مرتين، إشارتنا المعتادة، ورمى حسن الطائرة.

محصورًا بين بابا من جهة والملاي في المدرسة من جهة أخرى، لم أكن قد اتخذت قرارٍ بشأن الله. لكن عندما خرجت آية من القرآن كنت قد حفظتها في حصة الدين إلى شفتي، تمتمتُ بها. سحبت نفسًا عميقًا، وزفرتُ، ثم شددتُ الخيط. دقيقة واحدة وكانت طائرتي تنطلق كالصاروخ نحو السماء. طائر ورقي تصطبخب السماء برفيف أجنحته. صفق حسن و صفر، وجرى عائداً باتجاهي. ناولته البكرة، وأنا ممسك بالخيط، فيما كان يدوره بسرعة ليلف الخيط السائب عليها من جديد.

كانت عشرون طائرة على الأقل معلقة في السماء، مثل أسماك قرش ورقية تتجول بحثًا عن فريسة. وفي غضون ساعة، تضاعف العدد، وفي السماء كانت طائرات حمراء وزرقاء وصفراء تنساب وتدور. هفا نسيم بارد في شعري. كانت الريح مثالية لتطير الطائرات، تهب بما يكفي بالضبط لحملها، وجعل الانسياب أسهل. بجانبني كان حسن يمسك بالبكرة، وقد أدميت يده من الخيط.

ثم سرعان ما بدأ القطع وبدأت أولى الطائرات الخاسرة تتهاوى خارجة عن السيطرة. كانت تسقط من السماء مثل شهب بذيول متألقة مترققة، فتمطر الحي أسفلها بغنائم لعدائي الطائرات الورقية. كان بمقدوري أن أسمع العدائين الآن، يهللون وهم يركضون في الشوارع. وصاح أحدهم معلنًا خبر معركة اندلعت على بُعد شارعين.

ظللت أختلس النظرات إلى بابا الجالس مع رحيم خان على السطح،

وأتساءل فيم يفكر: هل يشجعني؟ أم يستمتع جزء منه بمراقبة فشلي؟ كان انجراف العقل مع الطائرة جزءاً من تطيير الطائرات الورقية.

كانت الطائرات تتساقط على المكان بأكمله، وأنا ما زلت أطيّر. ما زلت أطيّر. ظلت عيناى تزىغان نحو بابا، مرتدياً «سويتز» صوفياً. هل فاجأه أن أصمد حتى الآن؟ (إذا لم تُبق عينيك على السماء لن تصمد طويلاً.) أعدت ناظريّ إلى السماء. كانت طائرة حمراء تقترب منى - رأيتها فى الوقت المناسب. تشابك خيطانا قليلاً، لكننى تفوقت على صاحبها فى النهاية عندما نفذ صبره وحاول أن يقطعنى من أسفل.

فى الشوارع، كان عداءو الطائرات الورقية يرجعون منتصرين، رافعين طائراتهم الأسيرة. كانوا يعرضونها على آبائهم وأصدقائهم. لكنهم جميعاً كانوا يعرفون أن الأفضل ما زال قادمًا. فالجائزة الكبرى ما زالت تطير. قطعت طائرة صفراء فاقعة بذيل أبيض لولبى. كلفنى ذلك جرحاً آخر فى سبابتى وانساب الدم على كفى. ناولت الخيط لحسن ومصصت الدم حتى يجف، ونشفت إصبعى فى بنطالى الجينز.

بعد ساعة أخرى، تناقص عدد الطائرات الناجية من نحو خمسين إلى دسلة. كانت طائرتى من بينهم. صمدتُ حتى الدسلة الأخيرة. كنت أعرف أن ذلك الجزء من المسابقة يستغرق بعض الوقت، لأن الصبية الذين صمدوا حتى الآن بارعون - لن يسقطوا بسهولة فى الفخاخ البسيطة مثل فخ «ارفع واغطس» القديم، الحيلة المفضلة لدى حسن.

فى الثالثة من ظهيرة ذاك اليوم، تجمّعت كتل صغيرة من السحب وانزلقت الشمس وراءها. بدأت الظلال تتمدد. وأخذ المتفرجون على الأسطح يلتحفون بشيلانهم ومعاطفهم الثقيلة. وكان العدد قد تقلص إلى

نصف دسته، وكنت لا أزال أطيّر. ألمتني قدماي وتبيّست رقبتني. لكن مع كل طائرة تسقط، كان الأمل ينمو في قلبي، كثلوج تتراكم على جدار، ندفة ثلج في كل مرة.

ظلت عيناى تنجذبان إلى طائرة زرقاء كانت مثل إعصار مدمّر في الساعة الماضية.

سألتُ:

- كم طائرة قَطَعَهَا؟

قال حسن:

- عددت إحدى عشرة طائرة.

- هل تعرف مَنْ هو؟

طرق حسن بلسانه ومدّ ذقنه. كانت تلك إيماءة مميزة من إيماءات حسن، تعني أنه لا يعرف. قَطَعَت الطائرة الزرقاء طائرة قرمزية كبيرة ودارت مرتين في حركة لولبية. وبعدها بعشر دقائق، كان قد قطع طائرتين أخريين، مُرسلاً جحافل من عدائي الطائرات الورقية خلفهما.

بعد ثلاثين دقيقة أخرى، لم تبق سوى أربع طائرات. وكنتُ لا أزال أطيّر. وبدا مستبعداً أن أقدم على خطوة خاطئة، كما لو كانت كل عصفرة ربح تهب لمصلحتي. لم أشعر بمثل تلك السيطرة من قبل، بمثل ذلك الحظ. كان شعوراً مُسكرًا. لم أجروُ على النظر إلى سطح دارنا. لم أجروُ على رفع ناظريّ عن السماء. كان عليّ أن أركّز، أن ألعب بذكاء. مرت خمس عشرة دقيقة أخرى، وفجأة أصبح الحلم، الذي بدا مُضحكاً هذا الصباح، حقيقة؛ أصبحت وحدي مع الصبي الآخر. الطائرة الزرقاء.

كان الجو مشدودًا كما الخيط المزجج الذي أشده بيديّ الداميتين. كان الناس يُدبّدون بأقدامهم، يصفقون، يصفرون، يغنون:

- «بيرش! بيرش!» (اقطعه! اقطعه!)

تساءلتُ ما إذا كان صوتُ بابا أحد تلك الأصوات. صدحت الموسيقى. وفاحت روائح فطائر «مَنتو» بالبخار و«بَكور» مقلية من الأسطح والأبواب المفتوحة.

لكن كان كل ما سمعته - كل ما دفعتُ نفسي لسماعه - دمدمة الدم في دماغي. ولم أرَ إلا الطائرة الزرقاء. لم أشم إلا رائحة النصر. الخلاص، الإنقاذ. إذا كان بابا مخطئًا وكان هناك حقًا إله مثلما قالوا في المدرسة، فإنه سيجعلني أفوز. لم أكن أعرف لأي غرض يلعب الصبي الآخر، ربما سعيًا لكلمات المديح ليس إلا. لكن تلك كانت فرصتي الوحيدة كي أصبح شخصًا يُنظر إليه، لا يُرى، يُنصت إليه، لا يُسمع. إذا كان ثمة إله، فسوف يأمر الريح أن تهب لصالحه حتى أتمكن، بدفعة من خيطي، أن أقطع ألومي واشتياقي. لقد تحملت الكثير، وقطعت شوطًا بعيدًا جدًا. وفجأة أصبح الأمل يقينًا. سوف أفوز. إنها مسألة وقت فحسب.

ثم تبين أن الأمر عاجلاً وليس آجلاً. إذ رفعت عصفتُ ريح طائرتي وأصبح لي السبق. أرخيتُ الخيط، فارتفعت. حلقتُ بطائرتي في حركة لولبية فوق الطائرة الزرقاء. كانت تحاول يائسة أن تناور هاربة، لكنني لم أتركها تفعل. تمسكتُ بموقعي. وأحس الحشد أن النهاية أصبحت قريبة. وارتفع صوت الكُورس:

- اقطعه! اقطعه!

مثل رومان يهتفون بالمصارعين: اقتله! اقتله!

قال حسن لاهثاً:

- هانت، أمير أغا! هانت.

ثم حانت اللحظة. أغلقتُ عينيَّ وأرخيتُ قبضتي على الخيط. قطعت أصابعي ثانية والريح تسحبه. ثم... لم أنتظر زئير الحشود لأعرف. لم أكن بحاجة لأنظر أيضاً. كان حسن يصرخ وذراعه ملفوفة حول عنقي.

- برافو! برافو، أمير أغا!

فتحتُ عينيَّ، ورأيت الطائرة الزرقاء تندفع في حركة لولبية طائشة مثل إطار أفلت من سيارة مسرعة. طرفتُ بعيني، وحاولت أن أقول شيئاً، لكن شيئاً لم يخرج. فجأة كنت أحلق وأنظر إلى نفسي من علي. معطفٌ جلديٌّ أسود، وشاخٌ أحمر، جينز باهت، صبي نحيل، شاحب قليلاً، غلام قصير على سنواته الاثنتي عشرة، ضيق المنكبين، تلوح حول عينيه العسليتين الشاحبتين دوائر سوداء داكنة، تنكش الريحُ شعره البني الخفيف. رفع رأسه نحوي وابتسم كل منا للآخر.

ثم وجدْتُني أصرخ، وامتلاّت الدنيا بالألوان والأصوات، كل شيء كان حياً وجميلاً. كانت ذراعي الحرة ملقاة حول حسن وكنا نقفز لأعلى وأسفل، نضحك معاً، ونبكي معاً:

- لقد فزت، أمير أغا! فزت!

- نحن فزنا! نحن فزنا!

كان ذلك كل ما استطعت قوله. ما يحدث ليس حقيقياً. بعد لحظة واحدة، سأفتح عينيَّ وأصحو من هذا الحلم الجميل، أخرج من الفراش، أنزل إلى المطبخ لأتناول إفطاري من دون أحدٍ أتكلم معه سوى حسن.

أرتدي ملابسي. أنتظر بابا. أستسلم. أعود لحياتي القديمة. ثم رأيت بابا على سطح دارنا. كان يقف على الحافة، يهز قبضتيه. يهلل ويصفق. وها هنا كانت اللحظة العظمى في سنوات حياتي الاثنتي عشرة، وأنا أرى بابا على ذلك السطح، فخورًا بي أخيرًا.

لكنه كان يفعل شيئًا الآن، يشير بيديه في إلحاح. ثم فهمتُ.

- حسن، نحن...

قال حسن:

- أعرف.

وفضَّ عناقنا.

- إن شاء الله، سنحتفل لاحقًا. الآن، سوف أعدو وراء تلك الطائرة الزرقاء من أجلك.

أسقط البكرة وانطلق يعدو، وطرف ذيل قفطانه، الـ«شابان»، ينساب وراءه على الثلج.

ناديت عليه:

- حسن! ارجع بها.

كان يستدير بالفعل حول ناصية الشارع، وحذاؤه ذو الرقبة ينفض الثلج. توقف واستدار. كوّر يديه حول فمه. قال:

- من أجلك ألف مرة ومرة!

ثم ابتسم ابتسامة حسن واختفى حول الناصية. كانت المرة التالية التي رأيته يتسم فيها هكذا من دون انكسار بعدها بستة وعشرين عامًا، في صورة فوتوغرافية.

شرعتُ أسحب طائرتي نحوي والناس يتسابقون لتهنئتي. صافحتهم وشكرتهم. كان الأطفال الأصغر يتطلعون لي وعيونهم تلمع بفيض من المهابة؛ كنت بطلاً. ربّت الأيدي على ظهري ونكشت شعري. سحبتُ الخيط وابتسمتُ لكل من ابتسم لي. لكن عقلي كان على الطائرة الزرقاء.

أخيراً، أصبحت الطائرة في يدي. لففتُ الخيط السائب الذي تجمع عند قدميَّ حول البكرة، وصافحتُ بضع أيادٍ أخرى، وتحركتُ نحو الدار. عندما وصلت إلى البوابة الحديدية، كان علي ينتظر على الجانب الآخر. دس يده بين القضبان، وقال:

- مبروك.

أعطيته طائرتي والبكرة، وصافحته:

- «تشكُّر»، علي جان.

- كنت أدعو لك طوال الوقت.

- واصل الدعاء إذن. فنحن لم ننته بعد.

هرعتُ عائداً إلى الشارع. لم أسأل علياً عن بابا. لا أريد رؤيته الآن. الخطة متكاملة في رأسي: سوف أدخل دخولاً عظيماً، أدخل بطلاً، أحمل على يديّ الداميتين غنيمة الانتصار. سوف تدور الرؤوس وتثبت الأحداق. رستم وسهراب متواجهان يسبر كل منهما قوة الآخر. لحظة درامية من الصمت. ثم يخطو المحارب العجوز نحو المحارب الشاب، يعانقه، يعترف باستحقاقه. عودة الحق. الخلاص. الإنقاذ. وبعدها؟ حسناً... يعيشان في تبات ونبات، بالطبع، ماذا غير ذلك؟

كانت شوارع وزير أكبر خان كثيرة ومتقاطعة بزوايا قائمة مثل شبكة. كان

حيًا جديدًا وقتها، ما زال في طور النمو، وفي كل شارع، بين المجمعات السكنية المحاطة بجدران ارتفاعها ثماني أقدام، تمتد أراضٍ فضاء ومنازل نصف مشيدة. دخلت وخرجت من كل شارع أبحث عن حسن. في كل مكان، كان الناس مشغولين بطي المقاعد، ولملمة الطعام والصحون بعد يوم طويل من الاحتفال. وتعالّت أصوات التهاني من بعض ممن لا يزالون على أسطح منازلهم.

جنوب شارعنا بأربعة شوارع، رأيتُ عمر، ابن مهندس كان صديقًا لبابا. كان يراوغ بالكرة مع شقيقه على العشب أمام دارهما. كان عمر صبيًا لا بأس به. كنا زميلين في الصف الرابع، وذات مرة أعطاني قلم حبر، ذلك النوع الذي يجب أن تعبئه بعبوة.

قال:

- سمعتُ أنك فزت. مبروك.

- شكرًا. هل رأيت حسنًا؟

- خادمك الهزاره؟

أومأت.

مرر عمر الكرة برأسه إلى شقيقه:

- سمعت أنه عدا طائرات عظيم.

أعاد شقيقه له الكرة بالرأس. التقطها عمر، ونطّطها إلى أعلى وأسفل.

- مع أنني طالما تساءلت كيف يستطيع ذلك. أقصد، بهاتين العينين

الصغيرتين، كيف يستطيع أن يرى أي شيء؟

ضحك شقيقه، ضحكة قصيرة، وطلب الكرة. تجاهله عمر.

- هل رأيته؟

أشار عمر خلفه باتجاه الجنوب.

- رأيته يجري نحو السوق قبل دقائق.

- شكرًا.

انطلقت في طريقي.

عندما وصلت إلى السوق، كانت الشمس قد غطست بالكامل تقريبًا خلف التلال، والغسق لوّن السماء بالوردي والأرجواني. وعلى بعد بضعة شوارع، من جامع حجّي يعقوب، كان الملا يرفع الأذان. لم يكن حسن يفوّت أيّا من الصلوات الخمس. حتى ونحن نلعب في الخارج، يستأذن، يسحب ماءً من البئر في الباحة، ويتوضأ، ويختفي في كوخه. ثم يرجع بعد بضع دقائق، مبتسمًا، ليجدني متكئًا على الجدار أو مستندًا بيدي على شجرة. لكن الصلاة ستفوته اليوم بسببي.

كانت السوق تخلو من الناس بسرعة، والباعة ينهون مساومات اليوم. خضتُ في الوحل بين صفوف من الأكشاك المتلاصقة حيث يمكن شراء ديك بريّ مذبوح للتوّ من متجر، وآلة حاسبة من المتجر المجاور. شققتُ طريقي عبر الحشد المتضائل، المتسولون الكسيحون يرتدون طبقاتٍ من الأسمال الممزقة، والباعة بسجاجيد الصلاة على أكتافهم، تجار الملابس والجزارون يغلقون متاجرهم. لم أجد أثرًا لحسن.

وقفتُ بالقرب من محل فواكه مجففة، ووصفت حسنًا لتاجر عجوز يُحمّل سلاّلاً من حبوب الصنوبر والزبيب على بغله. كان يرتدي عمامة زرقاء باهتة.

توقف ورمقني بنظرة طويلة قبل أن يجيب:

- ربما رأيته.

- في أي طريق ذهب؟

تفحصني بعينه من أعلى إلى أسفل:

- ما الذي يجعل صبيًا مثلك هنا في هذا الوقت من اليوم يبحث عن هزارة؟

تلكأت نظره بإعجاب عند معطفي الجلدي وبنطالي الجينز - «بنطال راعي البقر» كما كنا نسميه. كان امتلاك أي شيء أمريكي في أفغانستان، خصوصًا لو لم يكن مستعملًا، علامة على الثراء.

- أريد أن أجده، أغا.

قال:

- ما علاقتك به؟

لم أفهم الهدف من سؤاله، لكنني تذكّرت أن تعجّلي لن يجعله يجيبني أسرع.

قلت:

- إنه ابن خادمنا.

رفع العجوز حاجبًا رماديًا.

- أهو كذلك؟ يا له من هزارة محظوظ، أن يحظى بسيد يهتم به هكذا. يجب على أبيه أن يخرّ على ركبتيه ويكنس التراب أمام أقدامك بأهدابه.

- هل ستخبرني أم لا؟

أراح ذراعه على ظهر البغل، وأشار ناحية الجنوب.

- أظنني رأيت الصبي الذي تصفه يجري في هذا الاتجاه. كانت في يده طائرة ورقية. طائرة زرقاء.

- حقًا؟

«من أجلك ألف مرة ومرة». لقد وعد. يا لحسن الحبيب. يا لحسن الحبيب الذي يُعتمد عليه. لقد أوفى بوعده وعدًا خلف الطائرة الأخيرة من أجلي. قال التاجر وهو ينخر ويحمل صندوقًا آخر على ظهر البغل:

- بالطبع، ربما قد أمسكوا به الآن.

- من؟

- الصبية الآخرون. الذين كانوا يطاردونه. كانوا يرتدون مثلك.

تطلع إلى السماء وتنهد.

- الآن، اجر في طريقك، أنت تؤخرني عن الصلاة.

لكنني كنت بالفعل أندفع داخل الحارة.

للدقائق القليلة التالية، فتشت السوق بلا جدوى. ربما خدعت التاجر العجوز عيناه. لكنه رأى الطائرة الزرقاء. فكرة أن أضع يدي على تلك الطائرة... كنت أدس رأسي في كل حارة، في كل دكان. لا أثر لحسن.

بدأ القلق يساورني أن يحل الليل قبل أن أعثر على حسن، عندما سمعت أصواتًا من أمامي مباشرة. كنت قد وصلت إلى طريق موحل منزو، متعامد على طرف الشارع الذي يشق السوق من المنتصف. استدرت إلى الدرب الممهّد وتتبع الأصوات. كان حذائي يخوض في الوحل مع كل خطوة

ونفسي يخرج في سحابات بيضاء أمامي. كان الممر الضيق، من ناحية، يمتد بحذاء جدول مملوء بالثلوج ربما كانت تجري فيه المياه ربيعًا. وعلى الناحية الأخرى انتصبت صفوف من أشجار السرو المثقلة بالثلوج، متناثرة بين بيوت من الآجر بأسقف مسطحة - لا يزيد أغلبها عن أكشاك طينية - تفصل بينها أزقة ضيقة.

سمعتُ الأصوات مجددًا، أعلى هذه المرة، قادمة من أحد الأزقة. تسلفتُ نحو مدخل الزقاق. وكتمتُ أنفاسي. واختلستُ النظر حول الناصية.

كان حسن يقف في الطرف المسدود من الزقاق في وضع تحدُّ: قبضته مضمومتان، وساقاه منفرجتان قليلًا. وخلفه، على كومة من النفايات والأنقاض، كانت الطائرة الزرقاء. مفتاحي لقلب بابا.

كان ثلاثة صبية يسدُّون طريق الخروج من الزقاق أمام حسن، الثلاثة أنفسهم الذين قابلونا ذاك اليوم على التل، في الصباح التالي لانقلاب داود خان، عندما أنقذنا حسن بنبلته. كان والي يقف على أحد الجانبين، وكمال على الجانب الآخر، وفي المنتصف آصف. شعرتُ بجسدي ينقبض وبرودة تسري في عمودي الفقري. كان آصف يبدو مسترخيًا وواثقًا. كان يدور قبضته النحاسية. وكان الصبيان الآخرون يراوحن بين أقدامهما بتوتر، ينظران من آصف إلى حسن، كما لو كانا يحاصران وحشًا مفترسًا لا مروءة له إلا آصف. قال آصف وهو يدور القبضة النحاسية في يده:

- أين نبلتك أيها الهزاره؟ ماذا قلت؟ «سيكون عليهم أن يغيروا اسمك إلى آصف الأعور». صحيح. آصف الأعور. نبيه أنت. نبيه فعلاً. لكن النباهة سهلة عندما تكون ممسكًا بسلاح محشو.

أدركتُ أن نفسي ما زال مكتومًا. زفرت ببطء وهدوء. شعرت أنني

مشلول. راقبتهم وهم يقتربون من الصبي الذي كبرت معه، الصبي الذي كان وجهه ذو الشفة الأرنبية أول ذكرياتي.

قال آصف:

- لكن اليوم يومٌ سعدك أيها الهزاره.

كان ظهره لي، لكنني أراهن أنه كان يتسم.

- أنا في مزاج مسامح. ما رأيكم في هذا يا أولاد؟

انطلق كمال قائلاً:

- هذا كرم منك. خصوصاً بعد الوقاحة التي عاملنا بها آخر مرة.

كان يحاول أن يتحدث مثل آصف، لكن كان في صوته رعشة. ثم فهمتُ:

لم يكن خائفاً من حسن، ليس فعلاً. كان خائفاً لأنه لا يملك أدنى فكرة عما يجول برأس آصف.

أشار آصف بيده إشارة انصراف:

- «بخشيد» (سامحتك). انتهى الأمر.

انخفض صوته قليلاً.

- بالطبع لا شيء مجاني في هذا العالم، وعفوي عنك ثمنه بسيط.

قال كمال:

- هذا هو العدل.

وأضاف والي:

- لا شيء مجاني.

قال آصف وهو يخطو خطوة باتجاه حسن:

- أنت هزازه محظوظ، لأن اليوم لن يكلفك الأمر سوى الطائرة الزرقاء.
صفقة عادلة يا أولاد، أليس كذلك؟

قال كمال:

- أكثر من عادلة.

حتى من موقعي، كان يمكنني أن أرى الخوف يتسلل إلى عيني حسن،
لكنه هز رأسه:

- أمير أغا فاز بالمسابقة وأنا عدوت وراء تلك الطائرة من أجله. عدوت
حسب الأصول. تلك هي طائرتي.

قال آصف:

- هزازه مُخلص. مُخلص كما الكلب!

جاءت ضحكة كمال حادة متوترة.

- لكن قبل أن تضحي بنفسك من أجله، فكر في هذا: هل كان سيفعل
الأمر نفسه من أجلك؟ ألم تتساءل قط لماذا لا يشركك في الألعاب عندما
يكون عنده ضيوف؟ لماذا يلعب معك فقط عندما لا يكون هناك أحد آخر؟
أنا سأقول لك لماذا أيها الهزازه، لأنك بالنسبة إليه، لست أكثر من حيوان
أليف قبيح. شيء يستطيع أن يلعب به عندما يشعر بالملل، شيء يمكنه أن
يركله عندما يغضب. لا تخدع نفسك أبدًا وتظن أنك أكثر من ذلك.

قال حسن:

- أنا وأمير أغا صديقان.

احمرَّ وجهه.

قال آصف ضاحكًا:

- صديقان؟ يا لك من أحمق مثير للشفقة! سوف تستيقظ يومًا من حلمك الصغير وتعرف أي صديق هو. الآن، «بَسْ»! أعطنا هذه الطائرة.

انحنى حسن والتقط حجرًا.

جفل آصف. تراجع خطوة ثم وقف:

- آخر فرصة أيها الهزاره!

رد حسن بأن رفع ذراعه الممسكة بالحجر.

- كما تريد.

فك آصف أزرار معطفه، وخلعه، وطبقه ببطء متعمد، ثم وضعه بجوار الحائط.

فتحتُ فمي، كدت أقول شيئًا. كدت. ربما كانت بقية حياتي لتتغير بكاملها لو تكلمت. لكنني لم أتكلم. فقط راقبت. مشلولًا.

أشار آصف بيده، فتفرَّق الصبيان الآخرون، مشكلين نصف دائرة، محاصرين حسنًا في الزقاق.

قال آصف:

- لقد غيرت رأيي. سأدعك تحتفظ بالطائرة أيها الهزاره. سأجعلك تحتفظ بها كي تذكرك دائمًا بما سأفعله بك الآن.

ثم هجم عليه. ألقى حسن بالحجر فأصاب آصف في جبهته. عوى آصف وهو يرمي بنفسه على حسن ويسقطه أرضًا. وتبعه والي وكمال.

عضضت كفي. أغلقت عيني.

ذكرى:

هل تعرف أنك وحسنًا رضعتما من الصدر نفسه؟ هل تعرف ذلك، أمير
أغا؟ كان اسمها سكيئة. كانت امرأة هزازه جميلة زرقاء العينين من باميان
وكانت تغني لكما أغنيات زفاف قديمة. يقولون إن هناك رابطة أخوة بين
الناس الذين يرضعون من الصدر نفسه. هل تعرف ذلك؟

ذكرى:

- روبية من كل واحد يا أطفال. روبية واحدة فقط من كل واحد لأفتح
أستار الحقيقة.

يجلس الرجل العجوز مستندًا على جدار طيني. عيناه الضريرتان تشبهان
فضة مصهورة مصبوبة في حفرتين توأمين عميقتين. محدودبًا على عصاه،
يمرر العرّاف يداً مغضنةً على سطح خديه الضامرين. يكوّرها أمامنا.

- ليس سعرًا كبيرًا للحقيقة، أليس كذلك، روبية من كل واحد؟

يُسقط حسن روبية في الكف المدبوعة. أسقط عملي أنا الآخر.

- بسم الله الرحمن الرحيم.

يهمس العرّاف العجوز. يأخذ كفَّ حسن أولًا، يمسح الكف بظفر واحد
محني كالقرن، يدور ويدور، يدور ويدور. ثم تصعد الإصبع إلى وجه حسن
ويصر صريرًا جافًا فيما يتتبع انحناء خديه، والحدود الخارجية لأذنيه. يمسح
عيني حسن بباطن أصابعه الغليظة. تتوقف اليد هناك. تتلكأ. يمر ظلٌّ على
محيًا العجوز. نتبادل أنا وحسن النظرات. يأخذ العجوز بيد حسن ويرد
الروبية إلى كف حسن. يستدير نحوي ويقول:

- ماذا عنك يا صديقي الصغير؟

على الجانب الآخر من الجدار يصيح ديك. يمد العجوز يده لياخذ بيدي فأسحبها.

حلم:

أنا تائه في عاصفة ثلجية. الريح تعوي، تدفع صفائح من الثلج القارس في عيني. أترنح في طبقات من الأبيض. أصرخ طلباً للنجدة، لكن الريح تغرق صرخاتي. أسقط وأرقد وأنا ألهث في الثلج، ضائع في الأبيض، تنوح الريح في أذني. أراقب الثلج وهو يمسح الآثار الطازجة لقدمي. أفكر: أنا شبح الآن، شبح لا تترك قدماه أثراً. أصرخ ثانية، والأمل يتلاشى مثل آثار قدمي. لكن ردّاً مكتوماً يأتيني تلك المرة. أحمي عيني وأتمكن من الجلوس. وعبر ستائر الثلج المتراقصة، ألمح حركة، موجة من الألوان. ويتجسد شكل مألوف. وتمتد لي يد. أرى شقوقاً متوازية عميقة بعرض الكف، تقطر دمًا، يصبغ الثلج. آخذ باليد فتقطع الثلوج فجأة. نحن نجلس في حقل من عشب أخضر، تسبح فوق رأسي كتل رقيقة من السحب. أرفع رأسي وأرى السماء الصافية مليئة بالطائرات، خضراء، صفراء، حمراء، برتقالية. ترف في ضوء الأصيل. إعصار من النفايات والأنقاض هبّ على الزقاق. إطارات دراجات بالية، زجاجات بعلامات مقشّرة، مجلات ممزقة، صحف حال لونها، كلها متفرقة وسط كومة من الطوب وكتل من الأسمنت. وثمة موقد صديء من الحديد الزهر، بفتحة فاعرة، مائل على الجدار. لكن كان هناك شيئان وسط القمامة لم أستطع الكف عن النظر إليهما: أحدهما الطائرة الزرقاء المستندة على الجدار، قرب موقد الحديد الزهر، والثاني بنطال حسن القطيفة البني المرمي على كومة من الطوب المتآكل.

كان والي يقول:

- لا أعرف. والذي يقول إنها خطيئة!

بدا غير واثق، ومستثار، وخائف، كل ذلك في الوقت نفسه. كان حسن يرقد وصدره مثبت إلى الأرض. يمسك كل من كمال ووالي بإحدى ذراعيه، ملوية ومعقوفة من المرفق حتى التصقت يدا حسن بظهره. أما آصف فكان يقف فوقهم، وكعب حذائه طويل الرقبة يسحق مؤخرة عنق حسن.

قال آصف:

- أبوك لن يعرف. ولا خطيئة في تعليم درس لحمار غير محترم.

غمغم والي:

- لا أعرف.

قال آصف:

- أنت حر.

ثم استدار لكمال:

- وماذا عنك؟

- أنا... حسنًا...

قال آصف:

- إنه مجرد هزاره.

لكن كمالًا ظل مشيحًا بوجهه.

ردّ آصف:

- طيب. كل ما أريده منكما يا جبناء أن تثبتاه على الأرض. هل يمكنكما فعل ذلك؟

أوما والي وكمال. وبدا عليهما الارتياح.

ركع آصف خلف حسن، وضع يديه على ردفني حسن ورفع إليتيه العاريتين. أبقى يداً على ظهر حسن وفك بالأخرى بُكْلة حزامه. فتح سَحَاب بنطاله الجينز. أنزل لباسه الداخلي. تركز خلف حسن. لم يقاوم حسن. لم يجهش بالبكاء حتى. كان يحرك رأسه قليلاً ولمحت وجهه. رأيت فيه التسليم. كانت نظرة رأيتها من قبل. رأيتها في عيني خروف.

* * *

غداً العاشر من ذي الحجة، وأول أيام عيد الأضحى، أو عيد القربان، كما يسميه الأفغان. اختار بابا الذبيحة بيده هذا العام أيضاً، خروفاً أبيض بأذنين ملوَّتين.

نقف جميعاً في الباحة الخلفية، أنا وحسن وعلي وبابا. يتلو الملا بعض الأدعية. يهرش في ذقنه. يغمغم بابا هامساً، أنه الأمر. يبدو على صوته الضيق من الأدعية التي لا تنتهي، ذلك الطقس الذي يجعل اللحم حلالاً. يسخر بابا من قصة هذا العيد. كما يسخر من كل ما يتعلق بالدين. لكنه يحترم طقس عيد القربان. العادة أن يُقسَّم اللحم إلى ثلاثة أثلاث: واحد للعائلة، وواحد للأصدقاء، وواحد للفقراء. كل عام، كان بابا يعطيه كله للفقراء. ويقول الغني بدين بما يكفي.

ينهي الملا أدعيته. آمين. يلتقط سكين المطبخ ذا النصل الطويل. تقضي العادة ألا تدع الخروف يرى السكين. يناول عليّ الخروفَ مكعباً من السكر - عادة أخرى، لإضفاء حلاوة على الموت. يرفس الخروف، لكن ليس كثيراً.

يشده الملا من أسفل فكه ويضع النصل على رقبته. ثانية واحدة قبل أن يقطع الحلق بحركة واحدة خبيرة، أرى عيني الخروف. نظرته سوف تسكن أحلامي لأسابيع. لا أعرف لماذا أتابع هذا الطقس السنوي في باحتنا الخلفية؛ تستمر كوايسي طويلًا بعدما يزول الدم عن العشب. لكنني أراقب دائمًا. أراقب لأرى نظرة القبول تلك في عيني الخروف. عبثًا، أتخيل أن الخروف يفهم. أتخيل أن الخروف يرى أن نهايته الوشيكة من أجل هدف أسمى. تلك هي النظرة...

توقفتُ عن الفُرجة، وابتعدتُ عن الزقاق. كان ثمة شيء دافئ يجري على معصمي. رمشت عيناى، ورأيت أنني لا أزال أعض على كفي، بقوة جعلت الدم يسيل من مفاصل أصابعي. وانتبهت لشيء آخر. كنتُ أبكي. ومن الناصية كنت أسمع نخيرًا منتظمًا لآصف.

كانت أمامي فرصة أخيرة لأتخذ قرارًا. فرصة أخيرة لأقرر أي إنسان سأصبح. كان يمكنني أن أدخل الزقاق، وأن أقف للذود عن حسن - كما ذاد عني في كل المرات السابقة - وأقبل ما يحدث لي. أو أن أجري.

في النهاية، جريت.

جريت لأنني كنت جبانًا. كنت خائفًا من آصف وما قد يفعله بي. كنت خائفًا أن يصيبني أذى. هذا ما قلته لنفسى وأنا أدير ظهري للزقاق، لحسن. هذا ما أقنعت نفسى به. الحقيقة أنني كنت أطمح للجبن، لأن البديل، السبب الحقيقي الذي جعلني أجري، هو أن آصف كان مصيبًا: لا شيء مجاني في هذا العالم. ربما كان حسن الثمن الذي كان يجب أن أدفعه، الخروف الذي يجب أن أذبحه، لأفوز ببابا. هل كان ثمنًا عادلاً؟ طافت الإجابة بذهني الواعي قبل أن أتمكن من إيقافها: إنه مجرد هزازه، أليس كذلك؟

جريتُ عائدًا من حيث أتيتُ. جريت عائدًا إلى السوق التي باتت مهجورة.

جنحتُ إلى كشك واتكأت على بابهِ المتأرجح الموصد. وقفت هناك ألّهت،
يتصّبب مني العرق، متمنيًا لو كانت الأمور قد سارت على نحو آخر.

بعد نحو خمس عشرة دقيقة، سمعت أصواتًا ووقع أقدام تجري. اندسستُ
خلف الكشك وتابعت آصف والولدين الآخرين يجرون بأقصى سرعة،
يضحكون وهم يركضون في الحارة المهجورة. أجبرتُ نفسي على الانتظار
عشر دقائق أخرى. ثم سرتُ عائداً إلى الدرب الممهّد الذي يمتد بطول
الجدول الممتلئ بالثلوج. ضيقت عيني في العتمة ورأيت حسناً يمشي ببطء
تجاهي. التقينا قُرب شجرة باتولا جرداء على حافة الجدول.

كانت الطائرة الزرقاء في يديه، كان ذلك أول ما رأيت. ولا يمكن أن أكذب
وأقول إنني لم أتفحصها بعيني للتأكد من عدم وجود أي شرخ أو مزق فيها.
كان قفطانهُ الـ«شابان» ملوّثاً بلطخ من الطين في الأمام وقميصهُ ممزقاً من
أسفل الياقة. وقف. ترنّح كما لو كان سيسقط مغشياً عليه. ثم صلب عودهُ.
وناولني الطائرة الورقية.

قلت:

- أين كنت؟ لقد بحثت عنك.

كان نطق تلك الكلمات كمضغ الحجر.

مسح حسن وجهه بكمّهُ، مجفّفاً المخاط والدموع. انتظرتُ أن يقول شيئاً،
لكننا ظللنا واقفين هناك في صمت، في الليل المعتم. شعرت بامتنان لظلال
أول المساء التي سقطت على وجه حسن وأخفت وجهي. كنت سعيداً لأنني
غير مضطر لتثبيت عيني في عينيه. هل يعرف أنني أعرف؟ وإن كان يعرف،
فماذا أرى لو نظرت في عينيه؟ اللوم؟ الغضب؟ أو، حاشا لله، أكثر ما كنت
أخافه: براءة الإخلاص. لم أكن لأحتمل رؤيتها.

شرع يقول شيئًا ثم تهدّج صوته. أغلق فمه، وفتحته، ثم أغلقه ثانية. رجع خطوة إلى الخلف. مسح وجهه. وبدا أننا أقرب ما نكون من مناقشة ما حدث في الزقاق. ظننت أنه قد انفجر باكياً، لكنه، وكم كان ذلك مريحاً، لم يفعل، وتظاهرتُ بأنني لم أسمع تهدّج صوته. تماماً كما تظاهرتُ أنني لم أر البقعة الداكنة في مؤخرة بنطاله. أو تلك القطرات الضئيلة التي تقطر بين ساقيه وتلطّخ الثلج بالأسود.

- أغا صاحب سوف يقلق.

كان هذا هو كل ما قاله. ثم استدار عني وعرج مبتعداً.

* * *

حدث الأمر كما تخيلته تماماً. فتحتُ باب المكتب المليء بالدخان ودخلت. كان بابا ورحيم خان يشربان الشاي وينصتان إلى معمة الأخبار في الراديو. أدارا رأسيهما. ثم تراقصت ابتسامة على شفتي أبي. فتح ذراعيه. وضعتُ الطائرة على الأرض ودخلتُ بين ذراعيه المشعرتين الغليظتين. دفنتُ وجهي في دفء صدره وبكيت. أمسك بي بابا، وهزني للخلف والأمام. بين ذراعيه، نسيت ما فعلت. وكان ذلك أمراً طيباً.

لأسبوع كامل، لا أرى حسناً إلا بالكاد. كنت أستيقظ لأجد خبزاً محمصاً وشايًا مغليًا وبيضة مسلوقة موضوعة على طاولة المطبخ. وكانت ملابس اليوم تُكوى وتُطوى، وتوضع على كرسي الخيزران في الردهة حيث يكويها حسن عادة. كانت العادة أن ينتظرنني ليجلس معي على طاولة الإفطار قبل أن يبدأ الكي - هكذا كان يمكن لنا أن نتكلم. وقد اعتاد أن يغني أيضًا، بصحبة هسيس المكواة، يغني أغاني هزازه قديمة عن حقول الزنبق. الآن، وحدها الملابس المطوية تحييني. هي وإفطارٌ قلماً أنهيه بأية حال.

في صباح ملبد بالغيوم، وأنا أدرج البيضة المسلوقة في طبقي، دخل علي حاملاً كومة من الحطب. سألته:

- أين حسن؟

قال علي وهو يركع بجوار الموقد:

- عاد للنوم.

ثم فتح بابه المربع الصغير.

هل سيتمكن حسن من اللعب اليوم؟

توقف علي وفي يده قطعة حطب. وارتسمت على وجهه نظرة قلقة:

- مؤخرًا، يبدو لي أن كل ما يريد أن يفعله هو النوم. إنه ينجز الأشغال المنزلية - أرى ذلك - لكن بعدها لا يرغب إلا في أن يزحف أسفل بطانيته. هل لي أن أسألك سؤالًا؟

- إذا أردت.

- بعد مسابقة الطائرات الورقية تلك، رجع إلى البيت داميًا وكان قميصه ممزقًا. سألتُه عما حدث فقال إن الأمر بسيط، وإنه دخل في شجار بسيط مع بعض الأطفال على الطائرة.

لم أقل شيئًا، فقط واصلتُ دحرجة البيضة في طبقتي.

- هل حدث له شيء، أمير أغا؟ شيء لم يخبرني به؟

هزرتُ كتفي:

- وكيف لي أن أعرف؟

- سوف تخبرني، أليس كذلك؟ إن شاء الله، سوف تخبرني إذا كان قد حدث شيء.

رددتُ:

- كما قلت، كيف لي أن أعرف ما به؟ ربما أنه مريض. يمرض الناس طوال الوقت يا علي. الآن، هل تتركني أموت من البرد أم تشعل الموقد اليوم؟

* * *

تلك الليلة سألت بابا إذا ما كان بوسعنا أن نذهب إلى جلال أباد الجمعة التالية. كان يهتز إلى الأمام والخلف على كرسيه الجلدي الدوار خلف مكتبه،

يقرأ جريدة. أنزلها، وخلع نظارة القراءة التي كنت أكرهها كثيرًا - لم يكن بابا عجوزًا، على الإطلاق، وما زالت أمامه سنوات طويلة في الحياة، فلماذا يرتدي تلك النظارة الغبية؟

قال:

- لمَ لا؟!

أخيرًا، أصبح بابا يوافق على كل طلباتي. ليس ذلك فحسب، بل إنه قبل ليلتين، سألني هو ما إذا كنت أريد أن أشاهد فيلم «إل سيد» بطولة «تشارلتون هستون» في سينما «أريانا».

- هل تريد أن تطلب من حسن أن يأتي معنا إلى جلال أباد؟

لماذا كان بابا يفسد الأمور بتلك الطريقة؟ قلت:

- إنه مريض.

- حقًا؟

توقف بابا عن الاهتزاز في مقعده.

- ماذا به؟

هزرت كتفي وغطست في الكنبه بجوار المدفأة:

- نزلة برد أو شيء من هذا القبيل. علي يقول إنه يحاول أن يتخلص منها بالنوم.

قال بابا:

- لم أرَ حسنًا كثيرًا الأيام الماضية. هذا هو الموضوع، إذن، نزلة برد؟

لم أستطع أن أمنع نفسي من كراهية الطريقة التي انعقد بها حاجباه من القلق.

- مجرد نزلة برد. إذن هل سنذهب يوم الجمعة، بابا؟

قال وهو يدفع نفسه بعيدًا عن المكتب:

- نعم، نعم. مؤسفٌ موضوع حسن! فكرت أنك سوف تستمتع أكثر لو جاء معنا.

قلت:

- يمكن لنا نحن الاثنين أن نستمتع معًا.

ابتسم بابا. وغمز. ثم قال:

- البس ملابس ثقيلة.



كان يجب أن نكون أنا وهو فقط - هكذا أردت للأمور أن تسير - لكن مع حلول ليلة الأربعاء كان بابا قد تمكّن من دعوة نحو عشرين شخصًا آخر. اتصل بابن عمه هُمانيون - كان في الواقع ابن ابن عم والد بابا - وقال له إنه سيذهب إلى جلال آباد يوم الجمعة، وقال هُمانيون، الذي دَرَس الهندسة في فرنسا ويمتلك منزلًا في جلال آباد، إنه سيكون سعيدًا باستضافة الجميع، سوف يأتي بزوجتيه وأطفاله. وبالمناسبة، وبما أن ابنة العمة شقيقة وأسررتها قد جاءت في زيارة من هرات، ربما تحب أن تأتي هي الأخرى، ولما كانت تقيم عند ابن العم نادر في كابول، فيجب دعوة أسرته أيضًا حتى وإن كان بين هُمانيون ونادر نوع من العداوة، وبالطبع إذا كان نادر سيُدعى، فلا مناص من دعوة شقيقه فاروق أيضًا وإلا سيُجرح شعوره وربما لن يدعوهم لزفاف ابنته الشهر القادم و...

ملأنا ثلاث سيارات «فان»: ركبْتُ مع بابا ورحيم خان وكاكا هُمانيون -

كان بابا قد علمني في صغري أن أدعو كل الرجال الأكبر مني «كاكا»، أو العم، وكل النساء، خالة. وركبت معنا أيضًا زوجتا كاكاهمايون - الزوجة الكبرى ذات الوجه الممطوط واليدين المغطاتين بالبثور والزوجة الصغرى التي تفوح منها دوماً رائحة العطر وترقص وعيناها مغمضتان - إضافة إلى ابنتي كاكاهمايون التوأمين. جلستُ في المقعد الخلفي، أشعر بالغثيان والدوار، محشورًا بين التوأمين ابنتي الأعوام السبعة، كل منهما تمد يدها من فوق حجري لتلطم الأخرى طوال الطريق. يستغرق الطريق لجلال أباد ساعتين عبر طرق جبلية تتلوى بحذاء سفح شديد الانحدار، وكانت معدتي تنقبض مع كل انعطافة حادة. كان كل من في السيارة يتكلمون، يتكلمون بصوت عالٍ في الوقت نفسه، يصرخون تقريبًا، وتلك طريقة الأفغان في الكلام. طلبت من إحدى التوأمين - فضيلة أو كريمة، لم أستطع قطّ التمييز بينهما - أن تُبدّل معي مكانها بجوار النافذة حتى أستنشق بعض الهواء النقي لأنني أعاني من الدوار. أخرجت لسانها وقالت لا. قلت لها حسنًا، لكنني لست مسؤولًا إذا تقيأتُ على فستانها الجديد. بعد دقيقة، كنت أنحني خارج النافذة. أراقب الطريق المليء بالحفر وهو يطلع وينزل، ويلوي ذيله خلف الجبل، أعد الشاحنات الملونة المكدسة برجال مُقرفصين وهي تتدحرج متجاوزة إيانا. جربت إغلاق عيني، وتركت الريح تضرب خدي، وفغرتُ فمي لأبتلع الهواء النقي. لكنني لم أشعر بتحسن. ولكزني إصبعٌ في جنبي. كانت فضيلة أو كريمة.

قلتُ:

- ماذا؟

قال بابا من خلف عجلة القيادة:

- كنت أخبرهم عن المسابقة.

كان كاكاهُمَايون وزوجته يتسمون لي من الكنبه الوسطى.

قال بابا:

- كانت هناك مائة طائرة ورقية في السماء ذلك اليوم. صح يا أمير؟

تمت:

- أظن ذلك.

- مائة طائرة، هُمَايون جان. من دون تفاخر. والطائرة الوحيدة التي ظلت تطير إلى نهاية اليوم كانت طائرة أمير. ولديه آخر طائرة في البيت، طائرة زرقاء جميلة. عدا وراءها حسن وأمير معًا.

قال كاكاهُمَايون:

- مبروك.

وصفقت زوجته الأولى، ذات البثور، قائلة:

- واه واه، أمير جان، كلنا فخورون بك!

وانضمت إليها الزوجة الصغرى. ثم شرع الجميع يصفقون، وينهلون عليّ بالمديح، ويتكلمون عن مدى فخرهم بي. وحده رحيم خان، الجالس على المقعد المجاور لبابا، كان صامتًا. كان ينظر إليّ بطريقة غريبة.

قلت:

- من فضلك توقف، بابا.

- ما الأمر؟

غمغمت وأنا أميل على مقعدي، ضاغطًا على ابنتي كاكاهُمَايون:

- أشعر بغثيان.

تلوى وجه فضيلة أو كريمة، وصرخت:

- توقف، كاكا! وجهه أصفر! لا أريده أن يتقيأ على فستاني الجديد!

شرع بابا في التوقف، لكنني لم أستطع الانتظار. بعد دقائق، كنت أجلس على صخرة على جانب الطريق فيما يهوون السيارة. كان بابا يدخن مع كاكا هُمَايون الذي كان يرجو فضيلة أو كريمة أن تكف عن البكاء، ويقول لها إنه سيشتري لها فستاناً آخر في جلال أباد. أغمضتُ عيني، وأدركتُ وجهي نحو الشمس. كانت أشكال صغيرة تتشكل خلف جفني، مثل أيادي تلعب بالظلال على جدار. كانت تتلوَّى، وتتداخل، وتشكّل صورة واحدة: صورة بنطال حسن القطيفة البني مُلقى على كومة من الطوب القديم في الزقاق.

* * *

كان منزل كاكا هُمَايون الأبيض المكون من طابقين في جلال أباد له شرفة تطل على بستان فسيح بسور، من أشجار التفاح والكاكا. وكانت هناك أسيجة من الأشجار، يقلّمها البستاني، صيفاً، على أشكال حيوانات، وحوض سباحة مبطن ببلاط زمردى اللون. جلست على حافة الحوض، الفارغ إلا من طبقة من الثلج المجروش في قاعه، أؤرجح فيه قدمي. كان أطفال كاكا هُمَايون يلعبون الاستغماية في الطرف الآخر من الباحة. وكانت النساء تطهو. وكان يمكنني أن أشم البصل وقد قُدح، وأن أسمع الأصوات الصادرة من قدور الطهي بالبخار، تصحبها موسيقى وضحكات. كان بابا ورحيم خان وكاكا هُمَايون وكاكا نادر يجلسون في الشرفة، يدخنون. وكان كاكا هُمَايون يقول إنه سيأتي بجهاز العرض ليعرض عليهم الصور التي التقطها في فرنسا. بعد عشرة أعوام من عودته من باريس لا يزال يعرض تلك الصور الغبية.

لم يكن من المفترض أن أشعر بهذا الشعور. أصبحنا أنا وبابا صديقين في نهاية المطاف. ذهبنا إلى حديقة الحيوان قبل بضعة أيام، وشاهدنا مرجان الأسد، ورشقتُ حصاةً على الدب عندما تأكدت أن أحداً لا يراني. وذهبنا بعدها إلى مطعم كباب «دادخوده»، على الجانب الآخر من سينما بارك، وتناولنا كباب الضأن مع «نان» طازج خرج للتو من الـ«تندور». وروى لي بابا قصصاً عن أسفاره إلى الهند وروسيا، والناس الذين قابلهم، ومنهم الزوجان عديما الذراعين، عديما الساقين، في بومباي، اللذان استمر زواجهما أربعين عاماً أنجبا خلالها أحد عشر طفلاً. كان ذلك ممتعاً، أن أقضي يوماً كهذا بصحبة بابا، وأن أستمع إلى تلك القصص. لقد نلت أخيراً ما كنت أصبو إليه طيلة تلك السنوات. غير أنني الآن، بعدما نلتها، بتُّ أشعر أنني فارغ مثل ذلك الحوض الأشعث الذي أؤرجح فيه قدمي.

أعدت الزوجات والبنات العشاء - أرز وكفتة و«قورمه» الدجاج - عند مغيب الشمس. تناولنا طعامنا بالطريقة التقليدية، جالسين على وسائل حول الغرفة، والمفارش مبسوطة على الأرض، نأكل بأيدينا من صحاف مشتركة في مجموعات من أربعة أو خمسة. لم أكن جائعاً لكنني جلست وتناولت الطعام على أية حال مع بابا وكاكا فاروق وابنا كاكا هُمانيون. كان بابا، الذي قد تناول بضع كؤوس من الـ«سكوتش» قبل العشاء، يتشدق بمسابقة الطائرات الورقية، وكيف تفوقتُ على الجميع، وكيف عدتُ إلى البيت بالطائرة الأخيرة. كان صوته المتباهي يسيطر على الغرفة. وكان الناس يرفعون رؤوسهم من فوق الصحاف ويُغدقون عليّ بالتهاني. وربّت كاكا فاروق على ظهري بيده النظيفة. وانتابني رغبةٌ أن أغرس سكيناً في عيني.

لاحقاً، وبعد منتصف الليل بكثير، وبعد بضع ساعات من البوكر بين بابا وأبناء عمومته، تمدد الرجال للنوم على حشيات متوازية في الغرفة

التي تناولنا فيها طعامنا. وصعدت النساء إلى الطابق العلوي. بعد ساعة، كنت لا أزال عاجزاً عن النوم. ظللت أتململ وأتقلب فيما يزوم أقاربي ويتنهدون ويغطون في نومهم. جلستُ منتصباً. وتسرب شعاع من الضوء عبر النافذة.

- لقد شاهدت حسناً وهو يتعرض للاغتصاب.

لم أقلها لأحد. تلملم بابا في نومه. وزام كاكاهمايون. كان جزءٌ مني يأمل أن يستيقظ أحدهم ويسمع، كي لا يكون عليّ أن أعيش بتلك الكذبة بعد الآن. لكن أحداً لم يستيقظ وأدركت، في الصمت الذي أعقب ذلك، طبيعة لعنتي الجديدة: كان لا بد أن أتعايش مع الأمر.

فكرتُ في حلم حسن، ذلك الذي كنا نسبح فيه في البحيرة. لقد قال «لا يوجد وحش، بل ماء فقط»، لكنه كان مخطئاً. كان في البحيرة وحش، شدّ حسن من كاحليه، شدّه إلى قاع البحيرة الدامس. كنت ذلك الوحش. ومنذ تلك الليلة عرفت الأرق.

* * *

لم أتكلم مع حسن حتى منتصف الأسبوع التالي. كنت أتناول غدائي وكان حسن يغسل الصحون. وفيما كنت أصعد إلى الطابق العلوي، متجهاً إلى غرفتي، سألني حسن إن كنت أريد أن نرتقي التل. قلت إنني متعب. وبدا حسن متعباً أيضاً - فقد بعض الوزن وتشكلت دوائر رمادية تحت عينيه المنتفختين. لكن عندما طلب ثانية، وافقتُ بعد لأي.

ارتقينا التل، وحذاءنا يغوصان في الثلج الموحل. لم ينطق أي منا بكلمة. جلسنا تحت رمانتنا وأنا أعرف أنني ارتكبت خطأ. ما كان يجب عليّ أن أصعد

التل. الكلمات التي نقشتها على جذع الشجرة بسكين علي، سكين المطبخ: «أمير وحسن: سلطانا كابول»... لم أكن أتحمّل النظر إليها.

طلب مني أن أقرأ له من الـ«شاهنامه» فقلت له إنني غيّرت رأيي. قلت له إنني أريد الرجوع إلى غرفتي. أشاح بوجهه بعيداً وهز كتفيه. نزلنا الطريق الذي صعدناه، في صمت. وللمرة الأولى في حياتي، ما كنت أطيق صبراً على حلول الربيع.

* * *

ذكرياتي عن بقية ذلك الشتاء من عام ١٩٧٥ مشوشة إلى حد كبير. أتذكر أنني كنت أسعد كثيراً وبابا في الدار. كنا نأكل معاً، نذهب لمشاهدة فيلم، نزور كاكاهمايون أو كاكافاروق. أحياناً كان يمر علينا رحيم خان فيتركني أبي أجلس في غرفة المكتب وأشرب الشاي معهما. بل جعلني أقرأ له بعضاً من قصصي. كانت أوقاتاً طيبة واعتقدت أنها سوف تستمر. وهذا ما كان بابا أيضاً يعتقد. أظن. كان علينا كلياً أن نعرف الحقيقة. لبضعة أشهر على الأقل بعد مسابقة الطائرات الورقية، أغرقنا أنا وبابا نفسيهما في أوهام حلوة، رأى كل منا الآخر بطريقة لم يعهدها من قبل. لقد خدعنا نفسيهما في الواقع، وظننا أن لعبة مصنوعة من الورق الشفاف والصمغ والبامبو يمكن أن تجسر الهوة بيننا بعض الشيء.

لكن عندما كان بابا يخرج - وكان يخرج كثيراً - أغلق حجرتي على نفسي. أقرأ كتاباً كل يومين، وأكتب قصصاً، وأتعلّم كيف أرسم الأحصنة. أسمع حسناً يجول في المطبخ صباحاً، أسمع رنين الفضيات، صفير غلاية الشاي. أنتظر حتى أسمع صوت إغلاق الباب، ووقتها فقط أنزل لأتناول الطعام. وفي أجندتي، أضع دائرة حول أول أيام الدراسة، وبدأت العد التنازلي.

كانت محاولات حسن المستمرة لإشعال جذوة علاقتنا مجددًا من دواعي جزعي. أتذكر المرة الأخيرة. كنت في غرفتي، أقرأ ترجمة فارسية مختصرة لرواية «إيفانهو»، عندما طرّق بابي.

- من؟

قال من الجانب الآخر:

- سأذهب إلى الخباز لشراء الـ«نان»... إذا كنت تريد أن تأتي معي.

قلتُ وأنا أحك صدغي:

- أعتقد أنني سأقرأ قليلًا.

مؤخرًا، كان يصيبني صداد كلما يكون حسن بجواري.

- إنه يوم مشمس.

- أرى ذلك.

- ربما يكون من الممتع أن نذهب في جولة.

- اذهب أنت.

قال:

- أتمنى أن تأتي معي.

ثم توقف. سمعتُ شيئًا يخبط الباب، ربما جبهته.

- لا أعرف ماذا فعلتُ يا أمير أغا. أتمنى أن تخبرني. لا أعرف لماذا لم

نعد نلعب معًا.

- لم تفعل شيئًا يا حسن. اذهب فحسب.

- قل لي. ولن أفعله ثانية.

دفنت رأسي في حجري، وعصرتُ صدغيَّ بين ركبتيَّ، مثل ملزمة. قلتُ،
وأنا أضغط جفوني مغمضًا عينيَّ:

- سأقول لك ما أريد أن تكفَّ عن فعله.

- أي شيء.

- أريد أن تكف عن مضايقتي. أريد أن تذهب.

تمنيتُ لو يوبخني، لو يفتح الباب ويرد عليَّ - كان ذلك سيجعل الأمور
أسهل، وأفضل. لكنه لم يفعل شيئًا من هذا القبيل، وعندما فتحت الباب
بعدها بدقائق، لم يكن هناك. تهاويت على فراشي، ودفنت رأسي تحت
الوسادة، وبكيت.

* * *

بعد ذلك، ظل حسن يحوم على هامش حياتي. كنت أحرص على
ألا يتقاطع طريقانا إلا في أقل الحدود، وأخطط يومي وفقًا لذلك، لأن وجوده
جواني كان يجعل الأكسجين يتسرب من الغرفة. كان صدري يضيق فلا
أعود قادرًا على سحب ما يكفي من الهواء؛ كنت أقف هناك، أشهق داخل
فقاعتي الصغيرة الفارغة من الهواء. لكنه كان موجودًا حتى في غيابه، موجودًا
في الملابس المغسولة يدويًا والمكوية على كرسي الخيزران، في الخُف
الدافئ الموضوع أمام بابي، في الخشب الذي يحترق في الموقد حين أنزل
لتناول الإفطار. كلما استدرت، رأيت علامات على إخلاصه، على إخلاصه
اللعين الذي لا يلين.

في أوائل ذاك الربيع، وقبل أيام من بدء العام الدراسي، كنا أنا وبابا

نزرع الزنبق في الحديقة. كانت معظم الثلوج قد ذابت وأصبحت التلال في الشمال مرقطة برقع من العشب الأخضر. كان صباحًا رماديًا باردًا، وكان بابا مقرفصًا بجانبني، يحفر الأرض ويغرس البصيلات التي أناوله إياها. كان يخبرني أن معظم الناس يظنون أن زراعة الزنبق أفضل في الخريف وأن ذلك ليس صحيحًا، عندما قلت أخيرًا بشكل مباشر:

- بابا، هل فكرت يومًا أن تأتي بخدم جدد؟

أسقط بصيلة الزنبق وغرس الجاروف في التراب. خلع قفازَه. لقد أثرت جزعه.

- «تِشه» (ماذا قلت)؟

- كنت أتساءل فحسب، لا أكثر.

قال بابا بقسوة:

- ولماذا أفكر في ذلك؟

قلت، وصوتي ينخفض إلى همهمة:

- لا شيء، أعتقد. كان مجرد سؤال.

وشعرت بالأسف لأنني قلت ذلك.

- هل للأمر علاقة بك وبحسن؟ أعرف أن هناك شيئًا بينكما، لكن أيًا كان، عليك أنت أن تتعامل مع الأمر، لا أنا. أنا سأظل بعيدًا عن هذا الأمر.

- آسف، بابا.

لبس قفازَه مجددًا، وقال وهو يضغط أسنانه:

- لقد كبرتُ مع علي. أبي جاء به إلى المنزل، كان يحب عليًا مثل ابنه.

أربعون عامًا ظل علي مع أسرتي، أربعون عامًا لعينة. ثم تظن أنني سأرمي به إلى الخارج هكذا؟!

كان قد أدار عينيه تجاهي حينذاك، ووجهه أحمر مثل الزنبق.
- لم أمد يدي عليك أبدًا يا أمير، ولكن إذا قلت ذلك ثانية...
أشاح بوجهه، وهزَّ رأسه:

- تجلب عليّ العار. وحسن... حسن لن يذهب إلى أي مكان، هل تفهم؟
طأطأت رأسي وجرفت قبضة من التراب البارد. وتركتها تنساب من بين أصابعي.
زار أبي:

- قلت، هل تفهم؟
جفلت.

- نعم، بابا.
ردَّ بابا:

- حسن لن يذهب إلى أي مكان!

حفر حفرةً جديدةً بالجاروف، ضاربًا التراب بأقوى مما يلزم:
- سيظل هنا معنا، حيث ينتمي. ذلك هو بيته ونحن أسرته. إياك وأن
تسألني هذا السؤال ثانية!

- لن أفعل، بابا. أنا آسف.
وزرعنا بقية الزنبق في صمت.

شعرت بارتياح عندما بدأت الدراسة في الأسبوع التالي. كان التلاميذ يتمشون في الفناء، بكراريسهم الجديدة وأقلامهم الرصاص المبرية، يركلون التراب، ويثرثرون في جماعات، وينتظرون صافرة كابتن الفصل. قاد أبي سيارته على الطريق الترابي الذي يفضي إلى المدخل. كانت المدرسة بناية من طابقين بنوافذ مكسورة وطرقات معتمة معبّدة بالحصي، ما زالت بقع من دهانها الأصفر الكئيب الأصلي تظهر بين قطع الجص المقشّر. كان أغلب التلاميذ يذهبون إلى المدرسة سيرًا على الأقدام، وكانت سيارة بابا «موستانج» تجتذب أكثر من نظرة حاسدة. كان يجب أن أشعر بالفخر وهو يوصّلي - في الماضي كنت لأفتخر - لكن الشعور الذي انتابني لم يكن سوى نوع من الإحراج. الإحراج والخواء. ومضى بابا بسيارته من دون أن يودعني.

تجاوزت المقارنات الاعتيادية لندوب مصارعة الطائرات الورقية ووقفت في الطابور. دق الجرس ومشينا بانتظام نحو فصولنا، في طابور مزدوج. جلست في الصف الخلفي. وفيما كان مدرس اللغة الفارسية يوزع علينا كتب النصوص، دعوت أن يُغرقنا بحمل ثقيل من الواجب المنزلي.

منحتني المدرسة سببًا للجلوس في غرفتي ساعات طويلة. ولفترة، انصرف ذهني عما حدث في ذلك الشتاء، عما سمحت له أن يحدث. لبضعة أسابيع، شغلت نفسي بالجاذبية والعزم، الذرات والخلايا، الحروب «الأنجلو - أفغانية»، بدلًا من التفكير في حسن وما حدث له. لكن عقلي كان يرجع دائمًا إلى الزقاق. إلى بنطال حسن القطيفة البني المُلقي على الطوب. إلى قطرات الدم وهي تصبغ الثلج بالأحمر الداكن، الأسود تقريبًا.

ذات عصر غائم ممل في أوائل ذاك الصيف، طلبت من حسن أن يصعد معي إلى التل. قلت له إنني أريد أن أقرأ له قصة جديدة كتبتها. كان يُعلق

الملابس لتجف في الباحة ورأيت حماسته في الطريقة المتعجلة التي أنهى بها عمله.

تسلقنا التل، وتبادلنا كلمات قليلة. سألني عن المدرسة، عما أتعلمه، وتكلمت أنا عن مدرّسيّ، وخصوصًا مدرس الرياضيات الخسيس الذي يعاقب الطلبة الثرثارين بأن يحشر قضيبًا معدنيًا بين أصابعهم ثم يعصرها معًا. انقبض حسن لسماع ذلك، وقال إنه يتمنى ألا يحدث لي ذلك أبدًا. قلت إنني ظللت محظوظًا حتى الآن، مع أنني أعرف أن الحظ لا علاقة له بالأمر. كنت أتكلم أنا الآخر في الفصل. لكن والدي ثري والجميع يعرفونه، وهذا ما يعفيني من عقاب القضيب الحديدي.

جلسنا مستندين على جدار المقبرة الواطئ تحت الظلال التي تلقي بها شجرة الرمان. بعد شهر أو شهرين سوف تغطي الأعشاب الصفراء اليابسة سفح التل، لكن أمطار الربيع ظلت تهطل لوقت أطول ذاك العام، شاقة طريقها إلى بواكير الصيف، وكان العشب لا يزال أخضر، تتناثر فيه بعض الزهور البرية. أسفلنا، كانت بيوت وزير أكبر خان ذات الأسقف المسطحة والجدران البيضاء تلمع في نور الشمس، والملابس المعلقة على حبال الغسيل في ساحاتها تتطاير مع النسيم راقصة مثل الفراشات.

قطفنا دسته من حبات الرمان. وفردت القصة التي قد جلبتها معي، وأمسكت بالصفحة الأولى، ثم وضعتها. وقفت والتقطت رمانة رطبة كانت قد سقطت على الأرض.

قلت، وأنا أقذف بالثمرة إلى أعلى وألقفها:

— ماذا ستفعل لو رميتك بهذه؟

ذوت ابتسامة حسن. بدا أكبر سنًا مما أتذكره. لا، ليس أكبر، بدا كبيرًا.

هل يُعقل هذا؟ ارتسمت الخطوط في وجهه الذي لفحته الشمس وانتشرت
الغضون حول عينيه وفمه. وربما أكون أنا من أمسك بسكين وحفر تلك
الخطوط على وجهه.

كررتُ:

- ماذا تفعل؟

بهت وجهه. بجواره، كانت صفحات قصتي المشبوكة بدبوس، التي
وعدته بأن أقرأها له، ترفرف مع النسيم. رشقته بالرمانة. أصابته في صدره،
وانفجر رذاذ الثمرة الحمراء. جاءت صرخة حسن حُبلى بالدهشة والألم.

- رُدَّ لي الضربة.

نظر حسن إلى بقعة الرمان على صدره، ثم إليَّ.

- انهض! رُدَّ الضربة.

وقف حسن بالفعل، لكنه ظل واقفاً، وعلى وجهه دهشة رجل سحبه المد إلى
عمق المحيط، فيما كان، قبل لحظة واحدة، يستمتع بنزهة لطيفة على الشاطئ.
رشقته برمانة أخرى، في كتفه تلك المرة. تناثرت عصارتها على وجهه.
بصقت.

- رُدَّ الضربة! رُدَّ الضربة يا ملعون!

تمنيت لو يفعل. تمنيت لو يُنزل بي العقاب الذي أشتهيه، ربما أنام الليل
أخيراً. ربما تعود الأمور إلى سابق عهدها بيننا. لكنَّ حسنًا لم يحرك ساكنًا
وأنا أرشقته مرة بعد أخرى. قلت:

- أنت جبان. لست سوى جبان ملعون!

لا أعرف كم مرة رشقته. كل ما أعرفه أن حسنًا، عندما توقفت في النهاية كان يلهث متعبًا، وملطخًا بالأحمر كما لو كان صفًّا كامل من الرماة قد أطلقوا عليه نيرانهم. سقطت على ركبتيّ، مجهّدًا، مستنفّدًا، محبّطًا.

ثم التقط حسن رمانة. وسار ناحيتي. فتحها وسحقها على جبهته. قال بصوت متهدج، والعصارة الحمراء تسيل على وجهه مثل الدم:

- ما رأيك؟ هل أنت راضٍ؟ هل تشعر بتحسّن؟

ثم استدار وبدأ ينزل التل.

سمحت لدموعي بالانهمار، وأنا أهتز إلى الخلف والأمام على ركبتيّ. (ماذا أفعل معك يا حسن؟ ماذا أفعل معك؟) لكن عندما جفت الدموع وأنا أنزل التل بخطوات ثقيلة، كنت قد عرفت الإجابة عن ذلك السؤال.

* * *

بلغتُ الثالثة عشرة في صيف ١٩٧٦، الصيف قبل الأخير الذي عاشته أفغانستان في سلام بعيدًا عن الأنظار. كانت الأمور قد أخذت تفتّر ثانية بيني وبين بابا. وأعتقد أن ذلك بدأ مع تعليقي الغبي يوم كنا نزرع الزنبق، حول جلب خدم جدد. وقد ندمت على النطق بذلك - ندمت حقًا - لكنني أعتقد أن الفاصل القصير من السعادة بيننا كان سينتهي بأية حال، حتى لو لم أنطق. ربما ليس بتلك السرعة، لكنه كان لينتهي. بنهاية الصيف، حل حك الملاعق والشوكات في الأطباق محل أحاديث طاولة الطعام وعاد بابا للانسحاب إلى مكتبه بعد العشاء، وإغلاق الباب. وعدت إلى تصفّح حافظ والخيام، وقرض أظافري حتى الجلد، وكتابة القصص. كنت أحتفظ بالقصص في كومة أسفل فراشي، أحتفظ بها من باب الاحتياط، وإن كنت أشك في أن يعود بابا ليطلب مني ثانية أن أقرأها عليه.

كان شعار بابا في تنظيم الحفلات هو: لا تكون الحفلة حفلة ما لم تدعُ الدنيا كلها. أتذكر وأنا أمر بعينيَّ على قائمة المدعوين قبل أسبوع من حفل عيد ميلادي، فلا أتعرف على الأقل على ثلاثة أرباع الكاكات والخالات الذين يفوق عددهم أربعمئة والذين سيجلبون لي الهدايا ويباركون لي بلوغي الثالثة عشرة. ثم أدركت أنهم لن يأتوا من أجلي في واقع الأمر. كان عيد ميلادي، لكنني كنت أعرف نجم الليلة الحقيقي.

لأيام، كانت الدار تعج بأناس استأجرهم بابا للمساعدة. كان هناك صلاح الدين الجزار، الذي ظهر مع عجل وخروفين مربوطين بحبل، ورفض أن يتقاضى ثمن أيٍّ من الثلاثة. وقد ذبح الحيوانات بنفسه في الباحة قرب شجرة الحور. «الدم مفيد للشجرة»، أتذكره وهو يقول ذلك فيما يرتوي العشب حول شجرة الحور بالأحمر. وتسلق رجال لا أعرفهم أشجار البلوط ومعهم لفافات من اللمبات الكهربائية الصغيرة وأمتار من الوصلات. وأعدّ آخرون عشرات الطاومات في الباحة، وبسطوا المفارش على كل منها. وفي الليلة السابقة على الحفل الكبير، جاء صديق بابا دل محمد، الذي كان يمتلك مطعمًا للكباب في «شهر نو»، إلى الدار حاملاً حقائبه المملوءة بالتوابل. ومثل الجزار، رفض دل محمد، أو ديلو، كما كان بابا يدعوه، أن يتقاضى أجرًا على خدماته. قال إن بابا فعل ما يكفي لأسرته. وكان رحيم خان هو الذي همس لي، فيما كان ديلو ينقع اللحم، أن بابا أقرض ديلو المال ليفتح مطعمه. وقد رفض بابا أن يسترد المال إلى أن ظهر ديلو يومًا في موقف سيارتنا في سيارة «بينز» وأصرَّ على أنه لن يرحل إلا بعد أن يأخذ بابا النقود.

أعتقد أن حفل عيد ميلادي إجمالاً، أو على الأقل وفقاً لقواعد الحُكم على الحفلات، كان باهر النجاح. لم أكن قد رأيت الدار محتشدة بهذا العدد من قبل. كان الضيوف يحملون مشروباتهم ويثرثرون في الطرقات، ويدخنون

على السلالم، ويستندون على الأبواب، ويجلسون أينما وجدوا محلاً؛
على أرفف المطبخ، في الردهة، وحتى في بئر السلم، وفي الباحة الخلفية،
ويختلطون تحت وهج الأنوار الزرقاء والحمراء والخضراء التي تومض على
الأشجار، تنير وجوههم أضواء مصابيح الكيروسين المعلقة في كل مكان.
وكان بابا قد أمر ببناء خشبة مسرح في الشرفة المطلّة على الحديقة ووضع
سماعات في كل مكان في الباحة. وكان أحمد ظاهر يلعب الـ«أكورديون»
ويغني على الخشبة أمام حشود من الأجساد الراقصة.

كان عليّ أن أحيي كل ضيف من الضيوف شخصياً - وكان بابا يتأكد
شخصياً من ذلك، إذ لن يُسمح بأن يُقال عنه في اليوم التالي إنه ربّي ابناً
لا يعرف أصول اللياقة. قبلت المئات من الخدود، وعانقت غرباء لم أرهم
من قبل، وشكرتهم على هداياهم. حتى إن وجهي ألمني من الإجهاد نتيجة
تكلف الابتسام.

كنت أقف مع بابا في الباحة قرب البار عندما سمعت من يقول:
- عيد ميلاد سعيد، أمير.

كان آصف، بصحبة والديه. كان والد آصف، محمود، رجلاً قصيراً
نحيلًا ببشرة داكنة ووجه ضيق. أما والدته، تانيا، فكانت امرأة ضئيلة
متوترة تبتسم كثيراً وتطرف عيناها كثيراً. كان آصف يقف بينهما، يبتسم
وهو يستند بذراعيه على كتفيهما. قادهما نحونا، كما لو كان هو من أتى
بهما هنا. كما لو كان هو الأب، وهما الأطفال. ضربتني موجة من الدوار.
شكرهما بابا على الحضور.

قال آصف:

- لقد اخترت هديتك بنفسِي.

اختلج وجه تانيا وتنقلت عيناها من آصف إليّ. كانت تبتسم، بلا إدراك،
وتطرف عيناها. وتساءلت لو أن بابا لاحظ ذلك.

قال بابا:

- هل ما زلت تلعب كرة القدم، آصف جان؟

لطالما ودّ أن أصبح آصف.

ابتسم آصف. كان أمرًا تقشعر له الأبدان؛ كيف جعل ابتسامته تبدو حلوة
وحقيقية.

- بالطبع، كاك جان.

- جناح أيمن، كما أتذكر؟

قال آصف:

- الحقيقة أنني حوّلت إلى مهاجم وَسَط هذا العام. فذلك يجعلك تسجل
أهدافًا أكثر. سوف نقابل فريق «ميكرو ريان» الأسبوع المقبل. يُفترض أن
تكون مباراة جيدة. لديهم بعض اللاعبين المهرة.

أوما بابا:

- تعرف، أنا أيضًا كنت ألعب في مركز مهاجم الوسط وأنا صغير.

قال آصف:

- أراهن على أنك ما زلت تستطيع إذا أردت.

وخص بابا بغمزة ود.

رد بابا الغمزة.

- أرى أنك قد أخذت عن والدك فن الإطراء المعروف عنه عالميًا.

لكز والد آصف، فكاد أن يُسقط الرجل الضئيل. كانت ضحكة محمود مقنعة بدرجة ابتسامة تانيا، وفجأة خطر لي أن ابنهما، على مستوى ما، ربما كان يخيفهما. حاولت أن أتكلف ابتسامة، لكن لم يكن بوسعي سوى أن ألوي زاويتي فمي قليلًا إلى أعلى، وشعرت بغثيان وأنا أرى أبي لصيقًا بآصف.

حوّل آصف عينيه إليّ. قال بضحكة كامنة تحت السطح مباشرة:

- والي وكمال هنا أيضًا. لم يكن من الممكن أن يفوّتا عيد ميلادك لأي سبب.

أومات في صمت.

قال آصف:

- نفكر في تنظيم مباراة كرة طائرة غدًا في منزلي. ربما تنضم لنا. واصطحب حسنًا إذا أردت.

قال بابا وقد أشرق وجهه:

- يبدو أمرًا ممتعًا. ما رأيك يا أمير؟

غمغمتُ:

- في الواقع، لا أحب الكرة الطائرة كثيرًا.

رأيتُ اللمعة تنسحب من عيني بابا وأعقب ذلك صمتٌ غير مريح.

قال بابا وهو يهز كتفيه:

- آسف، آصف جان.

كان مؤلمًا أن يتأسف نيابة عني.

قال آصف:

- لا، لا مشكلة. لكن لديك دعوة مفتوحة، أمير جان. على أية حال، سمعت أنك تحب القراءة لذا أحضرت لك كتابًا. أحد كتبي المفضلة.

مد يده بهدية عيد ميلاد ملفوفة.

- عيد ميلاد سعيد.

كان يرتدي قميصًا قطنيًا وحلة زرقاء ورباط عنق حريريًا أحمر وحذاء أسود لامعًا. كانت تفوح منه رائحة الكولونيا، وكان شعره الأشقر مُمشطًا بانتظام إلى الخلف. على السطح، كان تجسّدًا لكل ما يحلم به أي أب، صبي قوي، طويل ومهذّب، يتمتع بالموهبة والجاهزية، ناهيك عن حضور الذهن في المزاح مع رجل بالغ. لكن بالنسبة إليّ، كانت عيناه تفضحانه. عندما نظرت فيهما، تموّجت الواجهة، وظهرت لمحة من جنون يختبئ خلفهما.

- هل ستأخذها يا أمير؟

كان بابا يكلمني.

- هه؟

قال بحدة:

- هديتك. آصف جان يعطيك هدية.

- أوه!

تناولت الصندوق من آصف وخفضت بصري. تمنيت لو أكون وحدي في غرفتي، مع كتبي، بعيدًا عن هؤلاء الناس.

قال بابا:

- حسنًا؟

- ماذا؟

همس بابا بصوت خفيض، ذلك الصوت الذي يتكلم به كلما أخرجته أمام الناس:

- ألن تشكر آصف جان؟ إن هذا لطفٌ بالغٌ منه.

تمنيت لو يكف بابا عن مخاطبته بهذا اللقب. كم مرة قال لي «أمير جان»؟
قُلْتُ:

- شكرًا.

نظرت إليّ والدة آصف كما لو كانت تريد أن تقول شيئًا، لكنها لم تفعل، واكتشفت أن أيًا من والديّ آصف لم ينطق بكلمة. وقبل أن أخرج نفسي وبابا أكثر من ذلك - ولكي أهرب من آصف وابتسامته - تراجعت خطوة وأنا أقول:
- شكرًا لحضورك.

شقت طريقي عبر مجموعات الضيوف وانسللت عبر البوابة الحديدية. على بعد منزلين من دارنا، كانت هناك قطعة أرض ترابية جرداء فسيحة. سمعت بابا وهو يقول لرحيم خان، ذات مرة، إن قاضيًا اشترى تلك الأرض وإن مهندسًا يضع التصميم. لكن الأرض كانت خاوية حتى اللحظة، إلا من التراب والحجارة والحشائش.

مزّقت ورق اللّف عن هدية آصف وأدرتُ غلاف الكتاب في ضوء القمر. كان سيرة لهتلر. ألقيت به وسط الحشائش المتشابكة.

استندت إلى حائط الجيران، وانزلت جالسًا على الأرض. جلست هكذا في الظلام لفترة، وركبتي مضمومتان إلى صدري، أرنو إلى النجوم، وأنتظر انتهاء الليل.

قال صوت مألوف:

- أليس من المفروض أن تكون بصحبة ضيوفك لتضايفهم؟

كان رحيم خان يتجه نحوي بحذاء الحائط.

- ليسوا بحاجة إليّ. بابا هناك، هل تتذكر؟

طقطقت مكعبات الثلج في كأس رحيم خان وهو يجلس إلى جوارى.

- لم أكن أعرف أنك تشرب.

قال:

- تبين أنني أشرب.

ولكزني بود:

- ولكن في المناسبات المهمة فقط.

ابتسمت.

- شكرًا.

رفع كأسه قبالي وارتشف رشفة. أشعل سيجارة، واحدة من سجائر باكستانية من دون فلتر، كان يدخنها هو وأبي دائمًا.

- هل قلت لك من قبل أنني كدت أن أتزوج ذات مرة؟

قلت وأنا أبتسم لتصور أن رحيم يتزوج:

- حقًا؟

لطالما كنت أفكر فيه باعتباره «قرين» بابا، راعي موهبتي الأدبية، صاحبي، الإنسان الذي لم ينسَ قطُّ أن يجلب لي «سوغات»، تذكارات، كلما رجع من رحلة إلى الخارج. لكن زوج؟ وأب؟

أوما برأسه:

- صحيح. كنت في الثامنة عشرة. كان اسمها حُميرَه. كانت هزارة، ابنة خدم جيراننا. كانت جميلة مثل حورية، شعرٌ بنيٌّ فاتح، عيناان عسلتان واسعتان... كانت ضحكته... ما زالت تتردد في أذنيَّ أحيانًا.

دوّر كأسه:

- كنا نتقابل سرًّا في بستان تفاح ملك أبي، دائمًا بعد منتصف الليل عندما يخلد الجميع إلى النوم. كنا نمشي تحت الأشجار وكنت أمسك يدها... هل تشعر بالإحراج، أمير جان؟

- قليلًا.

قال وهو يسحب نفسًا آخر:

- لن يقتلك هذا. على أية حال، كان لدينا ذلك الحلم الخيالي: أن يجمعنا حفل زفاف عظيم ومبهرج، ندعو فيه العائلة والأصدقاء من كابول إلى قندهار، أن أبني لنا بيتًا كبيرًا، أبيض برواق مكسو بالسيراميك ونوافذ واسعة، أن نزرع أشجار الفاكهة في الحديقة ونرعى كل أنواع الأزهار، وأن تكون لنا أرض معشبة يلعب عليها أطفالنا، وفي أيام الجُمع، بعد الصلاة في المسجد، يجتمع الجميع في منزلنا للغداء ونأكل في الحديقة، تحت أشجار الكرز، ونشرب ماء نقيًا من البئر، ثم الشاي والحلوى ونحن نشاهد أطفالنا يلعبون مع أبناء عموماتهم...

تناول رشفة كبيرة من كأس الـ«سكوتش»، وسعل:

- كان يجب أن ترى النظرة على وجه أبي عندما أخبرته. أما أمي فقد أغشي عليها. ورشّت أخواتي وجهها بالمياه. تحلّقوا حولها ونظروا إليّ كما لو كنت قطعت رقبتها، بل إن شقيقي جلالاً ذهب ليأتي ببندقية الصيد الخاصة به قبل أن يوقفه أبي.

أطلق رحيم خان ضحكة مريرة:

- كنت أنا وحُميره ضد العالم. وأقول لك هذا، أمير جان: في النهاية، يفوز العالم دائماً. هكذا تسير الأمور!

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- في اليوم نفسه، وضع أبي حُميره وعائلتها في لوري وأرسلهم إلى هزاره جات. ولم أرها ثانية.

- آسف!

قال رحيم خان وهو يهز كتفيه:

- كان ذلك أفضل، على الأرجح. كانت ستُعاني. لم تكن عائلتي لتقبل بها نِداً. فأنت لا تأمر فتاة بتلميع حذائك اليوم، وغداً تسميها «أختي».

نظرَ إليّ:

- تعرف، يمكنك أن تخبرني بأي شيء تريده، أمير جان. في أي وقت.

قلت متشككاً:

- أعرف.

رمقني بنظرة طويلة، كما لو كان ينتظر، وعيناه السوداوان العميقتان

بلا قرار تُلمحان إلى سرٍّ غير منطوق بيننا. لوهلة، كدت أخبره. كدت أخبره بكل شيء، لكن كيف يراني بعدها؟ سوف يكرهني، ويكون الحق معه.

مدَّ إليَّ يده بشيء ما:

- ها هنا. كدت أنسى. عيد ميلاد سعيد.

كانت مُفكرة بغلاف جلدي بني. مررت بأصابعي على التطريز المذهَّب بطول حوافها، وشممت رائحة الجلد. قال:

- من أجل قصصك.

كنت سأشكره عندما انفجر شيء وأضيئت السماء.

- ألعاب نارية!

هرعنا عائدين إلى المنزل فوجدنا الضيوف يقفون في الباحة، يتطلعون إلى السماء. كان الأطفال يهتاجون ويصرخون مع كل فرقعة وانفجار. وكان الناس يهتفون، وينفجرون في نوبات من التهليل في كل مرة يشق اللهب عنان السماء وينفجر في باقات من النيران. كل بضع ثوانٍ، تُضاء الباحة الخلفية ببروق مفاجئة من الأحمر والأخضر والأصفر.

في واحدة من تلك الطلقات النورانية. رأيتُ مشهدًا لن أنساه أبدًا: حسن يقدم المشروبات لآصف ووالي من صينية فضية. تلاشى الضوء، هسيس وفرقعة، ثم ومضة أخرى من الضوء البرتقالي: آصف يتسم، ويلكز حسنًا في صدره بقبضته.

ثم، نزلت رحمة السماء، وحل الظلام.

جالسًا في غرفتي في الصباح التالي، فضضت صندوقًا بعد صندوق من الهدايا. لا أعرف لماذا شغلت بالي حتى، حيث إنني كنت أنظر لكل منها نظرة خالية من الفرحة ثم أرميها في ركن الغرفة. كانت الكومة تتنامى هناك: كاميرا فورية، راديو ترانزستور، قطار كهربائي متطور، وعدة أظرف مغلقة بها نقود. كنت أعرف أنني لن أصرف تلك النقود أبدًا، ولن أستمع إلى الراديو، وأن القطار الكهربائي لن يسير أبدًا على قضبانه في غرفتي. لم أكن أريد أيًا من تلك الأشياء؛ كانت كلها نقودًا ملطخة بالدم. لم يكن بابا ليرتب لي حفلًا كهذا لو لم أفز بالمسابقة.

أهداني بابا هديتين: الأولى كان من المؤكد أنها ستثير حسد كل طفل في الحي: دراجة «شوين ستينجراي» جديدة، ملكة الدراجات. لم يكن سوى قلة من أطفال كابول يمتلكون «ستينجراي» جديدة، والآن أصبحت أحدهم. كان بها مقود مرتفع مزود بقبضتين مطاطيتين سوداوين، وكرسيها الشهير على شكل موزة. كانت أسلاك الإطارين ذهبية اللون والهيكل المصنوع من الحديد الصلب أحمر اللون، مثل تفاحة مغطاة بالحلوى، أو الدم. أي طفل آخر كان سيقفز على الدراجة على الفور ويأخذها في لفّة كاملة، وربما كنت سأفعل ذلك قبل بضعة أشهر.

قال بابا، وهو يستند على إطار الباب المؤدي لغرفتي:

- هل أعجبتك؟

رددت عليه بابتسامة خجول و«شكرًا» سريعة. وتمنيت لو أنني استطعت أن أرد بما هو أفضل من ذلك.

قال بابا:

- يمكن أن نخرج إلى جولة.

دعوة، ولكن من وراء القلب.

- ربما فيما بعد. أنا متعب قليلًا.

قال بابا:

- بالتأكيد.

- بابا؟

- نعم؟

- شكرًا على الألعاب النارية.

شكر، ولكن من وراء القلب.

قال بابا وهو يتجه ناحية غرفته:

- حاول أن ترتاح قليلًا.

الهدية الأخرى التي أهداها إليّ بابا - ولم ينتظر معي حتى أفتحها - كانت ساعة يد. بواجهة زرقاء وسوار ذهبي على شكل صاعقة. لم أجربها حتى. رميتها على كومة الألعاب في الركن. الهدية الوحيدة التي لم أرميها على

ذلك التل مفكرة رحيم خان ذات الغلاف الجلدي. كانت الهدية الوحيدة التي لم تبدُ لي مالا ملطخًا بالدم.

جلستُ على حافة فراشي، وقلّبت المفكرة بين يدي، وفكرت فيما قاله رحيم خان عن حُميره، وكيف أن طَرْدَ والده لها كان أفضل الحلول في نهاية المطاف. كانت ستعاني. وكما كان جهاز العرض الخاص بكাকা هُمأيون يتعطل فيعاود عرض الشريحة نفسها، ظلت الصورة نفسها تبرز في ذهني مرة بعد مرة: حسن، رأسه مُطأطأ، يقدم المشروبات لآصف ووالي. ربما كان ذلك هو الأفضل. ربما سيقبل معاناته. ومعاناتي أيضًا. وبأية حال، فقد أصبح الأمر واضحًا: على أحدنا أن يرحل.

لاحقًا في عصر ذلك اليوم، أخذت الدراجة الـ«شوين» للّفة الأولى والأخيرة. بدّلت حول المربع السكني مرتين ثم عدت. دخلت من مدخل السيارات إلى الباحة الخلفية حيث كان حسن وعلي ينظفان فوضى حفل الأمس. كانت الأكواب الورقية، والمناديل الورقية المكرمشة، وزجاجات الصودا الفارغة، متناثرة في الباحة. كان علي يطوي المقاعد، ويركنها إلى الحائط. رأيته ولوّح لي.

قلت وأنا ألوّح له:

- سلام، علي.

رفع إصبعًا، طالبًا مني الانتظار، ثم ذهب إلى بيته. بعد لحظة، خرج يحمل شيئًا بين يديه:

- لم تسنح الفرصة لي أنا وحسن أن نعطيك هذه بالأمس.

مد إليّ يده بصندوق:

- إنها هدية متواضعة وليست جديرة بك، أمير أغا. لكننا، مع ذلك، نتمنى أن تعجبك. عيد ميلاد سعيد.

شعرت بغصة في حلقي. قلت:

- شكرًا يا علي.

تمنيت لو لم يشتري لي أي شيء. فتحت الصندوق فوجدت نسخة جديدة من الـ«شاهنامة»، بغلاف مقوى مع رسوم توضيحية ملونة لامعة تحت الفقرات. هنا كانت «فرنجيس» تحدّق في وليدها، كي خسرو. وهناك كان «أفراسياب» يعتلي صهوة جواده، وسيفه مشهر، يقود جيشه. وبالطبع، رستم وهو يصيب ابنه، المحارب سهراب، بجرح قاتل. قلت:

- إنه جميل.

قال علي:

- أخبرني حسن أن نسختك قديمة وممزقة، وأن بعض الصفحات مفقودة. وأضاف بفخر وهو ينظر إلى كتاب لم يكن لا هو ولا ابنه قادرين على قراءته:

- كل الرسوم مرسومة يدويًا في هذا الكتاب بالقلم والحبر.

قلت:

- إنه رائع!

وكان كذلك، بل أظنه لم يكن رخيصًا أيضًا. أردتُ أن أقول لعلي إنني أنا غير الجدير بالهدية وليس العكس. قفزتُ على دراجتي ثانية، وقلت:

- اشكر حسنًا نيابة عني.

انتهيتُ إلى إلقاء الكتاب على كومة الهدايا في ركن الغرفة. لكن عينيّ ظلّتا تعودان إليه، فدفتته في قاع الكومة. وقبل أن أذهب إلى الفراش تلك الليلة، سألتُ بابا عما إذا كان قد رأى ساعتِي الجديدة في أي مكان.

* * *

في الصباح التالي، انتظرت في غرفتي حتى ينظف علي طاولة الإفطار في المطبخ. انتظرته أن يغسل الصحون، وأن يمسح الأرفف. نظرتُ من نافذة غرفتي وانتظرتُ حتى ذهب علي وحسن لشراء البقالة من السوق، وهما يدفعان عربتي يد فارغتين أمامهما.

ثم أخذت ظرفين من أطرف النقود من كومة الهدايا وساعتي، وتسَلَّلتُ خارجاً على أطراف أصابعي. توقفت أمام مكتب بابا وأنصتُ. كان قد ظل هناك طيلة النهار، يجري مكالمات هاتفية. كان يتكلم إلى شخص الآن، عن شحنة سجاجيد من المقرر أن تصل الأسبوع القادم. نزلتُ السلالم، وقطعتُ الباحة، ودخلتُ منزل علي وحسن بجوار شجرة المشمش الهندي. رفعتُ مرتبة حسن ودسستُ ساعتِي الجديدة وحفنة من النقود تحتها.

انتظرت ثلاثين دقيقة أخرى، ثم طرقتُ باب بابا وأخبرته بكذبة تمنيت أن تكون الأخيرة في خيط الكذب المخجل.

* * *

من خلال نافذة غرفتي، راقبتُ علياً وحسنًا وهما يدفعان عربتي اليد المحمّلتين باللحم وال«نان» والفاكهة والخضراوات إلى المدخل. رأيت بابا يخرج من الدار ويتجه صوب علي. تحركت شفاههما بكلمات لم أستطع

سماعها. أشار بابا إلى المنزل وأوماً علي برأسه. افترقا. وعاد بابا إلى المنزل، وتبع عليّ حسناً إلى كوخهما.

بعد لحظات، طرق بابا باب غرفتي. قال:

- تعال إلى مكتبي. سنجلس ونسوي أمراً ما.

ذهبتُ إلى مكتب بابا، وجلست على واحدة من الأرائك الجلدية. مرت نحو ثلاثين دقيقة أو أكثر قبل أن ينضم إلينا حسن وعلي.

* * *

كانا قد فرغا لتوهما من البكاء؛ كان بمقدوري أن أعرف من عيونهما الحمراء المتفخة. جلسا أمام بابا، يداً في يد، وتساءلت كيف ومتى أصبحت قادراً على إحداث ذلك القدر من الألم.

دخل بابا في الموضوع مباشرة وسأل:

- هل سرقت هذه النقود؟ هل سرقت ساعة أمير يا حسن؟

رد حسن بكلمة واحدة، ألقاها بصوت رفيع خشن:

- نعم.

جفلت، كما لو كنت قد تلقيت صفعه. غطس قلبي وكدت أنطق معترفاً بالحقيقة. ثم فهمت: كانت تلك آخر توضيحات حسن لي. لو قال لا، لصدقه أبي لأننا نعرف جميعاً أن حسناً لا يكذب. ولو صدقه أبي، سأصبح أنا المتهم، وسيكون عليّ أن أفسر وسوف تفتضح حقيقتي. لم يكن بابا ليسامحني أبداً. وقادني ذلك إلى إدراك آخر: كان حسن يعرف. كان يعرف أنني رأيت كل شيء في ذلك الزقاق، أنني وقفت هناك

ولم أحرك ساكنًا. كان يعرف أنني ختته ومع ذلك كان يزود عني من جديد، ربما للمرة الأخيرة. لقد أحبيته في تلك اللحظة، أحبيته أكثر مما أحبيت أي شخص، وأردت أن أخبرهم جميعًا بأنني أنا الأفعى بين الأغصان، الوحش في البحيرة. لم أكن جديرًا بتلك التضحية، كنتُ كاذبًا، مخادعًا، لصًا. وكنت سأقول ذلك، لولا أن جزءًا مني كان سعيدًا، سعيدًا لأن الأمر برمته سينتهي قريبًا. سيصرفهما بابا، سيكون هناك بعض الألم، لكن الحياة ستستمر. أردت ذلك، أن أستمّر، أن أنسى، أن أبدأ صفحة جديدة. أردت أن أتمكن من التنفس ثانية.

لكن بابا صدمني بالقول:

- أسامحك.

(تسامح؟ لكن السرقة إثم لا يغتفر، منبع كل الآثام. عندما تقتل رجلًا، فأنت تسرق حياة، تسرق حق زوجته في أن يكون لها زوج، تسرق من أطفاله أباهم. عندما تكذب، تسرق حق شخص في معرفة الحقيقة. عندما تغش، تسرق حق المنافسة الشريفة. ما من فعل أخبث من السرقة. ألم يُجلسني بابا على حجره ويخبرني بتلك الكلمات؟ كيف يمكنه إذن أن يسامح حسنًا بهذه البساطة؟ وإذا كان بوسع بابا أن يغفر تلك الأمور، فلماذا لم يغفر لي أنني لست الابن الذي طالما تمناه؟ لماذا؟...)

قال علي:

- سرحل، أغا صاحب.

قال بابا وقد شحب وجهه:

- ماذا؟

- مستحيل أن نعيش هنا بعد الآن!

- لكنني سامحته يا علي، ألم تسمع؟

- الحياة هنا مستحيلة علينا الآن، أغا صاحب. سرحل.

جذب علي حسنًا إليه، أحاط كتف ابنه بذراعه. كانت إيماءة حماية وكنت أعرف ممن يحميه علي. نظر علي تجاهي، وفي نظرتة الباردة غير المتسامحة رأيت أن حسنًا قد أخبره. حكى له عن كل شيء، عما فعله به آصف وصديقه، عن الطائرة الورقية، عني. الغريب أنني كنت سعيدًا أن شخصًا آخر بات يعرفني على حقيقتي؛ كان التظاهر بغير حقيقتي قد أنهكني.

قال بابا وهو يفتح ذراعيه ويبسط كفيه:

- لا تهمني النقود أو الساعة. لا أفهم لماذا تفعل ذلك... ماذا تعني بكلمة «مستحيل»؟

- آسف، أغا صاحب، لكننا حزمنا حقائبنا بالفعل. لقد اتخذنا قرارنا.

هَبَّ بابا واقفًا، ولمحة من الحزن تلوح على وجهه:

- علي، ألم أعتن بك جيدًا؟ ألم أكن طيبًا معك ومع حسن؟ أنت الأخ الذي لم أرزق به يا علي، تعرف ذلك. رجاء لا تفعل ذلك!

قال علي:

- لا تُصعّب الأمور أكثر مما هي، أغا صاحب.

اختلج وجهه، ولوهلة، ظننت أنني رأيت التواءة. وعندها فهمت عمق الألم الذي تسببت فيه، قتامة الحزن الذي جلبته على الجميع، حتى وجه علي المشلول لم يقدر على إخفاء هذا الأسى. أجبرت نفسي على النظر في

عيني حسن، لكن رأسه كان مطأطأً، وكتفاه متدلّيتين، وإصبعه يعبث بخيط نافر من أسفل قميصه.

كان بابا يتوسل الآن:

- على الأقل خبرني عن السبب. أريد أن أعرف!

لم يُخبر علي بابا، تمامًا كما لم يعترض عندما اعترف حسن بالسرقة. لن أعرف السبب أبدًا على وجه اليقين، لكن يمكن أن أتخيلهما في ذلك الكوخ الصغير المعتم، يبكيان، وحسن يتوسل إليه ألا يشي بي. لكنني لم أستطع أن أتخيل قدر القوة التي تطلبها الأمر من علي كي يكبح نفسه ويفي بوعدده.

- هل ستوصلنا إلى محطة الحافلات؟

جار بابا:

- أمنعك من هذا! هل تسمع؟ أمنعك!

قال علي:

- مع احترامي، لا تستطيع أن تمنعني عن أي شيء، أغا صاحب. فنحن لم نعد نعمل لحسابك.

سأل بابا، وقد بدأ صوته يتهدج:

- إلى أين ستذهبان؟

- هزاره جات.

- إلى ابن عمك؟

- نعم. هل ستوصلنا إلى محطة الحافلات، أغا صاحب؟

ثم رأيت بابا يفعل شيئاً لم أره يفعله قطُّ من قبل . بكى . وقد أخافني ذلك قليلاً، وأنا أرى رجلاً كبيراً يجهش بالبكاء . لا يُفترض أن يبكي الآباء . كان يقول «أرجوك»، لكنَّ عليّاً كان قد استدار نحو الباب، يتبعه حسن . لن أنسى الطريقة التي نطق بابا بها هذه الكلمة، والألم في توسله، والخوف .

* * *

في كابول، كانت قلما تمطر في الصيف . كانت السماوات الزرقاء تنتصب عالية وبعيدة، والشمس مثل مكواة حامية تلهب القفا . الجداول التي كنا أنا وحسن نرمي الحصى على سطحها طيلة الربيع تجف، وعربات الركشة تثير الغبار وهي تترجرج في طريقها . كان الناس يذهبون إلى المساجد لصلاة الظهر، ثم ينسحبون عائدين لأي ظل يعثرون عليه ليناموا فيه قيلولتهم، في انتظار أن يتحسن الجو في أول المساء . كان الصيف يعني أياماً دراسية طويلة وأنت تتفصد عرقاً في فصول مكدسة بالتلاميذ وسيئة التهوية، تتعلم تلاوة آيات القرآن، وتجاهد مع تلك الكلمات العربية الغريبة بالسن معوجة . كان يعني اصطلياد الذباب في كفيك بينما يطنطن المٌلا ويندفع نسيم حار جالباً معه رائحة خراء من بيت الخلاء على الجانب الآخر من فناء المدرسة، ودافعاً التراب حول السلة المتداعية المهجورة في ملعب كرة السلة .

لكنها أمطرت عصر اليوم الذي أقلّ فيه بابا عليّاً وحسناً إلى محطة الحافلات . تكتلت سحبٌ رعديّة، ولوّنت السماء بلون الحديد . وفي دقائق، انهمرت زخات من الأمطار، وتصاعد في أذني الهسيس المستمر للمياه المنهمرة .

كان بابا قد عرض توصيلهما إلى باميان بنفسه، لكنَّ عليّاً رفض . ومن نافذة غرفتي المغبشة الغارقة في المطر، تابعت عليّاً وهو يجاهد فيما يجز حقيبة السفر الوحيدة التي تحمل كل أمتعتهم إلى سيارة بابا الواقفة خارج

البوابة. بجهد رفع حسن مرتبته، ملفوفة بإحكام ومربوطة بحبل، على ظهره. ترك كل ألعابه خلفه في الكوخ الخاوي - وجدتها في اليوم التالي، مكمّمة في الركن تمامًا مثل هدايا عيد الميلاد في غرفتي.

كانت قطرات المطر المنهمرة تتفجر على سطح نافذتي. رأيت بابا يغلق باب السيارة الخلفي. سار مبدلاً نحو مقعد القيادة. اتكأ نحو الداخل وقال شيئاً لعلّي في المقعد الخلفي، ربما محاولة أخرى أخيرة على أمل أن يغير رأيه. تكلمنا هكذا لفترة، وبابا غارق في البلل، محني، يضع إحدى ذراعيه على سطح السيارة. لكن عندما انتصب، رأيتُ في كتفيه المتهدلتين أن الحياة التي عرفتها منذ مولدي انتهت. انزلق بابا إلى الداخل، وسطعت الأنوار الأمامية شاقةً قمعين من النور في المطر. لو كنا في فيلم هندي من الأفلام التي اعتدنا أنا وحسن مشاهدتها، لكان ذلك هو الجزء الذي كنت سأجري فيه خارجاً، قدماي الحافيتان تخوضان في مياه المطر. كنت سأطارد السيارة، صارخاً بها أن تتوقف. كنت سأسحب حسناً خارج المقعد الخلفي وأقول له إنني آسف، آسف جداً، وتختلط دموعي بمياه المطر. كنا سنتعانق تحت وابل الأمطار. لكنه لم يكن فيلمًا هنديًا. كنت آسفًا حقًا، لكنني لم أبك ولم أطارد السيارة. تابعت سيارة بابا وهي تنطلق من وقفها، مصطحبة معها الشخص الذي كان اسمي أول كلمة نطق بها. اقتنصت لمحة أخيرة غير واضحة لحسن وهو متهدل الكتفين في المقعد الخلفي قبل أن ينعطف بابا يساراً عند ناصية الشارع حيث لعبنا كثيرًا بالكريات الزجاجية الملونة.

تراجعتُ إلى الوراء، وعبر ألواح النافذة لم أعد أرى إلا مطراً كاللجين.

قبالتنا، كانت تجلس امرأة شابة. ترتدي فستانًا أخضر زيتونيًا مع شال أسود ملفوف بإحكام حول وجهها ليقبها من برد الليل. كانت تلهج بالدعاء كلما ارتجت الشاحنة أو عثرت في حفرة، ويعلو صوتها فجأة: «بسم الله» كلما اهتزت الشاحنة أو أتت بحركة مفاجئة. كان زوجها، رجل مفتول العضلات في بنطال واسع وعمامة زرقاء كالسما، يحمل رضيعًا على إحدى ذراعيه ويبدل حبات المسبحة بيده الحرة. كانت شفتاه تتحركان في أدعية صامتة. وكان هناك آخرون، نحو عشرة إجمالًا، بمن فيهم أنا وبابا، نجلس وحقائبنا بين سيقاننا، محشورين مع أولئك الأغراب في مؤخرة شاحنة قديمة روسية الصنع مغطاة بالقماش المشمّع.

ظلت أحشائي تضطرب منذ غادرنا كابول بُعيد الثانية صباحًا. لم يقل أبي ذلك، لكنني كنت أعرف أنه يرى في دوار السيارة الذي يتتابني علامة أخرى على ضعفي - رأيت ذلك على وجه المحرّج في المرتين اللتين تقلّصت فيهما معدتي بشدة حتى تأوهتُ.

عندما سأل الرجل مفتول العضلات صاحب المسبحة - زوج المرأة

التي لا تكف عن الدعاء - إذا ما كنت سأتقيأ، قلت ربما. أشاح أبي بوجهه. رفع الرجل زاوية الغطاء المشمّع ونقر على زجاج السائق، وطلب منه أن يتوقف. لكن السائق، كريم، وهو رجل نحيل داكن البشرة له ملامح حادة كالصقر وشارب رفيع كالقلم الرصاص، هز رأسه رافضاً.

كان رده:

- نحن قريبون جدًّا من كابول. قل له أن يتماسك.

دمدم بابا بشيء همسًا. أردت أن أقول له آسف، لكن اللعاب سال فجأة في فمي، وملاً طعم العصارة حلقي. استدرت، ورفعت المشمع، وتقيأت على جانب الشاحنة المتحركة. من خلفي، كان بابا يعتذر للركاب الآخرين. كما لو كان دوار السيارة جريمة. كما لو كان عيبًا أن تصاب بالدوار وأنت في الثامنة عشرة. تقيأت مرتين أخريين قبل أن يوافق كريم على التوقف، أساسًا كيلا أوسّخ عربته، مصدر رزقه. كان كريم مهزَّب بَشَر - وهي مهنة كانت تدر عائداً كبيراً في ذلك الوقت، يُخرج الناس من كابول التي يحتلها الروس إلى ملاذ آمن نسبيًا في باكستان. كان يقلنا إلى جلال أباد، على مسافة نحو ١٧٠ كيلو مترًا جنوب شرقي كابول، حيث ينتظر شقيقه «تور»، الذي يملك شاحنة أكبر بها قافلة ثانية من اللاجئين، كي يعبر بنا ممر خبير ويدخل بنا إلى بيشاور.

كنا على بعد بضعة كيلو مترات غربي شلالات «ماهير»، عندما توقف كريم على جانب الطريق. كانت «ماهير» - التي تعني «السماك الطائر» - قمة عالية ذات سفح شديد الانحدار تُشرف على محطة التوليد الكهرومائية التي شيدها الألمان لأفغانستان عام ١٩٦٧. كنا أنا وبابا قد صعدنا بالسيارة إلى تلك القمة عددًا لا يُحصى من المرات في طريقنا إلى جلال أباد، مدينة أشجار السرو وحقول القصب حيث يقضي الأفغان إجازاتهم الشتوية.

قفزت من مؤخرة الشاحنة وملت على الحاجز الخرساني المغبر على جانب الطريق. كان فمي ممتلئًا باللعب الذي ينبئ بالتجشؤ القادم. انحنيت على حافة الجرف المطل على الوادي العميق الذي كان غارقًا في الظلام. توقفت، ويداي على ركبتيّ، وانتظرت العصاراة. في مكان ما، طقَّ فرع شجرة، ونعبت بومة. كانت الرياح، الناعمة والباردة، تطلق عبر فروع الأشجار وتهز الشجيرات المتناثرة على السفح. ومن أسفل، كان خرير الماء الهادئ يتردد عبر الوادي.

واقفًا على قارعة الطريق، فكرت كيف غادرنا الدار التي عشتُ فيها طيلة حياتي، كما لو كنا خارجين لتناول لقمة: الصحون الملطخة ببقايا الكفتة مكوَّمة في حوض المطبخ، الغسيل في السلة في الردهة، الأسرَّة غير مرتَّبة، البذلات التي يرتديها بابا في العمل معلقة في الخزانة، أقمشة الزينة ما زالت معلقة على جدران غرفة المعيشة، وكُتب أمي مكدسة على أرفف مكتب بابا. كانت علامات هروبنا واهية. اختفت صورة زفاف والديّ، ومعها صورة جدي بصحبة الملك نادر شاه يقفان وعند أقدامهما غزال ميت. واختفت بضعة ملابس من الخزانات. كما اختفت المفكرة ذات الغلاف الجلدي التي كان رحيم خان قد أهداها لي قبل خمس سنوات.

في الصباح، على الأرجح سيظن جلال الدين - خادمننا السابع في خمس سنوات - أننا ذهبنا لجولة بالسيارة. لم نخبره. لم يعد بوسعك أن تثق في أي شخص في كابول - كان الناس يرشدون بعضهم عن بعض؛ إما طلبًا للمال أو تحت التهديد، الجيران يُرشدون عن جيرانهم، والأطفال عن آبائهم، والأخ عن أخيه، والخادم عن سيده، والصديق عن صديقه. فكرت في المغني أحمد ظاهر، الذي عزف على الـ«أكورديون» في عيد ميلادي الثالث عشر. ذهب في جولة مع بعض الأصدقاء، واكتشف شخص ما لاحقًا جثته على جانب

الطريق، وقد اخترقت رصاصة مؤخرة رأسه. كان الرفاق في كل مكان وقد قسموا كابول إلى مجموعتين: الجواسيس، وغير الجواسيس. لكن الخدعة أن أحداً لم يكن يعرف مَنْ ينتمي إلى أي مجموعة. الملاحظة العابرة التي تُدلي بها للخياط الذي يحبك لك حُلَّةً قد تؤدي بك إلى زنازين بولي شارخي أسفل الأرض. أعرب عن ضيقك من حظر التجوال أمام الجزار، لتجد نفسك خلف القضبان تحديق في فوهة ماسورة كلاشينكوف. حتى على طاولة الطعام، في حرمت البيوت، كان على الناس أن يتكلموا بطريقة محسوبة - كان الرفاق في كل قاعات الدرس أيضاً، وقد علموا الأطفال أن يتجسسوا على آبائهم، علموهم إلام ينصتون، وإلى من يُبلغون.

ماذا كنت أفعل في ذلك الطريق في منتصف الليل؟ كان يجب أن أكون في الفراش، أسفل بطانيتي، وبجانبي كتاب انثت أركان صفحاته. لا بد أن ذلك حلم. لا بد أنه كذلك. سوف أستيقظ في الصباح، وأختلس النظر من النافذة: لا دوريات جنود روس جهمين على الأرصفة، لا دبابات تسير جيئة وذهاباً في شوارع مدينتي، وأبراجها تدور مثل أصابع اتهام، لا حُطام، لا حظر تجوال، لا حاملات جنود للجيش الروسي تتلوى في شوارع الأسواق. ثم سمعت، من خلفي، بابا وكريم يناقشان الترتيبات في جلال أباد وهما يدخنان. كان كريم يؤكد لبابا من جديد أن شقيقه لديه شاحنة كبيرة «ممتازة ودرجة أولى»، وأن الطريق إلى بيشاور سوف يكون روتينياً للغاية. قال كريم:

- يستطيع أن يقلِّكم إلى هناك وعيناه مغمضتان.

سمعتة يحكي لبابا كيف أنه وشقيقه يعرفان الجنود الروس والأفغان الذين يعملون في نقاط التفتيش، وكيف أنهما قد قاما بترتيبات «مفيدة للطرفين». لم يكن ذلك حلمًا. فكما لو كانت كلماته مفتاحًا للدخول المسرحي، هدرت طائرة «ميج» فجأة فوق رؤوسنا. ألقى كريم بسيجارته وأخرج مسدسًا من

وسطه. ثم بصق على «الميج» واستنزل عليها اللعنات وهو يصبوب إليها مسدسه ويحرك يده وكأنه يطلق النار.

تساءلت عن مكان حسن، ثم جاء الأمر المحتوم؛ تقيأت على أعشاب متشابكة، وغرق صوت تجشؤي وزفير في هدير «الميج» الذي يصم الآذان.

* * *

توقفنا عند نقطة تفتيش في «ماهير» بعد عشرين دقيقة. ترك سائقنا محرك الشاحنة دائراً وقفز لتحية الأصوات المقتربة. دهست أقدام الحصباء. تم تبادل كلمات قصيرة وهامسة. قُدحت قداحة. «سباسيبا»، شكرًا.

قدحة أخرى من القداحة، ضحك شخص ما، وصوت طقطقة حادة جعلني أقفز من مكاني. قبضت يد بابا على فخذي. انطلق الرجل الضاحك يغني أغنية، دندنة نشاز لأغنية زفاف أفغانية قديمة، خرجت بلكنة روسية غليظة:

«آهسته برو، ماهِمن، آهسته برو»

(تمهل، يا قمري الحبيب، تمهل)

طقطقت كعوب أحذية على الأسفلت. شد أحدهم المشمّع المتدلي في مؤخرة الشاحنة جانباً، وحملت فينا ثلاثة وجوه: كان أحدها وجه كريم، والآخران لجنديين، أحدهما أفغاني، والآخر روسي مكشّر عن ابتسامة، وجهه مثل كلب «بولدوج»، وسيجارته تتدلى من زاوية فمه. خلفهما، قمرٌ بلون العظام، معلق في السماء. تبادل كريم والجندي الأفغاني بعض الكلمات بالبشتو. فهمت قليلاً منها - شيئاً عن «تور» وحظه العاثر. دسّ الجندي الروسي وجهه في مؤخرة الحافلة. كان يهمهم بأغنية الزفاف ويطبّل بأصابعه على الحاجز الخلفي. حتى في ضوء القمر المعتم، استطعت أن أرى نظرة زجاجية في عينيه

وهما تنتقلان من راكب لآخر. وعلى برودة الجو، كان العرق يتفصّد من جبينه. استقرت عيناه على الشابة ذات الشال الأسود. تحدّث بالروسية إلى كريم من دون أن يرفع عينيه عنها. رد عليه كريم بجفاء بالروسية، فرشقه الروسي برد أكثر جفاء. وقال الجندي الأفغاني شيئاً هو الآخر، بصوت خفيض متعقل. لكن الجندي الروسي صاح بشيء جعل الاثنين الآخرين يجفلان. كان بوسعي أن أشعر بعضلات بابا تنقبض إلى جوارِي. تنحنح كريم، وطأطأ رأسه، وقال إن الجندي يريد نصف ساعة مع السيدة في مؤخرة الشاحنة.

سترت الشابة وجهها بالشال، وأجهشت بالبكاء، وبدأ الرضيع على حجر زوجها في البكاء أيضاً. صار وجه الزوج شاحباً كالقمر المحلّق فوقنا. قال لكريم أن يطلب من «مستر جندي صاحب» أن يتحلى ببعض الرحمة، ربما لديه شقيقة أو أم، ربما لديه زوجة أيضاً. أنصت الروسي إلى كريم ثم زعق بسلسلة من الكلمات.

قال كريم من دون أن يقدر على النظر في عيني الزوج:

- إنه الثمن الذي يطلبه كي يدعنا نمر.

قال الزوج:

- ولكننا دفعنا ثمنًا عادلاً بالفعل. لقد نال مبلغًا محترمًا.

تحدث كريم مع الجندي الروسي.

- إنه يقول... يقول إن فوق كل ثمن ضريبة.

في تلك اللحظة هبّ بابا واقفًا. وكان دوري أن أقبض بيدي على فخذه، لكن بابا نزعها، وسحب ساقه بعيدًا. عندما وقف خسف ضوء القمر. قال بابا:

- أريدك أن تسأل هذا الرجل سؤالًا.

قالها لكريم، ولكنه كان ينظر مباشرة إلى الضابط الروسي.

- اسأله أين حياؤه.

تحدثا.

- يقول إنها حرب، ولا حياء في الحرب.

- قل له إنه مخطئ؛ الحرب لا تُبطل الحياء. إنها تحتاج إلى الحياء، بل وإلى حياء أكثر من أوقات السلم.

فكرت، وقلبي يخفق: هل يجب أن تكون البطل دائماً؟ ألا تستطيع أن تدع الأمور تسير لمرة واحدة؟ لكنني كنت أعرف أنه لا يستطيع - لم يكن ذلك من طبيعته. كانت المشكلة، أن طبيعته سوف تجعلنا جميعاً نُقتل.

قال الجندي الروسي شيئاً لكريم، وابتسامة تلوي شفتيه. قال كريم:

- أغا صاحب، أولئك الروس ليسوا مثلنا؛ إنهم لا يفهمون في الاحترام، أو الشرف.

- ماذا قال؟

- قال إنه سيستمتع بوضع رصاصة فيك تماماً كما سيستمتع بوضع...

خفت صوت كريم حتى الصمت، لكنه أشار برأسه تجاه الشابة التي أثارت إعجاب الجندي. ألقى الجندي بسيجارته من دون أن يكملها وأخرج مسدسه من غمده. فكرت: إذن، على هذا النحو يموت بابا. على هذا النحو ستسير الأمور. في رأسي، تلوث دعاء تعلمته في المدرسة.

قال بابا:

- قل له إنني سأستقبل ألف طلقة من طلقاته قبل أن أسمح بأمر مشين كهذا.

برق ذهني إلى ذلك اليوم الشتوي قبل ستة أعوام. أنا أختلس النظر من ناصية الزقاق. كمال ووالي يثبتان حسناً على الأرض. عضلات إليتي آصف تنقبضان وتنسطان، فخذاه يندفعان إلى الأمام وإلى الخلف. كم كنت بطلاً، لا أهتم إلا بالطائرة الورقية. أنا أيضاً كنت أتساءل في بعض الأحيان ما إذا كنت ابن بابا حقاً.

شهر الروسي الشبيه بالـ«بولدوج» مسدسه.

قلتُ وأنا أشده من كمّه:

- بابا، اجلس من فضلك! أظنه ينوي إطلاق النار عليك فعلاً!

نفض بابا يدي. وصرخ فيّ:

- ألم أعلمك أي شيء؟

استدار للجندي المبتسم:

- أخبره أن خيراً له أن يقتلني بالطلقة الأولى، لأنني إن لم أسقط، سوف

أمزقه إرباً، ملعون أبوه!

لم تختفِ ابتسامة الجندي الروسي عندما سمع الترجمة. سحب أمان المسدس، وصوّب الفوهة نحو صدر بابا. دفنتُ وجهي بين يدي وقلبي يقفز إلى حلقي.

وهذر المسدس.

(انتهى الأمر إذن. أنا في الثامنة عشرة ووحيد. لم يعد لي أحد في الدنيا. مات بابا ويجب أن أدفنه الآن. أين أدفنه؟ وإلى أين أذهب بعدها؟)

لكن طاحونة الأفكار غير المكتملة التي تدور في رأسي توقفت فجأة

عندما فتحت عينيَّ بجهد بالغ، ووجدت أن بابا لا يزال واقفًا. رأيتُ ضابطًا روسيًا ثانيًا مع الآخرين. كانت ماسورة مسدسه المصوب إلى السماء هي التي يتصاعد منها الدخان. وكان الجندي الذي هدد بإطلاق النار على بابا قد خفض سلاحه. كان يراوح بين قدميه. لم أشعر قطُّ بهذا القدر من الرغبة في البكاء والضحك في الوقت نفسه من قبل.

تحدث إلينا الضابط الروسي الثاني، وهو رجل قصير سمين قوي البنية رمادي الشعر، بالفارسية المكسرة. اعتذر عن سلوك رفيقه، وقال:

- روسيا ترسلهم هنا للقتال، لكنهم مجرد صبيان، وعندما يأتون إلى هنا، يكتشفون متعة المخدرات.

رمى الضابط الأصغر بنظرة متحسرة لأب حائق على سوء سلوك ابنه.

- هذا الشاب تحت تأثير المخدرات الآن. وأنا أحاول أن أمنعه...

أشار إلينا باستئناف السير.

بعد لحظات، كنا ننطلق في طريقنا. سمعتُ ضحكة ثم صوت الجندي الأول، النشاز، يغني أغنية الزفاف القديمة.

* * *

ظللنا صامتين لنحو خمس عشرة دقيقة قبل أن يقف زوج الشابة فجأة ويفعل شيئًا رأيت كثيرين غيره يفعلونه من قبل: قَبَّل يد بابا.

* * *

حظ «تور» العاثر. ألم أسمع شيئًا من هذا بين فئات الحوار هناك في «ماهير»؟

دخلنا جلال أباد قبل الشروق بنحو نصف ساعة. أخرجنا كريم بسرعة

من الشاحنة إلى منزل في تقاطع طريقين ترابيين تصطف على جوانبهما منازل من طابق واحد، وأشجار سنط، ومتاجر مغلقة. فردت ياقة معطفي كي أحتمي من البرد ونحن نهرع إلى المنزل، ونجر جر متاعنا. لسبب ما، أتذكر أنني شممت رائحة فجل.

بمجرد أن أدخلنا كريم غرفة المعيشة الخاوية معتمة الإضاءة، أوصد الباب الأمامي، وأنزل الألواح المكسرة، وكانت بمثابة ستائر. ثم سحب نفساً عميقاً وكشف لنا الأخبار السيئة: لن يتمكن شقيقه «تور» من اصطحابنا إلى بيشاور. يبدو أن محرك شاحنته قد تعطل الأسبوع الماضي ولا يزال في انتظار قطع الغيار. تساءل أحدهم في دهشة:

- الأسبوع الماضي؟ إذا كنت تعرف ذلك فلماذا أتيت بنا إلى هنا؟

لمحت حركة من زاوية عيني. ثم طيف شيء يئز شاقاً الغرفة، وكان أول ما أراه بعد ذلك كريماً وقد صُفق ظهره إلى الحائط، وقدماه اللتان تنتعلان صندلاً تتأرجحان على علو قدمين فوق الأرض، وحول عنقه يدا بابا.

ردّ بابا:

- سأخبرك لماذا، لأنه تقاضى نصيبه من الرحلة. هذا هو كل ما يهتم به.

كانت حنجرة كريم تصدر أصوات حشرجة، واللعب يسيل من زاوية فمه.

قال أحد الركاب:

- أنزله، أغا، ستقتله.

قال بابا:

- هذا ما أنويه.

ما لم يكن أحدًا آخر ممن في الغرفة يعرفه هو أن بابا لم يكن يمزح. احمر لون كريم، وأخذ يرفس بساقيه. ظل بابا يخنقه حتى توسَّلت إليه الأم الشابة، تلك التي ألهمت خيال الضابط الروسي، أن يتوقف.

انهار كريم على الأرض وتدحرج مجاهدًا من أجل الهواء عندما تركه بابا في نهاية الأمر. ران الصمت على الغرفة. قبل أقل من ساعتين، تطوع بابا ليتلقى رصاصة دفاعًا عن شرف امرأة لم يكن حتى يعرفها. الآن، كاد أن يخنق رجلًا حتى الموت، وكان سيفعل ذلك عن طيب خاطر لولا توصلات المرأة ذاتها. نقر شيء من الجانب الآخر من الجدار. لا، ليس من الجانب الآخر، من أسفل.

سأل أحدهم:

- ما هذا؟

لهث كريم وهو يكابد لكي يتحدث بين أنفاسه:

- الآخرون. في القبو.

قال بابا وهو يقف فوق كريم:

- منذ متى وهم ينتظرون؟

- أسبوعين.

- ظننتُ أنك قلتَ إن الشاحنة تعطلت الأسبوع الماضي.

حكَّ كريم حلقه، وقال بصوت متحشرج:

- ربما حدث ذلك الأسبوع قبل الماضي.

- متى؟

- ماذا؟

جار بابا:

- متى ستصل قطع الغيار؟

جفل كريم ولم يقل شيئاً. وكنت سعيداً بالظلام. لم أكن أريد أن أرى
نظرة القاتل في عيني بابا.

* * *

عصفت بمنخاري رائحة عطن، كالغن الذي يصيب الزرع، فور أن
فتح كريم الباب الذي يفضي إلى درجات سلم متهاك يهبط إلى القبو.
نزلنا في صف واحد. ناءت السلالم تحت ثقل بابا. واقفاً في القبو البارد،
شعرت أنني مراقب من عيون تطرف في الظلام. رأيت هيئات محتشدة في
أنحاء الغرفة، ظلالها ملقاة على الجدران بفعل الضوء المعتم المنبعث من
مصباحي كيروسين. سرت همهمة خفيضة عبر القبو، وتحتها صوت قطرات
مياه تتساقط في مكان ما، وكان هناك شيء آخر، صوت خربشة.

تنهد بابا من خلفي، وأسقط الحقيبتين.

قال لنا كريم إن إصلاح الشاحنة لن يستغرق سوى يومين يمران سريعاً،
بعدها سوف نكون في طريقنا إلى بيشاور. إلى الحرية. إلى الأمان.

كان القبو منزلنا للأسبوعين التاليين، وبحلول الليلة الثالثة، اكتشفتُ
مصدر الخربشة. الفئران.

* * *

فور أن اعتادت عيناى على الظلام، عددتُ نحو ثلاثين لاجئاً في ذلك

القبو. كنا نجلس كتفًا لكتف على طول الجدران، نأكل البسكويت والخبز والبلح والتفاح. الليلة الأولى، صُلّي جميع الرجال جماعة. سأل أحد اللاجئين بابا لماذا لم ينضم إليهم:

- سينقذنا الله جميعًا، فلماذا لا تصلي له؟

استنشق بابا بعض النشوق. مد ساقيه:

- ستنقذنا ثمان من أسطوانات المحرك وخلاط للوقود.

وأخرست تلك الإجابة البقية عن الحديث في موضوع الله.

لاحقًا، في تلك الليلة الأولى، اكتشفت أن اثنين من المختبئين معنا كانا كمالًا ووالده. كانت صدمة، أن أرى كمالًا يجلس في القبو على بعد بضعة أقدام مني. لكن عندما جاء هو ووالده إلى الجانب الذي نشغله من الحجرة، رأيتُ وجه كمال، رأيتُه حقًا...

كان قد ذُبل - لا توجد ببساطة كلمة أخرى لوصف الأمر. رمقتني عيناه بنظرة خاوية لم يبدُ منها أنه تعرف عليّ. احدودبت كتفاه وتهدّل خداه كما لو كانا متعبين لدرجة يعجزان معها عن التثبيت بالعظام خلفهما. كان والده، وكان يملك دار عرض في كابول، يحكي لبابا كيف أن رصاصة طائشة أصابت زوجته في صدغها، قبل ثلاثة أشهر، فأردتها قتيلة. ثم أخبر بابا بما حدث لكمال. لم ألتقط سوى الفتات مما قال:

- ما كان عليّ أن أدعه يذهب وحده... كان دائمًا وسيماً، تعرف... أربعة منهم... حاول أن يقاوم... يا الله... أخذوه... كان يدمي من أسفل... بنطاله... لم يعد يتكلم... يحدق فقط...

* * *

لن تكون هناك شاحنة، هكذا أخبرنا كريم بعد أن قضينا أسبوعاً في ذلك القبو الذي يعج بالفئران. كان لا يمكن إصلاح الشاحنة.

قال كريم:

— هناك خيار آخر.

وارتفع صوته وسط الآهات. كان ابن عمه يمتلك شاحنة وقود وقد هرب فيها أشخاصاً مرتين من قبل. كان هنا في جلال أباد وربما أمكننا جميعاً الركوب معه.

قرر الجميع الذهاب عدا زوجين عجوزين.

غادرنا تلك الليلة، أنا وبابا، وكمال ووالده، والآخرين. ساعدنا كريم وابن عمه، وهو رجل أصلع مربع الوجه يُدعى عزيز، على الدخول في خزان الوقود. واحداً بعد آخر، اعتلينا السطح الخلفي للشاحنة الدائرية، تسلقنا سلالم الدخول الخلفية، وانزلقنا إلى الخزان. أتذكر أن بابا بعدما تسلق السلم إلى المنتصف، قفز إلى أسفل ثانية وأخرج علبة نشوق من جيبه. أفرغ العلبة والتقط قبضة من التراب من منتصف الطريق غير الممهّد. قبل التراب. وضعه في العلبة. ثم دس العلبة في جيب صدرته، بالقرب من قلبه.

* * *

الفرع.

تفتح فمك. تفتحه عن آخره حتى يطق فكاك. تأمر رئتيك بسحب الهواء، الآن، تحتاج إلى الهواء، تحتاج إليه الآن. لكن شُعبك الهوائية تتجاهلك، تنكمش، تضيق، تعتصر، وفجأة تتنفس عبر أنبوب ضيق. يُغلق فمك وتلتصق شفتاك ولا تقدر إلا على حشرة مخنوقة. تتلوى يداك وترتعشان. في مكان

ما انشق سدٌّ وانهمر طوفانٌ من العرق البارد ليغمر جسدك. تريد أن تصرخ.
لو استطعتَ لصرختَ، لكنك تتنفس الصرخة.

الفرع.

كان القبر مظلمًا. خزان الوقود حالك الظلمة. أنظر إلى اليمين واليسار،
إلى أعلى وأسفل، أحرك يديَّ أمام عينيَّ، فلا أرى إلا شبح حركة. تطرف
عيناى، وتطرف ثانية. لا شيء على الإطلاق. لم يكن الهواء على ما يرام، كان
غليظًا، مصمتًا تقريبًا. لا يُفترض أن يكون الهواء مصمتًا. أريد أن أمد يديَّ،
فأحطم الهواء إلى قطع صغيرة، أحشو بها قصبتي الهوائية. وعطن البنزين.
كانت عيناى تحرقاني من الأبخرة، كما لو أن شخصًا قلب جفنيَّ وعصر
ليمونة فيهما. كان أنفي يلتهب مع كل نفس. ظننت أنني قد أموت في مكان
كهذا. وكانت الصرخة تخرج، تخرج، تخرج...

ثم حدثت معجزة صغيرة، شمّر بابا كمي وتوهّج شيء أخضر في الظلام.
ضوء! ساعة المعصم التي أهداها إليَّ. ثبتُّ عينيَّ على تلك اليد الخضراء
الفلوريسنت. خفتُ أن أفقدها. لم أجرؤ على أن أغمض عينيَّ لثانية.

بدأتُ أعي ما حولي ببطء. سمعت آهات وهمهمة بالدعاء. سمعت طفلًا
يبكي، وهدهدة أمه الصامتة. تجشأ أحدهم. ولعن آخر الروس. ارتجت الشاشة
من جنب إلى جنب، ومن أعلى إلى أسفل. وارتطمت الرؤوس بالمعدن.

قال بابا في أذني:

- فكر في شيء طيب. شيء سعيد.

شيء طيب. شيء سعيد. تركت عقلي يجول. تركت الذكرى تأتي:

عصر يوم جمعة في بغمان. حقل معشب واسع تتناثر فيه أشجار توت

مزهرة. نقف أنا وحسن والعشب البري يصل إلى كواحلنا، أشد الخيط،
والبكرة تدور في يدي حسن الخشتين، عيوننا معلقة على الطائرة الورقية
في السماء. لا كلمة تتردد بيننا، ليس لأننا لا نجد ما نقوله، وإنما لأننا لسنا
مضطرين لقول أي شيء - هكذا تجري الأمور بين من يمثل بعضهم أولى
ذكريات بعض، من رضعوا من الصدر نفسه. نسمة تثير العشب، ويترك حسن
البكرة تدور. تتحرك الطائرة حركة لولبية، تغطس، ثم تستقر. يرقص ظلانا
التوأمان على العشب المترقق. من مكان ما ناحية جدار الطوب الواطئ
في الطرف الآخر من الحقل، نسمع ثرثرة وضحكًا وشقشقة نافورة مياه،
وموسيقى، شيئًا قديمًا ومألوفًا، أظن أنها «يا مولى» على أوتار رباب. ينادي
أحد على اسمينا من وراء الحائط، يقول إن وقت الشاي والكيك قد حان.

لم أتذكر أي شهر كان ذاك، أو أي سنة حتى. كنت أعرف فقط أن الذكرى
تعيش بداخلي، كسرة ملفوفة بعناية من الماضي الجميل، ضربة لون من فرشاة
على قماش رمادي قاحل، ما أصبحت عليه حياتنا.

* * *

عدا ذلك، لم يبقَ من تلك الرحلة غير ذكريات متفرقة ومفتتة تروح
وتجيء، معظمها أصوات وروائح: طائرات «ميج» تهدر فوق رؤوسنا، زخات
متقطعة من الرصاص، حمار ينهق في الجوار، جلجلة أجراس وثغاء أغنام،
حصباء تتفتت تحت إطارات الشاحنة، طفل ينتحب في الظلام، روائح عطنة
من البنزين والقيء والخراء.

ما أتذكره بعد ذلك ضوء الصباح الذي يغشى الأبصار وأنا أتسلق خارجًا
من خزان الوقود. أتذكر وأنا أرفع وجهي إلى أعلى صوب السماء، أضيق
عيني، أتنفس كما لو كان الهواء ينفذ من العالم. تمددت على جانب الطريق

الترابي بجوار خندق صخري، ورنوت نحو سماء الصبح الرمادية، ممتناً للهواء، ممتناً للضوء، ممتناً لبقائي على قيد الحياة.

قال بابا:

- نحن في باكستان يا أمير.

كان يقف فوق.

- يقول كريم إنه سوف يأتي بحافلة لتقلنا إلى بيشاور.

تقلبت على صدري، وأنا لا أزال ممدداً على التراب البارد، ورأيت حقيبتنا على جانبي قدمي بابا. وعبر المثلث بين ساقيه، رأيت الشاحنة ساكنة على جانب الطريق، واللاجئون الآخرون ينزلون السلم الخلفي. ومن خلفهم، انبسط الطريق الترابي عبر حقول أشبه بصفائح رصاصية تحت السماء الرمادية، تختفي خلف خط التلال المقبية. ومن بعيد، بدت قرية صغيرة منبسطة على سفح تلفحه الشمس.

عادت عيناى إلى حقيبتنا فحزنتُ على بابا. بعد كل ما شيدته، وخطط له، وحارب من أجله، واهتم به، وحلم به، كان هذا نتاج حياته: ابن مخيب للآمال وحقيبتنا سفر.

صرخ شخص ما. لا، لم يصرخ، بل ناح. رأيت الركاب متجمعين في دائرة، وسمعت أصواتهم المستعجلة. قال أحدهم كلمة «أبخرة». وقال آخر الكلمة نفسها. وتحول النواح إلى صرير يمزق الحنجرة.

هرعنا أنا وبابا إلى حشد المتفرجين وشققنا طريقنا عبرهم. كان والد كمال يجلس القرفصاء وسط الدائرة، يهتز إلى الخلف وإلى الأمام، ويقبل وجه ابنه الشاحب.

كان يصرخ:

- إنه لا يتنفس! ابني لا يتنفس!

كان جسد كمال الخاوي من الحياة ممدّداً على حجر والده، ويده اليمنى،
المبسوطة المتهدلة، تتحرك على إيقاع نشيج والده.

- ابني! لا يتنفس! يا رب ساعده على أن يتنفس!

انحنى بابا إلى جواره ولفّ ذراعاً حول كتفه، لكن والد كمال أبعدته
واندفع إلى كريم الذي كان يقف بالقرب من ابن عمه. ما حدث بعد ذلك
كان أسرع أو أقصر من أن يُسمى شجاراً. أطلق كريم صرخة دهشة وتراجع
خطوات إلى الوراء. رأيت ذراعاً تتطوح، وساقاً تركل. بعد لحظة، كان والد
كمال يقف ومسدس كريم في يده.

صرخ كريم

- لا تقتلني!

لكن قبل أن يتمكن أيّنا من قول شيء أو عمل شيء، دس والد كمال
الماسورة في فمه. ولن أنسى صدى الانفجار. أو البرق الساطع والأحمر
المتناثر.

انحنيت ثانية، وتقيأت قيئاً جافاً على جانب الطريق.

فريمونت، كاليفورنيا، ثمانينيات القرن العشرين

كان بابا يحب أمريكا كفكرة.

وكان العيش في أمريكا هو ما أصابه بالقرحة.

أتذكر ونحن نمشي عبر متنزه بحيرة إلزابيث في فريمونت، على بعد بضعة شوارع من شقتنا، ونراقب الصبية وهم يتدربون على ضرب كرات البيسبول، والفتيات الصغيرات وهن يقهقهن على الأراجيح في ملعب الأطفال. كان بابا ينورني بآرائه السياسية في أثناء تلك الجولات التي تتخللها مناقشات طويلة ومتشعبة.

كان يحتقر «جيمي كارتر»، ويسميه «المغفل طويل الناب». في عام ١٩٨٠، وكنا لا نزال في كابول، أعلنت الولايات المتحدة مقاطعة دورة الألعاب الأولمبية في موسكو. تعجب بابا في احتقار:

- واه! واه! «بريجنيف» يذبح الأفغان وكل ما يستطيع أكل الفول السوداني أن يقوله: لن أذهب للسباحة في حوضكم.

كان بابا يؤمن أن «كارتر»، بغبائه، قدّم للشيوعية أكثر مما قدّم «ليونيد بريجنيف».

- إنه لا يصلح لإدارة هذا البلد. الأمر يشبه أن تضع صبيًا لا يستطيع أن يقود دراجة خلف عجلة قيادة سيارة كاديلاك جديدة.

أمريكا والعالم بحاجة إلى رجل قوي. رجل يُعتمد عليه، شخص يبادر بالفعل بدلًا من أن يفرك يديه. وقد جاء هذا الشخص في صورة «رونالد ريجان». وعندما ذهب «ريجان» إلى التلفزيون وأطلق على الروس «إمبراطورية الشر»، خرج بابا واشترى صورة للرئيس المبتسم وهو يرفع إبهامه لأعلى. وضع الصورة في إطار وعلقها في بهو شقتنا، إلى جوار صورته القديمة بالأبيض والأسود في رباط عنقه الرفيع وهو يصافح الملك ظاهر شاه. كان معظم جيراننا في فريمونت سائقي حافلات، ورجال شرطة، وباعة في محطات بنزين، وأمهات عزباوات يعشن على الضمان الاجتماعي، بالضبط ذلك النوع من ذوي الياقات الزرقاء الذين سوف يختنقون سريعًا تحت وسادة سياسات «ريجان» الاقتصادية المضغوطة على وجوههم. كان بابا الجمهوري الوحيد في بنايتنا.

لكن دخان منطقة الخليج كان يحرق عينيه، وضوضاء المرور تصدّع رأسه، والغبار المحمل بحبوب اللقاح يجعله يسعل. لم تكن الفاكهة حلوة قطُّ بما يكفي، ولم تكن المياه نقية بما يكفي، ثم أين الأشجار في الحقول المفتوحة؟ لستين، ظلت أحاول أن أقنع بابا بالتسجيل في فصول تعليم الإنجليزية للأجانب لتحسين لغته المكسّرة، لكنه كان يهزأ بالفكرة. كان يدمدم ساخطًا:

- ربما تريدني أن أتهجى «cat» فيعطيني المدرس نجمة صغيرة متألّئة أهرول إلى البيت لأريها لك.

في يوم أحد من ربيع ١٩٨٣، دخلتُ مكتبة صغيرة تباع الكتب المستعملة، بجوار دار عرض الأفلام الهندية، بالقرب من تقاطع شارع أمتراك مع شارع فريمونت. قلت لبابا إنني سأخرج بعد أقل من خمس دقائق فهز كتفيه. كان يعمل في محطة بنزين في فريمونت وكان هذا يوم إجازته. راقبته وهو يعبر شارع فريمونت من دون مراعاة للإشارات، ويدخل متجر «فاست آند إيزي»، وهو محل بقالة صغير يديره زوجان فيتناميان عجوزان، السيد والسيدة «نجوين». كانا أشيبين ودودين؛ هي تعاني من الشلل الرعاش، وهو استبدل عظمة الفخذ. كانت دائمًا تقول لي وهي تضحك بفمها الأدرد:

- إنه مثل «سكس مليون دولار مان». هل تتذكر «سكس مليون دولار مان»؟
ثم يعبس السيد «نجوين» مثل الممثل «لي ميغورز»، ويتظاهر بأنه يجري بالتصوير البطيء.

كنت أتصفح نسخة بالية من رواية بوليسية لـ «مايك همر» عندما سمعت صراخًا وزجاجًا يتهشم. تركت الكتاب وهرعت عابرة الشارع. وجدت الزوجين «نجوين» خلف رف الحساب، ملتصقين بالحائط، شاحبي الوجه، كانت ذراعا السيد «نجوين» ملفوفتين حول زوجته. وعلى الأرضية: حبات برتقال، ورف مجلات مقلوب، وبرطمان مكسور من اللحم المقدد، وشظايا من الزجاج عند قدمي بابا.

تبين أن بابا لم يكن يحمل نقودًا سائلة ليدفع ثمن البرتقال. وكتب للسيد «نجوين» شيكًا فطلب منه السيد «نجوين» بطاقة هوية. جأر بابا بالفارسية:
- يريد أن يرى رخصتي. سنتان ونحن نشترى فاكهته اللعينة ونضع النقود في جيبه وابن الكلب هذا يريد أن يرى رخصتي!

قلتُ وأنا أبتسم للزوجين «نجوين»:

- بابا، الموضوع ليس شخصيًا. المفترض أن يطلبوا بطاقة هوية.

قال السيد «نجوين» وهو يتقدم ليقف أمام زوجته:

- لا أريدك هنا.

كان يشير إلى بابا بعصاه، والتفت نحوي قائلاً:

- أنت شاب لطيف لكن والدك مجنون. لا نريده هنا مرة أخرى.

قال بابا رافعاً صوته:

- هل يظنني لصاً؟

تجمع الناس في الخارج، يحدقون:

- أي بلد هذا؟ لا أحد يثق بأحد!

قالت السيدة «نجوين» وهي تخرج رأسها من خلف زوجها:

- سأتصل بالشرطة. اخرج أو أتصل بالشرطة.

- رجاء، سيدة «نجوين»، لا تتصلي بالشرطة، سأصطحبه إلى المنزل.

فقط لا تتصلي بالشرطة، اتفقنا؟ من فضلك؟

قال السيد «نجوين»:

- نعم، اصطحبه إلى المنزل. فكرة جيدة.

لم تنزل عيناه المتواريتان خلف نظارة القراءة ذات الإطار المعدني عن بابا. اصطحبت بابا إلى الخارج. ركل مجلة في طريقه. وبعد أن جعلته يعدني ألا يدخل ثانية، عدت إلى المتجر واعتذرت للزوجين «نجوين». قلت لهما

إن والدي يمر بأوقات عصيبة. أعطيت آل «نجوين» رقم هاتفنا وعنواننا، وطلبت منهما أن يقدرا الخسائر.

- برجاء الاتصال بي فور معرفتك، سيدة «نجوين». سوف أدفع ثمن كل شيء. أنا آسف!

تناولت السيدة «نجوين» الورقة مني وأومات برأسها. رأيت يديها ترتعشان أكثر من المعتاد. غضبتُ من بابا لأنه جعل امرأة عجوزًا ترتعش بهذا الشكل. قلت مفسرًا:

- لم يتكيف والدي بعد على الحياة في أمريكا.

أردت أن أخبرهما أننا، في كابول، كنا نكسر فرع شجرة ونستخدمه كبطاقة ائتمان. كنت أنا وحسن نأخذ العصا الخشبية للخبّاز. فيحفر علامة على عصانا بسكينه، علامة واحدة لكل رغيف «نان» يسحبه لنا من النيران المتأججة في الفرن. في نهاية الشهر، كان أبي يحاسبه على عدد العلامات على العصا. هكذا كان الأمر. لا أسئلة. لا بطاقات هوية.

لكنني لم أخبرهما. شكرت السيد «نجوين» على عدم الاتصال بالشرطة. واصطحبت بابا إلى المنزل. كان ممتعضًا وأخذ يدخن في الشرفة وأنا أعد الأرز مع رقاب الدجاج. مر عام ونصف منذ خرجنا من الطائرة «البوينج» القادمة من بيشاور، وبابا لم يتكيف بعد.

تناولنا طعامنا في صمت تلك الليلة. بعد لقمتين، دفع بابا طبقه بعيدًا. نظرت له عبر الطاولة، أظافره مكسورة، ومسودة من زيت المحرك، مفاصل أصابعه مجروحة، وتفوح من ملابسه روائح محطة البنزين - الغبار، العرق والبنزين. كان بابا مثل أرمل تزوج ثانية لكنه لا يستطيع نسيان زوجته

الراحلة. كان يشاق إلى حقول قصب السكر في جلال أباد وحدائق بغان، يشاق إلى حركة الناس الدائبة داخلين وخارجين من منزله، وإلى المشي في ممرات سوق شور الضاجة بالبشر، وتحية الناس الذين يعرفونه ويعرفون والده، ويعرفون جده، الناس الذين يشاركونه الأسلاف ذاتهم، الذين يتقاطع ماضيهم مع ماضيه.

بالنسبة إليّ، كانت أمريكا مكانًا أدفن فيه ذكرياتي.

بالنسبة إلى بابا، مكانًا يرثي فيه ذكرياته.

قلت وأنا أتابع الثلج الطافي على سطح كوب المياه أمامي:

- ربما يجب أن نعود إلى بيشاور.

كنا قد قضينا ستة أشهر في بيشاور في انتظار أن يصدر مكتب الهجرة والجنسية تأشيرتنا. كانت شقتنا وسخة الجدران، المكونة من غرفة نوم واحدة، تنضح برائحة أشبه بجوارب قذرة وفضلات ققط، لكننا كنا محاطين بأناس نعرفهم - على الأقل بابا يعرفهم. كان يدعو جميع الجيران في الطريقة إلى العشاء، ومعظمهم أفغان ينتظرون تأشيرات. ودائمًا ما كان الأمر ينتهي بأن يأتي أحدهم بطبلة وآخر بهارمونيوم. ويغلي الشاي، ويغني كل من له صوت مقبول حتى تطلع الشمس، ويكف الناموس عن الطنين، وتتقرح الأيدي من التصفيق.

قلت:

- كنت سعيدًا هناك يا بابا. كانت أقرب إلى الوطن.

- بيشاور كانت جيدة لي، ليست جيدة لك.

- أنت ترهق نفسك في العمل كثيرًا هنا.

- ليس الأمر شديد السوء الآن.

كان يقصد منذ أصبح مديرًا للوردية النهار في محطة البنزين. لكنني رأيت كيف كان ينكمش على نفسه ويفرك يديه في الأيام الرطبة. كيف كانت جبهته تتفصد عرقًا وهو يمد يده إلى الدواء المضاد للحموضة بعد الوجبات.

- ثم إنني لم آتِ إلى هنا من أجلي، أليس كذلك؟

مددت ذراعي عبر الطاولة ووضعت يدي على يده. يد الطالب، النظيفة الناعمة، على يد العامل، المشحمة الخشنة. فكرت في كل السيارات والقطارات والدراجات التي اشتراها لي في كابول. الآن أمريكا. هدية أخيرة لأمير.

بعد شهر واحد من وصولنا إلى الولايات المتحدة، عثر بابا على وظيفة في شارع متفرع من شارع واشنطن؛ مساعد في محطة بنزين يملكها رفيق أفغاني - وكان قد شرع في البحث عن عمل في أسبوع وصولنا. لستة أيام في الأسبوع، كان بابا يقضي ورديات من اثنتي عشرة ساعة وهو يضخ البنزين، ويسجل الحسابات، ويغير الزيت، ويغسل زجاج السيارات. كنت أجلب له الغذاء أحيانًا فأجده يبحث عن علبة سجائر على الأرفف، والزبون ينتظر على الجانب الآخر من رف الحساب المبقع بالزيت، كان وجه بابا نحيلًا وشاحبًا في أضواء الفلوريسنت الساطعة. وكان الجرس الإلكتروني فوق الباب يدق «دينج دونج» كلما دخلتُ، وكان بابا ينظر بشك، ويلوِّح لي، ويبتسم، وعينه تدمعان من التعب.

في نفس يوم توظيفه، ذهبنا أنا وبابا إلى ضابط الصلاحية المسؤول عنا في سان جوزيه، السيدة «دوبينز». كانت امرأة سوداء بدينة، لها عينان لامعتان وابتسامة تكشف عن غمازتين. وقد أخبرتني ذات مرة أنها تغني في الكنيسة،

وصدقتها - كان صوتها يذكرني باللبن الدافئ والعسل. أسقط بابا حزمة من بطاقات الطعام على مكتبها. قال بابا:

- شكرًا لكنني لا أريدها. أنا دائمًا أعمل. في أفغانستان أعمل، في أمريكا أعمل. شكرًا جزيلاً، سيدة «دوبينز»، لكنني لا أحب المال المجاني.

طرفت السيدة «دوبينز». التقطت بطاقات الطعام، نقلت عينيها بيني وبين بابا كما لو كنا نمازحها، أو «نعمل فيها ملعوبًا» كما كان حسن يقول. قالت: - خمسة عشر عامًا قضيتها في هذه الوظيفة ولم أر شخصًا واحدًا يفعل ذلك.

وهكذا أنهى بابا تلك اللحظات المهيبة المتعلقة ببطاقات الطعام خلف ماكينة حساب، قاضيًا بذلك على واحد من أعظم مخاوفه: أن يراه أفغاني وهو يشتري الطعام بأموال الصدقات. خرج بابا من مكتب الصلاحية مثل رجل شفي من ورم.

* * *

في ذاك الصيف من عام ١٩٨٣، تخرجت في المدرسة الثانوية في سن العشرين، وهي سن تتجاوز بكثير سن أكبر طالب طوّح قبعة تخرجه في الهواء في ملعب كرة القدم ذلك اليوم. أتذكر أن بابا ضاع مني في سرب الأسر المحتشدة، ووميض الكاميرات، والعباءات الزرقاء. وجدته قرب خط العشرين ياردة، يده مدسوستان في جيبيه، والكاميرا تتأرجح على صدره. اختفى وعاود الظهور خلف من يتحركون بيننا: فتيات صاخبات بأردية زرقاء يتعانقن، ويتصايحن، وصبية يضربون الكفوف عاليًا مع آبائهم. كانت لحية بابا رمادية، وشعره خفيفًا عند الفودين. ألم يكن أطول في كابول؟ كان يرتدي حلته البنية - حلته الوحيدة، الحلقة ذاتها التي يرتديها في حفلات الزفاف والجنائز الأفغانية - وربطة العنق الحمراء التي اشتريتها له في عيد

ميلاده الخمسين ذلك العام. ثم رأي ولوح لي بيده. ابتسم. أشار إليّ أن أضع قبة تخرجي، والتقط لي صورة أمام برج الساعة في المدرسة. ابتسمتُ له - بشكلٍ ما كان يومه أكثر مما كان يومي. مشى باتجاهي، وأحاط عنقي بذراعه، وطبع قبلة واحدة على جبينني. قال:

- أنا فخور بك يا أمير.

لمعت عيناه عندما قال ذلك وسعدتُ باستقبال تلك النظرة.

أخذني، تلك الليلة، إلى مطعم كباب أفغاني في هايوارد، وطلب طعامًا يزيد كثيرًا على كفايتنا. قال للمالك إن ابنه سوف يلتحق بالكلية في الخريف. جادلته قليلًا في هذا الشأن قُبيل تخرجي، وقلت له إنني أريد أن أجد وظيفة. أن أساعده، وأدخر بعض النقود، وربما ألتحق بالكلية العام التالي. لكنه رمقني بنظرة من نظراته المتقدمة، فتبخرت الكلمات على لساني.

بعد العشاء، اصطحبني بابا إلى بار في مواجهة المطعم. كان المكان معتمًا، ورائحة البيرة اللاذعة التي طالما كرهتها تفوح من الجدران. كان ثمة رجال يعتمرون قبعات بيسبول ويرتدون قمصانًا بلا أكمام يلعبون البلياردو، وسحابات من دخان السجائر تحوم فوق الطاولات الخضراء، تدوّم في ضوء الفلوريسنت. لفت دخولنا الأنظار، بابا في حلته البنية وأنا في بنطال بكسرات وجاكيث رياضي. جلسنا على البار، إلى جوار رجل عجوز، بدا وجهه المدبوغ سقيمًا في الوهج الأزرق للافته دعاية بيرة «ميشلوب» فوق رؤوسنا. أشعل بابا سيجارة وطلب لنا بيرة. قال معلنًا للجميع من دون أن يوجه كلامه لأحد:

- الليلة أنا سعيد سعادة فائقة. الليلة أنا أشرب مع ابني. ورجاء، بيرة أخرى لصديقي.

قالها وهو يربّت على ظهر الرجل العجوز. رفع العجوز مقدمة قبعته تحية
وابتسم. كان فكه العلوي خاليًا من الأسنان.

أنهى بابا بيرته في ثلاث جرعات. تناول ثلاثًا قبل أن أجبر نفسي على
إكمال رُبْع بيرتي. وكان وقتها قد طلب «سكوتش» للرجل العجوز وعزَمَ
لاعبي البلياردو الأربعة على إبريق «بادفايزر». صافحه الرجال وخبطوا
على ظهره. شربوا نخبه. أشعل أحدهم سيجارته. فك بابا ربطة عنقه ومنح
العجوز حفنة من أرباع الدولارات. أشار إلى صندوق الموسيقى، وقال لي:
- قل له أن يشغل موسيقاه المفضلة.

أوماً العجوز وحيًا بابا. وسرعان ما صدحت موسيقى الريف، وهكذا
بدأ بابا حفلًا.

عند لحظة ما، وقف بابا، ورفع قدح البيرة، وهي تتساقط على الأرض
المغطاة بنشارة الخشب، وصاح:
- اللعنة على روسيا.

ضجت الحانة بالضحك ثم ضجت بصداه. وعزم بابا الجميع على
أكواب أخرى من البيرة.

عندما غادرنا، حزن الجميع لرحيله. في كابول، في بيشاور، في هايوارد.
ابتسمت وقلت لنفسي بابا لن يتغير.

قُدت سيارة بابا الـ «بويك سينشري» الصفراء البرتقالية إلى المنزل.
أغفى بابا في الطريق، وغطّ مثل مثقاب صخور. فاحت منه رائحة التبغ
والكحول، حلّوا ولاذعًا، لكنه انتصب في جلسته عندما أوقفت السيارة
وقال بصوت أجش:

- واصل إلى نهاية الشارع.

- لماذا يا بابا؟

تحرك فحسب.

جعلني أوقف السيارة عند الطرف الجنوبي من الشارع. مديده إلى جيب معطفه وناولني سلسلة مفاتيح. قال وهو يشير إلى السيارة الواقفة أمامنا: - ها نحن.

كانت «فورد» من طراز قديم، طويلة وعريضة، ذات لون داكن لم أستطع تبينه في نور القمر.

- تحتاج إلى طلاء، وسأجعل أحد الشباب في المحطة يضع لها عوارض صدمات جديدة، لكنها تدور.

أخذتُ المفاتيح وأنا مذهول. نقلتُ نظري بينه وبين السيارة.
قال:

- سوف تحتاجها للذهاب إلى الكلية.

أمسكتُ بيده في يدي. اعتصرتها. كانت عيناى تدمعان وكنت سعيدًا بالظلال التي غطت وجهينا.
- شكرًا، بابا.

خرجنا وجلسنا داخل الـ«فورد». كانت جراند تورينو، زرقاء داكنة كما قال بابا. قُدتها حول المربع السكني، مختبرًا الفرامل، والراديو، والإشارات الضوئية. صففتها في الساحة أمام بنايتنا وأطفأت المحرك. قلت:
- «تشكر»، بابا جان.

أردت أن أقول أكثر من ذلك، أن أخبره كم تأثرت بكرمه هذا، كم أقدر كل ما فعله لأجلي، وما يفعله. لكنني كنت أعرف أن ذلك سوف يخرجه. وهكذا، كررت:
- «تشكر».

ابتسم لي واثكأ برأسه على مسند الكرسي، ووجهه يكاد يلمس السقف. لم ننطق بكلمة. فقط جلسنا في الظلام، نصغي لأصوات المحرك وهو يبرد، «تينك تينك»، وإلى أنين صفارة إنذار من بعيد. ثم أدار بابا رأسه لي. وقال:
- أتمنى لو كان حسن معنا اليوم!

أطبقت يدان فولاذيتان على قصبتي الهوائية لدى سماع اسم حسن. أنزلت الشباك. وانتظرت أن تخفف اليدان الفولاذيتان قبضتهما.

* * *

قلت لبابا في اليوم التالي لتخرجي إنني سأسجل اسمي في فصول الكلية التمهيدية في الخريف. كان يحتسي شايًا أسود باردًا ويمضغ بذور الهال، ووصفته الشخصية التي يثق بها للتخلص من صداع ما بعد السكر. قلت:
- أعتقد أنني سأتخصص في اللغة الإنجليزية.

انتظرت الرد على أحر من الجمر.

- اللغة الإنجليزية؟

- الكتابة الإبداعية.

فكر في الأمر. رشف من الشاي.

- قصص، تقصد. ستؤلف قصصًا.

نظرت إلى قدميَّ.

- هل يدفعون مقابلًا لكتابة القصص؟

- إذا كنت تكتب بشكل جيد. وإذا تم اكتشافك.

- وما احتمالية أن يتم اكتشافك؟

قلت:

- يحدث أحيانًا.

أوما برأسه.

- وماذا ستفعل في انتظار أن تكتب جيدًا وتُكتشف؟ كيف ستكسب النقود؟ إذا تزوجت، كيف ستنفق على الـ«خاتم» التي ستتزوجها؟

لم أستطع أن أرفع عينيَّ في مواجهته.

- سوف... أجد وظيفة.

قال:

- أوه! واه واه! إذن، لو كنت أفهم، سوف تدرس عدة سنوات لتنال شهادة، ثم ستحصل على وظيفة شاتي مثلي، وظيفة يمكنك أن تحصل عليها اليوم من دون عناء، على أمل ضعيف أن تساعدك شهادتك يومًا ما على أن... تُكتشف.

سحب نفسًا عميقًا ورشف من الشاي. ثم همهم بشيء عن كلية الطب، وكلية الحقوق، و«العمل الحقيقي».

شعرت بسخونة في خديَّ، وشق الإحساس بالذنب طريقه بداخلي، ذنب

أن أُرضي نفسي على حساب قرحتي، أظافره السوداء، وقبضتيه المتألمتين، لكنني قررت أن أتمسك بموقفي. لم أكن أرغب في التضحية من أجل بابا أكثر من ذلك. آخر مرة فعلت ذلك، أصبت نفسي باللعنة.

تنهد بابا، وفي تلك المرة، ألقى بقبضة كاملة من حبوب الهال في فمه.

* * *

أحيانًا، كنت أتخذ مكاني خلف عجلة قيادة الـ«فورد»، وأنزل الزجاج، وأقود لساعات، من الخليج الشرقي إلى الخليج الجنوبي، صاعدًا إلى شبه الجزيرة وعائدًا منها. كنت أقود عبر شبكات من الشوارع التي تحفها أشجار الحور القطني في حينًا في فريمونت، حيث يعيش أناس لم يصفاحوا ملوكًا من قبل في بيوت بالية مسطحة من طابق واحد لها نوافذ بقضبان، وحيث تقطر السيارات القديمة مثل سيارتي الزيت في المداخل المسفلتة. في حينًا، تحيط الباحات الخلفية شبكات من الأسلاك الرصاصية. وتتناثر الألعاب، وإطارات السيارات الفارغة، وزجاجات البيرة التي أزيلت منها العلامات، في العشب الأمامي غير المشذب. كنت أمر من أمام متنزهات تظللها الأشجار تفوح برائحة اللحاء، أمام ممشي شاسعة تكفي لتنظيم خمس مباريات «بُزكشي» في الوقت نفسه. كنت أقود الـ«تورينو» صاعدًا إلى تلال لوس ألتوس، أتوقف أمام دور بنوافذ واسعة، وسباع فضية تحرس بوابات الحديد المشغول في واجهاتها، دور تضم فسقيات على هيئة ملائكة أطفال تصطف بحذاء المماشي المتأنقة، ولا تقف في مداخلها سيارات «فورد تورينو». دور تبدو أمامها دار بابا في وزير أكبر خان مجرد كوخ للخدم.

كنت أستيقظ باكراً صباح بعض أيام الأحد وأقود السيارة جنوبًا على الطريق السريع رقم ١٧، دافعًا الـ«فورد» إلى الطريق المتلوي عبر الجبال

نحو سانتا كروز. كنت أوقف السيارة بجوار الفنار القديم وأنتظر شروق الشمس، أجلس في السيارة وأراقب الضباب يدور وهو يتصاعد من البحر. في أفغانستان، لم أرَ المحيط إلا في السينما. جالسًا في الظلام إلى جوار حسن، طالما تساءلت عن صحة ما قرأت: أن هواء البحر له رائحة الملح. كنت أقول لحسن إننا في يوم ما سوف نتمشى على شاطئ مليء بالأعشاب البحرية، نفوص بأقدامنا في الرمال، ونراقب المياه وهي تنسحب عن أصابعنا. المرة الأولى التي رأيت فيها المحيط الهادي، كدت أصرخ. كان شاسعًا وأزرق كما المحيطات على شاشات سينما طفولتي.

أحيانًا في أول المساء، كنت أوقف السيارة وأتمشى صاعدًا الممر المعلق فوق الطريق السريع. أحاول، ووجهي مضغوط على السور، عد الأنوار الخلفية الحمراء المرتعشة الزاحفة، الممتدة على مدى البصر. سيارات البي إم دبليو، والساب، والبورش. سيارات لم أرها في كابول، حيث يقود معظم الناس الفولجا الروسية، أو الأوبل القديمة، أو البيكان الإيرانية.

مر نحو عامين على وصولنا إلى الولايات المتحدة، وكنت لا أزال أتعجب من حجم البلاد، من اتساعها. وراء كل طريق سريع طريق سريع آخر، وراء كل مدينة مدينة أخرى، تلال خلف الجبال وجبال خلف التلال، وخلفها جميعًا، مدن أخرى وأناس آخرون.

قبل وقت طويل من زحف الجيش الروسي على أفغانستان، وقبل وقت طويل من احتراق القرى وتدمير المدارس، وقبل وقت طويل من زرع الألغام مثل بذور الموت، ودفن الأطفال في مقابر تتكوم فيها الحجارة، كنت أرى كابول مدينة أشباح، مدينة أشباح ذوي شفاه أرنبية.

أما أمريكا فكانت مختلفة. أمريكا نهر يهدر في طريقه، غير عابئ بالماضي.

كان بوسعي أن أخوض في النهر، أن أجعل آثامي تغطس في القاع، أن أدع المياه تحملني إلى مكان بعيد. إلى مكان خال من الأشباح، والذكريات، والآثام.

ولهذا، إن لم يكن لأي سبب آخر، اعتنقتُ أمريكا.

* * *

في الصيف التالي، صيف عام ١٩٨٤ - وفيه بلغت الحادية والعشرين - باع بابا سيارته الـ «بويك» واشترى سيارة «فان فولكس فاجن» متداعية موديل عام ٧١ بمبلغ ٥٥٠ دولارًا من رفيق أفغاني قديم كان مُدرّسًا للعلوم في المدرسة الثانوية في كابول. استدارت رؤوس الجيران يوم تخرجت الـ «فان» في الشارع نافثة الدخان من مؤخرتها قاصدة ساحة الانتظار. أوقف بابا المحرك لتنعطف الـ «فان» في سكون متوجهة إلى البقعة المحددة للانتظار. غطسنا في مقعدينا، وضحكنا حتى تدحرجت الدموع على خدودنا، والأهم، حتى تأكدنا من توقف الجيران عن متابعتنا. كانت الـ «فان» جثة بائسة من الحديد الصديء، نوافذ محطمة استُبدلت بأكياس قمامة سوداء، وإطارات فارغة، ومقاعد ممزقة تكاد اللوالب المعدنية تقفز من أحشائها. لكن المدرّس القديم أكد لبابا أن المحرك وموصل القوة «مثل الرعد»، وكانا كذلك، من ناحية الصوت على الأقل.

في أيام السبت، كان بابا يوقظني فجراً. وفيما يرتدي ثيابه، أمسح بعينيّ الإعلانات المبوبة في الصحف المحلية، وأضع دائرة حول إعلانات «معارض الجراجات»، حيث يبيع الناس ما لم يعودوا بحاجة إليه في باحات منازلهم. كنا نضع خارطة لطريقنا - فريمونت ويونيون سيتي ونيوآرك وهايوارد أولاً، ثم سان جوزيه وملبيتاس وصنيفيل وكامبل إذا سمح الوقت. كان بابا يقود الـ «فان»، وهو يرشف شاياً ساخناً من الترمس، وأنا أصف له الطريق. كنا

نتوقف عند «معارض الجراجات» ونشتري تحفاً رخيصة لم يعد الناس بحاجة إليها. نساوم على ماكينات خياطة قديمة، وعرائس باربي بعين واحدة، ومضارب تنس خشبية، وجيتارات بأوتار مفقودة، ومكانس كهربائية قديمة ماركة «إكترولوكس». بعد الظهر، نكون قد ملأنا مؤخرة الـ«فان الفولكس فاجن» ببضائع مستعملة. ثم في وقت مبكر من صباح الأحد، نذهب إلى سوق الخردة في سان جوزيه، المتفرع من حي بيريسا، ونستأجر مكاناً، ونبيع سقط المتاع محققين ربحاً صغيراً: شارة فريق شيكاغو، وقد اشتريناها بربع دولار اليوم السابق قد تُباع بدولار، أو أربعة دولارات لمجموعة من خمس شارات. وماكينة الخياطة المفككة ماركة سينجر التي اشتريناها بعشرة دولارات قد تجلب لنا، مع بعض المساومة، خمسة وعشرين دولاراً.

بحلول الصيف، كانت العائلات الأفغانية تسيطر على قسم كامل من سوق الخردة في سان جوزيه. والموسيقى الأفغانية تصدح في ممرات قسم «البضائع المستعملة». كانت ثمة شفرة سلوكية غير مكتوبة بين الأفغان في سوق الخردة: أن تحيي الرجل الذي يفرش بضائعه أمام فرشتك، ثم تدعوه لتناول لقمتين من «بولاني» البطاطس أو قليل من «الكابولي»، ثم تثرثران. تقدم له «التسالي»، أي التعازي، في موت أب، أو تبارك له على ميلاد طفل، وتهز رأسك أسفاً عندما يتطرق الحوار إلى أفغانستان والروس - ودائماً ما يحدث ذلك. لكنك تتجنب موضوع السبت. لأنك قد تتبين أن الرفيق الذي يجلس قبالتك على الناحية الأخرى من الممر هو نفسه الشخص الذي كدت تصدمه على مخرج الطريق السريع بالأمس حتى تسبقه إلى «معرض جراج» واعد.

كانت نميمة الأفغان الشيء الوحيد الذي يتدفق أكثر من الشاي في ممرات سوق الخردة. كانت سوق الخردة المكان الذي ترتشف فيه الشاي

الأخضر مع كعك «كولتشه» باللوز، وتعرف ابنة مَنْ فسخت خطبتها وهربت مع عشيقها الأمريكي، الذي عادة ما يكون «برتشمي» - شيوعيًا - في كابول، ومَنْ ابتاع بيتًا بنقود كان يدخرها تحت الطاولة وهو يعيش على المعونات. الشاي والسياسة والفضيحة مكونات الأحد الأفغاني في سوق الخردة.

كنت أشرف أحيانًا على الفرشة، فيما يتمشى بابا في الممر، يده مضمومتان إلى صدره باحترام، يحيي الناس الذين كان يعرفهم من كابول: ميكانيكية وخياطون يبيعون معاطف صوفية مستعملة وخوذات دراجات مكشوفة الطلاء، جنبًا إلى جنب مع سفراء سابقين، وجراحين عاطلين، وأساتذة جامعيين.

في وقت مبكر من صباح يوم أحد في يوليو عام ١٩٨٤، وبابا يجهز الفرشة، اشترت كوبين من القهوة من كشك اللوجبات السريعة وعدت لأجد بابا يتحدث إلى رجل أكبر سنًا له مظهر مميز. وضعت الكوبين على عارض الصدمات الخلفي للـ«فان»، قرب ملصق حملة «ريجان - بوش لانتخابات ٨٤».

قال بابا وهو يشير إليّ أن أقرب:

- أمير، هذا جنرال صاحب، السيد إقبال طاهري. كان جنرالًا مرموقًا في كابول. كان يعمل في وزارة الدفاع.

طاهري. لماذا بدا الاسم مألوفًا؟

ضحك الجنرال مثل رجل اعتاد حضور الحفلات الرسمية ويضحك بصورة آلية عند سماع نكات تافهة من أشخاص مهمين. كان شعره رماديًا - فضيًا خفيفًا ممسّطًا إلى الخلف، وجبهة ناعمة لفحتها الشمس، وشعيرات بيضاء في حاجبيه الأشعثين. كانت تفوح منه رائحة الكولونيا ويرتدي حلة

فضية اللون من ثلاث قطع، لامعة من كثرة الكي، تتدلى من صدرته سلسلة ذهبية لساعة جيب. قال بصوت عميق مهذب:

- يا له من تقديم عظيم. سلام، «بَتَشِم» (يا طفلي).

صافحته وقلت:

- سلام، جنرال صاحب.

كانت يدها النحيفتان تتنافران مع قبضته القوية، كما لو كان ثمة حديد مخبأ أسفل الجلد الطري.

قال بابا:

- أمير سوف يصبح كاتبًا عظيمًا.

أظهرت دهشتي لسماع ذلك.

- لقد أنهى سنته الأولى في الكلية وحصل على تقدير ممتاز في جميع المواد.

صححتُ له:

- الكلية التمهيدية.

قال الجنرال طاهري:

- ما شاء الله، هل ستكتب عن بلادنا، عن التاريخ ربما؟ أم الاقتصاد؟

قلت:

- أكتب أدبًا.

وكنت أفكر في عشرات القصص التي كتبتها في المفكرة ذات الغلاف

الجلدي التي أهداها لي رحيم خان، وأتساءل لماذا اعتراني منها خجل في
حضرة هذا الرجل.

قال الجنرال:

- آه، قاص. حسنًا، الناس يحتاجون إلى القصص لتشغلهم في أوقات
عصية كهذه.

وضع يده على كتف بابا واستدار لي.

- بمناسبة القصص، أنا والدك ذهبنا معًا ذات صيف لصيد الديوك البرية
في جلال أباد. كان وقتًا رائعًا. إذا كنت أتذكر جيدًا، أثبت والدك أن حدة
بصره في الصيد تماثل حدة بصيرته في مجال البيزنس.

ركل بابا مضرب تنس خشبي على مشمّع فرشتنا بإصبع حذائه.

- بعض البيزنس.

رسم جنرال طاهري ابتسامة تجمع بين الحزن والتهذيب، وتنهد، ثم
ربّت على كتف بابا بلطف. قال:

- «زندجي مجزره» (الحياة تسير).

التفت إليّ:

- نحن الأفغان مجبولون على المبالغة، بتشم، وقد سمعت رجالًا كثيرين
يوصفون بالعظمة عن حماقة. لكن والدك ينتمي إلى الأقلية التي تستحق
ذلك الوصف عن جدارة.

تلك الكلمة الصغيرة بدت لي كما حُلَّتْه: مستهلكة ولامعة بصورة غير
طبيعية.

قال بابا:

- أنت تجاملني.

ردّ الجنرال، وهو يهز رأسه إلى الجانبين ويضغط بيده على صدره دلالة على التواضع:

- لا، يجب أن يعرف الأولاد والبنات قدر آبائهم.

التفتَ إليّ.

- هل تُقدّر والدك، بتّشم؟ هل تقدّره حق قدره؟

قلت، متمنيًا أن يكف عن مناداتي بـ«طفلي»:

- «بله» (نعم)، جنرال صاحب.

- تهانيّ إذن، فقد قطعت نصف الطريق إلى الرجولة.

قالها من دون أدنى قدر من المزاح، ومن دون أن يقصد المفارقة، إطراء عابر من شخص يبدي التواضع.

- بادّر جان، نسيّت شايك.

صوت فتاة. كانت تقف وراءنا، فتاة جميلة نحيلة الأرداف شعرها مخملي أسود فاحم، وفي يدها ترؤس مفتوح وكوب الفوم. طرفت عيني، وتسارعت نبضات قلبي. كان لها حاجبان أسودان يتماسان في المنتصف مثل جناحي طائر، وأنف معقوف بلطف لأميرة من بلاد الفرس - أنف تهمينه ربّما، زوجة رستم وأم سهراب بطليّ الـ«شاهنامه». التقت عيناها، العسليتين المظللتين برموش طويلة، بعينيّ. ثبتتا لوهلة. ثم طارتا بعيدًا.

قال الجنرال طاهري:

- أنتِ شديدة اللطف، يا عزيزتي.

تناول منها الكوب. قبل أن تستدير ذاهبة، رأيتُ وحمة بنية على شكل منجل على جلدها الناعم فوق خط فكها مباشرة. سارت نحو سيارة «فان» رمادية قاتمة على بعد ممرين ووضعت الترمُس بالداخل. انساب شعرها على أحد الجانبين عندما انحنت بين صناديق أشرطة التسجيل والكتب القديمة.

قال الجنرال طاهري:

- ابنتي، ثريا جان.

سحب نفسًا عميقًا كرجل يرغب في تغيير الموضوع ثم ألقى نظرة على ساعة جيبه الذهبية.

- حسنًا، حان وقت الذهاب والاستعداد.

تبادل هو وأبي القبلات على الخدّين وصافحني شاذًا على يدي بيديه. قال وهو ينظر في عيني:

- أطيب التمنيات في الكتابة.

لكن عينيه الزرقاوين الشاحبتين لم تكشف شيئًا مما يدور خلفهما.

بقية اليوم، ظللت أقاوم رغبتني في النظر تجاه الـ«فان» الرمادية.

* * *

تذكرت ونحن في طريق العودة إلى البيت. طاهري. كنت أعرف أنني سمعت هذا الاسم من قبل.

قلت لبابا، محاولاً أن تبدو نبرة صوتي طبيعية:

- ألم تكن ثمة قصة عن ابنة طاهري؟

قال بابا، وهو يتقدم بطيئاً بالسيارة في الطابور الخارج من سوق الخردة:

- أنت تعرفني. عندما ينحرف الحوار إلى النميمة، أبتعد.

قلت:

- لكن كانت هناك قصة، أليس كذلك؟

- لماذا تسأل؟

رمقني بنظرة متحفظة.

هزرت كتفيّ وجاهدت لأمنع ابتسامة:

- مجرد فضول، بابا.

قال:

- حقاً؟

وتفحصني بعينين مرحتين.

أشحت بوجهي.

- أرجوك، بابا.

ابتسم، وتأرجحت السيارة خارجة من سوق الخردة. اتجهنا إلى الطريق السريع رقم ٦٨٠. وظللنا صامتين لبعض الوقت.

- كل ما سمعته أنه كان هناك رجل ذات مرة وأن الأمور... لم تسر على ما يرام.

قالها بنبرة جادة، كما لو كان يكشف لي أنها مصابة بسرطان الثدي.

- أوه!

قال:

- أسمع أنها فتاة مهذبة، مجتهدة وطيبة. لكن لا «خواستِجار»، لا خُطَّاب
قرعوا باب الجنرال من وقتها.

تنهد بابا:

- ربما لا يكون ذلك عدلاً، لكن ما يحدث في بضعة أيام، بل في يوم
واحد أحياناً، يمكن أن يغير مسار حياة بأكملها، أمير.

* * *

وأنا أتمدّد يقظاً في الفراش تلك الليلة، فكرتُ في وحة ثريا طاهري،
الوامة التي على شكل منجل، في أنفها المعقوف بلطف، وفي الطريقة التي
التقت بها عيناها المضيئتين لقاءً خاطفاً. خفق قلبي لدى التفكير فيها.
ثريا طاهري. أميرة سوق الخردة.

في أفغانستان، الـ«يلدا» أولى ليالي شهر «جدي»، أولى ليالي الشتاء، وأطول ليالي السنة. وكما تقتضي التقاليد، كنت أنا وحسن نطل مستيقظين إلى وقت متأخر، أقدامنا محشورة تحت الكرسي، وعلي يرمي قشر التفاح في الموقد ويحكي لنا حكايات قديمة عن سلاطين ولصوص نقضي بها أطول الليالي تلك. علي هو الذي أخبرني بمأثورات الـ«يلدا»، وكيف أن العثة الخبيثة - في تلك الليلة - تُلقي بنفسها في لهيب الشموع، والذئاب تتسلق الجبال بحثًا عن الشمس. وكان علي يقسم أنك إذا أكلت بطيخًا ليلة الـ«يلدا»، لا تعطش طيلة الصيف.

عندما كبرتُ، قرأت في كُتب الشعر أن الـ«يلدا» ليلة تخلو فيها السماء من النجوم ويظل فيها العشاق المعذبون ساهرين، يتحملون الظلام السرمدي، بانتظار أن تشرق الشمس ويأتي الحبيب. بعدما قابلت ثريا طاهري، أصبحت كل ليالي الأسبوع «يلدا» بالنسبة إليّ. وعندما كان يوم الأحد يأتي، كنت أنهض من الفراش، وقد سيطر على عقلي وجه ثريا طاهري ذو العينين العسليتين. وفي سيارة بابا، كنت أعد الأميال بانتظار أن أراها تجلس حافية القدمين، ترتّب صناديق الورق المقوى التي تضم موسوعات مُصفّرة، كعباها

أيضاً قباله الأسفلت، والأساور الفضية تجلجل حول معصمها النحيلين. كنت أفكر في الظلال التي يلقيها شعرها على الأرض عندما ينزلق على ظهرها وينسدل مثل ستارة مخملية. ثرياً، أميرة سوق الخردة. شمسي التي تشرق بعد ليالي الـ«يلدا» الطويلة.

كنت أخترع الأعذار لأتمشى في الممر - وكان بابا يقبلها بابتسامة مأكرة - وأمر من أمام فرشة طاهري. ألّوح للجنرال، الذي يرتدي دوماً حلتة الرمادية اللامعة المكوية جيداً، ويلوّح لي. وأحياناً ينهض من كرسي الإدارة الذي يجلس عليه ويُجري حواراً قصيراً معي حول كتاباتي، والحرب، ومساومات اليوم. وكنت أجبر عينيّ على ألا تزيفان، ألا تسرحان إلى حيث تجلس ثرياً تقرأ كتاباً. كنا نتبادل كلمات الوداع أنا والجنرال، وأحاول ألا أتعثر وأنا أمضي في طريقي.

أحياناً كانت تجلس بمفردها، ويكون الجنرال قد ذهب إلى صف آخر لأداء واجباته الاجتماعية، كنت أمشي أمامها، متظاهراً بأنني لا أعرفها، لكنني كنت أتحرق شوقاً لذلك. أحياناً أرى بصحبتها امرأة بدينة في منتصف العمر ببشرة شاحبة وشعر أحمر مصبوغ. تعهدتُ لنفسي أن أكلّمها قبل نهاية الصيف، لكن المدارس فتحت أبوابها، واحمرّت أوراق الشجر، واصفرّت، وسقطت، وانهمرت أمطار الشتاء فأوهنت مفاصل بابا، ونبتت الأوراق الوليدة على الأشجار من جديد، من دون أن تواتيني الجرأة، الـ«دل»، حتى للنظر في عينيها.

انتهى فصل الربيع في أواخر مايو عام ١٩٨٥. حصلتُ على تقدير امتياز في كل المواد العامة، وهو ما يمثل معجزة صغيرة نظراً لأنني كنت أجلس في المحاضرات وأفكر في التقوُّس الناعم لأنف ثرياً.

ثم، في يوم أحد قائظ من ذلك الصيف، كنت أنا وبابا في سوق الخرودة، نجلس في كيينتنا، نروّح على وجوهنا بالجرائد. ومع أن الشمس كانت تصب لهيها صبّا، كانت السوق مزدحمة ذلك اليوم والمبيعات كبيرة - لم تكن الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة والنصف لكننا كنا جنينا ١٦٠ دولارًا. وقفتُ، تمطيتُ، وسألت بابا إذا كان يريد مياهًا غازية. فرد بالإيجاب.

قال وأنا أبدأ في التحرك:

- حذار، أمير.

- ممّ، بابا؟

- أنا لست أحمق، فلا تتغاب عليّ.

- لا أعرف عمّ تتحدث!

قال بابا، وهو يحذرني بسبابته:

- تذكر هذا. الرجل بشتون حتى النخاع. لديه «ننج» و«ناموس».

«ننج» (شرف). «ناموس» (عِزة نفس). عقيدتا الرجال البشتون. خصوصًا عندما يتعلق الأمر بعفة زوجة. أو ابنة.

- أنا ذاهب لأشتري مشروبات وحسب.

- فقط لا تخرجني، هذا كل ما أطلبه.

- لن أفعل. يا إلهي، بابا.

أشعل بابا سيجارة وبدأ في الترويح ثانية.

سرت باتجاه كشك الوجبات السريعة أولاً، ثم استدرت إلى اليسار عند فرشة تيشيرتات - حيث يمكنك، بخمسة دولارات، أن تطبع وجه

يسوع، أو إلفيس، أو جيم موريسون، أو ثلاثتهم، على تيشيرت من النيلون الأبيض. كانت موسيقى المارياتشي تصدح، وشممت رائحة مخلات ولحم مشوي.

رأيت سيارة طاهري الـ«فان» الرمادية على بُعد صفين من سيارتنا، بجوار الكشك الذي يبيع حبات المانجو مرشوقة في عصي صغيرة. كانت وحدها، تقرأ. ترتدي ذاك اليوم رداء صيفياً أبيض يصل حتى الكاحلين. وتنتعل صندلاً مفتوح الأصابع. الشعر مسحوب للخلف ومعقوص على شكل زهرة الزنبق. نويت أن أمر أمامها بصورة عادية مرة أخرى واعتقدت أنني فعلت، غير أنني وجدتني فجأة أقف عند حافة مفرش طاولة آل طاهري، محدقاً في ثريا عبر مكاوي الشعر، وأربطة العنق القديمة. رفعتُ بصرها.

قلت:

- سلام. آسف لكوني «مزاحم» (مزعج)، لا أقصد إزعاجك.

- سلام.

- هل جنرال صاحب هنا اليوم؟

كانت أذناي تحترقان. لم أستطع النظر إلى عينيها.

قالت:

- ذهب في هذا الطريق.

وأشارت إلى يمينها. انزلق السوار حتى مرفقها، فضة على زيتون.

- هلا أخبرته أنني مررت كي أقدم له احترامي؟

- سأخبره.

- شكرًا. أوه، واسمي أمير. إذا أردت المعرفة. حتى تستطيعي إخباره.
إنني مررت. كي... أقدم له احترامي.
- نعم.

راوحت بين قدمي، وتنحنحت.
- سأذهب الآن. آسف على إزعاجك.
قالت:

- لا، لا إزعاج.
- أوه. جيد.

رفعت رأسي وابتسمت لها نصف ابتسامة.
- سأذهب الآن. (ألم أقل ذلك من قبل؟) «خُدا حافظ».
- «خُدا حافظ».

شرعتُ في السير. توقفت واستدرت. ثم قلتها قبل أن أفقد رباط جأشي:
- هل لي أن أسألك ماذا تقرأين؟
طرفت عيناها.

حبست أنفاسي. فجأة، شعرت بالعيون الجمعية لأفغان سوق الخردة
مسلطة علينا. تخيلت أن الصمت قد ران، أن الشفاه توقفت في منتصفات
الجُمْل، أن الرؤوس استدارت، والعيون ضاقت في اهتمام بالغ.
ماذا كان هذا؟

حتى تلك النقطة، كان يمكن تفسير اللقاء على أنه سؤال محترم، رجل

يسأل عن مكان رجل آخر. لكنني الآن سألتها سؤالاً وإذا أجابتنني، سنكون في حالة... حسنًا، سنكون في حالة دردشة. أنا شاب «مجرّد» (أعزب)، وهي شابة غير متزوجة، بل شابة لها تاريخ. كان الأمر يتأرجح بخطورة على حافة التحول إلى مادة للنميمة، أفضل أنواع النميمة. سترفُّ الألسن المسمومة. وتتجرع هي هذا السم، لا أنا - كنت أدرك تمامًا المعايير المزدوجة لدى الأفغان التي تنحاز لجنسي. لن يقولوا «هل رأيته وهو يثرثر معها؟» وإنما «وووووي! هل رأيت كيف تركته يفعل؟ يا له من «لُتَشَك» (محتال)!».

بالمعايير الأفغانية، كان سؤالني وقحًا. وبه كشفت نفسي، ولم أدع لها سوى مساحة قليلة للشك في اهتمامي بها. لكنني كنت رجلًا، وكل ما أجازف به هو جرح في كبريائي. الجروح تشفى، لكن السمعة لا تشفى. هل ستقبل وقاحتي؟

قلّبت الكتاب كي تريني غلافه. رواية «وذرينج هايتس». قالت:

- هل قرأتها؟

أومأت. كان بوسعي أن أشعر بنبضات قلبي تتردد خلف عيني.

- إنها قصة حزينة.

قالت:

- القصص الحزينة تصنع كتبًا جيدة.

- صحيح.

- سمعتُ أنك تكتب.

كيف عرفتُ؟ تساءلتُ إذا كان والدها قد أخبرها، ربما سألته هي.

استبعدت السيناريوهين فورًا لسخفهما. يمكن للآباء والأبناء أن يتكلموا بحرية عن النساء. لكن الفتاة الأفغانية - الفتاة الأفغانية المهذبة المحترمة على الأقل - لن تسأل والدها عن شاب. والأب، خصوصًا لو كان يشتون لديه «ننج» و«ناموس»، لن يناقش أمر شاب «مجرد» مع ابنته، إلا لو كان الشاب «خواستيجار»، أي خطيب، تصرّف بشرف وأرسل والده ليقرع الباب.

لم أصدق وأنا أسمعني أقول:

- هل تريدان قراءة قصة من قصصي؟

قالت:

- أحب ذلك.

شعرتُ أن قدرًا من الارتباك انتابها حينذاك، رأيته في الطريقة التي بدأت فيها عيناها تتنقلان من جانب لآخر. ربما احترازًا من الجنرال. تساءلتُ ماذا يقول إذا وجدني أتحدث مع ابنته ذلك الحديث الذي استمر أكثر مما تسمح به اللياقة.

قلت:

- ربما أحضر لك قصة يومًا ما.

كنت على وشك أن أقول المزيد عندما لاحت من الممر تلك المرأة التي رأيته مع ثريا من قبل، قادمة باتجاهنا. كانت تحمل حقيبة بلاستيكية مليئة بالفاكهة. عندما رأتنا، قفزت عيناها من ثريا إليّ، ثم إلى ثريا ثانية. وابتسمت.

قالت وهي تضع حقيبتها على مفرش الطاولة:

- أمير جان، أنا سعيدة برؤيتك.

كانت جبهتها تومض من لمعة العرق. وشعرها الأحمر، المصفّف في تسريحة تشبه الخوذة، يتلأأ في ضوء الشمس - كان من الممكن أن أرى أجزاء من فروة رأسها حيث تخف كثافة الشعر. كانت لها عيناان صغيرتان خضراوان مدفونتان في وجه مستدير كالكرنب، وأسنان مرُكّبة، وأصابع صغيرة تشبه السجق. وكانت سلسلة بها لفظ الجلالة تستريح على صدرها، مستكنة بين طيّات عنقها وتجاعيده.

- أنا جميلة، والدّة ثريا جان.

قلت:

- سلام، خالة جان.

وكنّت أشعر بالخرج، كما هو حالي دائماً في وجود الأفغان، حرجٌ لأنها تعرفني وليس لديّ أدنى فكرة عنها.

قالت:

- كيف حال والدك؟

- بخير! أشكرك.

- تعرف، جدك، غازي صاحب، القاضي؟ عمه وجدي ابنا عمومة. وهكذا، فنحن أقارب.

ابتسمتُ بأسنانها المرُكّبة، ولاحظتُ أن الجانب الأيمن من فمها متهدل قليلاً. وعادت عيناها تتنقلان بيني وبين ثريا.

كنت قد سألت بابا ذات مرة لماذا لم تتزوج ابنة الجنرال طاهري حتى الآن. قال بابا، لم يأتها خطّاب. ثم صوّب، لم يأتها خطّاب مناسبون. لكنه لم يقل

أكثر من ذلك - كان بابا يعرف كيف يمكن أن يؤثر الكلام الفارغ في فرصة الفتيات لزيعة جيدة. إذ كان الرجال الأفغان، خصوصًا أولئك الذين ينحدرون من عائلات طيبة السمعة، كائنات متقلبة. همس هنا، وتلميح هناك، ويولُّون هاربين كطيرٍ مذعور. إذن، كانت حفلات الزفاف تأتي وتذهب ولا أحد يغني «آهسته برو» لثريا، لا أحد يخضّب كفيها بالحناء، لا أحد يمسك المصحف فوق طرحة زفافها، بل كان الجنرال طاهري هو من يرقص معها في كل حفل زفاف. وحينذاك تأتي تلك المرأة، تلك الأم، بابتسامتها الحماسية المعوجة وأملها الذي لا تكاد تستره عيناها. شعرتُ بالخرج أمام وضع القوة الذي أتمتع به، فقط لأنني ربحت في يانصيب العجين الذي حدد جنسي.

لم أستطع قطُّ قراءة الأفكار في عيني الجنرال، لكنني أعرف هذا القدر عن زوجته: إذا وقف شخص في الطريق بيني وبين هذا الأمر - أيًا كان الأمر - فلن يكون هي.

قالت:

- اجلس، أمير جان. ثريا، هاتِ له كرسيًا، بَتَشِم. واغسلي له حبة خوخ من هذه، إنها حلوة وطازجة.

قلتُ:

- لا، شكرًا. يجب أن أرجع. أبي في انتظاري.

قالت خائمه طاهري وقد بدا عليها التأثير من تصرفي المهذب ورفضتي للعرض:

- أوه؟! إذن، خذ هذه على الأقل.

ألقت حفنة من الكيوي وبضع حبات خوخ في كيس ورقي وأصرت أن آخذه.

- أوصل سلامي لوالدك. وتعال لرؤيتنا ثانية.

قلت:

- سوف أفعل. شكرًا، خالة جان.

من زاوية عيني، لمحت ثريا تنظر بعيدًا.

* * *

قال بابا، وهو يتناول مني كيس الفاكهة:

- ظننت أنك ذهبت لشراء مياه غازية.

كان ينظر إليّ بطريقة جادة ومرحة في آن. شرعت في اختلاق قصة ما، لكنه قضم خوخة ولوّح لي بيده:

- لا تهتم يا أمير. فقط تذكر ما قلته لك.

* * *

في الفراش في تلك الليلة، تذكرت كيف تراقص نور الشمس المبرقش في عيني ثريا، وفي الهالات اللطيفة فوق ترقوتها. أعدتُ تشغيل الحوار الذي دار بيننا مرة بعد مرة في رأسي. هل قالت «سمعت أنك تكتب» أم «سمعت أنك كاتب»؟ ماذا كانت كلماتها؟ رميت الغطاء وحدثت في السقف، وهالني أن يكون في انتظاري ست من ليالي الـ«يلدا» الطويلة المضنية قبل أن أراها ثانية.

* * *

سارت الأمور على هذا النحو لأسابيع. كنت أنتظر حتى يذهب الجنرال

في جولته، ثم أمشي أمام فرشة طاهري. إذا تصادف وكانت خائمت طاهري هناك، تقدم لي الشاي وكعك «كولتشه» ونتحدث عن كابول في الأيام الخوالي، عن الناس الذين نعرفهم، عن التهاب المفاصل الذي تعاني منه. لا شك أنها لاحظت أن وجودي يتصادف دائماً مع غياب زوجها، لكنها لم تلمح لذلك قط. بل كانت تقول:

- أوه! لو بكرت قليلاً لرأيت كاكّا.

الواقع أنني كنت أحب وجود خائمت طاهري، ليس لمعاملتها الودود فحسب؛ وإنما لأن ثريا تكون أكثر استرخاء، وتتكلم أكثر في وجود أمها. كما لو كان وجودها يضيفي شرعية على ما يحدث بيننا، أيّاً كان - وإن ليس بالقدر نفسه من الشرعية التي كان سيضيفها وجود الجنرال. كانت رعاية خائمت طاهري تجعل اللقاء أقل استحقاقاً للنميمة، ما لم يكن محصّناً ضد النميمة، حتى وإن كان تملقها لي يُخرج ثريا.

في أحد الأيام، كنت أنا وثرثيا وحدنا في كابيتهم، نتكلم، تحكي لي عن المدرسة، وكيف كانت هي أيضاً تحضر فصول التعليم العامة، في كلية «أوهلون» التمهيدية، في فريمونت.

- في أي مجال ستخصصين؟

قالت:

- أريد أن أصبح مدرسة.

- حقاً؟ لماذا؟

- لطالما أردت ذلك. عندما كنا نعيش في فيرجينيا، حصلت على شهادة معتمدة في تعليم الإنجليزية للأجانب، وأنا الآن أدرّس في المكتبة العامة ليلة

واحدة كل أسبوع. أُمِّي أيضًا كانت مُدرّسة، تُدرّس اللغة الفارسية والتاريخ في مدرسة زرغونة الثانوية للبنات في كابول.

عرض رجلٌ بكرش، وقبعةٍ من قبعات صائدي الغزلان، ثلاثة دولارات مقابل طاقم من الشمعدانات بخمسة دولارات، فتركته ثرياً يأخذه. أسقطت النقود في صندوق حلوى صغير بجانب قدميها. نظرت إليّ بخجل. قالت: - أريد أن أحكي لك قصة. لكنني محرجة قليلاً.

- احكي.

- إنها قصة سخيفة.

- أرجوكِ احكي!

ضحكت:

- حسنًا، عندما كنت في الصف الرابع في كابول، استأجر أبي امرأة اسمها زيبا للمساعدة في الأشغال المنزلية. كان لها شقيقة في إيران، في مشهد، ولما كانت زيبا أمية، كانت تطلب مني أن أكتب الخطابات لشقيقتها. وعندما كانت الشقيقة ترد، كنت أقرأ الرد لزيبا. في أحد الأيام، سألتها إذا كانت تريد أن تتعلم القراءة والكتابة. منحتني تلك الابتسامة العريضة، وضيقّت عينيها، وقالت إنها تحب ذلك جدًا. وهكذا أصبحنا نجلس على طاولة المطبخ بعد أن أنتهي من فروضي المدرسية لأعلمها الألفباء. أتذكر أنني أحيانًا كنت أرفع عينيّ في أثناء إنجازي للفروض المدرسية فأرى زيبا في المطبخ، تقلّب اللحم في حلة الضغط، ثم تجلس وتُمسك بقلم رصاص لتنجز فرضها الهجائي الذي كلفتها به في الليلة السابقة. على أية حال، في غضون عام، كان من الممكن لزيبا أن تقرأ كتب الأطفال. كنا نجلس في

الباحة لتقرأ لي حكايات من «دارا وسارا» - ببطء إنما قراءة سليمة. بدأت تدعوني «مُعَلِّمة ثريا».

ضحكت ثانية.

- أعرف أن ذلك يبدو طفوليًا، لكن أول مرة كتبت زيبا خطابها بيدها، عرفتُ أنني لا أريد أن أصبح إلا مدرّسة. كنت أشعر بالفخر والامتنان بها، وشعرت أنني أنجزت شيئًا له قيمة بحق، تعرف؟

- نعم.

كنت أكذب! تذكرت كيف كنت أستغل علمي للسخرية من حسن. كيف كنت أغيظه بالكلمات الكبيرة التي لا يعرف معناها!

- كانت رغبة أبي أن ألتحق بكلية الحقوق، وكانت أمي تلمّح دائمًا إلى كلية الطب، لكنني سأصبح مدرسة. لا يدفعون كثيرًا هنا، لكن هذا ما أريده. - أمي كانت مدرسة أيضًا.

قالت:

- أعرف. أمي أخبرتني.

تضرّج وجهها بالحمرة بعدما أدركت الإيحاء الخفي في إجابتها المندفعة، ألا وهو أن «موضوع أمير» كان محلًا للحوار بينهما في غيابي. وبذلت جهدًا كبيرًا لأمنع نفسي عن الابتسام.

- أحضرت لك شيئًا.

سحبت لفافة الصفحات المدبّسة من جيبي الخلفي.

- كما وعدتُ.

ناولتها واحدة من قصصي القصيرة.

قالت، وكانت مُشرقة بحق:

- أوه! لقد تذكّرت، شكرًا لك!

لم يكن الوقت كافيًا لألحظ أنها خاطبتني بالضمير «تو» للمرة الأولى وليس بالضمير الرسمي «شما»، لأن ابتسامتها تلاشت فجأة. وشحب وجهها، وتجمدت عيناها على شيء خلفي. استدرت. ووجدتني وجهًا لوجه مع الجنرال طاهري.

قال:

- أمير جان، قصاصنا الواعد. كم أنا مسرور برؤيتك.

كان يتسم برقّة.

قلت بلسان ثقيل:

- سلام، جنرال صاحب.

مربي واتجه إلى الكابينة.

- يا له من يوم جميل، أليس كذلك؟

قالها وإبهامه معلقة كالخطاف في الجيب العلوي لصُدرته، فيما امتدت اليد الأخرى نحو ثريا. ناولته الصفحات.

- يقولون إنها ستمطر هذا الأسبوع. أمر لا يُصدّق، أليس كذلك؟

أسقط الصفحات الملفوفة في صفيحة القمامة. واستدار إليّ بلطف ووضع يدها على كتفي. تحركنا بضع خطوات معًا.

- تعرف، بتّسم، لقد ازداد إعجابي بك. إنك ولد مهذب، أعتقد ذلك حقًا، ولكن (تنهّد ولوّح بيده) حتى الأولاد المهذبون يحتاجون تذكيرة من وقت لآخر. لذا فمن واجبي أن أذكرك أنك بين أقرانك في سوق الخرّدة هذا.

توقّف. نظر إلى عينيّ بعينين ثابتتين.

- كما ترى، الجميع هنا قصاصون.

ابتسم، كاشفًا عن أسنان تامة الاستواء.

- أبلغ احترامي لوالدك، أمير جان.

أسقط يده. وابتسم ثانية.

* * *

قال بابا:

- ماذا بك؟

كان يتناول النقود من امرأة عجوز اشترت حصانًا هزازًا.

قلت:

- لا شيء.

جلست على تلفزيون قديم. ثم أخبرته على أية حال.

تنهّد:

- آخ، أمير.

عمومًا، لم أحمل همّ ما حدث طويلاً.

لأن بابا، في ذلك الأسبوع نفسه، أصيب بنزلة برد.

* * *

بدأت بسعال شديد وزكام. شُفي من الزكام، لكن السعال استمر. كان يكحُّ في منديله، ثم يدسه في جيبه. ظللت ألح عليه أن يذهب إلى الطبيب، لكنه كان يشير إليّ رافضاً. كان يكره الأطباء والمصحات. وعلى حد معرفتي، المرة الوحيدة التي زار فيها بابا طبيباً كانت حين أصيب بالمalaria في الهند.

ثم، بعد أسبوعين، ضبطته وهو يسعل كتلة من البلغم الملوث بالدم في المرحاض.

قلت:

- منذ متى وأنت تفعل ذلك؟

قال:

- ماذا ستتناول على العشاء؟

- سأخذك إلى طبيب.

مع أن بابا كان مديراً في محطة البنزين، لم يعرض عليه المالك تأميناً صحياً، ولم يصر بابا، باستهتاره المعهود، على ذلك. وهكذا اصطحبته إلى مستشفى المقاطعة في سان جوزيه. قدم لنا الطبيب الذي قابلنا، وهو رجل شاحب الوجه متفخ العينين، نفسه على أنه طبيب مقيم في السنة الثانية. تمتم بابا:

- يبدو أصغر منك وأمرض مني.

أرسلنا الطبيب المقيم إلى أسفل لفحص الصدر بأشعة «إكس». عندما نادتنا الممرضة ثانية، كان الطبيب المقيم يملأ استمارة.

قال، وهو يخط بعض الكلمات في سرعة:

- خذ هذه إلى الاستقبال.

- ما هذه؟

- تحويل.

- إلام؟

- عيادة أمراض الرئة.

- وما الأمر؟

ألقى إليّ نظرة سريعة. رفع نظارته إلى أعلى. ثم واصل الكتابة.

- عنده بقعة في رئته اليمنى. أريد منهم فحصها.

قلت:

- بقعة؟

شعرت فجأة بأن الحجرة باتت صغيرة جدًا.

وأضاف بابا من دون اكتراث:

- سرطان؟

تمتم الطبيب:

- احتمال. إنه اشتباه، على أية حال.

سألت:

- ألا يمكن أن نخبرنا بالمزيد؟

- ليس بالضبط، نحتاج أولاً إلى مسح بالأشعة المقطعية، ثم نستشير طبيب الرئة.

سلمني استمارة التحويل.

- قلت إن والدك مدخن، صح؟

- نعم.

أوماً برأسه. نظر في الاستمارة إلى بابا ثم في الاستمارة ثانية.

- سيتصلون بك خلال أسبوعين.

أردت أن أسأله كيف يُفترض أن أعيش بتلك الكلمة، «اشتباه»، لأسبوعين كاملين؟ كيف يُفترض أن أكل وأعمل وأدرُس؟ كيف يصرفني إلى المنزل بتلك الكلمة؟

تناولت الاستمارة وسلمتها. تلك الليلة، انتظرت حتى راح بابا في النوم، ثم طويت بطانية. واستخدمتها سجادة صلاة. وتلوت، وأنا ساجد على الأرض، آيات من القرآن لا أتذكر سوى أجزاء منها - آيات كان الملا يجعلنا نحفظها عن ظهر قلب في كابول - وطلبت الرحمة من إله لم أكن متأكداً من وجوده. كنت أحسد الملا الآن، أحسده على إيمانه ويقينه.

مر أسبوعان ولم يتصل أحد. وعندما اتصلت بهم، قالوا لي إنهم أضعوا استمارة التحويل. هل أنا متأكد أنني سلمتهم إياها؟ قالوا إنهم سيتصلون ثانية في غضون ثلاثة أسابيع أخرى. استشطتُ غضباً وساومتهم فأنزلت

الأسابيع الثلاثة إلى أسبوع حتى فحص الأشعة المقطعية، وأسبوعين حتى مقابلة الطبيب.

كانت زيارة طبيب أمراض الرئة، الدكتور «شنايدر»، تسير على خير حال حتى سأل به بابا عن بلده. قال الدكتور «شنايدر»: روسيا. فخرج بابا عن شعوره. قلت:

- معذرة، دكتور.

جذبت بابا جانبًا. ابتسم الدكتور «شنايدر» ووقف بعيدًا، والسماعة لا تزال في يده.

- بابا، لقد قرأت سيرة الدكتور «شنايدر» في غرفة الانتظار. لقد وُلد في ميتشجان. ميتشجان! إنه أمريكي. أمريكي أكثر مما ستكون أنت أو سأكون أنا. قال بابا:

- لا يعني أين وُلد. إنه روسي (لوى وجهه كأنها كلمة قدرة). كان والداه روسيين، وأجداده كانوا روسًا. أقسم بوجه أمك إنني سأكسر ذراعه إن حاول أن يلمسني.

- والدا الدكتور «شنايدر» هربا من الروس، ألا تفهم؟ هربا!

لكن بابا لم يسمع شيئًا من هذا. أحيانًا أفكر في أن الشيء الوحيد الذي أحبه كما أحب زوجته الراحلة أفغانستان، بلاده الراحلة. كدت أصرخ من الإحباط. وبدلًا من ذلك، تنهدت واستدرت إلى الدكتور «شنايدر»:

- آسف، دكتور. لن ينجح الأمر.

كان الطبيب التالي، الدكتور أماني، إيرانيًا ووافق بابا. وقال لنا الدكتور

أمانى، وهو رجل حلّو الكلام له شارب ملتوٍ وخصلة أمامية من الشعر الرمادي، إنه راجع نتائج فحص الأشعة المقطعية وإنه سيجري ما يسمى بمنظار الشعب الهوائية للحصول على عينة من ورم الرئة وفحصها. أعطانا موعدًا الأسبوع التالي. شكرته وأنا أساعد بابا على الخروج من المكتب، وأفكر أنه بات عليّ الآن أن أعيش أسبوعًا كاملاً مع تلك الكلمة الجديدة، «ورم»، وهي كلمة أكثر عمومية حتى من «اشتباه». وتمنيت لو كانت ثريا معي. تبين أن السرطان، مثل الشيطان، له أسماء عدة. وكان النوع الذي أصيب به اسمه «سرطان الخلايا الشوفانية». في مرحلة متقدمة. غير قابل للشفاء. سأل بابا الدكتور أمانى أن يصف له المستقبل المَرَضِي. عرض الدكتور أمانى على شفته، واستخدم كلمة «خطير». قال:

- هناك العلاج الكيماوي بالطبع، لكنه سيكون ملطفاً وحسب.

سأل بابا:

- ماذا يعني هذا؟

تنهد الدكتور أمانى:

- يعني أنه لن يغير من النتيجة، سوف يؤخرها فحسب.

قال بابا:

- تلك إجابة واضحة، دكتور أمانى، أشكرك على ذلك. لكن لا علاج

كيماوي لي.

بدت في عينيه نفس النظرة الحاسمة كما في اليوم الذي أسقط فيه بطاقات

الطعام على مكتب السيدة روبينز.

- لكن بابا...-

- لا تعارضني أمام الناس، أمير. أبدًا. مَنْ تظن نفسك؟

* * *

نزل المطر الذي تحدث عنه الجنرال طاهري في سوق الخرذة بعدها ببضعة أسابيع، لكن ونحن نخرج من مكتب الدكتور أماني، كانت السيارات المارة تطش مياهًا قذرة على الأرصفة. أشعل بابا سيجارة. ودخّن طوال الطريق إلى السيارة وطوال الطريق إلى البيت.

فيما كان يُدخل المفتاح في الباب الخارجي، قلت:

- أتمنى لو تمنح العلاج الكيماوي فرصة، بابا.

وضع بابا المفاتيح في جيبه، وسحبني بعيدًا عن المطر أسفل التندة المخططة للبناية. لكزني في صدري بيده الممسكة بالسيجارة.

- «بَسْ»! لقد اتخذت قراري.

قلتُ، وعيناي تغرورقان بالدموع:

- وماذا عني، بابا؟ ماذا يُفترض أن أفعل؟

لاحت على وجهه الغارق بالمطر نظرة ازدراء. النظرة نفسها التي كان يرمقني بها، وأنا صغير، عندما كنت أسقط وأجرح ركبتَيَّ، وأبكي. كان البكاء يجلب تلك النظرة وقتها، وقد جلبها حينذاك.

- أنت في الثانية والعشرين، أمير! رجل بالغ! أنت...

فتح فمه، ثم أغلقه، ثم فتحه ثانية، وعاود التفكير. فوقنا، كان المطر يقرع التندة القماش.

- تقول ماذا يحدث لك؟ كل تلك السنوات، هذا ما كنت أحاول أن أعلمك إياه، ألا تضطر أبدًا لطرح هذا السؤال.

فتح الباب. استدار لي ثانية.

- وشيء آخر. لا أحد يعرف هذا الموضوع، هل تسمعي؟ لا أحد. لا أريد تعاطفًا من أحد.

ثم اختفى في البهو المعتم. وظل، بقية اليوم، جالسًا أمام التلفزيون، يشعل سيجارة من سيجارة. لم أعرف ماذا يتحدث، أو من يتحدث. أنا؟ الدكتور أمانى؟ أو ربما الله الذي لم يؤمن به قط.

* * *

لبعض الوقت، لم يتمكن حتى السرطان من إبعاد بابا عن سوق الخردة. كنا نذهب في رحلاتنا لـ «معارض الجراجات» في أيام السبت. بابا السائق وأنا الملاح، ونعرض بضاعتنا أيام الأحد: مصابيح نحاسية، قفازات بيسبول، سترات تزلج بسوست مكسورة. كان بابا يُحيي أصحابه من البلاد القديمة وأنا أساوم المشتريين على دولار أو اثنين. كما لو كان ذلك يهم. كما لو كان اليوم الذي سأصبح فيه يتيماً لا يقترب أكثر مع كل مرة نللم فيها فرشتنا.

أحيانًا، كان الجنرال طاهري وزوجته يمران من أمامي. ظلّ الجنرال، الدبلوماسي دائمًا، يحييني بابتسامته ويصافحني بيديه. لكن كان ثمة تحفظ جديد في تصرفات خاتم طاهري. تحفظ لا يقطعه سوى ابتساماتها الخفية المتدلية، ونظرات اعتذار مختلصة تلقيها باتجاهي عندما ينشغل الجنرال بشيء آخر.

أتذكر تلك الفترة باعتبارها فترة «المرّات الأولى»: أول مرة أسمع بابا يئن

في الحمام. أول مرة أكتشف دمًا على وسادته. منذ أكثر من ثلاث سنوات أدار فيها محطة البنزين، لم يحصل أبي على إجازة مرضية. مرة أولى أخرى.

بحلول عيد الـ«هالووين» تلك السنة، كان بابا قد بات يصاب بإجهاد شديد بعيد ظهيرة أيام السبت، ومن ثمَّ أصبح ينتظر خلف عجلة القيادة وأنزل أنا وأتفاوض على سقط المتاع. وبحلول عيد الشكر، كانت قواه تخور قبل الظهر. وعندما بدأت الزلاجات تظهر في الأرض المعشبة أمام البيوت ناثرة الثلوج على أشجار السرو، كان بابا يجلس في المنزل وأنا أقود الـ«فان» الـ«فولكس فاجن» وحيدًا ذهابًا وإيابًا في شبه الجزيرة.

أحيانًا في سوق الخردة، كان أصحاب بابا الأفغان يبدون ملاحظات عن فقدانه لبعض الوزن. في البداية، من باب المجاملة. بل كانوا يتساءلون عن السر وراء نظامه الغذائي. لكن الاستفسارات والمجاملات توقفت عندما لم يتوقف فقدان الوزن، عندما بدأ يفقد أرطالًا وأرطالًا، عندما غار خداه، ونحُل صدغاه، وغاصت عيناه في محجريهما.

ثم، في يوم أحد بارد بُعيد ليلة رأس السنة، كان بابا يبيع غطاء مصباح لرجل فلبيني قصير بدين وكنت أنا أفتش في الـ«فولكس فاجن» بحثًا عن بطانية أعطي بها ساقيه.

قال الفلبيني بجزع:

– هاي، يا صاح، هذا الرجل بحاجة إلى مساعدة!

استدرت فوجدت بابا على الأرض. وكانت ذراعاه وساقاه ترتعد.

صحت:

– «كُمك» (النجدة)!

جريت نحو بابا. كان الزبد يسيل من فمه، واللعب المنفوش يبلل لحيته، وعينه مقلوبتان لا يبدو منهما إلا البياض.

هرع الناس باتجاهنا. سمعت شخصاً يقول «نوبة». وآخر يصرخ:

- اطلبوا ٩١١!

سمعت وقع أقدام تجري، وأعتمت السماء وقد تحلّق الحشد من حولنا. صار لعب بابا أحمر. كان يعض لسانه. ركعت إلى جواره وجذبت ذراعيه وقلت:

- إنني هنا يا بابا، إنني هنا، ستكون بخير، إنني هنا.

كما لو كان بوسع تلك الكلمات تسكين التشنجات. إقناعها بأن تترك بابا وشأنه. شعرت ببلل على ركبتيّ. رأيت أن مثانة بابا قد سابت.

- ششش، بابا جان، أنا هنا. ابنك هنا بجانبك.

* * *

سحبني الطبيب، وهو رجل أصلع تماماً، ذو لحية بيضاء، خارج الحجرة. قال:

- أريدك أن تطلع معي على أشعة والدك المقطعية.

علّق الأفلام على لوحة الأشعة المضيئة في الردهة وأشار بممحاة قلمه الرصاص إلى صور سرطان بابا، مثل شرطي يعرض على عائلة القتل صور القاتل. كان مخ بابا في تلك الصور يبدو كمقاطع عرضية لحبة جوز كبيرة، مغرلة بأشياء رمادية على هيئة كرات التنس.

قال:

- كما ترى، انتشر السرطان. سيكون عليه أن يتناول «كورتيزون» لتخفيف تأثير الورم على مخه إضافة إلى أدوية مضادة للتشنجات. وأقترح اللجوء إلى العلاج الإشعاعي الملطف. هل تفهم معنى ذلك؟

قلت إنني أفهم. لقد أصبحت خبيرًا بموضوع السرطان.

قال:

- حسنًا، إذن.

ألقى نظرة على جهاز النداء الآلي الخاص به.

- عليّ أن أذهب، ويمكنك أن تتصل بي على جهاز النداء الآلي إذا أردت الاستفسار عن شيء.

- أشكرك.

قضيت الليلة جالسًا على كرسي بجوار فراش بابا.

* * *

في الصباح التالي، كانت غرفة الانتظار في نهاية الردهة تعج بالأفغان. الجزار من نيوآرك. مهندس عمل مع بابا في أثناء بناء دار الأيتام. وقفوا صفًا ليقدموا احترامهم لبابا بنبرات هامسة، ويتمنوا له الشفاء العاجل. كان بابا مستيقظًا وقتها، دائخًا ومتعبًا، لكنه مستيقظ.

قُبيل الظهر، وصل الجنرال طاهري وزوجته. تتبعهما ثريا. نظر كل منا إلى الآخر، ثم أشحنا بأنظارنا في الوقت نفسه. قال الجنرال طاهري، وهو يمسك بيد بابا:

- كيف حالك يا صديقي؟

أشار بابا إلى المحقن الوريدي المتدلي من ذراعه، وابتسم ابتسامة خافتة.
فرد الجنرال بابتسامة.

قال بابا بصوت متحشرج:

- لم يكن هناك داعٍ لتعبوا أنفسكم. جميعًا.

قالت خائِمْ طاهري:

- لا يوجد تعب.

وقال الجنرال طاهري:

- لا يوجد تعب على الإطلاق. المهم، هل تريد أي شيء؟ أي شيء على الإطلاق؟ اعتبرني أخًا لك.

تذكرت شيئًا قاله بابا لي عن البشتون ذات مرة: «ربما تكون أدمغتنا صلبة
وأعرف أننا معتزون بأنفسنا أكثر من اللازم، لكن، ساعة الشدة، صدقني،
ستمنى لو كان مَنْ يقف بجوارك من البشتون».

هز بابا رأسه على الوسادة:

- قرّرت عيناى لمجيئك هنا.

ابتسم الجنرال وشد على يد بابا.

- كيف حالك، أمير جان؟ هل تحتاج إلى أي شيء؟

الطريقة التي كان ينظر بها إليّ، الطيبة في عينيه...

- لا. أشكرك، جنرال صاحب. أنا...

صعدت غصّة في حلقي، واغرورقت عيناى، واندفعت خارجًا من الغرفة.

بكيت في الردهة، قرب لوحة الأشعة المضيئة حيث رأيت، ليلة أمس،
وجه القاتل.

انفتح باب غرفة بابا وخرجت ثريا. وقفت إلى جوارى. كانت ترتدي
بلوفرًا رماديًا وبنطال جينز. كان شعرها منسدلاً. وأردت أن أرتاح بين
ذراعيها.

قالت:

- آسفة، أمير! كنا نعرف جميعًا أن هناك شيئًا ليس على ما يرام، لكن
لم يكن لدينا فكرة عن حقيقته.

جففتُ عينيَّ بكمي.

- لم يكن يريد لأحد أن يعرف.

- هل تريد أي شيء؟

- لا.

حاولت الابتسام. وضعت يدها على يدي. أولى لمساتنا. تناولتها. رفعتها
إلى وجهي، إلى عينيَّ. ثم تركتها.

- الأفضل أن تعودى إلى الداخل حتى لا يلاحقني والدك.

ابتسمت وأومأت:

- نعم.

واستدارت لتذهب.

- ثريا!

- نعم؟

- أنا سعيد بمجيئك. إن ذلك يساوي عندي... الدنيا بأكملها.

* * *

تقرر خروج بابا بعدها بيومين. جاء إخصائي أورام لكي يقنع بابا بالعلاج الإشعاعي. رفض بابا. حاولوا إقناعي بإقناعه، لكنني رأيت تلك النظرة على وجه أبي. شكرتهم، وقَّعت على الاستثمارات، واصطحبت بابا إلى المنزل في سيارتي الـ«فورد تورينو».

تلك الليلة، كان بابا ممدداً على الأريكة، وعليه بطانية صوفية. أحضرت له شايًا ساخنًا ولوزًا محمَّصًا. أحطت ظهره بذراعيّ وسحبته بسهولة بالغة ليجلس. شعرت بعظمة كتفه كجناح طائر تحت أصابعي. سحبت البطانية إلى صدره حيث كانت ضلوعه تشد جلده الرقيق الشاحب.

- هل من شيء آخر أفعله لك، بابا؟

- لا، بتَّشَم، أشكرك.

جلست إلى جواره.

- إذن، هل يمكنك أن تفعل لي شيئًا. إذا لم تكن متعبًا جدًّا؟

- ماذا؟

- أريدك أن تذهب في زيارة «خواسِ تجار». أريدك أن تطلب من الجنرال طاهري يد ابنته.

مطَّ بابا شفثيه الجافتين مبتسمًا. بقعة خضراء على ورقة شجر زاوية.

- هل أنت متأكد؟

- متأكد أكثر مما كنت متأكدًا من أي شيء آخر.

- هل ألمحت للموضوع؟

- «بله»، بابا.

- إذن ناولني الهاتف. والمفكرة الصغيرة.

طرفت عيناى.

- الآن؟

- متى إذن؟

ابتسمت.

- أوكيه.

ناولته الهاتف والمفكرة السوداء الصغيرة التي يدوّن فيها أرقام أصدقائه الأفغان. بحث عن طاهري. طلب الرقم. وضع السماعة على أذنه. كان قلبي يتراقص في صدري.

قال:

- جميلة جان؟ السلام عليكم.

قدّم نفسه. استمع.

- أفضل كثيرًا، أشكرك. كان كرمًا منكم أن تأتوا.

أنصت لوهلة. أومأ.

- سوف أتذكر ذلك، أشكرك. هل الجنرال صاحب بالمنزل؟ (فاصل)

شكرًا.

حوّل عينيه إليّ. أردتُ أن أضحك لسبب ما. أو أن أصرخ. رفعت يدي إلى فمي وعضضت على باطنها. أخرج بابا ضحكة خافتة من أنفه.

- جنرال صاحب، السلام عليكم... نعم، أفضل بكثير جدًا... «بله»... هذا كرم شديد منك. جنرال صاحب، لقد اتصلتُ لكي أسألك إذا كان من الممكن أن أقوم بزيارة لك ولخائمت طاهري صباح الغد. إنه موضوع يشرفني... نعم... الحادية عشرة مناسب تمامًا. إلى اللقاء، «خدا حافظ».

وضع السماعه. نظر كل منا إلى الآخر. انفجرت في قهقهة. وانضم بابا إليّ.

* * *

بلل بابا شعره ومشطه للخلف. ساعدته على ارتداء قميص أبيض نظيف وربطت له ربطة عنقه، ملاحظًا خمس سنتيمترات من الفراغ بين زر الياقة وبين عنق بابا. فكرت في كل الفراغات التي يخلّفها بابا عند رحيله، ثم أجبرت نفسي على أن أفكر في شيء آخر. إنه لم يرحل. ليس بعد. واليوم يومٌ للأفكار الطيبة. كانت سترة حلته البنية، تلك التي ارتداها في حفل تخرجي، معلقة على جسده - كان كثير من بابا قد ذاب واختفى، فبات غير قادر على ملء السترة. كان عليّ أن أثني الأكمام. ركعت وعقدت له رباط حذائه.

كان آل طاهري يعيشون في شقة في بناية من طابق واحد في إحدى المناطق السكنية في فريمونت المعروفة باستضافة عدد كبير من الأفغان. كان لها نوافذ تطل على الخليج، وسقف منحدر، وشرفة أمامية بسور، رأيت عليها أصصًا من زهور الـ«جيرانيوم». وكانت سيارة الجنرال الـ«فان» الرمادية تقف في المدخل.

ساعدت بابا على الخروج من الـ«فورد»، وعدت إلى مقعد القيادة. انحنى على النافذة المجاورة للسائق.

- انتظر في المنزل. سأتصل بك في غضون ساعة.

قلت:

- أوكيه، بابا. حظًا سعيدًا.

ابتسم.

انطلقت في طريقي. وفي المرأة الأمامية، كان بابا يعرج في مدخل سيارات طاهري في طريقه لإنجاز واجب أبوي آخر وأخير.

* * *

ذرعت غرفة المعيشة جيئة وذهابًا في انتظار مكالمة بابا. خمس عشرة خطوة طولًا. عشر خطوات ونصف عرضًا. ماذا لو قال الجنرال لا؟ ماذا لو كان يكرهني؟ ظللت أذهب إلى المطبخ، وأنظر إلى ساعة الفرن.

رنَّ الهاتف قبيل الظهر. كان بابا.

- حسنًا؟

- لقد وافق الجنرال.

أخرجت دفعة من الهواء. جلست. كانت يداي ترتعشان.

- حقًا؟

- نعم، لكن ثريا جان في غرفتها العلوية، وهي تريد أن تتحدث إليك أولًا.

- أوكيه.

قال بابا شيئًا ما لشخص ما ثم سمعت نقرتين وهو يضع السماعة.

جاء صوت ثريا:

- أمير؟

- سلام.

- لقد وافق أبي.

قلت:

- أعرف.

بدلت اليد الممسكة بالسמاعة. كنت أبتسم.

- أنا سعيد جدًا ولا أعرف ماذا أقول.

- أنا أيضًا سعيدة يا أمير. لا أصدق... أن هذا يحدث.

ضحكتُ:

- أعرف.

- أنصت إليّ. أريد أن أقول لك شيئًا، شيئًا يجب أن تعرفه قبل...

- لا يعنيني أي شيء.

- يجب أن تعرف. لا أريد أن نبدأ حياتنا بالأسرار. وأفضل أن تسمع

الأمري.

- إذا كان ذلك سيرحك، فأخبريني. لكنه لن يغير من الأمر شيئًا.

سرت لحظات صمت طويلة على الطرف الآخر.

- عندما كنا نعيش في فيرجينيا، هربت مع رجل أفغاني. كنت في الثامنة

عشرة وقتها... متمردة... حمقاء، و... كان يتعاطى المخدرات... عشنا

معًا نحو شهر. كان كل الأفغان في فيرجينيا يتحدثون عن الأمر. وأخيرًا عثر

بابا علينا. ظهر عند الباب و... أجبرني على العودة إلى البيت. انتابتنني حالة هيسديرية. كنت أزعلق، وأصرخ، وأقول إنني أكرهه... على أية حال، عدتُ إلى البيت و... (كانت تبكي) معذرة.

سمعتها تنزل السماعة. تتمخط.

- آسفة!

عادت إلى الخط، وبدا صوتها مبحوحًا:

- عندما عدت إلى البيت، رأيت أمي وقد أصيبت بسكتة دماغية، كان جانب وجهها قد أصيب بالشلل و... شعرت بالذنب. لم تكن تستحق ذلك. بعدها، قرر بابا أن ننتقل إلى كاليفورنيا.

لحظة صمت.

قلت:

- كيف حالك مع والدك الآن؟

- طالما اختلفنا في أمور كثيرة، وما زلنا نختلف، لكنني الآن ممتنة له لما فعله في ذلك اليوم. أصبحت أو من حقًا بأنه أنقذني.

صمتت.

- إذن، هل ما قلته يزعلك؟

قلت:

- قليلًا.

كنت مدينًا لها بالحقيقة في ذلك الموضوع. لم يكن من الممكن أن أكذب عليها وأقول إن «افتخاري» (كبريائي) لم يؤلمني على الإطلاق وأنا أعرف

أنها كانت مع رجل آخر، فيما لم أصحب أنا امرأة إلى الفراش قط. ضايقني الأمر بعض الشيء، لكنني فكرت في الأمر كثيرًا طوال الأسابيع السابقة قبل أن أطلب من بابا أن يذهب لزيارة «خواسِيجار». وفي نهاية المطاف، كان السؤال الذي ظل يراودني: كيف لي أنا، من بين الناس جميعًا، أن أعير شخصًا بماضيه؟

- هل يزعجك لدرجة أن تغير رأيك؟

قلت:

- لا يا ثريا. ولا لمجرد التفكير في ذلك. لا شيء مما قلت يغير أي شيء. أريد أن نتزوج.

انفجرت في البكاء من جديد.

شعرت بالحسد تجاهها. لقد خرج سرها. صُرح به. عُولج. فتحت فمي وكدت أخبرها كيف خنت حسنًا، وكذبت، وتسببت في طرده، ودمرت علاقة دامت أربعين عامًا بين بابا وعلي. لكنني لم أفعل. وفكرت أن ثريا طاهري إنسان أفضل مني في صفات عدة. وكانت الشجاعة واحدة من تلك الصفات.

في الليلة التالية، عندما وصلنا إلى منزل طاهري، حيث يقام حفل الـ«لفظ» (قراءة الفاتحة)، كان عليّ أن أصفّ السيارة الـ«فورد» على الجانب الآخر من الشارع. كان المدخل مزدحمًا بالسيارات. كنت أرتدي حلة زرقاء داكنة اشتريتها في اليوم السابق، بعدما أوصلت بابا إلى المنزل عائداً من زيارة «خواسِجار». اطمأننت على ربطة عنقي في المرأة الأمامية.

قال بابا:

- تبدو «خوش تيب» (وسيمًا).

- شكرًا، بابا. هل أنت بخير؟ هل أنت واثق من أنك تريد إتمام الأمر؟

قال وهو يتبسم بإرهاق:

- إتمام الأمر؟ إنه أسعد يوم في حياتي، أمير.

* * *

كان بوسعي أن أسمع ثرثرة على الجانب الآخر من الباب، ضحكات، وموسيقى أفغانية تصدح بنعومة - مقطوعة غزل كلاسيكية من موسيقى أستاذ

«سراهانك». ضربت الجرس. أطل وجه من خلف ستائر الردهة ثم اختفى.
سمعت صوت امرأة تقول:

- لقد جاء!

توقفت الثرثرة، وتوقفت الموسيقى.
فتحت خاتم طاهري الباب. قالت هاشة:

- السلام عليكم.

رأيتها وقد جعدت شعرها، وارتدت فستانًا أسود أنيقًا وطويلاً إلى
الكاحلين. عندما خطوت داخلاً الردهة، ترقرت عيناها بدموع. قالت:

- ها أنا أبكي وأنت لم تدخل بعد إلى المنزل، أمير جان.

لثمت يدها، كما وجهني بابا في الليلة السابقة.

قادتنا عبر طريقة ساطعة الإضاءة إلى غرفة المعيشة. على الجدران
المكسوة بألواح الخشب، رأيت صوراً لأفراد عائلتي الجديدة: خاتم
طاهري بشعر منفوش، والجنرال وفي الخلفية شلالات نياجرا، خاتم
طاهري في فستان سادة، والجنرال في جاكيت ضيق الصدر وربطة عنق
رفيعة، شعره كامل وأسود، ثريا تركب قطار الملاهي الخشبي، تلوح
وتبتسم، والشمس تشرق على أسلاك التقويم المعدنية على أسنانها، صورة
للجنرال، في حلته العسكرية الكاملة، يصافح عاهل الأردن الملك حسين.
وبورترية لظاهر شاه.

كانت غرفة المعيشة مكدسة بنحو عشرين ضيفاً يجلسون على كراسي
صُفّت على طول الجدران. عندما دخل بابا، وقف الجميع. درنا حول الغرفة،
بابا يتقدم ببطء، وأنا من خلفه، نصافح الأيادي ونحيي الضيوف. تعانق بابا

والجنرال - الذي ما زال في حلته الرمادية - وكل منهما يربت على كتف الآخر بلطف. تبادلا السلامات بأصوات وقور خافتة.

أمسكني الجنرال على بُعد ذراع منه وابتسم ابتسامة ذات مغزى، كما لو كان يقول: الآن، تلك هي الطريقة الصحيحة - الطريقة الأفغانية - لأن تفعل ذلك، بتشم. تبادلنا ثلاث قُبلات على الخدين.

جلسنا في الغرفة المزدحمة، أنا وبابا متجاوران، وأمامنا الجنرال وزوجته. بدأت أنفاس بابا تتقطع قليلاً، وأخذ يمسح العرق عن جبينه وفروة رأسه بمنديله. رأني أنظر إليه فجاهد ليخرج ابتسامة مرهقة. قبل أن يتفوه أخيراً: - أنا بخير.

وفقاً للتقاليد، لم تكن ثريا حاضرة.

أعقب ذلك تبادل التحية واللغو الفارغ حتى تنحنح الجنرال. صمّنت الغرفة ونكّس الجميع رؤوسهم ناظرين إلى أيديهم في احترام. أشار الجنرال برأسه نحو بابا.

تنحنح بابا. عندما بدأ، لم يكن باستطاعته الحديث بجمل مكتملة من دون أن يتوقف لالتقاط أنفاسه:

- جنرال صاحب، خاتم جميلة جان... بكل تواضع أتيت أنا وابني... إلى داركم اليوم. إنكم... أناس شرفاء... من عائلات محترمة وطيبة و... أبناء أصل كريم. أتيت اليوم بكل احترام... وكامل التقدير لكم، ولا سم عائلتكم، ولذكري... أسلافكم.

توقف. التقط نفسه. مسح جبينه:

- أمير جان ابني الوحيد... طفلي الوحيد، وكان ابناً طيباً. أتمنى أن يُثبت

لكم... أنه جدير بعطفكم. إنني أطلب أن تشرفوني وتشرفوا أمير جان...
وأن تقبلوا ابني في عائلتكم.

أوما الجنرال بأدب.

قال:

- يشرفنا أن نرحب بنجل رجل مثلك في عائلتنا. إن صيتك الطيب
يسبقك. لقد كنت من معجبيك المتواضعين في كابول وما زلت كذلك
إلى اليوم. يشرفنا أن تجتمع عائلتنا. أما بالنسبة إليك، أمير جان، فإنني
أرحب بك في بيتي ابناً لي، وزوجاً لابنتي التي هي نور عيني. سوف يصبح
ألمك من ألما، وفرحك من فرحنا، وأتمنى أن تنظر إليّ وإلى خالة جميلة
كأبوين آخرين لك، وأدعوك ولكریمتنا العزيزة ثريا جان بالسعادة. ونحن
نبارككما معاً.

صفق الجميع، وبذلك الإشارة، استدارت الرؤوس نحو الطُّرقة. اللحظة
التي كنت أنتظرها.

ظهرت ثريا جان في النهاية. في فستان أفغاني تقليدي مدهش، بلون
النبيذ، له أكمام طويلة، وموشى بخطوط ذهبية. تناول بابا يدي وقبض عليها.
انفجرت خائماً طاهري في دموع طازجة. وخطت ثريا ببطء نحونا، يتبعها
موكب من فتيات العائلة.

قبّلت يد أبي. وجلست إلى جوارى أخيراً، ناظرة إلى أسفل.

وضج الجمع بالتصفيق.

* * *

بحسب التقاليد، كان على عائلة ثريا أن تقيم حفل الخطبة، حفل

الـ«شيريني خوري» أو «تناول الحلوى»، ثم تستمر الخطوبة بضعة أشهر، ثم يأتي الزفاف، الذي يتحمل بابا نفقاته.

اتفقنا جميعًا أنني وثرىا سنتجاوز الـ«شيريني خوري». كان الجميع يعرفون السبب، لذا لم ينطق أحد به: لم يعد أمام بابا شهور يعيشها.

لم نخرج أنا وثرىا وحدنا في أثناء التحضير لحفل الزفاف - لم يكن ذلك لائقًا لأننا لم نكن متزوجين، وحتى لم نعقد الـ«شيريني خوري»، لذا كان عليّ أن أكتفي بزيارة منزل آل طاهري مع بابا لتناول العشاء. أجلس في مواجهة ثرىا على طاولة الطعام. أتخيل شعوري حين تضع رأسها على صدري، وأنا أشم شعرها. أقبلها. أمارس معها الحب.

أنفق بابا ٣٥ ألف دولار، هي كل مدخراته تقريبًا، على العرس. استأجر قاعة حفلات أفغانية كبيرة في فريمونت - كان الرجل الذي يمتلكها يعرفه من كابول فأعطاهها له بتخفيض كبير. تكفل بابا بفرق الزفاف الموسيقية، وكذا بالخاتم الألماس الذي اخترته. اشترى لي حلة الزفاف، والحلة الخضراء التقليدية التي سأرتديها في ليلة «النكاح»، حفل كتب الكتاب.

من بين التحضيرات المسعورة لليلة الزفاف - والتي تولت خائّم طاهري وصديقاتها، والحمد لله، أمر معظمها - لا أتذكر إلا بضع لحظات.

أتذكر ليلة «النكاح». كنا نجلس حول طاولة، أنا وثرىا نرتدي الأخضر - لون الإسلام، وأيضًا لون الربيع والبدايات الجديدة. كنت أرتدي حلة، وثرىا (المرأة الوحيدة على الطاولة) ترتدي فستانًا طويل الأكمام وطريحة. كما كان على الطاولة أيضًا بابا، والجنرال طاهري (في حلة سهرة تلك المرة)، وعدد كبير من أعمام ثرىا وأخوالها. كنت أنا وثرىا ننظر إلى أسفل، في احترام ووقار، لا ينظر أحدهما إلى الآخر إلا خلسة. سأل الملا الشهود وقرأ

من القرآن. رددنا عبارات الزواج. وقّعنا على الأوراق. ووقف أحد أخوال ثريا من فيرجينيا، شريف جان، وتنحنح. كانت ثريا قد أخبرتني أنه يعيش في الولايات المتحدة لأكثر من عشرين عامًا. كان يعمل في مكتب الهجرة والتطبيع ومتزوج من أمريكية، وكان شاعرًا أيضًا. كان رجلًا ضئيل الجسم بوجه يشبه وجه الطيور وشعر مهوَّش، ألقى قصيدة طويلة أهداها لثريا، مكتوبة بخط سريع على أوراق تلك المفكرات التي طبعتها الفنادق. وهتف الجميع بعدما أنهى قراءته:

– «واه واه»، شريف جان!

أتذكر وأنا أسير باتجاه المنصة، في حلة السهرة، وثرىا بفستانها الباري، وطرحتها البيضاء، ويدانا متشابكتان. جاء بابا وهو يعرج حتى وقف إلى جانبي، والجنرال وزوجته بجانب ابنتهما. وتبعنا موكب من الأعمام والعمات والأخوال والخالات، وأولاد العمومة والخؤولة ونحن نشق طريقنا عبر القاعة، مخلفين بحرًا من الضيوف المصفّقين، وعيوننا تطرف مع فلاشات الكاميرات. أمسك أحد أولاد خؤولة ثريا، ابن شريف جان، بالمصحف فوق رؤوسنا فيما نتقدم بطيئًا. وكانت أغنية الزفاف القديمة، «آهسته برو»، تصدح من السماعات، الأغنية نفسها التي كان يغنيها الجندي الروسي عند نقطة تفتيش «ماهير» ليلة أن غادرنا كابول أنا وبابا.

تمهل، يا قمري الحبيب، تمهل

اجعل الصبح مفتاحًا وارمه في البئر

تمهل، يا قمري الحبيب، تمهل

ولا تدع الشمس تأتي في القريب

أتذكرني جالسًا على الأريكة، الموضوعة على المنصّة مثل عرش، ويد ثريا في يدي، فيما يتطلع نحونا قرابة ثلاثمائة وجه. قمنا بطقس «عاينه مشاف»، حيث أعطونا مرآة وألقوا بحجاب فوق رأسينا، لنصبح وحيدين، يحدّق كل منا في انعكاس صورة الآخر. وفيما أنظر إلى وجه ثريا المبتسم في المرآة، في لحظة خصوصية الحجاب تلك، همست لها للمرة الأولى بأني أحبها. فتضرج خدّاهما بخجل أحمر بلون الحناء.

أتذكر صورة الصواني الملونة وعليها كباب «شوبان»، و«شوله جوشي» وأرز بالبرتقال. أرى بابا بيننا على الأريكة، مبتسمًا. أتذكر رجالًا يتفصّدون عرقًا وهم يرقصون رقصة «أتن» التقليدية في دائرة، يقفزون، يدورون حول أنفسهم أسرع فأسرع مع الإيقاع المحموم للطلبة، حتى سقطوا إلا قلة منهم خارج الحلقة من الإجهاد. أتذكر وأنا أتمنى لو كان رحيم خان هناك.

وأتذكر أنني تساءلت عما إذا كان حسن قد تزوج هو الآخر. وإن كان قد تزوج، فأني وجه شاهد في المرآة تحت الحجاب؟ أي يد محنّاة أمسكها في يده.

* * *

حوالي الثانية صباحًا، انتقلت الحفلة من قاعة الحفلات إلى شقة بابا. صُبّ الشاي ثانية وصدحت الموسيقى حتى اتصل الجيران بالشرطة. لاحقًا في تلك الليلة، وقبل ساعة من طلوع الشمس وقد رحل الضيوف أخيرًا. رقدنا أنا وثرينا معًا للمرة الأولى. لقد ظللت مع الرجال طوال حياتي. تلك الليلة، اكتشفتُ حنان المرأة.

* * *

كانت ثريا هي من اقترح أن تنتقل للعيش معي ومع بابا.
قلتُ:

- فكرتُ أنك قد ترغبين في أن يكون لنا مكان مستقل.
ردّت:

- وكاكا جان مريض هكذا؟

قالت لي عيناها إن تلك ليست طريقة نبدأ بها زيجتنا. قبّلتها.
- أشكرك.

كرّست ثريا نفسها لرعاية أبي. كانت تعد له الخبز المحمص والشاي في الصباح، وتساعد على اعتلاء فراشه والنزول من فوقه. كانت تناوله الحبوب المسكنة، وتغسل ملابسه، وتقرأ له صفحة الشؤون الدولية بالجريدة عصرًا. كانت تطهو له طبقه المفضل، شوربة البطاطس، حتى ولو لم يكن بمقدوره أن يتناول سوى بضع ملاعق، وتصطحبه إلى الخارج كل يوم لتمشية قصيرة حول المربع السكني. وعندما أصبح طريح فراشه، كانت تقلّبه من جنب إلى آخر كل ساعة حتى لا تُصيبه قرح الفراش.

في أحد الأيام، عدت إلى المنزل من الصيدلية بحبوب المورفين لبابا، وفور أن أغلقت الباب، لمحت ثريا وهي تدفع شيئًا بسرعة تحت بطانية بابا. قلت:

- هاي. لقد رأيت هذا! ماذا كنتما تفعلان؟

قالت ثريا وهي تبسم:

- لا شيء.

- كاذبة.

رفعت بطانية بابا. ومع أنني تعرفت فورًا على الكتاب ذي الغلاف
الجلدي، قلت:

- ما هذا؟

مررت بأصابعي على الحواف الموشاة بالذهب. تذكرت الألعاب النارية
ليلة أن أعطاني رحيم خان إياها، ليلة عيد ميلادي الثالث عشر، والشعلات
تتوزع ثم تفرقع في باقات حمراء وخضراء وصفراء.

قالت ثريا:

- لا أصدق أنك تكتب بهذه الجودة.

سحب بابا رأسه عن الوسادة:

- أطلعته عليه. أتمنى ألا تمنع.

ناولت المفكرة لثريا ثانية، وتركت الغرفة. كان بابا يكره أن يراني أبكي.

* * *

بعد شهر من الزفاف، جاء آل طاهري، وشريف وزوجته سوزي، وعدد
من خالات ثريا إلى شقتنا على العشاء. أعدت ثريا «سبزي تشلو» - أرزًا
أبيض مع السبانخ والضأن. بعد العشاء، تناولنا جميعًا الشاي الأخضر ولعبنا
الورق في مجموعات من أربعة أفراد. لعبنا أنا وثرثيا مع شريف وسوزي على
طاولة القهوة، بجوار الأريكة التي كان بابا ممددًا عليها تحت بطانية صوفية.
كان يراقبني وأنا أمازح شريفًا، ويراقبنا أنا وثرثيا ونحن نشبك أصابعنا معًا،
ويراقبني وأنا أرفع خصلة من شعرها سقطت على وجهها. كان بوسعي أن

أرى ابتسامته الداخلية، عريضة مثل سماوات كابول في الليالي التي ترتعد فيها أشجار الحور ويعلو فيها صوت صراير الغيط في الحداثق.

قبيل منتصف الليل، طلب منا بابا أن نساعدده لدخول الفراش. وضعت أنا وثرىا ذراعيه حول كتفينا وأحطناه بذراعيها. عندما أنزلناه، طلب من ثرىا أن تطفئ المصباح بجوار فراشه. وطلب منا أن ننحني، ومنح كلاً منا قبلة. قالت ثرىا:

- سأعود بالمورفين وكوب ماء، كاكاجان.

قال:

- ليس الليلة. لا ألم الليلة!

قالت:

- أوكيه.

سحبَت البطانية لتغطيه. أغلقنا الباب.

لم يستيقظ بابا بعدها.

* * *

شغلوا كل مساحات الانتظار في ساحة جامع هايوارد. على أرض جرداء وراء المبنى، اصطفت سيارات عادية، وسيارات رياضية رباعية الدفع في صفوف مزدحمة متوازية. كان على من يريد أن يصف سيارته أن يقودها لثلاثة أو أربعة شوارع شمالي الجامع حتى يجد مكاناً.

كان قسم الرجال في الجامع قاعة كبيرة مربعة، مغطاة بحُصر أفغانية عليها حشايا رقيقة مصطفة في صفوف متوازية. دخل الرجال في طابور إلى القاعة،

تاركين أحذيتهم عند المدخل، وجلسوا القرفصاء على الحشايا. جلس مُلاً يتلو آيات من القرآن في ميكروفون. جلست بجوار الباب، الموقع المعتاد لعائلة المتوفى. وجلس الجنرال طاهري إلى جوارى.

عبر الباب المفتوح، كانت صفوف من السيارات تتوقف، ونور الشمس يتلألأ على زجاجها. ينزل منها الركاب، رجال في حلل سوداء، ونساء في أردية سوداء، ورؤوسهن مغطاة بالحجاب الأبيض التقليدي.

فيما يتردد صدى آيات القرآن عبر القاعة، أخذت أفكر في القصة القديمة عن بابا وهو يصارع دباً أسود في بلوشستان. ظل بابا يصارع الدببة طيلة حياته. خسارة زوجته الشابة. تربية ابنه بمفرده. مغادرة وطنه الحبيب. الفقر. المهانة. وفي نهاية المطاف جاءه دبٌ لا يستطيع له غلبة. لكنه، حتى ساعتها، خسر بشرطه.

كلما انتهى الملاً من تلاوة بعض الآيات، كانت مجموعة من المعزين تحيني في طريقها إلى الخارج. وكما يقتضي الواجب، كنت أصافحهم. لم أكن أعرف كثيرين منهم إلا بالكاد. كنت أبتسم بأدب، وأشكر سعيهم، وأستمع إلى ما يقولون عن بابا أياً كان.

... ساعدني في بناء البيت في تايماني...

... يرحمه الله...

... لم يكن لديّ مَنْ ألجأ إليه غيره لاقتراض المال...

... عثر لي على وظيفة... كان يعرفني بالكاد...

... كان لي مثل الأخ...

حين كنت أستمع إليهم، تبين لي أن جزءاً كبيراً من كياني، جزءاً كبيراً

مما كنت عليه، يتحدد بينوتي لبابا وما تركه من علامات على حيوات الآخرين. كنت «ابن بابا» طيلة حياتي. وقد رحل الآن. لم يعد بابا يستطيع أن يرشدني إلى الطريق بعد الآن؛ سيكون عليّ أن أجده بنفسه.

وأرعبتني تلك الفكرة.

قبلها، عند القبر في القسم الصغير المخصص للمسلمين من المقابر، رأيتهم يُنزلون بابا في الحفرة. واشتبك الملاّ ورجل آخر في جدال بشأن الآيات المناسبة التي يجب تلاوتها على القبر. ربما لم يكن الأمر ليتهي على خير لولا تدخل الجنرال طاهري. اختار الملاّ آيات وتلاها، وهو يرمق الآخر بنظرات شرسة. شاهدتهم وهم يهيلون بالجاروف أول كومة تراب على القبر، ثم مضيت. مشيت إلى الناحية الأخرى من المقابر. جلست في ظلال شجرة قيقب حمراء.

قدم آخر المعزين عزاءه وكان الجامع خاويًا، إلا من الملا الذي يفك ميكروفونه ويلف المصحف في قماش أخضر. خرجت أنا والجنرال إلى شمس الأصيل. نزلنا على الدرج، مارين من أمام تجمعات من رجال يدخنون. سمعت قصاصات من الحوارات، مباراة كرة قدم في يونيو سيتي الأسبوع القادم، مطعم أفغاني جديد في سانتا كلارا. كانت الحياة تسير على طبيعتها، مخلقة بابا وراءها.

قال الجنرال طاهري:

- كيف حالك، بتشم؟

صررت بأسناني. وكبحت دموعًا ظلت تهدد بالانهيار طوال الليل. قلت:

- سأبحث عن ثريا.

- أوكيه.

سرت إلى الجانب المخصص للنساء من الجامع. كانت ثريا تقف على الدرج بصحبة أمها وامرأتين كنت قد رأيتهما في الزفاف. أشرت إلى ثريا. قالت شيئًا لأمها وجاءت لي.

قلت:

- هل يمكن أن نمشي؟

أمسكت بيدي:

- بالتأكيد.

مشينا صامتتين في ممر مفروش بالحصباء يمتد بطوله سياج من النباتات. جلسنا على مصطبة وراقبنا زوجين عجوزين ينحنيان بجوار قبر على بعد بضعة صفوف ويضعان باقة من زهور الربيع على شاهد القبر.

- ثريا!

- نعم!

- سأفتقده.

وضعت يدها على شفتي، والخاتم التي اشتراه بابا يلمع حول إصبعها. خلفها، كان بوسعي أن أرى المعزين في بابا يتحركون بسياراتهم على طريق شارع ميشان. والآن، سنمضي نحن أيضًا، وللمرة الأولى، سيكون بابا وحيدًا.

جذبتني ثريا إليها وانهمرت الدموع أخيرًا.

* * *

لأنني وثرى لم نمر بفترة خطوبة، لم أعرف الكثير عن آل طاهري إلا بعد مصاهرتي لهم. عرفت مثلاً أن الجنرال يعاني، مرة في الشهر، من نوبات صداع نصفي رهيب، تستمر لنحو أسبوع. وعندما يضرب الصداع الجنرال، يذهب إلى غرفته، يخلع ثيابه، يطفى المصباح، يوصد الباب، ولا يخرج حتى يخف الألم. لا يسمح لأحد بالدخول، ولا يسمح لأحد بالطرق على بابه. وأخيراً يخرج، ويرتدي حلته الرمادية مرة أخرى، تفوح منه رائحة النوم وأغطية الفراش، وتبدو عيناه منتفختين وحمراوين كالدم. عرفتُ من ثرى أنه وخائِم طاهري ظلا ينامان في غرفتين منفصلتين منذ وُعت. عرفتُ أنه يكون خسيساً في بعض الأحيان، كما هو الحال عندما يتناول قسمة من الـ «قورمه» وقد وضعتها زوجته أمامه، ثم يتنهد، ويدفعها بعيداً. كانت خائِم طاهري تقول: - سأعد لك واحدة أخرى.

لكنه كان يتجاهلها، ويعبس، ويأكل خبزاً وبصلًا. وكان ذلك يشير غضب ثرى ويجعل والدتها تبكي. وقد أخبرني ثرى أنه كان يتناول عقاقير مضادة للاكتئاب. وعرفتُ أنه ظل ينفق على أسرته من أموال الإعانات، ولم يحصل على أي وظيفة في الولايات المتحدة، مفضلاً صرف الشيكات الحكومية بدلاً من الحطّ من شأنه في وظيفة لا تناسب رجلاً في مكانته - كان يرى سوق الخردة مجرد هواية، فرصة للتواصل الاجتماعي مع رفاقه الأفغان. كان الجنرال يؤمن أن أفغانستان، آجلاً أو عاجلاً، سوف تتحرر، وأن الملكية سوف تعود، وأن خدماته سوف تُطلب مجدداً. لذا، كان يرتدي حلته الرمادية كل يوم، ويملاً ساعة جيبه، و ينتظر.

عرفتُ أن خائِم طاهري - التي بتُ الآن أناديهَا خالة جميلة - كانت مشهورة في كابول بصوتها الساحر. ومع أنها لم تحترف الغناء قط، فقد كانت لديها الموهبة. عرفتُ أنها تغني أغاني فولكلورية، الغزل، بل والراجا،

التي كانت مقصورة على الرجال. لكن مع حب الجنرال للموسيقى - كان يملك، في واقع الأمر، مجموعة كبيرة من شرائط الغزل بأصوات مطربين أفغان وهنود - فقد كان يعتقد أن من الأفضل ترك الغناء للناس الأقل شأنًا. واشترط الجنرال عليها لدى زواجه منها ألا تغني علنًا. قالت لي ثريا إن أمها أرادت الغناء في زفافنا، أغنية واحدة، لكن الجنرال رمقها بنظرة فانتهى الأمر. كانت الخالة جميلة تلعب اللوتو مرة أسبوعيًا، وتشاهد «جونى كارسون» كل ليلة، وتقضي أيامها في الحديقة، ترعى الورد، والـ«جيرانيوم»، وزهور الصباح، والـ«أوركيد».

عندما تزوجتُ ثريا، تراجعت الزهور ومعها «جونى كارسون»، وأصبحتُ أنا المتعة الجديدة في حياة الخالة جميلة. وعلى عكس سلوك الجنرال المتحفظ والدبلوماسي - لم يصوّب لي عندما وجدني أستمّر في مخاطبته بـ«جنرال صاحب» - لم تحاول الخالة جميلة إخفاء ولعها بي. فمن ناحية، كنت أصغي لقائمتها المدهشة من الأمراض، وهو ما كان الجنرال قد أصم أذنيه عنه منذ زمن طويل. وأخبرتني ثريا أنه، منذ إصابة أمها بالسكتة، أصبحت كل خفقة في صدرها أزمة قلبية، وكل ألم في المفاصل بداية لالتهاب روماتيزمي، وكل اختلاجة في عيناها سكتة دماغية أخرى. أتذكر أول مرة كلمتني الخالة جميلة عن كتلة صلبة في عنقها. قلتُ:

- لن أذهب إلى الكلية غدًا وأصطحبك إلى الطبيب.

وهو ما جعل الجنرال يبتسم ويقول:

- من الأفضل لك إذن أن تُعيد لهم الكتب نهائيًا، بتّسم؛ فالقوائم الصحية لخالتك تشبه أعمال الرومي: تأتي في مجلدات.

لكن الأمر لم يقتصر على أنها وجدت جمهورًا لمنولوجاتها المرّضية،

بل أعتقد على وجه اليقين أنني لو أمسكت بمسدس وانتابني هياج وأعملت القتل في الناس، لظلمتُ موضعاً لحبها الذي لا يحيد. لأنني خلّصتُ قلبها من أخطر أحزانه. خلّصتها من أعظم خوف يتتاب كل امرأة أفغانية: ألا يطلب «خواستجار» شريف يد ابنتها. أن تكبر ابنتها وحيدة، بلا زوج، بلا أطفال. كل امرأة تحتاج زوجاً. حتى لو أخرس الغناء بداخلها.

ومن ثريا، عرفت تفاصيل ما حدث في فيرجينيا.

كنا في حفل زفاف. كان خال ثريا، شريف، الرجل الذي يعمل في مكتب الهجرة والتطبيع، يزوّج ابنه لفتاة أفغانية من نيوآرك. وكان حفل الزفاف في نفس القاعة التي أقمنا فيها أنا وثرثيا عرسنا قبل ستة أشهر. كنا نقف وسط زحام الضيوف، نشاهد العروس وهي تتلقى الخواتم من أسرة عريسها، عندما سمعنا امرأتين في منتصف العمر تتحدثان، وكانتا تولياننا ظهريهما.

قالت إحداهما:

- يا لها من عروس لطيفة. انظري إليها. هي مثل القمر.

ردّت الأخرى:

- نعم. ونقية أيضاً. فاضلة. لا تعرف الـ«بوي فريند».

- أعرف. أقول لك إن الولد فعل خيراً بعدم زواجه من ابنة عمته.

انهارت ثريا في طريق العودة. جنحتُ بالـ«فورد» إلى جانب الطريق، وأوقفتها أسفل مصباح من مصابيح شارع فريمونت.

قلتُ، وأنا أرفع شعرها إلى الوراء:

- لا توجد مشكلة. مَنْ يهتم؟

صاحت:

- هذا حرام!

- انسي وحسب.

- أولادهن يذهبون إلى الملاهي الليلية، بحثًا عن اللحم، ويحبّلون صديقاتهم، وينجبون أطفالًا غير شرعيين، ولا أحد يقول شيئًا لعينًا. أوه، مجرد رجال يمرحون! وأنا أرتكب خطأ واحدًا وفجأة يتكلم الجميع عن «ننج» و«ناموس»، وأجد سمعتي وقد تلطخت لبقية حياتي.

مسحتُ دمعة بجوار فمها، فوق وحمتها مباشرة، بباطن إبهامي.

قالت ثريا، وهي تجفف عينيها:

- لم أحكِ لك، لكن والدي ظهر ببندقية تلك الليلة. قال... له... إن لديه رصاصتين في الخزانة، واحدة له، والأخرى لنفسه إذا لم أرجع إلى المنزل. كنت أصرخ، وأسب والدي كل أنواع السباب، وأقول إنه لن يحبسني إلى الأبد، وإنني أتمنى له الموت.

تجمّعت دموع طازجة بين جفنيها.

- هذا ما قلته، إنني أتمنى له الموت. وعندما أعادني إلى المنزل، ألقت أمي ذراعيها حولي وكانت تبكي هي الأخرى. وتقول أشياء ما كان بوسعي أن أفهمها لأنها تدغمها فتغيب معالمها. وهكذا اصطحبني أبي إلى غرفة نومي بالطابق العلوي وأجلسني أمام المرأة. ناولني مقصًا وأمرني بهدوء أن أقص شعري بالكامل. وتابعني وأنا أقصه. لم أخرج من المنزل لأسابيع. وعندما خرجتُ، كنت أسمع همسات أو أتخيلها في كل مكان أذهب إليه. وها قد مرت أربع سنوات وابتعدت ثلاثة آلاف ميل وما زلت أسمعها.

قلت:

- عليهم اللعنة!

خرجت منها نصف شهقة، نصف ضحكة:

- عندما أخبرتك بالأمر على الهاتف عشية الـ «خواستِجاري»، كنت متأكدة أنك ستغير رأيك.

- لم يكن هناك احتمال، ثريا.

ابتسمت وتناولت يدي:

- أنا محظوظة جدًا أن أعثر عليك. أنت مختلف عن كل من قابلتهم من الرجال الأفغان.

- دعينا لا نتحدث في هذا الأمر ثانية، أوكيه؟

- أوكيه.

قبّلتها على خدها وانطلقت عائداً إلى الطريق. وأنا أقود السيارة، تساءلتُ عن سبب اختلافي. ربما لأنني تربيت على أيدي رجال؛ لم أكبر مع نساء ولم أتعرض قطُ بشكل مباشر إلى المعايير المزدوجة التي كان المجتمع الأفغاني يعاملهن بها أحياناً. ربما بسبب بابا الذي طالما كان أباً أفغانياً غير عادي، أباً ليبرالياً عاش وفقاً لقواعده، مستقلاً، يعتنق العادات الاجتماعية أو يتجاهلها بحسب ما يراه مناسباً.

لكنني أظن أن جزءاً كبيراً مما جعلني لا أبالي بماضي ثريا أن لي نصيباً من الماضي. كنت أعرف معنى الندم.

* * *

بُعِيد وفاة بابا، انتقلنا أنا وثرى إلى شقة بغرفة نوم واحدة في فريمونت، على بعد بضعة شوارع من بيت الجنرال والخالة جميلة. اشترى لنا والدا ثريا أريكة جلدية وطاقمًا من صحون «ميكاسا» هدية المنزل الجديد. ومنحني الجنرال هدية إضافية، آلة كاتبة جديدة طراز «آي بي إم». وفي العلبة، أسقط ملحوظة كتبها بالفارسية:

أمير جان،

أتمنى أن تكتشف حكايات عديدة على تلك الأزارار.

جنرال إقبال طاهري

بعثُ سيارة أبي، الـ«فان» الـ«فولكس فاجن»، وحتى ذلك اليوم لم أعد إلى سوق الخردة. كنت أزور قبره كل جمعة، وكنت، أحيانًا، أجد باقة يانعة من السوسن بجوار شاهد القبر، فأعرف أن ثريا كانت هنا أيضًا.

استقرت حياتنا أنا وثرى على النظام الثابت - والعجائب الصغيرة - للحياة الزوجية. نتشارك في فرشاة الأسنان والجوارب، ونمرّر جرائد الصباح بيننا. تنام على الجانب الأيمن من الفراش، وأفضل أنا الجانب الأيسر. تحب الوسائد المنفوشة، وأحب أنا الوسائد الصلبة. تأكل وجبة جافة، سريعة، وتتبعها بشرب اللبن.

قُبلتُ في جامعة سان جوزيه ذلك الصيف وحصلت على مؤهل في اللغة الإنجليزية. وحصلت على وظيفة رجل أمن، وردية منتصف اليوم في مستودع للأثاث في سانيفيل. كانت الوظيفة مملة بصورة بشعة، لكن كان لها مزية كبيرة: بعد أن يغادر الجميع في السادسة مساءً وتأخذ الظلال في الزحف بين ممرات تصطف على جانبيها أرائك مغطاة بالبلاستيك ومكومة بعضها فوق بعض حتى السقف، كنت أُخرج كتبي وأستذكر. وفي المكتب الذي تفوح منه رائحة منظف الـ«باين سول» في مستودع الأثاث هذا، بدأت أولى رواياتي.

لحقت ثريا بي في جامعة سان جوزيه في العام التالي، وانضمت بذلك،
لحسرة والدها، إلى سلك التدريس.

قال الجنرال ذات ليلة على العشاء:

- لا أعرف لماذا تضيّعين مواهبك هكذا! هل تعرف، أمير جان، أنها
لم تكن تحصل سوى على تقدير ممتاز في المدرسة الثانوية؟
استدار لها:

- فتاة ذكية مثلك كان بوسعها أن تصبح محامية، عالمة سياسية. وعندما
تتحرر أفغانستان، إن شاء الله، يمكنك المساعدة في صياغة الدستور الجديد.
سوف يحتاجون إلى الشباب الأفغان الموهوبين مثلك، بل ربما يعرضون
عليك منصبًا وزاريًا حين يضعون اسم عائلتك في الحسابان.

كان بوسعي أن أرى ثريا وقد تلعثمت، وتقلص وجهها:

- لست فتاة، بابا. أنا امرأة متزوجة. ثم إنهم سوف يحتاجون لمدّرّسين
أيضًا.

- بوسع أي شخص أن يدرّس.

قالت ثريا:

- هل هناك مزيد من الأرز، ماما؟

بعدما استأذن الجنرال وذهب ليقابل بعض الأصدقاء في هايوارد، حاولت
الخالة جميلة تعزية ثريا، قالت:

- إنه يريد مصلحتك. يريد لك النجاح.

قالت ثريا:

- حتى يتمكن من الافتخار بابتته المحامية أمام أصدقائه. ميدالية أخرى للجنرال.

- ما هذا الهراء؟!

هممت ثريا:

- النجاح. على الأقل لست مثله، أجلس بلا عمل ويحارب الآخرون الروس، في انتظار أن يهدأ غبار المعركة حتى يتمكن من الرجوع واستعادة منصبه الحكومي الصغير الأنيق. ربما لا يُدرّس التدريس دخلًا كبيرًا، لكن هذا ما أريد أن أفعله! هذا ما أحبه، وهو أفضل بكثير جدًّا من اللجوء إلى الإعانات، بالمناسبة.

أمسكت الخالة جميلة لسانها، ثم قالت:

- إذا سمعك تقولين ذلك، لن يكلمك ثانية أبدًا.

ردت ثريا، وهي ترمي منديلها على الصحن:

- لا تقلقي. لن أخدش كبرياءه النفيسة.

* * *

في صيف عام ١٩٨٨، قبل نحو ستة أشهر من الانسحاب السوفيتي من أفغانستان، أتممت أولى رواياتي؛ قصة عن علاقة بين أب وابنه في كابول، كُتب معظمها على الآلة الكاتبة التي كان الجنرال قد أعطاها لي. أرسلت خطابات استفسار إلى عشر وكالات وأدهشني في أحد أيام أغسطس أن فتحت صندوق البريد لأجد طلبًا من وكالة بنويورك لإرسال المخطوط الكامل. أرسلته بالبريد في اليوم التالي، قبّلت ثريا المخطوط الملفوف بعناية وأصرّت الخالة جميلة على أن يمرره تحت المصحف. قالت إنها

سوف تُنذر نذرًا لأجلي؛ أن تذبح خروفًا وتوزع لحمه على الفقراء إذا قُبِلَ الكتاب.

قلت وأنا أقبل وجهها:

- أرجوك، بلا نذر، حالة جان. تكفي زكاة، أخرجني النقود لشخص محتاج، أوكيه؟ من دون قتل خراف!

بعدها بستة أسابيع، اتصل رجل يدعى «مارتن جرينوالد» من نيويورك وعرض أن يمثلني. لم أخبر أحدًا بذلك سوى ثريا.

- لكن وجود وكيل لي لا يعني أن روايتي ستُنشر. إذا باع «مارتن» الرواية، ساعتها سنحتفل.

بعدها بشهر، اتصل «مارتن» وأخبرني أنني سأصبح كاتبًا له عمل منشور. عندما أخبرت ثريا، صرخت.

رتبنا عشاء احتفاليًا مع والدي ثريا تلك الليلة. أعدت الخالة جميلة كفتة مع أرز أبيض، و«بودنج»، و«فرنّي» أبيض. قال الجنرال، ودمعة تترقق في عينيه، إنه فخور بي. بعدما غادر الجنرال طاهري وزوجته، احتفلنا أنا وثرია بزجاجة نبيذ «ميرلوت» غالية اشتريتها وأنا عائد في طريقي إلى المنزل - لم يكن الجنرال يقبل أن تشرب النساء الكحول، ولم تكن ثريا تشرب في حضوره.

قالت، وهي ترفع كأسها نحو كأسِي:

- أنا أفتخر بك جدًا. وكان كাকা سيفخر بك أيضًا.

قلت وأنا أفكر في بابا، متمنيًا لو كان قد رأيَني:

- أعرف.

لاحقًا في تلك الليلة، بعدما راحتُ ثريا في النوم - دائمًا ما يصيبها النيبذ بالنعاس - وقفت في الشرفة واستنشقت نسمة باردة من نسيمات الصيف. تذكرت رحيم خان وعبارات الدعم الصغيرة التي كتبها لي بعدما قرأ قصتي الأولى. وتذكرت حسنًا، وقد قال لي ذات مرة: «يومًا ما، إن شاء الله، سوف تصبح كاتبًا عظيمًا، ويقرأ الناس قصصك في العالم كله». كان هناك كثير من الخير في حياتي. كثير من السعادة. وتساءلت عما إذا كنت أستحق ذلك.

نُشرت الرواية في صيف العام التالي، ١٩٨٩، وأرسل لي الناشر كي أقوم بجولة قراءة في خمس مدن. أصبحت من صغار المشاهير في المجتمع الأفغاني. كان ذلك هو العام الذي أكمل فيه الروس انسحابهم من أفغانستان. كان ينبغي أن يكون زمن انتصارٍ للأفغان. بدلًا من ذلك، اندلعت الحرب، بين الأفغان تلك المرة؛ المجاهدين وحكومة نجيب الله، ولم تكن سوى دمية في يد السوفييت، وظل اللاجئون الأفغان يتدفقون على باكستان. كانت تلك هي السنة التي انتهت فيها الحرب الباردة، السنة التي سقط فيها سور برلين. كانت سنة ميدان «تيانانمن». وفي خضم كل هذا، نُسي الأفغان. وعاد الجنرال طاهري، الذي استيقظت آماله عشية انسحاب السوفييت، إلى ملء ساعة جيبه.

كانت تلك هي السنة التي بدأنا فيها أنا وثرثيا محاولة الإنجاب.

* * *

أطلقت فكرة الأبوة العنان لدوامة من المشاعر بداخلي. وجدتها فكرة مخيفة، قوية، مهيبة، ومبهجة في الوقت نفسه. تساءلت: أي نوع من الآباء سأكونه؟ أردت أن أكون مثل بابا تمامًا، وأردت ألا أكون مثله على الإطلاق.

لكنَّ عامًّا مر ولم يحدث شيء. ومع كل دورة من الدماء، كانت ثريا تزداد إحباطًا، ويزداد صبرها نفاذًا، وتزداد حساسيتها. في ذلك الوقت، كانت تلميحات الخالة جميلة الخفية قد أصبحت مكشوفة، فباتت تقول كلمات مثل: «خو دجاه!» إذن! «متى أغني «الله» لحفيدي الأول؟». أما الجنرال، البشتون التقليدي، فلم يلق بأي استفسارات - إذ كان ذلك يعني الإيحاء بفعل جنسي بين ابنته ورجل، حتى وإن كان الرجل هنا زوجها منذ أكثر من أربع سنوات. لكن عينيه كانتا تتبهران حين تُشاكسنا الخالة جميلة بشأن الأطفال.

قلتُ لثريا ذات ليلة:

- يستغرق الأمر بعض الوقت أحيانًا.

قالت بصوت هادئ لا يشبهها:

- العام ليس بعض الوقت، أمير! شيء ما ليس على ما يرام. أعرف ذلك.

- إذن، لنذهب إلى طبيب.

* * *

تحدّث الدكتور «روزين»، وهو رجل بكرش مدوّرة ووجه سمين وأسنان صغيرة متساوية، بلكنة أوروبية شرقية خفيفة، فيها لمحة سلافية. يعشق القطارات - تتناثر على مكتبه كتبٌ حول تاريخ السكك الحديدية، وطُرُز الجرارات، ورسوم لقطارات تجري على قضبان بين التلال الخضراء وفوق الجسور. وكان فوق مكتبه علامة مكتوب عليها «الحياة قطار، فأهلاً بك على المتن».

عرّض علينا الخطة:

- سأجري أنا فحوصات أولاً.

ثم قال وهو ينقر بأصابعه على مكتبه المصنوع من خشب الماهوجني:
- الرجال أمرهم سهل؛ ماسورة الرجل مثل عقله: بسيطة، القليل من
المفاجآت. أما أنتن أيتها السيدات، من الناحية الأخرى... حسنًا، فكر الله
مليًا في خلقكن.

وتساءلت إذا كان يقول موضوع الماسورة هذا لكل الأزواج.
قالت ثريا:

- يا لنا من محظوظات!

ضحك الدكتور «روزين». لم تكن ضحكة تلقائية. أعطاني استمارة
تحليل وبرطمانًا بلاستيكيًا، وناول ثريا طلبًا لبعض اختبارات الدم الروتينية.
تصافحنا، وقال لي وهو يوصلني إلى الباب:
- أهلاً بك معنا.

* * *

اجتزت الاختبارات بنجاح تام.

كانت الأشهر التالية أشهر اختبارات لثريا: اختبار درجة حرارة الجسم
الأساسية، اختبارات دم على كل هورمون معروف، اختبارات بول، شيء يُدعى
«اختبار مخاط عنق الرحم»، موجات فوق صوتية، مزيد من اختبارات الدم، مزيد
من اختبارات البول. أجرت ثريا إجراء يسمى منظار الرحم - أدخل الدكتور
«روزين» منظارًا في رحم ثريا وألقى نظرة في أنحائه، لم يكتشف شيئًا. أعلن
قائلًا: «الماسورة نظيفة»، وهو يُلقى بقفازه المطاطي. تمنيت لو يكف عن تسميته
بذلك - لسنا دورات مياه. عندما انتهت الاختبارات، قال لنا إنه لا يجد سببًا عندنا
لعدم الإنجاب. ولم يكن مستغربًا، على ما يبدو. يسمى ذلك «عقم بلا تفسير».

ثم جاءت مرحلة العلاج. جربنا عقارًا يدعى «كلوميفين»، وعقارًا محفزًا للتبويض، سلسلة من الحقن كانت ثريا تعطيها لنفسها. وعندما فشلت، أشار علينا الدكتور «روزين» بأطفال الأنابيب. تلقينا خطابًا مهذبًا من منظمة الرعاية الصحية الخاصة بنا تتمنى لنا حظًا سعيدًا، وتأسف على أنها لا تغطي تكاليف ذلك.

استخدمنا المقدم الذي حصلت عليه مقابل روايتي الأولى لسداد التكاليف. وتبين أن أطفال الأنابيب عملية طويلة، تفاصيلها معقدة، ومحبطة، وغير ناجحة في النهاية. بعد أشهر من الجلوس في قاعات الانتظار وقراءة مجلات من قبيل مجلة «الأشغال المنزلية» ومجلة «ريدرز دايجيست»، وبعد عدد غير نهائي من ملابس المستشفيات، وغرف الفحص المعقمة الباردة المضاعة بالفلوريسنت، والمهانة المتكررة لدى مناقشة حياتنا الجنسية بالتفاصيل مع شخص غريب تمامًا، والحقن والمجسات وأخذ العينات، عدنا إلى الدكتور «روزين» وقطاراته.

جلس قبالتنا، ينقر بأصابعه على مكتبه، واستخدم كلمة «تبني» للمرة الأولى. وبكت ثريا طوال طريق العودة.

أبلغت ثريا والديها بالأخبار في نهاية الأسبوع التالي لزيارتنا الأخيرة للدكتور «روزين». كنا نجلس على كراسي رحلات في باحة آل طاهري الخلفية، نشوي أسماك السالمون المرقط، ونحتسي «دوغ» الزبادي. كان مساء مبكرًا من أمسيات مارس ١٩٩١. كانت الخالة جميلة قد روت الورود وشتلات زهر العسل الجديدة، وكان رحيقها يختلط برائحة السمك المشوي. وكررت حركة ما مرتين، أن انحنت على كرسيها ووضعت يدها على شعر ثريا وقالت:

- الله يفعل ما فيه الخير، بَتَشِم، ربما ليس مُقَدَّرًا أن يحدث.

ظلت ثريا مطأطئة رأسها ناظرة إلى يديها. كنت أعرف أنها متعبة، متعبة من كل هذا. تمتمتُ:

- يقول الطبيب إن بوسعنا أن نتبنّى.

انتبه الجنرال طاهري لدى سماع ذلك، وأغلق غطاء الشواية:

- هل قال ذلك؟

قالت ثريا:

- قال إن ذلك أحد الخيارات.

كنا قد تكلمنا عن التبنّي في المنزل. وكانت ثريا مترددة جدًا. قالت لي في الطريق إلى منزل والديها:

- أعرف أنه أمر سخيف وربما لا جدوى منه، ولكنني لا أستطيع أن أمنع نفسي؛ لطالما حلمتُ أن أحمل طفلًا بين ذراعيّ وأنا أعرف أنه تغذى على دمي لتسعة أشهر، أن أنظر في عينيه يومًا فأجفل وأنا أراك أو أراني، أن يكبر الطفل فيحمل ابتسامتك أو ابتسامتي. من دون ذلك... هل هذا غريب؟

وقلت لها:

- لا.

- هل أفكر بأنانية؟

- لا، ثريا.

- لأنك إذا أردت حقًا أن نفعل ذلك...

قلت:

- لا، إذا كنا سنفعل ذلك، فيجب ألا يكون لدينا أية شكوك حول الموضوع، وعلينا نحن الاثنين أن نتفق. إن لم نتفق، لن يكون ذلك عادلاً بالنسبة إلى الطفل.

أراحت رأسها على الزجاج ولم تنطق بكلمة لبقية الطريق.

الآن كان الجنرال يجلس بجانبها:

- بَتَشَم، موضوع التبنّي هذا... لست متأكدًا أنه يناسب الأفغان.

نظرت ثريا نحوي بإرهاق وتنهّدت.

استرسل:

- فمن ناحية، سيكبرون ويرغبون في معرفة آبائهم الحقيقيين. ولا تستطيعين لومهم. أحيانًا، يتركون البلد الذي عملت فيه لسنوات لتنفقي عليهم حتى يتمكنوا من العثور على من منحوهم الحياة. إن الدم شيء قوي، بَتَشَم، لا تنسي هذا أبدًا.

قالت ثريا:

- أريد أن نتوقف عن الكلام في هذا الموضوع!

قال:

- سأقول شيئًا واحدًا آخر.

كان يمكن أن أرى محرّكه وقد بدأ في الدوران، نحن بصدد الاستماع إلى خطبة أخرى صغيرة من خطب الجنرال:

- فلنأخذ أمير جان، هنا. نحن جميعًا نعرف والده، وأعرف أنا من كان

جده في كابول وجده الأكبر من قبله، يمكن أن أجلس هنا وأسترجع أجيالاً من أسلافه لك إن طلبت. هذا هو السبب الذي جعلني لا أتردد حين جاء والده -رحمة الله عليه- في زيارة الـ«خواستجار». وصدقيني، لم يكن والده ليقبل بطلب يدك لو لم يكن يعرف من أي أصل أتيت. الدم شيء قوي، بتشم، وعندما تتبين، لا تعرفين بأي دم تأتين إلى منزلك. لو كنت أمريكية لما كان الأمر مهماً. الناس هنا يتزوجون من أجل الحب، وليس لاسم العائلة أو الأسلاف حتى ولو دور في المعادلة. ويتبنون بتلك الطريقة أيضاً، طالما الطفل سليم، الجميع سعداء. لكننا أفغان، بتشم.

قالت ثريا:

- هل نضجت السمكة؟

تلکأت عينا الجنرال طاهري عليها. ربّت على ركبتيها:

- احمدي الله على الصحة والزوج الطيب.

قالت الخالة جميلة:

- ما رأيك، أمير جان؟

وضعت كوبي على الرف، حيث كانت أصص الـ«جيرانيوم» تقطر بالمياه.

- أعتقد أنني أتفق مع جنرال صاحب.

أوما الجنرال وقد أمّنت على كلامه، وعاد إلى الشواية.

كان لكل منا أسبابه في رفض التبنّي. كان لثريا أسبابها، وللجنرال أسبابه، وكان لديّ هذا السبب: ربما كان هناك شيء ما، شخص ما، في مكان ما، قد قرر أن يحرمني من الأبوة عقاباً على ما ارتكبته يوماً. ربما كان ذلك

جزائي، وربما كان جزاء عادلاً. لقد قالت الخالة جميلة: «ربما ليس مقدراً أن يحدث». أو، ربما، كان مقدراً ألا يحدث.

* * *

بعدها ببضعة أشهر، استخدمنا مقدم روايتي الثانية قسطاً في منزل فيكتوري جميل بغرفتي نوم في مرتفعات «بيرنال» في سان فرانسيسكو؛ بسقف عالٍ، وأرضيات من الخشب الصلب، وباحة خلفية صغيرة تنتهي بشرفة للشمس في قلبها حفرة نار. ساعدنا الجنرال على تشطيب الشرفة ودهان الحوائط. وندبت الخالة جميلة وهي ترانا ننتقل على بعد نحو ساعة منها، خصوصاً وقد كانت تظن أن ثريا تحتاج كل الحب والدعم الذي يمكن أن تحصل عليه - غافلة عن حقيقة أن تعاطفها الزائد عن الحد، وإن كان بحسن نية، كان تحديداً ما دفع ثريا للبعد عنها.

* * *

أحياناً، وثرى تنام إلى جوارى، كنت أرقد في الفراش وأستمع لحاجز الباب الخارجي يتأرجح فيفتح ويغلق مع النسيم، إلى صراير الغيط وهي تصر في الباحة. وأكاد أشعر بخواء رحم ثريا، كما لو كان شيئاً حياً، يتنفس. كان يتغلغل في حياتنا، ذلك الخواء، في ضحكاتنا، وفي ممارستنا للحب. وفي آخر الليل، يتغلغل في ظلمات غرفتنا، وأشعر به يخرج من ثريا ويستقر بيننا. ينام بيننا. مثل طفل رضيع!

يونيو ٢٠٠١

وضعت سماعة الهاتف وحدقت فيه لوقت طويل. ولم أدرك كم باتت الغرفة هادئة إلا عندما أفرعني نباح أفلاطون. كانت ثريا قد كتمت صوت التلفزيون. قالت من فوق الأريكة، تلك التي أهداها لنا والدها بمناسبة انتقالنا إلى شقتنا الجديدة:

- تبدو شاحبًا، أمير.

كانت مستلقية على الأريكة ورأس أفلاطون مستكن على صدرها، وساقها مدفونتان تحت الوسائد البالية. كانت تتابع بنصف انتباه حلقة خاصة من «بي بي إس» عن أزمة الذئاب في ولاية مينسوتا، وتصيح بنصف انتباه مقالات لطلاب فصل صيفي - انقضت نحو ست سنوات وهي تدرّس في المدرسة نفسها. جلست منتصبه، وقفز أفلاطون من فوق الأريكة. كان الجنرال هو من اقترح اسم ذلك الكلب الكوكر الإسباني، على اسم الفيلسوف اليوناني الشهير، حيث قال إنك إذا أمعنت النظر بالقوة الكافية ولمدة كافية في عيني الكلب السوداءوين اللامعتين، لأقسمت إنه يفكر في أفكار حكيمة.

كان هناك رقيقة من الدهن، لا تكاد تُرى، أسفل ذقن ثريا. وقد بطّنت السنوات العشر الماضية انحناءات ردفها قليلاً، ومَشَّطت في شعرها الأسود الفاحم بضعة خطوط رمادية. لكنها كانت لا تزال تملك وجه أميرة، بحاجبيها اللذين يشبهان جناحي طائر محلّق، وأنفها المقوس بلطف مثل حرفٍ من المخطوطات العربية القديمة.

كررت ثريا، وهي تضع كومة الأوراق على الطاولة:
- تبدو شاحباً.

- يجب أن أذهب إلى باكستان.
وقفت:

- باكستان؟

- رحيم خان مريض جداً.

انقبض قلبي مع تلك الكلمات.

- شريك كاكّا القديم في البيزنس؟

لم تكن قد التقت برحيم خان، لكنني حكيت لها عنه. أومأت برأسي.
- أوه! آسفة، أمير!

قلت:

- كنا قريبين. عندما كنت طفلاً، كان أول رجل ناضج أنظر إليه كصديق.

تذكرته وهو يشرب الشاي مع بابا في مكتبه، ثم يدخنان قرب النافذة، ونسيم معبّق برائحة النسرين يهب من الحديقة فيعرج عمودي الدخان التوأمين.

قالت ثريا:

- أتذكر أنك أخبرتني بذلك.

صمتت.

- كم ستغيب؟

- لا أعرف. يريد رؤيتي.

- هل الوضع...؟

- نعم، الوضع آمن. سأكون بخير، ثريا.

كان ذلك هو السؤال الذي تريد إلقاءه - بعد خمسة عشر عامًا من الزواج
بات كل منا يقرأ أفكار الآخر.

- سأخرج لأتمشى.

- هل آتي معك؟

- لا، أفضل أن أكون وحدي.

* * *

قادت السيارة إلى متنزه «جولدن جيت»، وتمشيت بطول بحيرة «سبريكلز»
على الطرف الشمالي من المتنزه. كان عصر أحد جميلًا؛ الشمس تتلألأ
على المياه حيث تبهر عشرات من المراكب الصغيرة، يدفعها نسيم سان
فرانسيسكو المنعش. جلست على مقعد في المتنزه، أتابع رجلًا يرمي بكرة
قدم لابنه، يوجهه أن يرمي الكرة من فوق كتفيه، لا أن يدفعها من الأمام.
لمحت بأعلى طائرتين ورقيتين، حمراوين بذيل أزرق طويل. تحلقان عاليًا
فوق الأشجار على الطرف الغربي من المتنزه، فوق طواحين الهواء.

فكرتُ في تعليق قاله رحيم خان قبيل نهاية المكالمة. ألقاه عابراً وكأنه خاطر من وحي اللحظة. أغمضت عينيَّ ورأيتَه على الطرف الآخر من خط المكالمة الدولية المخرفش، رأيتَه وشفته متباعدتان قليلاً، ورأسه مائل إلى الجنب. ومن جديد، يُلَمَح شيءٌ ما في عينيه السوداوين اللتين بلا قرار إلى سر غير منطوق بيننا. الفرق أنني الآن أعرف أنه يعرف. كانت شكوكي في محلها طيلة تلك السنوات. كان يعرف بأمر آصف، والطائرة الورقية، والنقود، والساعة ذات اليد التي تشبه الصاعقة. كان يعرف من البداية.

قال لي رحيم خان قبل نهاية المكالمة:

- تعال. ثمة طريقة لتعود صالحاً من جديد.

قالها عابراً، وكأنها خاطرٌ من وحي اللحظة.

طريقة لأعود صالحاً من جديد.

* * *

عندما رجعت إلى المنزل، كانت ثريا على الهاتف مع أمها.

- لن يتأخر، ماما جان. أسبوع أو اثنان ربما... نعم، يمكن أن تمكثي عندي أنت وبابا.

قبل عامين، كسرت عظمة الفخذ اليسرى للجنرال. انتابته نوبة أخرى من نوبات الصداغ النصفى، وفي أثناء خروجه من الغرفة، مشوش الرؤية ودائخاً، تعثر في حافة سجادة. هرعت الخالة جميلة من المطبخ على صرخته. بعدها، دأبت أن تقول:

- كان صوتاً كصوت «جاروب»، مكنسة تنكسر نصفين.

وذلك، مع أن الطبيب استبعد أن تكون قد سمعت أي شيء من هذا القبيل. وقد أنهت فخذ الجنرال المكسورة - وكل ما أعقبته من مضاعفات، الالتهاب الرئوي، وتسمم الدم، والإقامة المديدة في دار الرعاية - مناجاة الخالة جميلة الطويلة حول صحتها. وبدأت مناجاة جديدة حول صحة الجنرال. كانت تقول لكل من يعطيها أذنه إن الأطباء أخبروها بأن كليتيه في طريقهما إلى الفضل. وكانت تقول بفخر:

- لكنهم لم يروا كلى الأفغان من قبل، أليس كذلك؟

أكثر ما أتذكره عن إقامة الجنرال في المستشفى هو كيف كانت الخالة جميلة تنتظر حتى يروح في النوم، ثم تبدأ في الغناء له، أغنيات أتذكرها من كابول، وهي تصدح من راديو بابا الترانزستور القديم بصوت مخرفش.

لَطْفٌ وَهَنُ الجنرال - والزمن - الأمور بينه وبين ثريا أيضًا. صارا يتمشيان معًا، ويخرجان للغداء أيام السبت، وأحيانًا، يجلس الجنرال في أحد الفصول التي تدرّس فيها. يجلس في مؤخرة الغرفة، مرتديًا حلته الرمادية القديمة اللامعة، وعلى حجره عصا خشبية، يبتسم. بل يدوّن بعض الملاحظات أحيانًا.

* * *

تلك الليلة، رقدنا أنا وثرثيا في الفراش، رأسها مضغوط على صدري، ووجهي مدفون في شعرها. تذكرتُ عندما كنا نرقد وجبهتنا متقابلتان، نتبادل قبلات الشفق ونتهامس حتى نروح في النوم، نتهامس عن أشياء صغيرة، عن الأصابع الملوية لطفل مرتقب، عن الابتسامات الأولى، الكلمات الأولى، الخطوات الأولى. ما زلنا نفعل ذلك أحيانًا، لكن تهامسنا أصبح عن المدرسة، عن كتابي الجديد، قهقهة على رداء سخيّف ارتداه شخص في حفل. وكانت

ممارسة الحب بيننا لا تزال جيدة، وفي بعض الأحوال أفضل من جيدة. لكن، في بعض الليالي، كان كل ما أشعر به راحة إتمام الأمر، أن أصبح حرًا لكي أروح في النوم وأنسى، على الأقل لبعض الوقت. لا جدوى مما فعلناه للتو. لم تقل ثريا ذلك قط، لكنني كنت أعرف أنها أحيانًا ما تشعر بالشعور نفسه. في تلك الليالي، كان كل منا يستلقي على جانبه من الفراش ويترك ملاكه يسحبه بعيدًا. كان ملاك ثريا النوم. أما ملاكي، كالعادة، فكان كتابًا.

تمددت في الظلام ليلة هاتفني رحيم خان وتعقبتُ بعيني الخطوط الفضية المتوازية التي يصنعها على الجدار ضوء القمر المتسلل عبر فتحات الشيش. عند لحظة ما، ربما قبيل الفجر، رحت في النوم، وحلمتُ بحسن يعدو في الثلج، ساحبًا ذيل قفطانة الـ «شابان» خلفه، والثلج يتهشم تحت حذائه الأسود طويل الرقبة. كان يصرخ وقد أدار وجهه إليّ: «من أجلك، ألف مرة ومرة!».



بعد أسبوع، جلستُ على الكرسي المجاور للنافذة على متن رحلة للخطوط الجوية الدولية الباكستانية، أراقب اثنين من عمال الطيران بزي موحد وهما يسحبان كوابح عجلات الطائرة. درجت الطائرة على الممر، وسرعان ما كنا نحلق في الهواء، نشق طريقنا عبر السحاب. أرحت رأسي على النافذة، وعبثًا، انتظرت النوم.

بعد ثلاث ساعات من هبوط الطائرة في بيشاور، كنت أجلس على مقعد تمزقت حشيتته في مؤخرة سيارة أجرة مملوءة بالدخان. قدم لي سائقي، وهو رجل صغير يدخن بشراهة ويتفصد عرقاً، نفسه باسم غلام، يقود برعونة وتهور، متفادياً التصادمات في اللحظة الأخيرة، ومن دون أن يتوقف للحظة سيل الكلمات المتدفق من فمه بلا انقطاع:

... فظيع ما يحدث في بلدك، يار. الأفغان والباكستانيون مثل الأخوة، صدقني. على المسلمين مساعدة المسلمين لكي...

تجاهلته، وضبطت نفسي على وضعية الإيماءات المهدبة. كنت أتذكر بيشاور جيداً جداً من الأشهر القليلة التي قضيناها أنا وبابا هناك عام ١٩٨١ كنا نتجه غرباً الآن على طريق جمرود، متجاوزين «المعسكر» ومنازله الفاخرة ذات الجدران العالية. وذكرني صخب المدينة التي تجري كالطيف أمام عينيّ برؤيا أكثر صخباً وزحاماً حول كابول التي أعرفها، وتحديدًا في سوق الـ«جوجه مُرغ»، أو الدجاج، حيث كنا أنا وحسن نشري البطاطس المغموسة في الصلصة وشربات الكرز. كانت الشوارع مختنقة بسائقي الدراجات، وسيل المشاة الذي لا ينقطع، وعربات الـ«توك توك» التي ينطلق

دخان أزرق من مؤخراتها، جميعها تتلوى في متاهة من الحارات والأزقة الضيقة. باعة ملتحون ملتحفون ببطانيات رقيقة يبيعون منتجات جلدية، وأغطية مصابيح وسجاجيد وشالات مطرّزة، وبضائع نحاسية من صفوف من الأكشاك الصغيرة المكدسة بعضها بجانب بعض. كانت المدينة تصطبّخ بالأصوات؛ ترن صيحات الباعة في أذنيّ مختلطة بالموسيقى الهندية، رذاذ عربات الـ«توك توك»، وجلجلة أجراس الحناطير. روائح غنية، طيبة وكريهة، تصدمني من النافذة، العبق المتبّل للـ«بُكورا» والـ«نِهاري» التي كان بابا يحبها كثيرًا، مختلطة بأبخرة الديزل اللاذعة، والعطن، والقمامة، والبراز.

بعدما تجاوزنا مباني جامعة بيشاور المشيّدّة بالطوب الأحمر، دخلنا منطقة أشار لها سائقي الثرثار باسم «البلدة الأفغانية». رأيت دكاكين الحلوى وباعة السجاجيد، عربات الكباب، أطفال أيديهم ملوثة بالأوساخ يبيعون السجائر، مطاعم صغيرة وضيقة - على نوافذها خرائط مرسومة لأفغانستان - متداخلة مع وكالات غوث في الشوارع الخلفية.

- كثير من إخوانك في تلك المنطقة، «يار»، عزيزي. يفتحون محلات، لكن معظمهم فقراء للغاية.

طرق بلسانه وتنهد:

- على أية حال، نحن نقرب الآن.

تذكرت آخر مرة رأيت فيها رحيم خان، عام ١٩٨١. جاء لوداعنا ليلة فرارنا أنا وبابا من كابول. أتذكره وبابا يتعانقان في الردهة، وبيكيان بخفوت. عندما وصلت أنا وبابا إلى الولايات المتحدة، ظل هو ورحيم خان على اتصال. كانا يتحدثان تليفونيًّا أربع مرات أو خمس مرات في السنة، وكان بابا، أحيانًا، يمرر لي السماعه. آخر مرة تحدثت فيها إلى رحيم خان كانت

بُعِيد وفاة بابا. وصلت الأخبار كابول فاتصل. لم نتحدث إلا لدقائق قبل أن ينقطع الخط.

توقف السائق أمام بناية ضيقة في ناصية مزدحمة حيث يتقاطع شارعان متعرجان. حاسبت السائق، وأخذت حقيبة سفري الوحيدة، وصعدت نحو الباب المزخرف بنقوش متداخلة. كانت للبناية شرفات خشبية بشبابيك مفتوحة - ومن كثير منها، يتدلى الغسيل ليجف في الشمس. صعدت على درجات تصر تحت قدميَّ إلى الطابق الثاني، ثم سرت في طريقة معتمة حتى الباب الأخير على اليمين. راجعت العنوان المكتوب على ورقة في كفي. وطرقت الباب.

فتح الباب شيء من جلد وعظام يزعم أنه رحيم خان.

* * *

كان أحد مدرّسي الكتابة الإبداعية في جامعة سان جوزيه يقول عن الأكليشيات:

- تجنبها مثلما تتجنب الطاعون.

ثم يضحك على نكته. وكان الفصل يضحك معه، لكنني كنت أفكر دومًا أن الأكليشيات أشبه بصفعة على المؤخرة. لأنها غالبًا ما تكون دقيقة ومباشرة. لكن طبيعة مقولة ما من حيث إنها «أكليشية» تحجب حقيقة مهمة، وهي دقة هذا الـ«أكليشية». خذ مثلًا مقولة «الفيل في الغرفة»، التي تشير إلى صعوبة إنكار الحقائق الواضحة. لا توجد طريقة أفضل منها لوصف تلك اللحظات الأولى للقاء بيني وبين رحيم خان بعد غياب.

جلسنا على مرتبة رقيقة إلى جوار الحائط، قُبالة النافذة التي تطل على

الشارع الصاخب. كانت أشعة الشمس تميل علينا وتلقي مثلثاً من الضوء على البساط الأفغاني على الأرضية. وكريسيان مطويان يستندان على أحد الجدران وسماور نحاسي صغير في الركن المقابل. صببت الشاي منه.

سألته:

- كيف عثرت عليّ؟

قال:

- ليس صعباً أن تعثر على الناس في أمريكا. اشتريت خريطة للولايات المتحدة، وعرفت المدن الواقعة في الولاية، ثم بدأت أتصل بدليل تليفونات مدينة بعد أخرى حتى عثرت على اسمك. أمر غريب ورائع أن أراك رجلاً ناضجاً.

ابتسمت وأسقطت ثلاثة مكعبات من السكر في كوب الشاي أمامي. ما زلت أذكر أنه يحب الشاي أسود ومراً. قلت:

- لم تسنح الفرصة لبابا كي يخبرك، ولكنني تزوجت قبل خمسة عشر عاماً. والحقيقة أن السرطان في مخ بابا، في ذلك الوقت، جعله كثير الغفلة والنسيان.

- تزوجت؟ ممن؟

- اسمها ثريا طاهري.

فكرت فيها وهي في المنزل، قلقة عليّ. كنت سعيداً لأنها ليست وحيدة.

- طاهري... ابنة من؟

قلت له. لمعت عيناه:

- أوه! نعم. أتذكر الآن. أليس الجنرال طاهري متزوجًا من شقيقة شريف جان؟ ماذا كان اسمها...

- جميلة جان.

قال مبتسمًا:

- «بله»! كنت أعرف شريف جان في كابول، قبل زمن طويل، قبل أن ينتقل إلى أمريكا.

- يعمل في مكتب الهجرة والتطبيع منذ سنوات، وتولى كثيرًا من قضايا الأفغان.

تنهد:

- «هايببي». هل أنجبت أنت وثر يا جان؟

- لا.

- أوه!

رشف شايًا من كوبه ولم يسأل عن المزيد. كان رحيم خان واحدًا من أكثر من عرفتهم حدسًا.

حكيت له الكثير عن بابا، عن وظيفته، عن سوق الخردة، وكيف مات، في نهاية المطاف، سعيدًا. حكيت له عن دراستي، وكتبي - أربع روايات منشورة باسمي الآن. وابتسم لذلك، وقال إنه لم تساوره أية شكوك. قلت له إنني كتبت قصصًا قصيرة في المفكرة ذات الغلاف الجلدي التي أهداها إليّ، لكنه لم يتذكر المفكرة.

ولم يكن هناك مناص من أن يتحول الحديث إلى طالبان.

قلت:

- هل الأمر سيئ كما أسمع؟

قال:

- لا، أسوأ. أسوأ كثيرًا. إنهم لا يسمحون لك بأن تبقى إنسانًا.

أشار إلى ندبة فوق عينه اليمنى، تشق طريقًا متعرجًا عبر حاجبه الأشعث، وقال:

- كنت في مباراة كرة قدم في استاد غازي عام ١٩٩٨ كابول ضد مزار الشريف، كما أذكر، وبالمناسبة لم يكن مسموحًا للاعبين بارتداء الشورت. فعل فاضح، أظن.

أطلق ضحكة متعبة.

- على أية حال، سجّلت كابول هدفًا فتعالى هتاف جاري. وفجأة ظهر ذلك الشاب الملتحي الذي كان يسير في الممرات للمراقبة، شاب يبدو في الثامنة عشرة على الأكثر، صعد حتى وصل إليّ وضربني على جبھتي بمؤخرة بندقيته الكلاشينكوف. قال: «لو فعلت ذلك ثانية سأقطع لسانك، أيها الحمار العجوز!».

حكّ رحيم خان الندبة بإصبعه المليء بالعقد، وواصل:

- كنت في عمر جده وكنت أجلس هناك، والدم ينفر منسابًا على وجهي، أعتذر لابن الكلب هذا!

صبيّتُ له مزيدًا من الشاي. تكلم رحيم خان لبعض الوقت. كنت أعرف كثيرًا مما يقوله، ولا أعرف بعضه. قال لي إنه، وفقًا للترتيبات التي اتفق عليها

مع بابا، انتقل للعيش في دارنا منذ عام ١٩٨١ - وهذا كنت أعرفه. «باع» بابا الدار لرحيم خان قبيل هروبنا إلى كابول. رأى بابا، في تلك الأيام، أن مشكلات أفغانستان ليست سوى انقطاع مؤقت في أسلوب حياتنا - بالتأكيد سترجع أيام الحفلات في دار وزير أكبر خان والنزهات في بغمان. وهكذا أعطى الدار لرحيم خان ليحرسها حتى يأتي اليوم المنشود.

حكى لي رحيم خان كيف سيطرت فصائل مختلفة، عندما استولى تحالف الشمال بين عام ١٩٩٢ وعام ١٩٩٦، على أجزاء مختلفة من كابول. - إذا ذهبت من حي «شهر نو» إلى حي كرته بروان لشراء سجادة، فأنت تجازف بأن تُصاب بطلقة نارية من قناصة، أو بأن يضربك صاروخ - هذا إن استطعت تجاوز كل نقاط التفتيش. كنت عملياً تحتاج إلى تأشيرة دخول للذهاب من حي إلى آخر. لذا ظل الناس في أحيائهم، داعين الله ألا يسقط الصاروخ التالي على منزلهم.

أخبرني كيف كان الناس يصنعون فتحات في جدران منازلهم حتى يمكنهم تجنب الشوارع الخطرة، بالتنقل في الشوارع من فتحة إلى فتحة. وفي أجزاء أخرى، كان الناس يتنقلون في أنفاق تحت الأرض. قلت:

- ولمَ لم ترحل؟

- كانت كابول موطني، وما زالت.

غمغم بشيء ما.

- هل تذكر الشارع الذي كان يصل بين داركم وبين الـ«قشلة»، الشكنات العسكرية المجاورة لمدرسة الاستقلال؟

- نعم.

كان طريقًا مختصرًا إلى المدرسة. وتذكرت يوم عبرنا فيه أنا وحسن وعيّر فيه الجنود حسنًا بوالدته. وقد بكى حسن في السينما لاحقًا، وأحطته بذراعي.

قال رحيم خان:

- عندما زحف الطالبان وطرّدوا التحالف من كابول، رقصت رقصًا في ذلك الشارع. وصدقني، لم أكن وحدي. كان الناس يحتفلون في «تَشْمَن»، في «دِه مَزَنُج»، يحيون الطالبان في الشوارع، يتسلقون مدرعاتهم ويلتقطون الصور معهم. كان الناس متعبين من القتال المتواصل، متعبين من الصواريخ والرصاص والانفجارات، متعبين من مشاهدة قلب الدين ورجاله يطلقون النار على كل ما يتحرك. لقد أوقع التحالف بكابول خرابًا أكثر مما أوقعه الروس. لقد دمروا دار أيتام والدك، هل عرفت؟

قلت:

- لماذا؟ لماذا يدمرون دار أيتام؟!

تذكرت وأنا جالس خلف بابا يوم افتتاح الدار. وقد أطاحت الرياح بقبعته المصنوعة من جلد الكاراكول وضحك الجميع، ثم وقفوا يصفقون عندما أنهى كلمته. الآن أصبحت كومة أخرى من الأنقاض. كل الأموال التي أنفقها بابا، كل الليالي التي تساقط فيها عرقه على الرسوم الهندسية، كل الزيارات لموقع البناء للتأكد من أن كل طوبة، وكل عارضة، وكل حجر في مكانه...

قال رحيم خان:

- أضرار جانبية. لا تريد أن تعرف، أمير جان، كيف كنت تفتش بين أنقاض الدار، فتجد أشلاء أطفال...

- إذن عندما جاء الطالبان...

قال رحيم خان:

- كانوا أبطالاً.

- السلام أخيراً.

- نعم، الأمل أمره غريب. السلام أخيراً. ولكن بأي ثمن؟

انتابت رحيم خان نوبة سعال عنيف ارتج لها جسده الهزيل إلى الخلف والأمام. عندما بصق في منديل، اصطبغ بالأحمر على الفور. وفكرت أن ذلك هو الوقت المناسب تمامًا لمخاطبة الفيل الذي يجلس معنا في تلك الغرفة الضئيلة يتفصّد عرقاً.

سألت:

- كيف حالك؟ أقصد كيف حالك فعلاً؟

قال بصوت متحشرج:

- أحتضر، في واقع الأمر.

نوبة أخرى من السعال. مزيد من الدم على المنديل. مسح فمه، نشّف وجهه الذي يتصبّب عرقاً من صدغ إلى آخر بكمّه، وألقى إليّ بنظرة خاطفة. عندما أومأت، كنت أعرف أنه قرأ السؤال التالي على وجهي. همس قائلاً:

- ليس طويلاً.

- إلى متى؟

هز كتفيه، وسعل ثانية. قال:

- لا أظنني سأرى نهاية هذا الربيع.

- دعني أصحبك معي إلى أمريكا. أستطيع أن أعثر لك على طبيب جيد. إنهم يكتشفون علاجات جديدة طوال الوقت. ثمة عقاقير جديدة وعلاجات تجريبية، يمكننا أن نسجلك في إحدى...

كنت ألف وأدور وأنا أعرف. لكن ذلك كان أفضل من البكاء، وإن كنت سأبكي على أية حال.

أطلق ضحكة مريرة، كاشفاً عن قواطع مفقودة في فكه السفلي. كانت أكثر ضحكة متعبة سمعتها في حياتي. وقال:

- أرى أن أمريكا بثّت فيك التفاؤل الذي جعل منها أمة عظيمة. هذا أمر طيب جداً. نحن الأفغان شعب سوداوي، ألسنا كذلك؟ غالباً ما نغرق في النواح والعيول، في الـ«غمخواري» والإشفاق على الذات. نحن نستسلم أمام الخسارة، أمام المعاناة، نتقبلها كحقيقة من حقائق الحياة، بل نراها ضرورة. نقول «زندجي مجزره»، أي الحياة تسير. لكنني هنا لا أستسلم للقدر، أنا أتصرف ببراجماتية. رأيت عدداً من الأطباء الأكفاء هنا وأعطوني الجواب نفسه. أنا أثق فيهم وأصدقهم. هناك ما يسمى بالمشيئة الإلهية.

قلت:

- هناك فقط ما تفعله وما لا تفعله.

ضحك رحيم خان:

- نتحدث الآن مثل والدك تماماً. لكم أفتقده. لكنها حقاً المشيئة الإلهية، أمير جان. إنها حقاً كذلك.

صمت برهة.

- وهناك سبب آخر جعلني أدعوك للحضور إلى هنا. نعم، أردت أن أراك قبل أن أرحل، لكن ثمة سبب آخر أيضًا.

- أي شيء؟

- تعرف أنني عشت كل تلك السنوات في دار والدك بعد رحيلكما؟
- نعم.

- لم أكن وحدي طيلة الوقت، بل عاش معي حسن.
قلت:

- حسن؟!!

متى كانت آخر مرة نطقت باسمه؟ اخترقتني أشواك الذنب القديم مرة أخرى، كما لو كان النطق باسمه فك طلاسم لعنة سحرية، وحرّرها لتعذبني من جديد. فجأة أصبح الهواء في شقة رحيم خان الصغيرة كثيفًا جدًّا، ساخنًا جدًّا، معبّقًا جدًّا برائحة الشارع.

- فكرتُ في الكتابة إليك وإخبارك من قبل، لكنني لم أكن واثقًا في رغبتك في المعرفة. أكنت مخطئًا؟

الحقيقة لا. والكذب نعم. واخترت شيئًا بينهما. قلت:
- لا أعرف.

سعل بقعة أخرى من الدم في منديله. وعندما خفض رأسه ليبصق، رأيت تقرحات مدهونة بالعسل على فروة رأسه:

- لقد جئت بك هنا لأطلب منك شيئًا. أطلب منك أن تفعل شيئًا لأجلي.
لكن قبل أن أفعل، أريد أن أحكي لك عن حسن. هل تفهم؟

غمغمت:

- نعم.

- أريد أن أحكي لك عنه. أريد أن أحكي لك كل شيء. هل تنصت؟

أومأت برأسي.

ثم رشف رحيم خان مزيدًا من الشاي. وأسند رأسه على الجدار وبدأ يتكلم.

أسباب كثيرة دفعتني للذهاب إلى هزاره جات للبحث عن حسن عام ١٩٨٦. السبب الأهم، وليسامحني الله، أنني كنت وحيداً. في ذلك الوقت، كان معظم أصدقائي وأقاربي قد لقوا مصرعهم أو هربوا إلى باكستان أو إيران. وأصبحت أكاد لا أعرف أحداً في كابول، المدينة التي عشت فيها طيلة حياتي. الجميع هربوا. كنت أتمشى في حي «كارته بروان» - حيث كان باعة البطيخ يتجولون في الأيام الخوالي، هل تتذكر هذه المنطقة؟ - فلا أتعرف على أي شخص هناك. لا أحد أحياه، لا أحد أجلس معه لشرب الشاي، لا أحد أبادل معه الحكايات، فقط الجنود الروس يجوبون الشوارع في دوريات. وهكذا، عند لحظة ما، توقفت عن الخروج إلى المدينة. كنت أقضي أيامي كلها في دار والدك، في المكتب العلوي، أقرأ كتب والدتك القديمة، وأستمع إلى الأخبار، وأشهد دعاية الشيوعيين في التلفزيون، ثم أؤدي الصلاة، وأطهو شيئاً، وأكل، وأقرأ ثانية، وأصلي ثانية، ثم أذهب إلى الفراش. وكنت أستيقظ في الصباح، أصلي، وأكرر كل ذلك من جديد.

كان التهاب المفاصل يصعب عليّ رعاية شؤون المنزل. كانت ركبتي ظهري في ألم دائم - أصبح في الصباح وأقضي نصف ساعة على الأقل

في تليين مفاصلي من التيبس، خصوصًا في الشتاء. لم أكن أريد لدار والدك أن تتداعى؛ كانت لنا جميعًا أوقات سعيدة كثيرة في تلك الدار، كثير من الذكريات، أمير جان. لم يكن ذلك مقبولًا - لقد صمم والدك هذه الدار بنفسه، وكانت تعني الكثير له، ثم إنني وعدته بأن أرهاها عندما غادرت أنت وهو إلى باكستان. الآن، أصبحت أنا والدار وحدنا... بذلت قصارى جهدي. حاولت أن أروي الأشجار كل بضعة أيام، أن أشذب العشب، أن أعطني بالأزهار، أن أصلح ما يحتاج إلى إصلاح، لكن، حتى وقتها، لم أكن شابًا. ومع ذلك، ربما كان يمكنني تسيير الأمور. على الأقل لمزيد من الوقت. لكن عندما وصلتني أخبار وفاة والدك... للمرة الأولى، شعرت بوحدة رهيبة في تلك الدار. خواء لا يُحتمل.

لذا، في أحد الأيام، ملأت خزان السيارة الـ«بويك» بالوقود وقدمتها إلى هزارة جات. تذكرتُ أن والدك، بعد أن رحل علي عن الدار، أخبرني أنه ومعه حسن قد انتقلا إلى قرية صغيرة بجوار باميان. كان لعلي ابن عم هناك كما أتذكر. لم تكن لديّ أدنى فكرة عما إذا كان حسن لا يزال هناك، أو عما إذا كان ثمة من يعرفه أو يعرف مكانه. في نهاية المطاف، كانت عشر سنوات قد مرت منذ غادر علي وحسن دار والدك. والمفترض أن حسنًا أصبح رجلًا بالغًا في ١٩٨٦، في الثانية والعشرين أو الثالثة والعشرين. هذا إذا كان على قيد الحياة - فقد قتل الروس، يحرقهم الله في جهنم على ما فعلوه بوطننا، كثيرًا من شبابنا. لا أحتاج لأن أخبرك بهذا.

لكن، برحمة من الله، عثرت عليه. لم يستغرق البحث طويلًا - فقط سألت بضع أسئلة في باميان فدلني الناس على قريته. لا أتذكر حتى اسمها، ولا إن كان لها اسم أصلاً. لكنني أتذكر أنه كان يومًا صيفيًا لافح الحرارة، وأنني كنت أقود سيارتي على طريق ترابي ممهد، لا شيء على جانبيه سوى

شجيرات حمّصتها الشمس، وجذوع أشجار ملتفة وملئية بالعقد، وأعشاب جافة مثل القش الأصفر. مررت بحمار نافق تعفن على جانب الطريق. ثم استدرت عند ناصية وفي منتصف تلك الأرض الجرداء تمامًا، رأيت لفيًا من البيوت الطينية، لا يتصب خلفها شيء سوى السماء الفسيحة والجبال المصطفة مثل الأسنان غير المستوية.

كان الناس في باميان قد أخبروني أنني سأجده بسهولة - كان يعيش في بيت القرية الوحيد الذي له حديقة بسور. كانت الجدران الطينية، الواطئة والمنقرة بالفتحات، تحيط البيت الضئيل - ولم يكن في الواقع أكثر من كوخ فاخر. كان الأطفال يلعبون حفاة في الشوارع، يضربون كرة تنس ممزقة بالعصي، وحدقوا فيّ عندما توقفت وأوقفت المحرك. طرقت على الباب الخشبي ودلفت إلى الباحة التي لا تحوي إلا بعض شجيرات التوت اليابسة وشجرة ليمون جرداء. كان هناك «تندور» في الركن في ظلال شجرة أكاسيا، ورأيت رجلًا مقرصًا إلى جواره. كان يضع المحارة على لوح خشبي كبير ويصفع به جدران الـ«تندور»، أسقط اللوح عندما رأيته. وبصعوبة جعلته يتوقف عن تقبيل يديّ.

قلت:

- دعني أنظر إليك.

رجع خطوة إلى الخلف. أصبح طويلًا جدًا - حتى إنني وقفت على أصابعي فلم أصل إلى ذقنه. جعلت شمس باميان جلده خشنًا، وأضفت عليه سميرًا أكبر بكثير مما أتذكر، وفقد عددًا قليلًا من أسنانه الأمامية. ثمة شعرات متفرقة نابثة في ذقنه. وبخلاف هذا، كانت له هاتان العينان الصغيرتان ذاتهما، وتلك الندبة على شفته العليا، وذلك الوجه المستدير، وتلك الابتسامة البشوش. كنت ستتعرف عليه، أمير جان. أنا واثق من ذلك.

دخلنا إلى البيت. كانت ثمة امرأة هزازه شابة فاتحة البشرة تحيك شالاً في ركن الغرفة. وكان من الواضح أنها حامل. قال حسن بفخر:
- هذه زوجتي، رحيم خان. اسمها فرزانه جان.

كانت امرأة خجول، مهذبة، لا تتكلم إلا همساً ومن دون أن ترفع عينيها العسليتين الجميلتين إلى عيني. لكنها حين تنظر إلى حسن، تظنه جالساً على العرش في أرج.

قلت:

- متى يولد الطفل؟

وكان مجلسنا قد استقر حول الغرفة المبنية بالطوب. كانت الغرفة خالية إلا من بساط بال، وبعض الصحون، ومرتبتين، ومصباح.

قال حسن:

- إن شاء الله، في الشتاء. أدعو أن يأتينا ولد يحمل اسم والدي.

- بمناسبة علي، أين هو؟

طأطأ حسن رأسه. قال لي إن لغماً أرضياً أودى بحياة علي وابن عمه - صاحب هذا المنزل - قبل عامين، خارج باميان مباشرة. لغم أرضي. هل هناك طريقة للموت أكثر أفغانية، أمير جان؟ ولسبب مجنون ما، صرتُ متأكداً تماماً أن ساق علي اليمنى - الساق الملوية من شلل الأطفال - هي التي خانته وداست على ذلك اللغم. حزنت كثيراً السماع خبر موت علي. أنا ووالدك نشأنا معاً، كما تعرف، وكان علي معه منذ طفولتنا المبكرة. أتذكر ونحن صغار، ذلك العام الذي أُصيب فيه علي بشلل الأطفال وكاد أن يموت. كان والدك يروح ويجيء في البيت طيلة اليوم وهو يبكي.

أعدت فرزانه لنا شوربة البقول واللفت والبطاطس. غسلنا أيدينا وغمسنا الـ«نان» الطازج الخارج للتو من الـ«تندور» في الشوربة - كانت أفضل وجبة تناولتها منذ شهور. وقتها، طلبتُ من حسن أن ينتقل معي إلى كابول. حكيتُ له عن الدار، وكيف أنني لم أعد قادرًا على العناية بشؤونها وحدي. قلت له إنني سأدفع له جيدًا، وإنه سوف يكون مرتاحًا هو والخائِم. نظر كل منهما إلى الآخر ولم يقل شيئًا. لاحقًا، بعدما غسلنا أيدينا وقدمت لنا فرزانه العنب، قال حسن إن القرية أصبحت وطنه الآن، إنه وفرزانه قد رتبا حياتهما هناك.

- وباميان قريبة جدًا. نعرف أناسًا هناك. سامحني، رحيم خان. أتمنى أن تتفهم.

قلت:

- بالطبع. لا داعي للاعتذار. أنا أتفهم.

في أثناء تناول الشاي بعد الشوربة، سألني حسن عنك. قلت له إنك في أمريكا، لكنني لا أعرف أكثر من ذلك. وانهال حسن عليَّ بأسئلة عنك: هل تزوجت؟ هل أنجبت؟ كم طولك؟ هل ما زلت تطير طائرات وتذهب إلى السينما؟ هل كنت سعيدًا؟ قال إنه صاحبُ مدرس لغة فارسية مُسن في باميان علمه القراءة والكتابة، فلو كتب لك خطابًا، هل أوصله لك؟ وهل أظن أنك سترد عليه؟ قلت له ما كنت أعرفه عنك من المحادثات الهاتفية القليلة التي أجريتها مع والدك، لكنني لم أكن أعرف إجابة عن معظم أسئلته. ثم سألني عن والدك. وعندما أخبرته، دفن حسن وجهه في يديه وانهمرت منه الدموع، وظل يبكي كالأطفال بقية تلك الليلة.

أصرًا على أن أقضي معهما تلك الليلة. رُتبت فرزانه لي مرتبة للنوم

وتركت لي كوبًا من ماء البئر لأشرب إن عطشت. وطوال الليل، كنت أسمعها تتهامس مع حسن، وأسمع نشيجه.

في الصباح، أخبرني حسن أنه وفرزانه قررا الانتقال معي إلى كابول.
قلت:

- ما كان يجب أن آتي إلى هنا. لقد كنت على حق، حسن جان. لديك «زندجي» (حياة) هنا. كان تجاوزًا مني أن أظهر فجأة هكذا وأطلب منك أن تتخلى عن كل شيء. الاعتذار واجب عليّ أنا.
قال حسن:

- ليس لدينا الكثير لتتخلى عنه، رحيم خان.
وعيناه لا تزالان حمراوين ومتفختين:
- سنذهب معك، ونساعدك في رعاية شؤون الدار.
- هل أنت متأكد تمامًا؟
أوما وطأطأ رأسه:

- كان أغا صاحب مثل أبي الثاني... فليغمده الله برحمته.
كؤما متاعهما في وسط خرق بالية وربطًا حوافها معًا. وضعنا الصرة في السيارة الـ«بويك»، ووقف حسن على عتبة المنزل وأمسك بالمصحف فيما كنا جميعًا نقبله ونمر من تحته. ثم غادرنا باتجاه كابول. أتذكر أن حسنًا، فيما كنت أنطلق، استدار ليلقي نظرة أخيرة على بيته.
عندما وصلنا إلى كابول، اكتشفت أن حسنًا لم يكن لديه أي نية للانتقال إلى داخل الدار. قلت:

- لكن كل تلك الغرف خالية، حسن جان. لا يعيش فيها أحد.

لكنه لم يوافق. قال إنها مسألة احترام. نقل هو وفرزانه حاجياتهما إلى الكوخ في الباحة الخلفية، حيث وُلد. توسلتُ إليهما أن ينتقلا إلى واحدة من عُرف الضيوف في الطابق العلوي، لكن حسنًا لم ينصت إلى شيء من هذا. قال لي:

- ماذا يظن أمير أغا؟ ماذا يظن عندما يعود إلى كابول بعد الحرب فيجدني أخذت مكانه في الدار؟

ثم، حدادًا على والدك، ارتدى حسن الأسود للأربعين يومًا التالية.

وعلى الرغم من اعتراضني، كان الاثنان يقومان بكل الطهي، وكل التنظيف. بدأ حسن يعتني بالزهور في الحديقة، ويغمر الجذور بالماء، وينزع الأوراق الصفراء، ويزرع شجيرات الورد، ويدهن الجدران. وداخل الدار، أخذ يكنس غرفًا لم ينم فيها أحد لسنوات، وينظف حمامات لم يدخلها أحد. كما لو كان يُعدُّ الدار انتظارًا لعودة شخص ما. هل تتذكر الجدار خلف صف الذرة الذي زرعه والدك، أمير جان؟ ماذا كنت تسميه أنت وحسن، «جدار الذرة العليلة»؟ دمر صاروخٌ قسمًا كاملًا من الجدار في منتصف الليل في أوائل ذلك الخريف. أعاد حسن بناء الجدار بيديه، طوبة فوق طوبة، حتى انتصب كاملًا من جديد. لا أعرف ماذا كنت سأفعل بغير وجوده.

ثم في وقت لاحق ذلك الخريف، وضعتُ فرزانه طفلة ميتة. قبلَ حسن وجه الطفلة الخالي من الحياة، ودفنّاها في الباحة الخلفية، قرب شجيرات النسرين. غطينا الكومة الصغيرة بأوراق أشجار الصفصاف. قرأتُ عليها آيات من القرآن. ومكثتُ فرزانه في الكوخ طيلة اليوم تتحبب - كم يمزق نياط القلب، أمير جان، نحيب الأم الثكلى. أدعو من الله ألا تسمعه أبدًا.

خارج جدران تلك الدار، كانت الحرب يشتد أوارها. لكن ثلاثتنا، في دار والدك، صنعنا ملاذنا الصغير منها. بدأ بصري يعتلُّ في نهاية الثمانينيات، فكنت أطلب من حسن أن يقرأ لي كتب والدتك. كنا نجلس في الردهة، قرب الموقد، وحسن يقرأ لي من مثوي أو الخيام، وفرزانه تطهو في المطبخ. وكل صباح، كان حسن يضع زهرة على الكومة الصغيرة بجوار شجيرات النسرين.

في أوائل عام ١٩٩٠، حملت فرزانه ثانية. وفي العام نفسه، في منتصف الصيف، طرقت امرأة منتقبة ببرقع أزرق سماوي البوابة الأمامية ذات صباح. في طريقي إلى البوابة، رأيتها تراوح بين قدميها، كما لو كانت أضعف من أن تقف ساكنة. سألتها عما تريد، لكنها لم تجب.

قلت:

- من أنتِ؟

لكنها تهاوت فجأة في المدخل. صرختُ منادياً حسناً وساعدني على حملها إلى داخل منزله، إلى غرفة المعيشة. أرقدناها على الأريكة ونزعنا برقعها. تحته، رأينا امرأة بلا أسنان، بشعر رمادي خفيف وقرح على الذراعين. بدا أنها لم تأكل شيئاً منذ أيام. لكن الأسوأ كثيراً كان وجهها. كان أحدهم قد تناول سكيناً و... أمير جان، كانت الجروح طويلاً وعرضاً. وكان أحد الجروح يمتد من عظمة الخد إلى خط الشعر من دون أن يتفادى عينها اليسرى في طريقه. كان منظرًا بشعاً. مسحتُ على جبهتها بقماش مبلل ففتحت عينيها. همست:

- أين حسن؟

قال حسن:

- أنا هنا.

أمسك بيدها واعتصرها.

دارت عينها السليمة إليه:

- مشيتُ كثيراً وذهبتُ بعيداً لأرى إن كنت جميلاً بشحمك ولحمك كما أنت جميل في أحلامي. وأنت كذلك، بل أكثر.

سحبَت يده نحو وجهها المليء بالندوب:

- ابتسم من أجلي. أرجوك!

ابتسم حسن وبكت المرأة العجوز:

- ابتسمتَ وأنت تنزل من بطني، هل أخبروك بذلك؟ وأنا لم أحملك حتى. سامحني الله، لم أحملك حتى.

لم يكن أئنا قد رأى صنوبر منذ هربت مع فرقة المغنين والراقصين عام ١٩٦٤، بُعيد أن وضعت حسناً. لم نرها قط، أمير، لكنها كانت، في شبابها، امرأة تستحق الرؤية. كانت لها ابتسامة تكشف عن غمازتين ومشية تُجنِّن الرجال. لم يكن بوسع أيٍّ ممن يمر بها في الشارع، رجلاً أو امرأة، أن يكتفي منها بنظرة واحدة. والآن...

أسقط حسن يدها واندفع خارجاً. خرجتُ خلفه، لكنه كان سريعاً جداً. رأيتُه يجري صاعداً التل حيث كنتما تلعبان، وقدماه تثيران التراب. تركته يمضي. جلست مع صنوبر طيلة اليوم حتى تحولت السماء من الأزرق الساطع إلى الأرجواني. حل الليل وشقَّ نور القمر طريقه عبر السحب ولم يعد حسن. بكت صنوبر وقالت إن عودتها خطأ، ربما خطأ أكبر من رحيلها. لكنني جعلتها تبقى. سيعود حسن، كنت أعرف.

عاد في الصباح التالي، يبدو عليه التعب والإعياء، كما لو كان قد ظل مستيقظاً طوال الليل. تناول يد صنوبر بين يديه وطلب منها أن تبكي إذا أرادت لكنها لم تفعل، قالت إنها في بيتها الآن، في بيتها ومع عائلتها. تحسّس الندوب على وجهها، ومرّر يده خلال شعرها.

قام حسن وفرزانه على رعايتها حتى تماثلت للشفاء. كانا يطعمانها ويغسلان ملابسها. وأعطيتها واحدة من غرف الضيوف بالطابق العلوي. أحياناً، كنت أنظر من النافذة إلى الباحة وأراقب حسناً ووالدته وهما راكعان معاً، يقطفان حبات الطماطم أو يشدّبان شجيرة ورد، ويتكلمان. كانا يحاولان اللحاق بكل السنوات الضائعة، كما أظن. أما ما أعرفه، فهو أنه لم يسألها قطّ أين كانت أو لماذا رحلت ولم تخبره قطّ. أعتقد أن بعض القصص لا تحتاج لمن يحكيها.

كانت صنوبر هي التي ولّدت ابن حسن في شتاء ١٩٩٠ ذاك. لم تكن الثلوج قد بدأت تهطل بعد، لكن رياح الشتاء كانت تهب في الباحات، تحني الأزهار في أحواضها، وتطيّر أوراق الشجر. أتذكر صنوبر وهي تخرج من الكوخ حاملة حفيدها، ملفوفاً في حرام صوفي. وقفت هاشة تحت سماء رمادية باهتة، والدموع تنهمر على خديها، والريح القارسة تطير شعرها، وهي متشبثة بذلك الطفل بين ذراعيها كما لو كانت لا تريد أن تتركه أبداً. ليس تلك المرة. ناولته لحسن وناولته حسن لي وتلوت أنا آية الكرسي في أذن الطفل الصغيرة.

أسموه سهراب، على اسم بطل حسن المفضل في الـ«شاهنامه»، كما تعرف، أمير جان. كان طفلاً صغيراً جميلاً، حلواً كالسكر، وله طباع أبيه. كان يجب أن ترى صنوبر مع ذلك الطفل، أمير جان. أصبح محور وجودها. كانت تخطط له الملابس، وتصنع له الألعاب من بقايا الخشب، والقماش،

والعشب الجاف. عندما كانت تصيبه حمى، تسهر طوال الليل، وتصوم ثلاثة أيام. تحرق له «إسفند» في مقلاة لتفك الـ«نظر» (العين الشريرة) الذي أصابه. ومع بلوغ سهراب الثانية من عمره، كان يدعوها «ساسا». وكانا لا ينفصلان.

عاشت حتى رآته يبلغ الرابعة، ثم لم تستيقظ ذات صباح. بدا عليها الهدوء، والسكينة، كما لو كان لا يعنيه أن تموت الآن. دفنّاها في المقبرة على التل، المجاورة لشجرة الرمان، وتلوث القرآن على روحها. كان الفقد صعبًا على حسن - أن تملك ثم تفقد أكثر إيلامًا من ألا تملك أصلًا. لكنه كان أصعب على سهراب الصغير. ظل يروح ويجيء في المنزل، يبحث عن «ساسا»، لكنك تعرف الأطفال، ينسون بسرعة.

في ذلك الوقت - كنا في عام ١٩٩٥ - كان الروس قد اندحروا ورحلوا منذ وقت طويل وكانت كابول الآن في أيدي مسعود، ورباني، والمجاهدين. كانت المعارك الداخلية بين الفصائل ضارية، ولم يكن أحد يعرف إذا كان سيعيش حتى اليوم التالي. اعتادت أذاننا على صوت سقوط القذائف، ودوي طلقات البنادق، وتآلفت عيوننا مع منظر الرجال وهم يتشلون الجثث من تحت الأنقاض. كانت كابول في تلك الأيام، أمير جان، أقرب ما يكون للقول الشائع «الجحيم على الأرض». مع ذلك، فقد كان الله رحيماً بنا. لم يتعرض حي وزير أكبر خان لكثير من الهجمات، وهكذا لم تكن الأوضاع في حيننا سيئة مثلما في الأحياء الأخرى.

في تلك الأيام عندما كان إطلاق الصواريخ يخف قليلاً ويخفت دوي طلقات البنادق، كان حسن يصحب سهراب إلى الحديقة ليرى الأسد مرجان، أو إلى السينما. علّمه حسن كيف يرمي بالنبله، ولاحقًا، عندما بلغ الثامنة، أصبحت ضربة نبله سهراب قاضية: كان بوسعه أن يقف عند المدخل

ويضرب كوز صنوبر منتصباً على دلو في منتصف الباحة. علّمه حسن القراءة والكتابة - لن يكبر ابنه أمياً مثله. وتعلّقتُ أنا بذلك الولد الصغير كثيراً - رأيته يخطو أولى خطواته، سمعته ينطق أولى كلماته. كنت أشتري كتب أطفال لسهراب من المكتبة المجاورة لسينما بارك - وقد دمروها هي الأخرى الآن - وكان سهراب يقرأها فور أن أعطيها له. كان يذكرني بك، كيف كنت تحب القراءة وأنت صغير، أمير جان. أحياناً، كنت أقرأ له ليلاً، وألعب البازل معه، وأعلمه حيل الورق. لكم أفقده.

في الشتاء، كان حسن يصحب ابنه للعدو خلف الطائرات الورقية. لم تعد مسابقات الطائرات الورقية كثيرة مثلما في الأيام الخوالي - إذ لم يعد أحد يشعر بالأمان في الخارج لمدة طويلة - لكن لا تزال هناك بضع مسابقات متفرقة. كان حسن يحمل سهراب على كتفيه ويهرولان في الشوارع، يعدوان خلف الطائرات الورقية، يتسلقان الأشجار حيث تسقط الطائرات. هل تتذكر، أمير جان، كم كان حسن عداً طائرات ورقية بارعاً؟ كان لا يزال بنفس البراعة. وفي نهاية الشتاء، كان حسن وسهراب يعلقان الطائرات التي عدوا وراءها طوال الشتاء على جدران الردهة الرئيسية. كانا يعلقانها كلوحات فنية.

حكيت لك كيف احتفلنا جميعاً عام ١٩٩٦ عندما دخل الطالبان ووضعوا نهاية للمعارك اليومية. أتذكر أنني خرجت من البيت تلك الليلة ووجدت حسناً في المطبخ، يُصغي إلى الراديو. كانت في عينيه نظرة مهمومة. سألتها ما الخطب، فhez رأسه. قال:

- فليكن الله في عون الهزاره الآن، رحيم خان صاحب.

قلت:

- انتهت الحرب يا حسن. سيعم السلام، إن شاء الله، والسعادة والهدوء.
لا مزيد من الصواريخ، لا مزيد من القتل، لا مزيد من الجنازات!
لكنه اكتفى بإطفاء الراديو وسألني إذا ما كنت أريد منه شيئًا قبل أن
يذهب للنوم.

بعد بضعة أسابيع، حظر الطالبان مصارعة الطائرات الورقية. وبعدها
بعامين، في ١٩٩٨، نفذوا مذبحه للهزاره في مزار الشريف.

فك رحيم خان ساقيه المعقودتين ببطء واستند على الجدار الخالي
 بالطريقة المتروية الحذرة لرجل يشعر بالآلام شديدة مع كل حركة. في
 الخارج، كان حمار ينهق، وشخص يصرخ بشيء ما بالأوردو. بدأت
 الشمس في المغيب، مرسلّة أشعتها الحمراء داخل الشقوق بين البنايات
 المتداعية.

ضربني من جديد هول ما فعلته ذلك الشتاء والصيف الذي تلاه. رنّت
 الأسماء في رأسي: حسن وسهراب وعلي وفرزانه وصنوبر. كان سماع رحيم
 خان وهو ينطق باسم علي يشبه العثور على صندوق موسيقى قديم ومُترَب
 لم يُفتح منذ سنوات، بدأ اللحن يصدح على الفور: «مَن أكلت اليوم يا بابالو؟
 من أكلت، يا بابالو يا ذا العيون المائلة؟» حاولت أن أستحضر وجه علي
 الجامد، أن أرى حقاً عينيه الساكتتين، لكن الزمن طمّاع - أحياناً ما يسلبك
 كل الذكريات ويستولي عليها لنفسه.

سألت:

- أما زال حسن في ذلك البيت حتى الآن؟

رفع رحيم خان فنجان الشاي إلى شفتيه اليابستين، ورشف رشفة. ثم التقط ظرفاً من الجيب العلوي لصُدرته وناولَه لي: - هذا لك.

فضضت الظرف المغلق. حدّقت في الصورة لدقيقة كاملة.

رجل طويل بعمامة بيضاء وقفطان «شابان» بخطوط خضراء يقف مع صبي صغير أمام بوابة من الحديد المشغول. وضوء الشمس يميل من اليسار، ملقياً ظلاً على نصف وجهه الممتلئ. كان يضيق عينيه ويبتسم للكاميرا، كاشفاً عن سنتين أماميتين مفقودتين. حتى في تلك الصورة الفورية المغبّشة، كانت الثقة بالنفس وراحة البال تنضحان من الرجل في قفطان الـ«شابان». تجلّى ذلك في وقفته، قدماء متباعدتان قليلاً، وذراعا معقودتان براحة على صدره، ورأسه مائل قليلاً نحو الشمس. وتجلّى أكثر ما تجلّى في طريقة ابتسامه. حين ينظر المرء إلى الصورة، ربما يخلُص إلى أنّ ذلك رجل يعتقد أن العالم كان طيباً معه. كان رحيم خان محقّقاً: كنت سأتعرف عليه لو صادفته في الشارع. كان الصبي الصغير يقف حافي القدمين، إحدى ذراعيه ملفوفة حول فخذ الرجل، ورأسه الحليق يرتاح على عظمة الحوض. وكان هو الآخر يبتسم ويضيق عينيه.

فردتُ الخطاب. كان مكتوباً بالفارسية. لم يخطئ في نقطة، ولم ينسَ قوساً، ولم يُدغم حروف كلمة - كان خطه منمّقا كخط طفل. وبدأت أقرأ:

بسم الله الرحمن الرحيم

أمير أغا، مع خالص احترامي،

أنا وفرزانه جان وسهراب ندعو أن يصلك هذا الخطاب الأخير وأنت بصحة جيدة وفي رعاية الله ورحمته. رجاء بلّغ خالص شكري لرحيم خان صاحب الذي أوصله إليك. وكلي أمل أن أُمسك يوماً أحد خطاباتك بين يدي وأقرأ عن حياتك

في أمريكا. وربما تتلطف على أعيننا بإرسال صورة لك. لقد
حكيتُ عنك كثيرًا لفرزانه جان وسهراب، كيف كبرنا معًا
وكيف لعبنا معًا وجرينا معًا في الشوارع. ويضحكان حين
يسمعان كل الشقاوات التي كنا نقوم بها.
أمير أغا،

واحسرتاه! ماتت أفغانستان صبانا منذ زمن طويل. رحلت
الطيبة عن الأرض ولم يعد تفادي عمليات القتل ممكنًا. دائمًا
القتل. في كابول، الخوف في كل مكان، في الشوارع، في الاستاد،
في الأسواق، إنه جزء من حياتنا هنا، أمير أغا. المتوحشون
الذين يحكمون وطننا لا يعبأون باحترام الإنسانية. قبل بضعة
أيام، اصطحبتُ فرزانه جان إلى السوق لشراء بطاطس و«نان». سألت
البائع عن سعر البطاطس، لكنه لم يسمع، أظنه كان
أصمّ. لذا سألته ثانية بصوت أعلى، وفجأة جاء أحد الطالبان
الشبان يهرول وضربها على فخذهما بعصاه الخشبية. ضربها
بعنف حتى وقعت على الأرض. كان يصرخ فيها ويسبها قائلاً
إن وزارة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا تسمح للنساء
بالحديث بصوت عالٍ. أصابتها كدمة قرمزية كبيرة على ساقها
واستمرت معها لأيام، ولكن ماذا كان بوسعي أن أفعل غير أن
أقف وأراقب زوجتي وهي تُضرب؟ لو كنت تعاركت، لكان
الكلب أطلق عليّ رصاصة بالتأكيد، وبكل سرور! أي مصير
كان سهراب سيلقى ساعتها؟ الشوارع متخمة بالأيتام الجوعى
وكل يوم أحد الله أنني على قيد الحياة. لا لأنني أخاف الموت،
لكن لأن لزوجتي زوجًا ولأن ابني ليس يتيمًا.

أتمنى أن ترى سهراب. إنه ولد طيب. أنا ورحيم خان صاحب
علمناه القراءة والكتابة حتى لا يكبر غيبًا مثل والده. ويستطيع
إطلاق تلك النبلة! أصبح سهراب في أنحاء كابول أحيانًا

وأشترى له الحلوى. ما زال هناك قُرداتي في «شهر نو»، وإذا قابلناه أَدفع له كي يجعل قِردَه يرقص لسهراب. يجب أن ترى كيف يضحك! وكثيرًا ما نَصعد معًا إلى المقبرة فوق التل. هل تتذكر كيف كنا نجلس تحت شجرة الرمان هناك ونقرأ من الـ«شاهنامه». لقد أَيْبَسَت موجات الجفاف التل ولم تعد الشجرة تثمر منذ سنوات، لكن أنا وسهراب ما زلنا نجلس في ظلالها وأقرأ له من الـ«شاهنامه». ولست بحاجة إلى أن أقول لك إن حكايته المفضلة هي الخاصة بسميّه، قصة رستم وسهراب. قريبًا سوف يستطيع قراءة الكتاب بنفسه. إنني أب فخور جدًا ومحظوظ جدًا.

أمير أغا،

رحيم صاحب خان مريض جدًا. يسعل طوال اليوم وأرى الدم على كُمّه عندما يمسح فمه. فقد كثيرًا من الوزن وأتمنى لو يأكل قليلًا من الشورية والأرز التي تعدّها له فرزانه جان. لكنه لا يتناول سوى قُضمة أو اثنتين، بل أظن أن ذلك إكرامًا لفرزانه جان. إنني قلق جدًا على ذلك الرجل العزيز وأدعو له يوميًا. سيسافر إلى باكستان بعد بضعة أيام لاستشارة بعض الأطباء هناك وسيعود، إن شاء الله، بأخبار طيبة. لكن في قلبي خوف عليه. أنا وفرزانه جان قلنا لسهراب إن رحيم خان سيكون على ما يرام. ماذا نفعل؟ ما زال في العاشرة ويعشق رحيم خان صاحب. لقد ارتبطا معًا بقوة. وقد اعتاد رحيم خان صاحب أن يأخذه معه إلى السوق ويشترى له البالونات والبسكويت، لكنه أصبح أضعف من أن يفعل ذلك الآن.

ازدادت أحلامي مؤخرًا، أمير جان. وبعضها كوابيس، مثل جثث مشنوقة تتعفن في ملاعب كرة قدم نجيلها أحمر بلون

الدم. أستيقظ من تلك الكوابيس مخنوقًا أتصعب عرقًا. مع ذلك، أحلم بأشياء طيبة في أغلب الأحوال، وأحمد الله على ذلك. أحلم بأن يصبح رحيم خان صاحب على ما يرام. أحلم بأن يكبر ابني ليصبح إنسانًا صالحًا، إنسانًا حرًا، وإنسانًا مُهمًا. أحلم أن تزهر زهور الـ«لولا» في شوارع كابول من جديد، وأن تصدح موسيقى الرباب في المقاهي، وأن تطير الطائرات الورقية في السماوات. وأحلم أن تعود يومًا إلى كابول لتزور ملاعب طفولتنا. إذا فعلت ذلك، ستجد صديقًا قديمًا مخلصًا بانتظارك.

كان الله في عونك دائمًا.

حسن

قرأتُ الخطاب مرتين. طويتُ الورقة ونظرتُ إلى الصورة لدقيقة أخرى. وضعتُهما في جيبي. وسألت:

- كيف حاله.

قال رحيم خان:

- هذا الخطاب كُتب قبل ستة أشهر، قبل بضعة أيام من سفري متجهًا إلى بيشاور. والصورة التُقطت في اليوم السابق على سفري. وبعد وصولي إلى بيشاور بشهر، تلقيت مكالمة هاتفية من أحد جيراننا في كابول. روى لي تلك القصة: بعد مغادرتي بقليل، سَرَت شائعة أن ثمة عائلة من الهزاره تقيم وحدها في الدار الكبيرة في وزير أكبر خان، أو هكذا زعم الطالبان. جاء اثنان من مسؤولي الطالبان للتحقيق واستجواب حسن. اتهماه بالكذب عندما قال لهما إنه يعيش معي مع أن كثيرًا من الجيران، ومنهم الرجل الذي اتصل بي، أكدوا رواية حسن. قال الطالبان إنه كاذب ولص مثل كل الهزاره

وأمره بأن يُخرج أسرته من البيت قبل مغيب الشمس. اعترض حسن، لكن جاري قال إن الطالبان كانوا ينظرون إلى الدار الكبيرة مثل - كيف قالها؟ - نعم، مثل «ذئاب ينظرون إلى قطيع من الخراف». قالوا لحسن إنهم سوف يقيمون في الدار ليحافظوا عليها حتى عودتي. واعترض حسن ثانية. فأخرجوه إلى الشارع...

همسُ:

- لا.

وأمره بالركوع...

- لا. يا إلهي. لا.

وأطلقوا النار على مؤخرة رأسه...

- لا.

خرجت فرزانه تصرخ وهجمت عليهم...

- لا.

فأطلقوا عليها النار هي الأخرى، دفاعًا عن النفس، كما زعموا فيما بعد.

كل ما استطعت أن أفعله هو أن أهمس، مرة بعد مرة:

- لا. لا. لا.

* * *

ظللتُ أفكر في ذلك اليوم من أيام عام ١٩٧٤، في غرفة المستشفى، بعد الجراحة التي أُجريت لحسن في شفته الأرنبية. تكوُّمنا أنا وبابا ورحيم خان

وعلي حول فراش حسن، نشاهده وهو يتفحص شفته الجديدة في مرآة اليد.
الآن، كل من كان بالحجرة ماتوا أو يحتضرون. إلا أنا.

ثم رأيتُ شيئاً آخر؛ رجلاً يرتدي صُدرة مضلعة يضغط فوهة بندقيته
الكلاشينكوف إلى مؤخرة رأس حسن. يتردد صدى الانفجار في شارع دار
أبي. ينكفي حسن على الأسفلت، وحياته القائمة على إخلاص من جانب
واحد تنجرف منه مثل الطائرات الورقية التي كان يطاردها والريح تطوحها.
قال رحيم خان:

- انتقل الطالبان إلى الدار. كانت حجتهم أنهم أخلوها من أحد الهجّامين.
وُقِّدَت جريمة قتل حسن وفرزانه دفاعاً عن النفس. لم ينطق أحدٌ كلمة عنها.
وكان السبب الأكبر هو الخوف من الطالبان، فيما أظن. لكن أحداً لم يكن
ليخاطر بأي شيء في سبيل زوجين من الخدم الهزاره.
سألت:

- ماذا فعلوا بسهراب؟

كنت أشعر أنني متعب ومستنفد. انتابت رحيم خان نوبة سعال استمرت
لوقت طويل. وعندما رفع رأسه في النهاية، كان وجهه ممتقعا، وعيناه بلون الدم:
- سمعتُ أنه في دار أيتام في مكان ما في «كارته سه». أمير جان...

ثم شرع في السعال ثانية. عندما توقّف، بدا أكبر سنّاً مما كان عليه قبل
لحظات، كما لو كان يشيخ مع كل نوبة سعال.

- أمير جان، لقد استدعيتك إلى هنا لأنني أردت رؤيتك قبل أن أموت،
لكن ذلك ليس كل شيء.

لم أقل شيئًا. أظنني كنت أعرف بالفعل ما سيقول.

قال:

- أريدك أن تذهب إلى كابول. أريدك أن تأتي بسهراب إلى هنا.

جاهدتُ كي أعثر على الكلمات المناسبة. لم أكن قد أفقت من حقيقة أن حسنًا قد مات.

- أصغِ إليَّ رجاءً. أنا أعرف أمريكيَّين هنا في بيشاور، زوجًا وزوجة اسمهما «توماس وبيتي كالدويل». إنهما مسيحيان يقومان على منظمة خيرية صغيرة يديرانها بالتبرعات الخاصة. غالبًا ما يأوون ويُطعمون الأطفال الأفغان الذين فقدوا آباءهم. لقد رأيتُ المكان. إنه نظيف وآمن، والأطفال يتلقون رعاية جيدة، والسيد والسيدة «كالدويل» طيبان. لقد أخبراني بالفعل أنهما يرحبان بسهراب في دارهما و...

- رحيم خان، لا يمكن أن تكون جادًا.

- الأطفال ضعفاء، أمير جان. وكابول متخمة بأطفال محطّمين ولا أريد لسهراب أن يصبح واحدًا آخر.

قلت:

- رحيم خان، لا أريد الذهاب إلى كابول. لا أستطيع!

- سهراب صبي صغير وموهوب. يمكننا أن نمنحه حياة جديدة هنا، أملًا جديدًا، مع أناس سوف يحبونه. توماس أغا رجل طيب وبيتي خانم حنون للغاية، يجب أن ترى كيف تُعامل أولئك الأيتام.

- لماذا أنا؟ لماذا لا تدفع لشخص هنا كي يذهب؟ سوف أتكفل بالنفقات إذا كانت مسألة نقود.

جار رحيم خان:

- ليست مسألة نقود، أمير! إنني رجل يحتضر ولن أسمح بالإهانة! لم تكن مسألة نقود قطُّ بالنسبة إليَّ، أنت تعرف هذا. ولماذا أنت؟ أظن كلانا يعرف لماذا يجب أن يكون أنت، أليس كذلك؟

لم أكن أريد أن أفهم هذا التلميح، لكنني فهمته. فهمته جيدًا جدًا. قلت:
- لديّ زوجة في أمريكا، وبيت، وحياة مهنية، وعائلة. كابول مكان خطير، أنت تعرف ذلك، وتريدني أن أخاطر بكل شيء من أجل...
توقفت.

قال رحيم خان:

- تعرف، ذات مرة، وأنت غائب، كنا نتحدث أنا ووالدك. وتعرف كم كان دائم القلق عليك في تلك الأيام. أتذكر أنه قال لي: «رحيم، الصبي الذي لا يدافع عن نفسه يصبح رجلًا لا يستطيع الدفاع عن أي شيء». وأنا أتساءل:
هل هذا ما أصبحت عليه؟
نكست رأسي.

قال بنبرة جادة:

- ما أطلبه منك هو أن تحقق لرجل عجوز أمنيته الأخيرة.

قامر بذلك التعليق. لعب أفضل ورقة في يده. أو هكذا كنت أظن وقتها.
تعلّقت كلماته في البرزخ بيننا، ولكنه على الأقل كان يعرف ما يقول. أما أنا فكنت لا أزال أبحث عن الكلمات المناسبة، وأنا كنت الكاتب في تلك الغرفة. أخيرًا، استقر بي الأمر على هذا:

- ربما كان بابا محققاً.

- لكم يؤسفني أن تعتقد ذلك، أمير!

لم أستطع النظر إليه:

- وأنت، ألا تعتقد ذلك؟

- لو كنت أعتقد ذلك، لما طلبت منك أن تأتي إلى هنا!

عبثت بخاتم زفافي:

- لطالما أعطيتني أكبر من قدري، رحيم خان!

- ولطالما كنت أنت قاسياً أكثر من اللازم مع نفسك.

تردد قليلاً:

- لكن ثمة شيء آخر. شيء لا تعرفه.

- رجاء، رحيم خان...

- صنوبر لم تكن زوجة علي الأولى.

الآن، رفعتُ بصري.

- تزوّج مرة قبلها، من امرأة هزاره من منطقة جاغوري. كان ذلك قبل مولدك بوقت طويل. تزوّجاً لثلاثة أعوام.

- وما علاقة هذا بأي شيء؟

- هجرته من دون أطفال بعد ثلاث سنوات وتزوّجتُ برجل في خوست. أنجبت له ثلاث بنات. هذا ما أحاول أن أخبرك به.

بدأت أرى إلى أين يذهب. لكنني لم أرغب في سماع البقية. لقد كانت

عندي حياة طيبة في كاليفورنيا: منزل جميل على الطراز الفيكتوري بسقف عال، زيجة جيدة، حياة مهنية واعدة في الكتابة، أصهار يحبونني. لم أكن بحاجة لأي من ذلك الخراء.

قال رحيم خان:

- كان علي عقيماً.

- لا لم يكن. هو وصنوبر أنجبا حسناً، أليس كذلك؟ أنجبا حسناً...

قال رحيم خان:

- لا لم ينجبا.

- بل أنجبا!

- لا لم ينجبا، أمير!

- إذن مَنْ...

- أظنك تعرف مَنْ!

شعرت مثل رجل ينزلق على جرف شديد الانحدار، يتشبث بشجيرات وتشابكات من العليق، لكنه يرجع خاوي الوفاض. كانت الغرفة ترتج إلى أعلى وأسفل، تتأرجح من جنب إلى جنب. قلتُ من بين شفتين وكأنهما ليستا شفتي:

- هل كان حسن يعرف؟

أغمض رحيم خان عينيه. وهزَّ رأسه نفياً.

غمغمت:

- يا أولاد الزنا!

انتصبت واقفًا. صرخت:

- يا أولاد الزنا يا ملاعين! أنتم جميعًا حفنة من أولاد الزنا الكذابين
الملاعين!

قال رحيم خان:

- اجلس من فضلك!

جأرت:

- كيف استطعت أن تخفي ذلك عني؟ وعنه؟

- من فضلك فكر، أمير جان! كان موقفًا مخزيًا. كان الناس سيتكلمون.
كل ما كان يملكه الرجل في ذلك الوقت، كل كيانه، هو شرفه، اسمه، فإذا
تكلم الناس... لم يكن بوسعنا أن نخبر أي شخص، بالتأكيد تفهم ذلك.
مد يده نحوي، لكنني أطحت بيده. ومضيت نحو الباب.

- أمير جان، رجاء لا ترحل.

فتحت الباب واستدرت له:

- لماذا؟ ما الذي قد تقوله لي؟ إنني في الثامنة والثلاثين وقد اكتشفت للتو
أن حياتي بأكملها كذبة واحدة كبيرة لعينة! ما الذي يمكن أن تقوله لتجعل
الأمر أفضل؟ لا شيء. لا شيء لعين!
واندفعت خارجًا من الشقة.

مالت الشمس للمغيب، وخلّفت السماء مكسوةً بغيوم أرجوانية وحمراء. مشيت في الشارع الضيق الغاص بالحركة، خارجًا من بناية رحيم خان. كان الشارع حارة صاخبة وسط متاهة من أزقة تعج بالمشاة والدراجات وعربات الـ«توك توك». اللوحات الإعلانية معلقة في الزوايا، تعلن عن الكوكا كولا والسجائر، ومُلصقات أفلام «لوليوود» تعرض ممثلات ساخنات يرقصن مع رجال سمر في حقول من الأقحوان.

دخلت أحد المقاهي وطلبت كوبًا من الشاي. ملت بظهري على الساقين الخلفيتين للكرسي القابل للطّي وحككت وجهي. كان شعور الانزلاق نحو هوة يتراجع. ولكن بدلًا منه، شعرت كأنني رجل يستيقظ في منزله ليجد كل الأثاث قد أعيد ترتيبه، فيبدو كل ركن وشق مألوف غريبًا الآن. ويكون عليه، وقد اختلطت عليه الأمور، أن يعيد تقييم ما حوله، ويعيد توجيه نفسه.

كيف كنت أعمى هكذا؟ كانت العلامات أمام عيني طوال الوقت، وها هي الآن تعود إليّ: أن يستأجر بابا الدكتور «كومار» لعلاج شفة حسن الأرنبية. ألا يفوّت بابا عيد ميلاد حسن أبدًا. تذكرت اليوم الذي كنا نزرع فيه أزهار الزنبق، عندما سألته إذا ما كان قد فكر من قبل في الاستعانة بخدم جدد. زعق فيّ:

- حسن لن يذهب إلى أي مكان! سيظل هنا معنا، حيث يتتمي. ذلك هو بيته ونحن أسرته. إياك وأن تسألني هذا السؤال ثانية!

لقد بكى، بكى، عندما أعلن علي أنه سيغادرنا مع حسن.

وضع الساقى كوب الشاي على الطاولة أمامي. وفي ملتقى سيقان الطاولة التي تشكل حرف «X»، كانت ثمة حلقة من الكرات النحاسية، كل منها بحجم جوزة. كانت إحدى الكرات مفكوكة. انحنيت وشدت عليها. تمنيت لو كان يمكنني أن أصلح حياتي بتلك السهولة. أخذت رشفة من الشاي الذي كان أسود ما شربته في حياتي من شاي وحاولت التفكير في ثريا، في الجنرال والخالة جميلة، في الرواية التي يجب أن أنهيا. حاولت أن أتابع سيل المرور المتدفق أمامي في الشارع، الناس الذين يختلطون داخلين وخارجين من محلات الحلوى. حاولت أن أنصت إلى موسيقى الـ«قوالي» التي تصدح من راديو ترانزستور على الطاولة المجاورة. أي شيء. لكنني ظللت أرى بابا في ليلة تخرجي، جالسًا في السيارة الـ«فورد» التي أهداها لي للتو، تفوح منه رائحة البيرة، يقول:

- أتمنى لو كان حسن معنا اليوم!

كيف استطاع أن يكذب عليّ كل تلك السنوات؟ وعلى حسن؟ لقد أجلسني على حجره عندما كنت صغيرًا، ونظر في عيني مباشرة، وقال:

- هناك إثم واحد فقط، وهو السرقة... عندما تكذب، تسرق حق شخص في معرفة الحقيقة.

ألم يقل لي تلك الكلمات؟ والآن، بعدما دفتته بخمسة عشر عامًا، أعرف أن بابا كان لصًا. ولصًا من أسوأ الأنواع، لأن الأشياء التي سرقها أشياء مقدسة: مني سرق الحق في معرفة أن لي أخًا، ومن حسن سرق هويّته، ومن علي سرق شرفه، «ننجه»، «ناموسه».

ظل السؤال يراودني: كيف كان بابا يتحمل أن ينظر لعلي في عينيه؟ كيف عاش علي في ذلك المنزل، يومًا بعد يوم، وهو يعرف أن شرفه سلب على يد سيده بأسوأ طريقة يمكن لأفغاني أن يسلب شرفه بها؟ وكيف يمكنني أن أوائم بين تلك الصورة الجديدة عن بابا والصورة التي انطبعت في عقلي لزمان طويل، صورته في حلقه البنية القديمة، يعرج في مدخل منزل آل طاهري ليطلب يد ثريا؟

ها هو أكليشييه آخر كان مُدرّس الكتابة الإبداعية سيهزأ به: هذا الشبل من ذاك الأسد. لكنه كان حقيقيًا، أليس كذلك؟ كما تبين، كنت أشبه بابا أكثر مما كنت أعرف طيلة حياتي. خان كلانا الناس الذين منحونا حيواتهم. ثم أدركت أن رحيم خان قد استدعاني هنا لأكفر لا عن آثامي فحسب، وإنما عن آثام بابا أيضًا.

قال رحيم خان إنني طالما كنت بالغ القسوة على نفسي، لكنني كنت أتساءل: صحيح، لم أجعل عليًا يدوس على اللغم الأرضي، ولم أستدع الطالبان إلى المنزل ليطلقوا النار على حسن، لكنني أخرجتُ حسنًا وعليًا من البيت، أكان ضربًا من الخيال الجامح أن نتخيل أن الأمور ربما سارت في مسار آخر لو لم أفعل ذلك؟ ربما اصطحبهما بابا معنا إلى أمريكا. ربما كان حسن سيمتلك منزلًا بمفرده الآن، ووظيفة، عائلة، حياة في بلد لا يهتم فيها أحد بكونه هزارة، بلد لا يعرف معظم الناس فيه حتى ما هو الهزارة. ربما لا. لكن ربما.

لقد قلت لرحيم خان:

- لا أريد الذهاب إلى كابول. لا أستطيع! لديّ زوجة في أمريكا، وبيت، وحياة مهنية، وعائلة!

ولكن كيف أحزم متاعي وأعود إلى بيتي وأنا أعرف أن ما ارتكبته في الماضي ربما هو ما حرم حسنًا فرصة للحصول على تلك الأشياء نفسها.

تمنيت لو أن رحيم خان لم يتصل بي. تمنيت لو تركني أعيش في غفلي.
لكنه اتصل بي. وما كشفه لي رحيم خان غير الأمور؛ جعلني أرى كيف أن
حياتي بأكملها، وحتى قبل وقت طويل من شتاء ١٩٧٥، حين كنت أرضع
من المرأة الهزاره تلك، كانت حلقة من الأكاذيب والخيانات والأسرار.

لقد قال:

- ثمة طريقة لتعود صالحًا من جديد.

ثمة طريقة لكسر الحلقة.

بصبي صغير. يتيم. ابن حسن. في مكان ما في كابول.

* * *

في طريق عودتي إلى شقة رحيم خان داخل الـ«توك توك»، تذكرت بابا
وهو يقول إن مشكلتي أن شخصًا آخر يخوض معركتي دائمًا. كنت في الثامنة
والثلاثين حينذاك. كان شعري يخف ويزحف عليه الشيب، ومؤخرًا أصبح
بإمكانني أن أتلمس تجاعيد صغيرة عند زاويتي عيني. كنت كبيرًا، ولكن ربما
ليس بما يكفي لأبدأ في خوض معركتي. لقد كذب بابا في كثير من الأمور
كما تبين، لكنه لم يكذب في هذا.

نظرت إلى الوجه المدور في الصورة ثانية، الطريقة التي تسقط بها
الشمس عليه. وجه أخي. أحبني حسن ذات يوم، أحبني حبًا لم أنله من
قبل ولن أناله من بعد. وقد رحل الآن، لكن جزءًا صغيرًا منه ظل على قيد
الحياة. وكان في كابول.

ينتظر.

* * *

وجدت رحيم خان يؤدي الصلاة في ركن الغرفة. كان مجرد ظل ينحني
باتجاه الغرب قبالة سماء حمراء بلون الدم. انتظرتة حتى ينتهي من صلاته.
ثم قلت له إنني ذاهب إلى كابول. وطلبت منه أن يتصل بآل «كالدويل»
في الصباح.

قال:

- سأدعوك، أمير جان.

من جديد، دوّار في السيارة. عندما مررنا من أمام العلامة المغربية
بالرصاص المكتوب عليها «ممر خير يرحب بكم»، كان اللعاب قد بدأ يسيل
في فمي. وكان شيء في معدتي يضطرب ويتلوّى. ألقى فريد، سائقي، نظرة
باردة تجاهي. ولم أر في عينيه تعاطفًا.

سألت:

- هل يمكن أن نفتح النافذة؟

أشعل سيجارة وحشرها بين الإصبعين الباقيتين في يده اليسرى، تلك
التي تستند على عجلة القيادة. انحنى إلى الأمام، وعيناه السوداوان مثبتتان
على الطريق، والتقط مفكًا من بين قدميه، وناولته لي. وضعت المفك في
الفتحة الصغيرة التي بقت محل اليد وأدرته لأسحب النافذة إلى أسفل.

رمقني فريد بنظرة استهجان أخرى، تلك المرة مشوبة بلمحة من عداوة
لم يبذل جهدًا لإخفائها، ثم عاد لتدخين سيجارته. لم يكن قد تكلم سوى
بضع كلمات منذ انطلاقنا من قلعة جمرود.

غمغمت:

- «تشكّر».

أخرجت رأسي من النافذة وتركت هواء الظهيرة البارد يندفع إلى وجهي. كانت الرحلة عبر الأراضي القبلية في ممر خبير، المتعرج بين منحدرات الطفل والحجر الجيري، كما كنت أتذكرها تمامًا - لقد انطلقنا بالسيارة أنا وبابا عبر تلك التضاريس في ١٩٧٤. الجبال الجرداء المهولة قابضة بطول أحاديدي عميقة وشاهقة بقمم مستنّة. القلاع القديمة المتداعية، بجدرانها المبنية من الطوب، فوق قمم الصخور المتعرجة. حاولت أن أثبت عيني على قلعة هندو كوش المكلّلة بالثلوج على الجانب الشمالي، لكن كلما استقرت معدتي ولو قليلاً، كانت السيارة تنعطف في منحني آخر، مثيرة موجة أخرى من الغثيان.

- جرّب ليمونة.

- ماذا؟

قال فريد:

- الليمون جيد للدوار. دائماً ما أجلب واحدة لتلك الرحلة.

قلت:

- لا، أشكرك.

مجرد التفكير في إضافة حموضة إلى معدتي أثار مزيداً من الغثيان. غمغم فريد:

- ليس فاخرًا مثل الأدوية الأمريكية، أعرف، مجرد علاج قديم تعلمته من أمي.

ندمت على إضاعة الفرصة في ضحك بعض الدفء بيننا:

- في تلك الحالة، ربما آخذ قليلاً.

سحب كيساً ورقياً من المقعد الخلفي وأخرج منه نصف ليمونة. قضمتها، وانتظرت بضع دقائق:

- كنت محققاً. أشعر بتحسن.

كنت أكذب. كأفغاني، أعرف أن من الأفضل للمرء أن يكون بائساً ولا يكون وقحاً. أجبرت نفسي على ابتسامة واهنة.

قال:

- حيلة وطنية قديمة، لا نحتاج إلى الأدوية الفاخرة.

كانت نبرته أقرب إلى الفظاظ. نفض رماد سيجارته، ونظر لنفسه نظرة رضا في المرأة الأمامية. كان من الطاجيك، رجلاً نحيفاً داكن البشرة له وجه لفحته الشمس، وكتفان ضيقتان، ورقبة طويلة تتوسطها تفاحة آدم بارزة لا تظهر من خلف لحيته إلا عندما يدير رأسه. كان يرتدي مثلما أرتدي، وإن كنت أظن أن العكس هو الصحيح: حراماً صوفياً خشناً ملفوفاً على «بيرهن تُمبان» رمادي وصُدرة. وعلى رأسه، «بكول» بني، مائل قليلاً إلى الجانب، مثل بطل الطاجيك أحمد شاه مسعود - الذي يسميه الطاجيك «أسد بنجشير».

عرّفني رحيم خان بفريد في بيشاور. قال لي إنه في التاسعة والعشرين، وإن كان له وجه حذر مجعد لرجل أكبر بعشرين سنة. وُلد في مزار الشريف وعاش هناك حتى انتقل والده بالعائلة إلى جلال أباد عندما كان فريد في العاشرة. وفي الرابعة عشرة، التحق هو ووالده بالجهاد ضد الروس، وقاتلا

في وادي «بنجشير» لعامين حتى مزّقت نيران مروحية الأب إربًا. كان لفريد زوجتان وخمسة أطفال. قال رحيم خان بأسى:

- كان له سبعة.

ولكنه فقد طفليته الصغيرتين قبل سنوات في انفجار لغم أرضي خارج جلال آباد مباشرة، وبتر الانفجار نفسه أصابع قدميه وثلاثًا من أصابع يده اليسرى. وبعدها، كان عليه أن ينقل زوجته وأطفاله إلى بيشاور.

دمدم فريد ساخطًا:

- نقطة تفتيش.

غُصت قليلًا في مقعدي، وذراعاي معقودتان على صدري، ناسيًا الغثيان لوهلة. ولم يكن هناك داع للقلق. اقترب باكستانيان مسلحان من سيارتنا الـ«لاندكروزر» المتهالكة، وألقيا نظرة متعجلة بالداخل، وأشارا إلينا باستكمال الطريق.

كان فريد هو الأول على قائمة الاستعدادات التي أعدناها أنا ورحيم خان، وهي قائمة شملت استبدال الدولارات بعملات الكالدار والأفغاني، عباءتي والـ«بكول» - ومن المفارقة أنني لم أرتد أيًا منهما عندما كنت أعيش حقًا في أفغانستان - صورة حسن مع سهراب، وأخيرًا، وربما الأهم: لحية صناعية، سوداء وطويلة حتى الصدر، صديقة للشريعة - أو على الأقل نسخة طالبان من الشريعة. كان رحيم خان يعرف شخصًا في بيشاور متخصصًا في صناعتها، أحيانًا للصحفيين الغربيين الذين كانوا يغطون الحرب.

أراد رحيم خان أن أبقى معه بضعة أيام أخرى، لمزيد من التخطيط، لكنني كنت أدرك ضرورة التحرك بأسرع ما يمكن. كنت خائفًا أن أغير رأيي. كنت

خائفاً أن أتروى، أتفكر، أتمهل، أتعقل، وأقنع نفسي بعدم الذهاب. كنت خائفاً أن تغويني حياتي في أمريكا فأرجع إليها، أن ألقى بنفسي ثانية في ذلك النهر العظيم الكبير وأترك نفسي للنسيان، وأترك الأمور التي عرفتھا في الأيام الأخيرة تغطس في القاع. كنت خائفاً أن أترك التيار يجرفني بعيداً عما كان عليّ أن أفعله. عن حسن. عن الماضي الذي جاء يناديني، وعن تلك الفرصة الوحيدة الأخيرة للخلاص. وهكذا، غادرتُ قبل أن أترك فرصة لحدوث ذلك. وبالنسبة إلى ثريا، لم يكن إخبارها بأني عائد إلى أفغانستان خياراً متاحاً. لو فعلتُ، لحجزتُ تذكرة لنفسها على الرحلة التالية إلى باكستان.

عبرنا الحدود وكانت علامات الفقر في كل مكان. على الجانب الآخر من الطريق، رأيت سلاسل من القرى الصغيرة تنبثق هنا وهناك، مثل ألعاب ملقاة بين الصخور، بيوتاً طينية متهدمة وأكواخاً ليست أكثر من أربعة أعمدة خشبية يغطيها سقف من القماش الممزق. رأيت أطفالاً يرتدون أسمالاً ويطاردون كرة قدم خارج الأكواخ. بعدها ببضعة أميال، وقعتُ عيناى على مجموعة من الرجال يقعون على مؤخراتهم، مثل صف من الغربان، عند حطام دبابة سوفيتية محترقة قديمة، والريح ترف حواف الحرامات الملقية حولهم. ومن خلفهم، امرأة في برقع بُني تحمل على كتفها جرة كبيرة من الفخار، تمشي على درب ممهد باتجاه سلسلة من البيوت الطينية.

قلت:

- غريب!

- ماذا؟

قلت وأنا أتابع راعى غنم يسوق نصف دسلة من الأغنام العجفاء على جانب الطريق:

- أبدو كأني سائح في بلدي.

ضحك فريد نصف ضحكة. رمى سيجارته:

- أما زلت تعتبر هذا المكان بلدك؟

قلت بنبرة خرجت أكثر دفاعية مما قصدت:

- أظن أن جزءًا مني سيظل هكذا أبدًا.

قال، وهو ينعطف بالسيارة متفاديًا حفرة بحجم كرة الشاطئ:

- بعد عشرين سنة من الحياة في أمريكا.

أومأت:

- كبرتُ في أفغانستان.

مرة أخرى، ضحك نصف ضحكة.

- لماذا تضحك؟

همهم:

- لا تشغل بالك.

- لا، أريد أن أعرف. لماذا تضحك؟

في المرأة الأمامية، رأيت شيئًا يلمع في عينيه. قال هازئًا:

- تريد أن تعرف. دعني أتخيل، أغا صاحب. من المرجح أنك كنت تعيش

في بيت كبير من طابقين أو ثلاثة بباحة خلفية لطيفة يملأها البستاني الذي

يعمل عندك بالزهور وأشجار الفاكهة. وكلها مسيجة بالطبع. كان والدك

يقود سيارة أمريكية، وكان لديكم خدم، على الأرجح من الهزاره. وكان

والداك يستأجران عُمَّالًا لتزيين المنزل في الـ«مهماني»، الحفلات الأنيقة التي يرتبانها، حتى يأتي أصدقاؤهما لتناول الشراب والتفاخر برحلاتهم إلى أوروبا وأمريكا. وأراهن بعيني ابني البكر أن تلك هي المرة الأولى التي ترتدي فيها «بكول» في حياتك.

ابتسم لي، كاشفًا عن فم مليء بأسنان تأكلت قبل الأوان:

- هل أنا قريب من الواقع؟

قلت:

- لماذا تقول ذلك؟

رد بعنف:

- لأنك أردت أن تعرف.

أشار إلى رجل عجوز يرتدي أسماً بالية يسير بخطى متثاقلة على طريق ترابي، يعلّق على ظهره صرة كبيرة من الخيش مملوءة بأعشاب جافة:

- هذه أفغانستان الحقيقية، أغا صاحب. هذه أفغانستان التي أعرفها. لكنك؟ كنت دائماً سائحاً هنا، فقط لم تكن تعرف ذلك.

كان رحيم خان قد حذرني من أن أتوقع استقبلاً دافئاً في أفغانستان من أولئك الذين بقوا وقاتلوا في الحروب. قلت:

- آسف على والدك! آسف على ابنتيك! وآسف على يدك!

قال:

- لا يعني ذلك لي شيئاً.

هز رأسه:

- لماذا تعود إلى هنا على أية حال؟ لتبيع أراضي بابا؟ تضع النقود في جيبيك وتجري عائداً إلى أمك في أمريكا؟

قلت:

- أمي تُوفيت في أثناء ولادتي.

تنهد وأشعل سيجارة أخرى. ولم يقل شيئاً.

- توقف.

- ماذا؟

قلت:

- توقف، اللعنة! سوف أتقياً.

قفزت من السيارة وهي تهدئ سرعتها على الحصباء على جانب الطريق.

* * *

قبيل الغروب، تغيرت التضاريس من قمم جبلية ومنحدرات جرداء تصطلي بنار الشمس إلى منظر ريفي أخضر. وانحدر الممر الرئيسي من لندي كوتل قاطعاً أراضي الشينواري وصولاً إلى لندي خانه. دخلنا أفغانستان من تورخام. وكانت أشجار الصنوبر تصطف على جانبي الطريق، أقل مما أتذكر وكثيرٌ منها جرداء، مع ذلك كانت رؤية الأشجار ثانية أمراً طيباً بعد تلك الرحلة الشاقة في ممر خبير. كنا نقرب من جلال أباد، حيث لفريد شقيقٌ سيستضيفنا حتى الصباح.

لم تكن الشمس قد غربت تماماً عندما دخلنا جلال أباد، عاصمة ولاية نانجرهار، وهي مدينة اشتهرت في الماضي بفاكهتها وطقسها الدافئ. مرّ

فريد من أمام بنايات ومنازل حجرية في وسط المدينة. لم تكن أشجار النخيل بالعدد الذي كنت أتذكر، كما تقلصت بعض البيوت إلى جدران بلا أسقف وأكوام من الآجر المعوّج.

انعطف فريد سالكا طريقا ضيقا غير ممهد، وصفّ الـ«لاندكروزر» بجوار قناة جافة. خرجت من السيارة، تمطيت، وسحبت نفسا عميقا. في الأيام الخوالي، كانت الريح تجتاح السهول المروية حول جلال أباد حيث يزرع المزارعون قصب السكر، فتعبّق هواء المدينة بالرائحة الحلوة. أغلقت عينيّ وبحثت عن الحلوة. لم أجدها.

قال فريد بنفاد صبر:

- هيا بنا.

صعدنا الطريق الترابي أمام بضع أشجار صنوبر جرداء بحذاء صفّ من الجدران الطينية المهذّمة. قادني فريد إلى بيت متداعٍ من طابق واحد وطرق بابا من ألواح خشبية.

أطلت امرأة شابة بعينين خضراوين بلون المحيط وطرحه بيضاء ملفوفة حول وجهها. رأيتني أولاً، فجفّلت، ثم ميّزت فريدا فلمعت عيناها:

- السلام عليكم، كاكّا فريد!

رد فريد، مانحا إياها شيئا حرمي منه طوال اليوم: ابتسامة دافئة:

- سلام، مريم جان.

زرع قبلة على قمة رأسها. أفسحت الشابة الطريق، وهي تتفحصني بتوجس وأنا أتبع فريدا إلى داخل المنزل الصغير.

كان السقف الطيني منخفضًا، والجدران القذرة عارية تمامًا، وكان الضوء الوحيد يأتي من مصباحين في الركن. خلعنا حذاءينا وخطونا على حصيرة من القش تغطي الأرضية. بجوار أحد الجدران كان يجلس ثلاثة صبيان القرفصاء، على مرتبة مغطاة ببطانية بحواف بالية. وقف لتحيتنا رجل طويل ملتصع عريض الكتفين. تعانق هو وفريد وتبادلا القبلات على الخدين. قدّمه لي فريد باسم وحيد، شقيقه الأكبر. قال لوحيد، وهو يشير ناحيتي بإبهامه: - إنه من أمريكا.

ثم تركنا وحدنا وذهب ليسلم على الصبية.

جلس وحيد معي مستندين على الجدار قبالة الصبية، الذين تربصوا الفريد وتسلقوا كتفيه. وعلى الرغم من اعتراضاتي، أمر وحيد أحد الصبية بإحضار بطانية أخرى حتى أشعر بمزيد من الراحة على الأرض، وطلب من مريم أن تأتي ببعض الشاي. سألنا عن الرحلة من بيشاور، والأوضاع في ممر خير. قال:

- لعلكما لم تقابلا أي لصوص.

كان ممر خير مشهورًا بتضاريسه كما هو مشهور بقطاع الطرق الذين ينهبون المسافرين. وقبل أن أجيب، طُرف وقال بصوت عالٍ:

- بالطبع لن يضيع أي لص وقته مع سيارة قبيحة مثل سيارة أخي.

صارع فريد أصغر الصبية الثلاثة وطرحه أرضًا ثم دغدغه في ضلوعه بيده السليمة. قهقهه الطفل وأخذ يرفس بقدميه. قال فريد وهو يلهث:

- على الأقل لديّ سيارة. كيف حال حمارك هذه الأيام؟

- حماري أفضل في الركوب من سيارتك.

رد فريد الهجوم:

- «خَرَّ خَرًّا مِيشَنَاسَه».

أي لا يعرف الحمار إلا الحمار. ضحكوا جميعًا وشاركهم الضحك. سمعتُ أصواتًا نسائية من الغرفة المجاورة. كان بوسعي أن أرى نصف الغرفة من موقعي. كانت مريم تتحدث مع امرأة أكبر سنًا ترتدي حجابًا بُنيًا - يُفترض أنها أمها - حديثًا خافتًا وتصبَّان الشاي من غلاية في إبريق.

قال وحيد:

- ماذا تفعل إذن في أمريكا، أمير أغا؟

قلت:

- أنا كاتب.

وأظن أنني سمعت ضحكة خافتة من فريد.

قال وحيد، وقد بدا عليه تأثر واضح:

- كاتب؟ هل تكتب عن أفغانستان؟

قلت:

- نعم، كتبت عنها. لكن ليس الآن.

كانت روايتي الأخيرة، «فصلٌ للرماد»، تدور حول أستاذ جامعي ينضم إلى قبيلة من الفجر بعدما يرى زوجته في الفراش مع أحد تلاميذه. لم يكن كتابًا سيئًا، ووصفته بعض المراجعات بأنه كتاب «جيد»، بل إن إحداها استخدمت تعبير «مدهش». لكنني وجدتني فجأة مُحَرَجًا منه، وتمنيتُ ألا يسألني وحيد عن محتواه.

قال وحيد:

- ربما يجدر بك أن تكتب عن أفغانستان ثانية. أن تخبر بقية العالم بما يفعله الطالبان ببلادنا.

- حسنًا، لست... لست كاتبًا من هذا النوع.

قال وحيد وهو يومئ برأسه وقد تورّد وجهه قليلًا:

- أوه! أنت تعرف أفضل، بالطبع. لست أنا من يقترح...

لحظتها، دخلت مريم والمرأة الأخرى إلى الغرفة مع فنجانين من الشاي وإبريق على صينية صغيرة. وقفت احترامًا، وضغطت يديّ على صدري، وحنيت رأسي. قلت:

- السلام عليكم.

حنّت المرأة، وقد لفّت الحجاب لإخفاء الجزء الأسفل من وجهها، رأسها هي الأخرى. وردّت في صوت مسموع بالكاد:

- سلام.

لم تلتق عيوننا. كانت تصب الشاي وأنا واقف.

وضعت المرأة فنجان الشاي الذي يتصاعد منه البخار أمامي وخرجت من الغرفة، ولم تُصدر قدماها الحافيتان أي صوت على الإطلاق وهي تختفي. جلست ورشفت الشاي الأسود الثقيل. وأخيرًا كسر وحيد الصمت المتوتر الذي أعقب عبارته:

- إذن، ما الذي أتى بك إلى أفغانستان؟

قال فريد، وهو يتحدث إلى وحيد فيما رمقني بنظرة ازدراء:

- ما الذي يأتي بهم جميعًا إلى أفغانستان، أخي العزيز؟

رد وحيد:

- «بَسْ»!

قال فريد:

- إنه الأمر نفسه دائمًا؛ أن يبيع أرضه، أن يبيع بيته، أن يجمع النقود، ويعود مثل الفأر. يعود إلى أمريكا، يُنفق النقود على إجازة عائلية في المكسيك.

جار وحيد:

- فريد!

فجفل الأطفال وحتى فريد:

- هل نسيت نفسك؟ هذا بيتي أنا! وأمير أغا ضيفي الليلة ولن أسمح لك بأن تهينه أمامي هكذا!

فتح فريد فمه، وكاد أن يقول شيئًا، ثم فُكّر ولم ينطق بشيء. مال مستندًا إلى الحائط، وغمغم بشيء من بين أسنانه، وعقد قدمه المجدوعة فوق السليمة، من دون أن يكف عن رشقي بنظراته المتهمة.

قال وحيد:

- معذرة، أمير أغا! فمند طفولة شقيقي ولسانه يسبق رأسه بخطوتين.

قلت محاولًا الابتسام تحت نظرة فريد الحادة:

- إنه خطئي، حقًا. لا أشعر بالإهانة. كان يجب أن أشرح له مهمتي هنا في أفغانستان. لست هنا لأبيع عقارات. أنا ذاهب إلى كابول لأعثر على صبي.

كرر وحيد:

- صبي؟! -

- نعم.

أخرجت الصورة من جيب قميصي. رؤية حسن ثانية مزقت الجلد
الرقيقة من فوق الجرح الذي خلفه موته. كان عليّ أن أحول عيني بعيداً
عنها. ناولتها لوحيد. أمعن النظر فيها. نقل بصره بيني وبينها:

- هذا الصبي؟

أومأت.

- هذا الصبي الهزاره؟

- نعم.

- ماذا يعني لك؟

- كان والده يعني لي الكثير. إنه الرجل الظاهر في الصورة. وقد تُوفي الآن.

طُرف وحيد:

- كان صديقك؟

أرادت غريزتي أن أقول نعم، كما لو كنت أنا أيضاً، على نفس المستوى
العميق، أريد أن أحمي سرّ بابا. لكن كان هناك ما يكفي من الكذب، قلت:

- كان أخي غير الشقيق.

بلعت ريقِي. وأضفت:

- أخي غير الشقيق غير الشرعي.

أدرت فنجان الشاي، وأخذت أعبث بيده.

- لم أقصد أن أتطفل.

قلت:

- أنت لا تتطفل.

- ماذا ستفعل به؟

- سأعود به إلى ييشاور. ثمة أشخاص هناك سيعتنون به.

أعاد وحيد الصورة إليّ وأراح يده الغليظة على كتفيّ:

- إنك رجل شريف، أمير أغا. أفغاني حقيقي.

شعرت بانقباض.

قال وحيد:

- أنا فخور بأنني أستضيفك في منزلي الليلة.

شكرته وألقيت نظرة عابرة على فريد. كان منكس الرأس الآن، يعبث بالحواف البالية للحصيرة القش.

* * *

بعد قليل، جاءت مريم ووالدتها بسلطانيتين من شوربة الخضراوات يتصاعد البخار منهما ورغيفين من الخبز. قال وحيد:

- آسف أننا لا نستطيع تقديم اللحم. الطالبان وحدهم بوسعهم أن يتحملوا ثمنه.

قلت:

- يبدو هذا رائعًا.

وكان كذلك بالفعل. دعوته وأطفاله لمشاركتنا الطعام، لكن وحيدًا قال إن عائلته أكلت قبل وصولنا. شمريت أنا ووحيد أكمامنا، وغمسنا خبزنا في الشوربة، وأكلنا بيدينا.

وأنا آكل، لاحظت أولاد وحيد، ثلاثتهم نحاف بوجوه ملوثة بالتراب يبدو من تحت طواقمهم شعرٌ بُني حليق، وهم يختلسون النظر إلى ساعتَي الرقمية. همس الأصغر بشيء ما في أذن أخيه. وأوماً الآخر، ولم يرفع عينيه عن ساعتَي. لكن أكبر الصبية - وكان في الثانية عشرة تقريبًا - أخذ يهتز إلى الخلف والأمام، ونظره مثبت على معصمي. بعد العشاء، وبعد أن غسلت يدي بالمياه التي صبتها مريم من إبريق خزفي، طلبت الإذن من وحيد أن أعطي أولاده هدية. قال لا، لكن، عندما أصررت، وافق مترددًا. خلعت الساعة عن معصمي وأعطيتها لأصغر الصبيان الثلاثة. همهم بخجل:

- «تشكر».

قلت له:

- إنها تخبرك بالوقت في أي مدينة في العالم.

أوماً الصبية بأدب، ومرروا الساعة بينهم، وكل منهم يجربها. لكنهم فقدوا اهتمامهم بها، وسرعان ما كانت الساعة مستكينة ومهجورة على حصيرة القش.

* * *

قال فريد لاحقًا:

- كان يمكنك أن تخبرني.

كنا نرقد متجاورين على الحُصر القش التي فرشتها لنا زوجة وحيد.
- أخبرك بمّ؟

- بالسبب الذي دعاك للمجيء إلى أفغانستان.

وقد خلا صوته من تلك النبرة الخشنة التي ظلت تميزه منذ التقينا.
قلت:

- لم تسأل.

- كان يجب أن تخبرني.

- لم تسأل.

استدار ليواجهني. وثنى ذراعه تحت رأسه:

- ربما أساعدك في العثور على هذا الصبي.

- أشكرك يا فريد.

- كان خطأ مني أن أخمن.

تنهدت:

- لا تشغل بالك. كنت على حق أكثر مما تظن.

يداه مقيّدتان خلفه بحبل خشن مجدول يحزّ في لحم رسغيه. عيناه معصوبتان بقماش أسود. يركع في الشارع، على حافة قناة مملوءة بالمياه الراكدة، رأسه يتدلى بين كتفيه. ركبته مثنيتان على الأرض الصلبة تنزفان عبر بنطاله وهو يتأرجح للخلف وللأمام. الوقت قبيل المغرب، وظله يتأرجح إلى الخلف وإلى الأمام على الحصباء. يهمهم بشيء همسًا. أخطو مقتربًا منه.

يتمتم ألف مرة ومرة. «من أجلك ألف مرة ومرة». للخلف وللأمام يتأرجح.
يرفع وجهه. أرى ندبة خفيفة فوق شفته العليا.

لسنا وحدنا.

أرى فوهة البندقية أولاً. ثم الرجل الواقف خلفه. إنه طويل، يرتدي صدرية
مقلّمة وعمامة سوداء. ينظر إلى أسفل على الرجل معصوب العينين أمامه
بعينين لا تكشفان عن شيء سوى خواء كخواء الكهوف. يأخذ خطوة للخلف
ويرفع فوهة البندقية. يضعها على مؤخرة رأس الرجل الراكع. للحظة، يلتقي
شعاع الشمس الذائبي بالمعدن فيلمع.

تدوّي البندقية بفرقة تصم الأذان.

أتابع ماسورة البندقية في قوس حركتها نحو الأعلى. أرى الوجه
خلف خيط الدخان الذي يتصاعد متراقصاً من الماسورة. أنا الرجل في
الصدر المقلّمة.

أصحو وصرخة محبوسة في حلقي.

* * *

خرجت. وقفت في الوميض الفضي للهِلال ونظرت نحو السماء المرصعة
بالنجوم. صرّت صراصير الغيط في الظلام الدامس وهبّت ريح عبر الأشجار.
كانت الأرض باردة تحت قدمي الحافيتين وفجأة، للمرة الأولى منذ عبرنا
الحدود، شعرت أنني عدت. بعد كل تلك السنوات، أنا في وطني من جديد،
أقف على تراب أسلافي. هذه هي الأرض التي تزوج عليها جدي الأكبر من
زوجته الثالثة قبل عام من وفاته بوباء الكوليرا الذي اجتاح كابول عام ١٩١٥
أنجبت له ما فشلت فيه زوجته الأوليان، ولداً أخيراً. وعلى هذا التراب ذهب

جدي الأكبر في رحلة صيد مع الملك نادر شاه وأصاب غزالًا. ماتت أمي على هذا التراب. وعلى هذا التراب، جاهدت سعيًا لنيل حب والدي.

جلست مستندًا إلى أحد جدران البيت الطينية. تلك القرابة التي شعرت بها فجأة مع الأرض القديمة... فاجأتني. غبتُ طويلًا بما يكفي أن أنسى وأنسى. كان لي منزل في أرض أخرى، بل في مجرة أخرى بالنسبة إلى من ينامون على الجانب الآخر من الجدار الذي أتكى عليه. ظننت أنني نسيت أمر هذه الأرض، لكنني لم أنس. وتحت الوهج الناحل لتربيع القمر، أحسست بأفغانستان تُهمهم تحت قدمي. ربما لم تنسني أفغانستان بدورها.

نظرت نحو الغرب وتعجبت أن كابول، في مكان ما فوق تلك الجبال، لا تزال موجودة. كانت موجودة بحق، لا مجرد ذكرى قديمة، أو عنوان في خبر صحفي لوكالة «أسوشيتد برس» في الصفحة ١٥ من صحيفة «سان فرانسيسكو كرونكل». في مكان ما فوق تلك الجبال في الغرب تنام المدينة التي كنا نطير فيها الطائرات الورقية أنا وشقيقي ذو الشفة الأرنبية. في مكان ما هناك، مات الرجل معصوب العينين الذي رأيته في حلمي ميتة لا مبرر لها. ذات مرة، فوق تلك الجبال، اتخذت قرارًا. والآن، بعد ربع قرن، قادني هذا القرار عائدًا إلى تلك الأرض نفسها.

كنت على وشك العودة إلى الداخل عندما سمعت أصواتًا تأتي من داخل المنزل. تعرفت من بينها على صوت وحيد.

- لا شيء تبقى للأطفال.

قال بصوت متوتر:

- نحن جوعى لكننا لسنا متوحشين! إنه ضيف! ماذا كنت سأفعل؟

- نعثري على شيء غداً.

بدا صوتها أقرب إلى البكاء.

- ماذا أطعم...

مشيت على أصابع قدمي. فهمت الآن لماذا لم يُبد الصبية أي اهتمام بالساعة. لم يكونوا يحدقون في الساعة على الإطلاق. لقد كانوا يحدقون في طعامي.

* * *

تبادلنا كلمات الوداع مبكراً في الصباح التالي. وقبل أن أصعد إلى الـ«لاندكروزر»، شكرت وحيداً على حسن ضيافته. أشار إلى البيت الصغير من خلفه، وقال:

- هذا بيتك.

كان أولاده الثلاثة يقفون عند الباب يراقبوننا. وكان الأصغر يضع الساعة. كانت مدلاة حول معصمه الذي يشبه غصناً نحيلًا.

ألقيت نظرة على المرأة الجانبية ونحن ننتقل بالسيارة. كان وحيد واقفاً وسط أولاده في سحابة الدخان التي أثارها السيارة. وخطر في بالي أن هؤلاء الصبية، في عالم آخر، ما كانوا ليجموعوا إلى درجة تمنعهم عن مطاردة السيارة.

باكراً في هذا الصباح، عندما أيقنت أن أحداً لا ينظر، كررت شيئاً فعلته قبل ستة وعشرين عاماً: دسست حفنة من النقود المكرمشة أسفل مرتبة.

كان فريد قد حذرني . حذرني . لكن تبين أن تحذيراته ضاعت سدى .
 كنا نقود السيارة على الطريق المتعرج المليء بالحُفَر من جلال أباد إلى كابول .
 آخر مرة سافرت فيها على هذا الطريق كان في شاحنة مغطاة بالمشمع منطلقة في
 الاتجاه المعاكس . وكاد بابا أن يتلقى رصاصة من ضابط روسي مسطول يحب
 الغناء - أثار بابا جنوني تلك الليلة - أثار رعبى ، وفي النهاية فخري . أصبحت
 الرحلة بين كابول و جلال أباد ، وهي رحلة مرهقة في ممر يتلوى كالثعبان عبر
 الصخور ، أثرًا بعد عين الآن ، أثرًا لحريين . قبل عشرين عامًا ، رأيت جزءًا من
 الحرب الأولى رأي العين . وكانت الآثار الكثيرة لتلك الحرب متناثرة على طول
 الطريق : بقايا دبابات سوفيتية قديمة محترقة ، شاحنات عسكرية مقلوبة أبلأها
 الصدا ، عربة جيب روسية مهشمة انقلبت على سفح الجبل . أما الحرب الثانية ،
 فقد تابعتها على شاشة التلفزيون . والآن أراها بعيني فريد .

كان فريد الرجل المناسب في المكان المناسب ، تراه وهو ينعطف
 بلا كلل متفاديًا الحُفَر في وسط الطريق المتداعي . وقد أصبح أكثر ثرثرة
 منذ الليلة التي قضيناها في منزل وحيد . جعلني أجلس في المقعد المجاور
 له وبات ينظر إليَّ عندما يتحدث ، بل ابتسم مرة أو اثنتين . كان يتحكم في

عجلة القيادة بيده المهشمة، ويشير بالأخرى إلى قرى من الأكواخ الطينية بطول الطريق حيث كان يعرف أناسًا قبل سنوات. قال إن معظم أولئك الناس لقوا حتفهم أو استقروا في معسكرات للاجئين في أفغانستان، «وقد يكون الموتى أسعد حظًا».

أشار إلى أطلال متداعية متفحمة لقرية صغيرة. صارت مجرد نتوءات من الجدران المتفحمة بلا أسقف. رأيت كلبًا ينام تحت أحد الجدران. قال فريد: - كان لي صديق هناك ذات يوم. كان بارعًا في إصلاح الدرجات، وكان يضرب على الطبل ببراءة أيضًا. قتله الطالبان هو وأسرته وأحرقوا القرية. مررنا من أمام القرية المحترقة، ولم يحرك الكلب ساكنًا.

* * *

في الأيام الخوالي، كانت الرحلة بالسيارة من جلال أباد إلى كابول تستغرق ساعتين، أو أكثر قليلًا ربما. وقد قضينا أنا وفريد أربع ساعات للوصول إلى كابول. وعندما وصلنا... حذرني فريد فور أن تجاوزنا سد «ماهير»:

- كابول ليست كما تتذكرها.

- هذا ما أسمعه.

رمقني فريد بنظرة تقول: ليس من سمع كمن رأى. وكان محققًا. لأن كابول عندما تبدت أمامنا في النهاية، أيقنت تمامًا أنه أخطأ الطريق عند نقطة ما. ولا بد أن فريدًا لاحظ الذهول على وجهي؛ فلا شك أن نقل الناس جيئة وذهابًا من كابول جعله متآلفًا مع تعبيرات وجوه أولئك الذين لم يروا كابول منذ زمن طويل.

رَبَّتْ عَلَى كَتْفِي، وَقَالَ بوجوم:

- عودًا أحمد.

* * *

حيثما وليت وجهي رأيت أنقاضًا وشحاذين. كنت أتذكر الشحاذين في الأيام الخوالي أيضًا - كان بابا يحمل دائمًا في جيبه حفنة إضافية من العملات الأفغانية من أجلهم: لم أره قط يرد بائعًا جوالًا. لكنهم باتوا منتشرين عند كل ناصية، يرتدون أسما لا ممزقة من الخيش، وأيديهم الملوثة بالطين تمتد طلبًا للعملة. كما أصبح معظم الشحاذين أطفالًا الآن، أطفالًا نحافًا بوجوه عابسة، لا تزيد أعمارهم على خمس سنوات أو ست. يجلسون في حجر أمهاتهم المنتقبات بالبرقع على طول البالوعات في النواصي المزدحمة ويهتفون «بخشيش، بخشيش!» وشيء آخر، شيء لم ألاحظه لأول وهلة: نادرًا ما تجد أحدهم يجلس مع ذكر بالغ - لقد جعلت الحرب الآباء بضاعة شحيحة في الأسواق الأفغانية.

كنا ننطلق شطر الغرب قاصدين حي «كارته سه»، سائرين على درب أتذكره دربًا رئيسيًا في السبعينيات: شارع «ميوند». إلى شمالنا مباشرة نهر كابول اليابس. وعلى التلال في الجنوب انتصب جدار المدينة القديمة، وإلى الشرق منها مباشرة قلعة بالا هيسار - قلعة الزمن الغابر التي احتلها أمير الحرب دُستم عام ١٩٩٢ - على سلسلة جبال شيردروازه، الجبال ذاتها التي أمطرت منها قوات المجاهدين كابول بالصواريخ بين عام ١٩٩٢ وعام ١٩٩٦، موقعة معظم الخراب الذي أشهده الآن. تمتد سلسلة جبال شيردروازه بطول الطريق إلى الغرب. ومن تلك الجبال أتذكر إطلاق «توبه تششت» (مدفع الظهيرة). كان ينطلق كل يوم ليعلن ساعة الظهيرة، كما كان

ينطلق في موعد الإفطار في رمضان. كنت تسمع دوي ذلك المدفع في جميع أرجاء المدينة في تلك الأيام.

غمغمت:

- كنت آتي إلى شارع «ميوند» وأنا صغير. كانت المتاجر تنتشر هنا وفنادق. أضواء نيون ومطاعم. كنت أشتري الطائرات الورقية من رجل عجوز اسمه «سايفو». كان لديه محل صغير لبيع الطائرات الورقية بجوار مقر الشرطة القديم.

قال فريد:

- ما زال مقر الشرطة هناك. لا يوجد نقص في الشرطة في تلك المدينة. لكنك لن تجد أية طائرات ورقية أو محلات للطائرات الورقية في شارع «ميوند» أو في أي مكان آخر في كابول. ولّت تلك الأيام.

تحول شارع «ميوند» إلى قلعة عملاقة من الرمال. وكانت البنايات التي لم تهدم تمامًا تنتصب بالكاد، بفجوات في الأسطح والجدران ناجمة عن قذائف الصواريخ. أحياء سكنية بأكملها طمست وباتت ظللاً. رأيت علامة مثقوبة بالرصاص ومدفونة إلى المنتصف ومائلة في كومة من الأنقاض. مكتوب عليها «اشرب كوكا كو». رأيت أطفالاً يلعبون بين أطلال البناية الخالية من النوافذ وسط أعمدة مستننة من الطوب والصخر. وكانت الدراجات والعربات التي تجرها البغال تنحرف متفاديةً الأطفال، والكلاب الضالة، وأكوام الهدد. وسحابة من التراب تحوم فوق المدينة، فيما يتصاعد خيط من الدخان، على الجانب الآخر من النهر، نحو السماء.

قلت:

- أين الأشجار؟

قال فريد:

- قطعها الناس من أجل الحطب في الشتاء. وقطع الروس أيضًا كثيرًا منها.

- لماذا؟

- كان القناصة يختبئون بينها.

غمرني الحزن. كانت العودة إلى كابول أشبه بأن تقابل مصادفةً صديقًا قديمًا منسيًا، فتعرف أن الحياة لم تكن منصفة معه، أنه بات شريدًا ومعدمًا.

قلت:

- شيدّ أبي دارًا للأيتام في شارع «كهنه»، في المدينة القديمة، إلى الجنوب من هنا.

قال فريد:

- أتذكرها. دُمّرت قبل بضع سنوات.

قلت:

- هلاً توقفت. أريد أن أنزل لتمشية قصيرة هنا.

أوقف فريد السيارة بمحاذاة الرصيف في شارع خلفي صغير إلى جوار بناية مهجورة متداعية بلا أبواب. وغمغم فيما تُغادر السيارة:

- كانت تلك صيدلية.

مشينا عائدين إلى شارع «ميوند»، ثم انعطفنا إلى اليمين متجهين غربًا.

قلت:

- ما تلك الرائحة؟

كان شيء يجعل عينيّ تدمعان.

رد فريد:

- الديزل. مولدات المدينة تتعطل دائماً، لذا فالكهرباء لا يُعتمد عليها،
ويستخدم الناس وقود الديزل.

- ديزل؟! هل تتذكر رائحة هذا الشارع في الأيام الخوالي؟

ابتسم فريد:

- كباب.

قلت:

- كباب الضأن.

قال فريد، وهو يختبر الكلمة في فمه:

- ضأن. لا يقدر الآن على أكل الضأن إلا الطالبان.

شدّ كمي.

- وعلى ذكرهم...

كانت عربة تقترب منا. وغمغم فريد:

- دورية اللحى.

كانت تلك أول مرة أرى فيها الطالبان. رأيتهم في التلفزيون، وعلى
الإنترنت، وعلى أغلفة المجلات، وفي الصحف. لكن هأنذا الآن، على
بعد أقل من خمسين قدماً منهم، أقول لنفسي إن الطعم المفاجئ في فمي

ليس طعم الخوف الصافي الواضح الجلي. أقول لنفسي إن لحمي لم ينقبض
فجأة على عظامي وقلبي لا يخفق. ها هم قادمون. بأبهتهم.

توقفت الشاحنة الـ«تويوتا» أمامنا. كان حفنة من الشباب ذوي الوجوه
المتجهمة يجلسون على مؤخراتهم في صندوق السيارة. وينادق الكلاشينكوف
تتأرجح على أكتافهم. كانوا جميعًا ملتحين يعتمرون عمائم سوداء. وكان
أحدهم، وهو رجل أسمر في أوائل العشرينيات له حاجبان كثان معقودان، يلف
سوطًا في يده ويصفع به جانب الشاحنة بإيقاع منتظم. سقطت عيناه الطوّافتان
عليّ. رأى نظرتي. لم أشعر قطُّ بأنني عار هكذا طيلة حياتي. ثم بصق الطالبان
بصقة ملوثة بالتبغ وأشاح ببصره بعيدًا. عُدت قادرًا على التنفس مجددًا.
وتدحرجت الشاحنة على شارع «ميوند»، مخلّفة سحابة من التراب في إثرها.

همس فريد:

— ما خطبك؟

— ماذا؟

— إياك أن تحرق بهم! هل تفهمني؟ إياك!

قلت:

— لم أقصد.

قال شخص ما:

— صديقك مصيب تمامًا، أغا. إذا رأيت كلبًا مسعورًا فلا تذكّره بعضا.

جاء الصوت من شحاذ عجوز يجلس حافي القدمين على درجات
بناية مغربلة بالرصاص. كان يرتدي قفطانا «شابان» رثًا ممزقًا إلى خيوط

بالية وعمامة ملوثة بالطين. وكان جفنه الأيسر متهدلاً على محجر خاو. أشار، بيد مصابة بالتهاب المفاصل، إلى الاتجاه الذي سارت فيه الشاحنة الحمراء. وقال:

- إنهم يجوبون الشوارع، ينظرون. ينظرون على أمل أن يشرهم شخص. أجلاً أو عاجلاً، يتكرم شخصٌ ويفعلها. ساعتها، تبدأ وليمة الكلاب، وينكسر ملل النهار أخيراً ويقول الجميع «الله أكبر». أما في تلك الأيام التي لا يرتكب فيها شخص مخالفة، حسناً، هناك دائماً العنف العشوائي، أليس كذلك؟

قال فريد:

- انظر إلى قدميك عندما يكون الطالبان بجوارك.

أمّن الشحاذ العجوز على قوله:

- صديقك ينصحك نصيحة غالية.

سعل سعلة رطبة وبصق في منديل قدر. وقال هامساً:

- معذرة، ولكن هل يمكنك التخلي عن بعض الأفغاني.

قال فريد:

- «بَسْ». هيا بنا.

وسحبني من ذراعي.

ناولتُ الرجل العجوز مائة ألف أفغاني، أو ما يساوي نحو ثلاثة دولارات. عندما انحنى للأمام ليتناول النقود، غمرت منخاري رائحته التتة - التي تشبه لبنًا حامضًا وأقدامًا لم تُغسل منذ أسابيع - وأثارت اشمئزازي. دسّ النقود بسرعة في خصره، وعينه الوحيدة تتأرجح من جانب إلى آخر.

- ألف شكر لكرمك وعطفك، أغا صاحب.

قلت:

- أتعرف أين دار الأيتام في «كارته سه»؟

قال:

- لن تجد صعوبة في العثور عليها، إنها إلى الغرب مباشرة من شارع دار الأمان. نُقل الأطفال من هنا إلى «كارته سه» بعد أن ضربت الصواريخ دار الأيتام القديمة. ما كان أشبه بإنقاذ شخص من قفص الأسد وإلقائه في قفص النمر.

قلت:

- شكرًا، أغا.

واستدرتُ كي أرحل.

- كانت تلك المرة الأولى، أليس كذلك؟

- معذرة؟

- المرة الأولى التي ترى فيها الطالبان.

لم أقل شيئًا. أومأ الشحاذ العجوز وابتسم. كاشفًا عن حفنة من الأسنان المتبقية، جميعها متعرّجة وصفراء. قال:

- أتذكر أول مرة رأيتهم يجوبون شوارع كابول. كم كان يومًا مفرحًا! نهاية للقتل! واه واه! لكن كما يقول الشاعر: «كم يبدو الحب صافيًا، ثم يقع البلاء»!

انبثقت ابتسامة على وجهي.

- أعرف بيت الغزل هذا. إنه لحافظ.

رد الرجل العجوز:

- نعم هو حافظ. كان يجب أن أعرف. لقد كنت أدرّسه في الجامعة.

- أنت؟

سعل الرجل العجوز:

- بين عام ١٩٥٨ وعام ١٩٩٦ كنت أدرّس حافظ والخيام والرومي وبيدل وجامي وسعدي، بل عملت مرة أستاذًا زائرًا في طهران، كان ذلك سنة ١٩٧١ ألقى محاضرة عن أشعار بيدل الصوفية. أتذكر كيف وقف الجميع وصفقوا. ها!

هزّ رأسه.

- لكنك رأيت أولئك الشبان في الشاحنة. أي قيمة تظنهم يرونها في الصوفية؟

قلت:

- والدتي كانت تدرّس في الجامعة.

- وما اسمها؟

- صوفيا أكرمي.

لمعت عينه من وراء حجاب المياه البيضاء.

- «أعشاب الصحراء تدوم، لكن زهرة الربيع تتفتح وتذوي». يا لها من نعمة. يا له من شرف. يا لها من مأساة.

سألته وأنا أركع أمامه:

- أكنت تعرف أمي؟

قال الشحاذ العجوز:

- بالطبع. كنا نجلس لتكلم بعد الحصص. آخر مرة كانت في يوم مطير
قُبيل امتحانات نهاية العام وقد تقاسمنا معًا شريحة رائعة من كعكة اللوز.
كعكة اللوز مع الشاي الساخن والعسل. كان حملُها قد ظهر جليًا في ذلك
الوقت، ولم يزدِها ذلك إلا حُسْنًا. لن أنسى ما قالت لي ذلك اليوم.
- ماذا؟ أخبرني من فضلك.

لطالما وصف بابا أمي لي في ضربات فرشاة سريعة، مثل: «كانت
امرأة عظيمة». لكن ما ظلت مشتاقًا له هو تفاصيل بريق شعرها في نور
الشمس، نكهة الآيس كريم المفضلة لديها، الأغنيات التي كانت تحب
الدندنة بها، هل كانت تقرض أظافرَها. لقد اصطحب بابا ذكرياته عنها
إلى القبر. ربما كان ذكر اسمها يذكره بذنبه، بما فعله عقب وفاتها. أو
ربما كان فقدَه عظيمًا، وألمه عميقًا، ولم يستطع أن يتحمل الكلام عنها.
وربما الاثنان.

- قالت: «أنا خائفة». قلت: «لماذا؟» فقالت: «لأنني غارقة في السعادة،
دكتور رسول. والسعادة بهذا القدر تخيف». سألتها: «لماذا؟» فقالت: «إنهم
لا يتركونك تسعد إلا وهم يستعدون لسلبك شيئًا ما». قلت: «اصمتي الآن.
كفى سخفًا».

أمسك فريد بذراعي، وقال بهدوء:

- يجب أن نذهب، أمير أغا.

نزعْتُ ذراعِي منه.

- ماذا أيضًا؟ ماذا قالت أيضًا؟

انبسطت أسارير العجوز. وقال:

- ليتني أستطيع التذكر من أجلك. لكنني لا أتذكر. رحلت والدتك منذ وقت طويل وذاكرتي متداعية مثل تلك البنايات، أنا آسف!

- شيء صغير حتى، أي شيء!

ابتسم العجوز:

- سأحاول أن أتذكر، هذا وعد. تعال ثانية واعثر عليّ!

قلت:

- أشكرك شكرًا جزيلاً.

وكنت أعنيها. الآن بت أعرف أن أمي كانت تحب كعكة اللوز مع العسل والشاي الساخن، وأنها استخدمت ذات مرة كلمة «غارقة»، وأنها كانت قلقة من سعادتها. عرفت عن أمي للتو من ذلك الرجل العجوز في الشارع أكثر مما عرفته من بابا طوال حياتي.

سرنا عائدين إلى السيارة، من دون أن يعلّق أحدنا عما يعتبره معظم غير الأفغان مصادفة غير محتملة، أن أقابل شحاذًا في الشارع فأجده يعرف أمي. لأن كلينا كان يعرف أن ذلك العبث أمر شائع في أفغانستان، وفي كابول على وجه التحديد. كان بابا يقول:

- خذ أفغانيين لم يتقابلا من قبل، وضعهما في غرفة لعشر دقائق، وسيتعرفان على صلة القرابة بينهما.

تركنا الرجل العجوز على درج البناية. كنت أنوي تلبية عرضه، أن أعود وأرى إن كان بوسعه أن يزيح التراب عن المزيد من حكايات أُمي. لكنني لم أره بعد ذلك ثانية.

* * *

عثرنا على دار الأيتام الجديدة في الجزء الشمالي من «كارته سه»، على ضفاف نهر كابول الجاف. كانت بناية مسطحة على طراز الثكنات العسكرية بجدران مشققة ونوافذ مغطاة بألواح الخشب. وقد أخبرني فريد في الطريق أن حي «كارته سه» كان واحدًا من أكثر أحياء كابول تعرضًا للخراب بسبب الحرب، ونحن نخرج من السيارة، كانت دلائل ذلك كاسحة. لم يكن هناك أكثر من أطلال بنايات مقصوفة وبيوت مهجورة على جانبي الشوارع المليئة بالحفر. مررنا من أمام هيكل صدئ لسيارة منقلبة، جهاز تلفزيون بشاشة مدفونة حتى المنتصف في الأنقاض، جدار مكتوب عليه «زنده باد طالبان!» (عاش الطالبان!) بعبوات الرش السوداء.

فتح الباب رجل قصير نحيل أصلع بلحية رمادية شعشاء، يرتدي معطفًا باليًا من صوف التويد، وطاقية، وتستريح على قمة أنفه نظارة طبية إحدى عدستها مشروخة. وخلف النظارة، عيناان صغيرتان مثل حبتين سوداوين من الحمص، تنتقلان بيني وبين فريد. قال:

- السلام عليكم.

قلت:

- السلام عليكم.

عرضتُ عليه الصورة:

- نحن نبحث عن هذا الصبي.

ألقي نظرة عابرة على الصورة:

- معذرة. لم أراه من قبل.

قال فريد:

- أنت تقريبًا لم تنظر إلى الصورة يا صديقي. لماذا لا تمعن النظر أكثر؟

قلت:

- لطفاً.

تناول الرجل الواقف خلف الباب الصورة. فحصها. ثم أعادها إليّ ثانية.

- لا، آسف. أنا أعرف كل طفل في هذه المؤسسة وهذا لا يبدو لي مألوفاً.
الآن، إذا سمحتم لي، لديّ عمل أنجزه.

أغلق الباب. وأوصد القفل.

قرعت الباب بقبضتي:

- أغا! أغا، من فضلك افتح الباب. نحن لا نريد به سوءاً.

جاء الصوت من الجانب الآخر:

- قلت لكما إنه ليس هنا. الآن، ارحلا من فضلكما.

تقدم فريد إلى الباب، أراح جبهته عليه. قال بصوت خفيض حذر:

- صديقي، لسنا مع الطالبان. الرجل بصحبتني هنا يريد أن يأخذ هذا
الطفل إلى مكان آمن.

قلت:

- لقد أتيت من بيشاور. ولديّ صديق عزيز يعرف زوجين أمريكيين هناك
يشرفان على دار خيرية للأطفال.

كنت أشعر بوجود الرجل على الجانب الآخر من الباب. أحس به يقف
هناك، منصتًا، مترددًا، عالقًا بين الشك والأمل. قلت:

- اسمع، أنا أعرف والد سهراب. كان اسمه حسنًا. واسم أمه فرزانه. كان
يدعو جدته ساسا. يعرف القراءة والكتابة. وهو ماهر في استخدام النبلة. ثمّة
أمل لهذا الصبي، أغا، ثمّة مخرج. رجاء افتح الباب.

من الجانب الآخر، لا شيء سوى الصمت.

قلت:

- أنا عمه غير الشقيق.

مرت لحظة. ثم سمعتُ مفتاحًا يدور في القفل. وعاد وجه الرجل
الضيق الظهور من الفتحة. نظر إليّ، إلى فريد، ثم إليّ ثانية. وقال:

- لقد أخطأت في أمر واحد.

- ماذا؟

- هو رائع في استخدام النبلة.

ابتسمت.

- إنه لا ينفصل عنها. يدسها في بنطاله أينما ذهب.

* * *

أدخلنا الرجل وقدم لنا نفسه باسم «زمان»، مدير الدار. قال:

- سأصطحبكما إلى مكتبي.

تبعناه في الأروقة المعتمدة وسخة الجدران حيث يروح ويجيء أطفال حفاة في بلوفرات بالية. مررنا من أمام حجرات بأرضيات عارية إلا من سجاجيد بالية، ونوافذ مغلقة بألواح من البلاستيك. وكانت تملأ الحجرات هياكل لأسرّة حديدية، معظمها من دون مراتب.

سأل فريد:

- كم يتيمًا يعيش هنا؟

قال «زمان» من دون أن يستدير:

- أكثر مما تتسع الحجرات. نحو مائتين وخمسين. لكن بعضهم ليس يتيمًا. كثير منهم فقدوا آباءهم في الحرب، ولم تعد أمهاتهم قادرات على إطعامهم لأن الطالبان لا يسمحون لهن بالعمل. فيجلبن أطفالهن هنا.

أشاح بيده كما لو كان يكنس شيئًا قبل أن يضيف متحسرًا:

- هذا المكان أفضل من الشارع، لكن ليس أفضل كثيرًا. لم يُصمم هذا المبنى للمعيشة - كان مستودعًا تابعًا لمصنع سجاد. فلا تجد سخانات للمياه وقد تركوا البئر حتى جفت.

خفض صوته:

- طلبت نقودًا من الطالبان كي أحفر بئرًا جديدة عددًا لا أتذكره من المرات فكانوا يدورون سبحهم ويقولون لا توجد نقود. لا نقود.

أطلق ضحكة هازئة.

أشار إلى صفٍّ من الأسرّة بحذاء الحائط:

- ليس لدينا ما يكفي من الأسرّة، أو ما يكفي من المراتب للأسرّة الموجودة. والأسوأ، ليس لدينا ما يكفي من البطاطين.

أشار إلى فتاة صغيرة تنط الحبل مع طفلين آخرين:

- هل ترى تلك الفتاة؟ في الشتاء الماضي، كان على الأطفال أن يتشاركوا في البطاطين. وقد مات أخوها من البرد.

واصل السير:

- وفقًا لآخر حسابات، لدينا تموين من الأرز في ذلك المستودع يكفي لأقل من شهر، وعندما ينفد، سيكون على الأطفال أن يتناولوا الخبز والشاي على الإفطار والعشاء.

توقف واستدار نحوي قائلاً:

- ليس لدينا هنا سوى قليل جدًّا من الرعاية، ولا طعام تقريبًا، ولا ملابس، ولا مياه نظيفة. ما لدينا بوفرة هنا هو أطفال فقدوا طفولتهم. والمأساة أن هؤلاء هم المحظوظون. المكان ممتلئ فوق طاقته وكل يوم أرد أمهات يجلبن أطفالهن إلى هنا.

خطا خطوة باتجاهي:

- تقول إن ثمة أملًا لسهراب؟ أتمنى ألا تكون كاذبًا، أغا. لكن... ربما فات الأوان.

- ماذا تقصد؟

قال «زمان»:

- اتبعني.

* * *

ما أطلق عليه مكتب المدير كان أربعة جدران عالية متشققة، به بساط على الأرضية، وطاولة، ومقعدان قابلان للطي. فيما كنت أجلس أنا و«زمان»، رأيت فأراً رماديًا يخرج رأسه من جحر في الحائط ويمرق عابرًا الغرفة. انقبضت وهو يتشمم حذائي، ثم حذاء «زمان»، قبل أن ينطلق عبر الباب المفتوح.

قلت:

- ماذا تقصد بأن الألوان قد فات؟

- هل تريد بعض الشاي؟ أستطيع أن أعد لك بعضًا منه.

- لا، شكرًا. أفضل أن نتكلم.

تراجع «زمان» في كرسيه وعقد ذراعيه على صدره:

- ما سأخبرك به ليس سائرًا. بخلاف أنه قد يكون شديد الخطورة.

- بالنسبة إلى مَنْ؟

- لك. ولي. ولسهراب، بالطبع، لو لم يكن الألوان قد فات بالفعل.

قلت:

- أريد أن أعرف.

أوما برأسه:

- كما تريد. ولكنني أريد في البداية أن أسألك سؤالًا: لأي درجة تريد

أن تعثر على ابن أخيك؟

فكرت في معارك الشوارع التي كنا ندخلها ونحن أطفال، كان حسن يخوضها

دائمًا من أجلي، اثنان ضد واحد، وأحيانًا ثلاثة ضد واحد. كنت أنكمش وأراقب،

أرغب في الدخول، لكن دائمًا ما أجبن، دائمًا ما يمنعني شيء ما.

نظرت إلى الطرقة، ورأيت مجموعة من الأطفال ترقص في دائرة. فتاة صغيرة، ساقها مبتورة أسفل الركبة، تجلس على حصيرة شعشاء وتراقب، تبسم وتصفق مع الأطفال الآخرين. رأيت فريداً وهو يراقب الأطفال أيضاً، ويده المشوهة تتأرجح إلى جانبه. تذكرت أولاد وحيد و... أدركت شيئاً: لن أترك أفغانستان قبل العثور على سهراب. قلت:

- أخبرني بمكانه.

تلكأت نظرة «زمان» عليّ. ثم أومأ، والتقط قلمًا رصاصًا، ودوّره بين أصابعه:

- دع اسمي بعيداً عن هذا الأمر.

- أعدك.

نقّر على الطاولة بالقلم:

- مع ذلك سأندم، لكن ربما يكون هذا جزاءً عادلاً أيضاً. لقد كتبت عليّ اللعنة بأية حال. لكن إذا كان ثمة ما يمكن فعله لسهراب... سأخبرك لأنني أصدقك. في عينيك نظرة رجل مستميت.

صمت لفترة طويلة. غمغم:

- هناك مسؤول من طالبان. يزورنا مرة كل شهر أو اثنين. يجلب لنا معه نقوداً، ليس الكثير، ولكن أفضل من لا شيء على الإطلاق.

وقعت عيناه القلقتان عليّ، ثم أبعدهما:

- عادة ما يأخذ فتاة. ولكن ليس دائماً.

قال فريد من خلفي:

- وأنت تسمح له بذلك؟

كان يدور حول الطاولة، ويقترب من «زمان».

ردّ عليه «زمان»:

- وأي خيار أمامي؟

ابتعد عن المكتب.

قال فريد:

- أنت المدير هنا. مهمتك رعاية هؤلاء الأطفال.

- ليس هناك ما أفعله لأوقف ذلك.

جأر فريد:

- أنت تبيع الأطفال!

قلت:

- فريد، اجلس! دعه!

لكنني كنت متأخرًا جدًا. إذ قفز فريد، فجأة، من فوق الطاولة. وطار كرسي «زمان» فيما كان فريد يسقط عليه ويثبته إلى الأرض. حاول المدير التملص من أسفل فريد وهو يصدر صرخات مخنوقة. ركّلت ساقاه أحد أدراج المكتب فانخلع من مكانه واندلقت الأوراق على الأرض.

جريت إلى خلف المكتب فرأيت لماذا كان صراخ «زمان» مخنوقًا: كان فريد يخنقه. شددت كتفي فريد بيدي وسحبت بقوة. نفضني عنه. جأرت:

- يكفي هذا!

لكن وجه فريد كان قد تضرع بالحمرة، وانسحبت شفاته مكشرتين عن أنيابه. قال بازدرأ:

- سأقتله! لن تمنعني! سأقتله!

- دعه وشأنه!

- سأقتله!

كان شيء في صوته يخبرني أنني إذا لم أ تدخل بسرعة سأشهد أول جريمة قتل في حياتي. قلت:

- الأطفال ينظرون يا فريد. إنهم ينظرون.

انقبضت عضلات كتفه أسفل قبضتي، ولوهلة، ظننت أنه سيواصل اعتصار عنق «زمان» بأية حال. ثم استدار، ورأى الأطفال. كانوا يقفون صامتين عند الباب، متشابكي الأيدي، بعضهم يبكي. شعرت بعضلات فريد تتراخي. أسقط يديه، ووقف على قدميه. نظر إلى أسفل على «زمان» وبصق على وجهه بصقة كبيرة. ثم مشى باتجاه الباب وأغلقه.

جاهد «زمان» كي يقف على قدميه، جفف شفثيه الداميتين بكمه، ومسح البصقة عن خده. وضع طاقيته ونظارته وهو يسعل ويلهث، ورأى أن العدستين قد انشربتا، فخلعها. دفن وجهه بين يديه. لم ينبس أينا بكلمة لوقت طويل.

قال «زمان» أخيراً بصوت متحشرج ويداه ما زالتا تخفيان وجهه:

- لقد أخذ سهراب قبل شهر.

قال فريد:

- وتسمي نفسك مديراً؟

أسقط «زمان» يديه:

- لم أتقاض راتبًا لأكثر من ستة أشهر. أنا مفلس لأنني أنفق كل مدخرات حياتي على دار الأيتام هذه. كل ما امتلكته أو ورثته يومًا بعته لأسير أمور هذا المكان البائس. أتظنني ليس لدي عائلة في باكستان وإيران؟ كان يمكنني أن أهرب مثل الجميع. لكنني لم أفعل. لقد بقيت. بقيت من أجلهم.

أشار إلى الباب:

- إذا رفضت أن أعطيه طفلًا، يأخذ عشرة. لذا أتركه يأخذ واحدًا وأترك الحكم لله. أزدرد كرامتي وآخذ... نقوده اللعينة القذرة الوسخة. ثم أذهب إلى السوق وأشتري الطعام للأطفال.

وضع فريد عينيه في الأرض.

سألت:

- ماذا يحدث للأطفال الذين يأخذهم.

حك «زمان» عينيه بسبابته وإبهامه:

- أحيانًا يعودون.

قلت:

- من هو؟ كيف نعثر عليه؟

- اذهب إلى استاد غازي غداً. ستراه بين الشوطين. سيكون الرجل الذي يضع نظارة شمس سوداء.

التقط نظارته المكسورة وقلبها بين يديه:

- أريدكما أن تغادرا الآن. الأطفال خائفون.

أوصلنا إلى الخارج.

فيما كانت السيارة تنطلق، رأيْتُ «زمان» في المرأة الجانبية، يقف عند الباب. كانت مجموعة من الأطفال تحيط به، يتعلقون بذيل قميصه المتهدل. وقد وضع نظارته المكسورة على عينيه.

عبرنا النهر وانطلقنا بالسيارة باتجاه الشمال عبر ميدان بشتونستان المزدحم. كان بابا يأخذني إلى مطعم خبير هناك لتناول الكباب. كان المبنى قائماً لكن أبوابه موصدة بالأقفال، والنوافذ محطمة، وحرفا «خ» و«ر» ناقصان من اسمه. رأيت جثة قرب المطعم. لقد جرت عملية شنق. شاب يتأرجح في نهاية حبل مربوط إلى عارضة، وجهه منتفخ وأزرق، والملابس التي ارتداها في آخر أيام حياته ممزقة، ودامية. وبدا أن أحداً لا يلحظه.

انطلقنا بصمت في الميدان متجهين نحو حي وزير أكبر خان. وحيثما يمت وجهي، كنت أرى شبورة من التراب تغطي المدينة وبنياتها المشيدة من الطوب والمتييسة بأشعة الشمس. وعلى بعد بضعة مربعات سكنية شمالي ميدان بشتونستان، أشار فريد إلى رجلين يتناقشان نقاشاً محتدماً عند ناصية مزدحمة. كان أحدهما ينط على ساق واحدة، وساقه الأخرى مبتورة أسفل الركبة. وكان يحمل ساقاً صناعية بين ذراعيه.

- أتعرف ماذا يفعلان؟ إنهما يتساومان على الساق.

- هل يبيع ساقه؟

أوماً فريد:

- يمكن أن تبيعها بمبلغ جيد في السوق السوداء. وتطعم أطفالك
لأسبوعين.

* * *

لدهشتي، كانت معظم المنازل في حي وزير أكبر خان لا تزال محتفظة
بأسقفها وجدرانها منتصبة، بل كانت في هيئة جيدة للغاية. الأشجار لا تزال
تلوح من وراء الجدران، والشوارع ليست مكدسة بالأنقاض كما هو الحال
في «كارته سه». وكانت هناك علامات باهتة في الشوارع، بعضها مَلوي
ومثقوب بالرصاص، لا تزال تشير إلى الطريق.

قلت ملاحظًا:

- الأمر ليس بهذا السوء هنا.

- طبعي. معظم الناس المهمين يعيشون هنا الآن.

- الطالبان؟

قال فريد:

- وهم أيضًا.

- من أيضًا؟

قاد السيارة إلى شارع واسع برصيفين للمشاة نظيفين إلى حد ما ومنازل
ذات جدران على الجانبين. قال فريد:

- الناس الذين يقفون خلف الطالبان. العقول الحقيقية لتلك الحكومة،
إذا أمكن تسميتها كذلك: العرب، الشيشان، الباكستانيون.

أشار نحو الشمال:

- شارع ١٥، من هنا، يسمى «سراك مهمانه».

شارع الضيوف.

- هكذا يسمونهم هنا، الضيوف. أعتقد أن هؤلاء الضيوف سوف يغرقون السجادة ببولهم.

قلت:

- أعتقد أن الحال كذلك! هناك!

أشرتُ إلى مَعْلَم كنت أسترشد به وأنا طفل. كان بابا يقول: «إذا تُهت، تذكر أن شارعنا هو الشارع الذي ينتهي بمنزلٍ وردي». كان هذا المنزل الوردي ذو السقف شديد الانحدار البيت الوحيد في الحي بذلك اللون في الأيام الخوالي. وما زال كذلك.

انعطف فريد في الشارع. وعلى الفور رأيت دار بابا.

* * *

نعثر على السلحفاة الصغيرة خلف تشابكات من النسرین في الباحة. لا نعرف كيف وصلت إلى هنا وتغلبنّا الحماسة فلا نهتم. ندهن صدفتها بالأحمر الساطع، فكرة حسن، وهي فكرة جيدة: بتلك الطريقة لن نفقدها بين الأعشاب. خُيِّلَ لنا أننا اثنان من المستكشفين الشجعان اكتشفنا وحشًا عملاقًا من عصور ما قبل التاريخ في دغل بعيد وعدنا به لكي يراه العالم. وضعناها على العربة الخشبية التي بناها علي لحسن الشتاء الماضي هدية في عيد ميلاده، وتظاهرنّا بأنها قفص حديدي عملاق. واحتجزنا ذلك المسخ نافخ النار! مشينا على العشب ساحبين العربة خلفنا، حول أشجار التفاح

والتوت، التي أصبحت بنايات شاهقة تناطح السحاب، والرؤوس تطل من آلاف النوافذ لمتابعة ذلك الموكب وهو يمر. نمشي على الجسر المقوس الصغير الذي شيده بابا قرب لفيف من أشجار التين، وقد أصبح جسرًا معلقًا عملاقًا يربط بين المدن، والغدير الصغير أسفل، بحر مُزبد. تنطلق الألعاب النارية فوق أعمدة الجسر العملاقة ويحيينا جنود مسلحون على الجانبين فيما ترتفع كابلات عملاقة من الصلب باتجاه السماء. السلحفاة الصغيرة تتخبط في جدران العربة، ونحن نسحبها دائرين مع المدخل المكسو بالطوب خارج البوابة المصنوعة من الحديد المشغول ثم نعود لنحيي زعماء العالم الذين يقفون ويصفقون. نحن، حسن وأمير، المغامران الشهيران وأعظم مستكشفي العالم، على وشك أن نتلقى ميدالية الشرف على عملنا الشجاع...

* * *

مشيت بنشاط في مدخل السيارات. نَمَت الآن خصل من الأعشاب بين الطوب الذي بهت لونه بتأثير الشمس. وقفت خارج بوابة دار أبي، أشعر أنني غريب. وضعت يدي على القضبان الصدئة، متذكرًا كيف جريت عابرًا تلك البوابة نفسها آلاف المرات وأنا طفل، لأمر لم تعد مهمة الآن بأية حال، وإن بدت وقتها بالغة الأهمية. ونظرت إلى الداخل.

لم يبدُ امتداد المدخل الذي يمتد من البوابة إلى الباحة، وحيث كنا نتناوب أنا وحسن على السقوط في الصيف الذي تعلمنا فيه قيادة الدراجة، واسعًا أو طويلًا كما كنت أتذكره. كان الأسفلت قد شرخ كما لو أن صاعقة أصابته، وانبثقت تشابكات أخرى من الأعشاب من بين الشقوق. وكانت معظم أشجار الحور قد قُطعت - الأشجار التي كنا نتسلقها أنا وحسن لنعكس أشعة الشمس على مرايانا داخل منازل الجيران. وما تبقى منها كانت جرداء تقريبًا. كان جدار الذرة العلية لا يزال هناك، وإن لم أرَ ذرة، علية أو غير ذلك، على

طول الجدار الآن. وقد بدأ الطلاء يتقشّر وقد انسلخت أجزاء منه تمامًا. وتحولت الأرض المعشبة إلى اللون البني، لون شبورة الغبار التي تغطي المدينة، تتخللها بقعٌ جرداء من التربة حيث لا ينمو شيء على الإطلاق.

كانت ثمة سيارة جيب واقفة في المدخل وبدا ذلك خطأ: هذا مكان سيارة بابا الـ «موستانج» السوداء. لسنوات، كانت الأسطوانات الثماني للـ «موستانج» تزأر معلنة استيقاظها كل صباح، فتوقظني من النوم. رأيت الزيت وقد انسكب تحت الجيب سائلًا على المدخل مثل بقعة حبر على ورقة بيضاء. وخلف الجيب، عربة يد مقلوبة على جنبها. لم أرَ أي أثر لشجيرات الورد التي زرعها بابا وعلي على الجانب الأيسر من مدخل السيارات، فقط التراب المُهال على الأسفلت. والأعشاب.

أطلق فريد نفير السيارة مرتين، ونادى عليّ:

- علينا أن نذهب، أغا. سوف نلفت الانتباه.

قلت:

- فقط أعطني عشر دقائق أخرى.

الدار نفسها كانت بعيدة عن المنزل الأبيض المنفرد الذي كنت أتذكره من أيام طفولتي. بدت أصغر. تهدل السقف وتشقق الجص. وكانت نوافذ غرفة المعيشة، والردهة، وحمام الضيوف في الطابق العلوي محطمة، وقد سُدتّ كيفما اتفق بألواح من البلاستيك الشفاف أو ألواح خشبية مسمّرة على إطارات النوافذ. وصار لون الدهان، الذي كان أبيض لامعًا ذات يوم، رماديًا باهتًا، وتآكلت أجزاء منه، كاشفة عن طبقة الطوب تحتها. وتفتّتت درجات السلم الأمامية. مثل كل شيء في كابول، كانت دار والدي صورة لمجد غابر.

حددت نافذة غرفتي القديمة، في الطابق الثاني، ثالث نافذة جنوب سلم الدار الرئيسي. وقفت على أطراف أصابعي، فلم أر شيئاً خلف النافذة إلا الظلال. قبل خمس وعشرين سنة، وقفت خلف النافذة نفسها، والمطر الثقيل يتساقط على الشباك، والبخار الخارج مع أنفاسي يغبرّ الزجاج. وقفتُ أراقب حسنًا وعليًا وهما يضعان متاعهما في حقيبة سيارة والدي.

نادى فريد ثانية:

- أمير أغا!

رددت:

- أنا قادم.

في لحظة جنون، انتابني رغبة في الدخول. أردت أن أصعد الدرج الأمامي حيث كان علي يجعلنا نخلع أحذية الثلج. أردت أن أخطو داخل الردهة، أن أتسم قشر البرتقال الذي كان علي يرميه في الموقد ليحترق مع نشارة الخشب، أن أجلس إلى طاولة المطبخ، أتناول الشاي مع شريحة من خبز الـ«نان»، وأنصت إلى حسن وهو يغني أغنيات الهزاره القديمة.

نفير آخر. عدت إلى الـ«لاندكروزر» الواقفة بحذاء الرصيف. كان فريد جالسًا خلف عجلة القيادة يدخن.

قلت له:

- يجب أن أرى شيئًا آخر.

- هل يمكن أن تسرع؟

- أعطني عشر دقائق.

- اذهب، إذن.

ثم، وأنا أستدير لأذهب:

- فقط انس كل شيء. ذلك يجعل الأمور أسهل.

- أسهل علام؟

قال فريد:

- على الماضي قدمًا.

نفض دخان سيجارته خارج النافذة:

- ماذا تريد أن ترى أيضًا؟ دعني أوفر عليك المشاكل: لا شيء مما تتذكره
قد بقي. الأفضل أن تنسى.

قلت:

- لا أريد أن أنسى بعد ذلك. أعطني عشر دقائق.

* * *

لم تكن تفلت منا بالكاد قطرة عرق واحدة، أنا وحسن، ونحن نتسلق
التل شمالي دار بابا. كنا نعدو متقافزين حتى قمة التل يطارد كل منا الآخر
أو نجلس على حافة منحدره نشاهد منظرًا جميلًا للمطار عن بعد. كنا نراقب
الطائرات وهي تقلع وتهبط. ثم نشرق في الجري ثانية.

الآن، ومع وصولي إلى قمة التل المسننة، كنت أشعر مع كل نفس متقطع
وكأنني أشهق نارًا. سال العرق على وجهي. وقفت ألّهت لبرهة، أشعر بوخز
الألم في جنبي. ثم شرعت أنظر إلى المقبرة المهجورة. لم يستغرق الأمر
وقتًا طويلًا قبل أن أعثر عليها. لا تزال هناك، وكذا شجرة الرمان العجوز.

اتكأت على بوابة المقبرة الحجرية الرمادية حيث دفن حسن أمه. وقد اختفت البوابة الحديدية التي كانت تتأرجح على مفصلات، وكانت شواهد القبور مرئية بالكاد من خلال تشابكات الأعشاب الكثيفة التي احتلت المشهد. وكان غرابان يقفان على الجدار الواطئ المحيط بالمقبرة.

حسن قد ذكر في رسالته أن شجرة الرمان لم تطرح منذ سنوات. وقد تشككت، وأنا أنظر إلى الشجرة الداوية الجرداء، في إمكانية أن تطرح ثانية. وقفت تحتها، وتذكرت كل الأوقات التي قد تسلقناها فيها، وركبنا على أغصانها، أقدامنا تتأرجح، وأشعة الشمس ترتعش على الأوراق وتلقي على وجهينا فسيفساء من الضوء والظل. وزحف المذاق الحريّيف للرمان داخل فمي.

قرفصت على ركبتيّ ومسحت الجذع بيدي. وجدت ما كنت أبحث عنه. كان النقش قد خفت، كاد أن يختفي تمامًا، لكنه لا يزال هناك: «أمير وحسن، سلطانا كابول». تعقبت انحناءات كل حرف بأصابعي. ونزعتُ قطعًا صغيرة من اللحاء عن الشقوق الضئيلة.

جلست معقود الساقين أسفل الشجرة ونظرت صوب الجنوب إلى مدينة طفولتي. في تلك الأيام، كانت قمم الأشجار تلوح من جدران كل منزل. وكانت السماء تمتد واسعة وزرقاء، والغسيل المعلق على الحبال يخفق في الشمس. إذا أصبخت السمع، كان بوسعك أن تسمع حتى نداء بائع الفاكهة وهو يمر في شوارع وزير أكبر خان مع حماره: «توت! مشمش! عنب!» في بواكير المساء، كان بوسعك أن تسمع الأذان من الجامع في «شهر نو». سمعتُ نفيرًا ورأيت فريدًا يلوح لي. حان وقت الذهاب.

* * *

قدنا السيارة باتجاه الجنوب ثانية، عائدین إلى میدان بشتونستان. مررنا أمام مزید ومزید من الشاحنات التي تحمل رجالاً مسلحين، شباناً ملتحين مكدّسين في مؤخرات العربات. كان فريد يلعنهم هامساً في كل مرة نمر أمامهم.

دفعت حساب غرفة في فندق صغير قرب میدان بشتونستان. كانت ثلاث فتيات صغيرات يرتدين فساتين سوداء متطابقة ويغطين رؤوسهن بأوشحة بيضاء يتشبثن بالرجل الضئيل ذي النظّارة خلف رف الاستقبال. أخذ مني ٧٥ دولارًا، وهو ثمن غير معقول حين نضع هيئة المكان المتداعية في الحسبان، لكنني لم أمانع؛ فالاستغلال بغرض امتلاك منزل شاطئي في هاواي شيء، وبغرض إطعام أطفالك شيء آخر.

لم تكن هناك مياه ساخنة، وكان صندوق الصرف في الحمام معطلًا. مجرد سرير مُفرد بإطار حديدي، ومرتبة بالية، وبطانية متهرئة، وكُرسي خشبي في الزاوية. كانت النافذة المطلة على الميدان مكسورة، ولم تُستبدل. وفيما كنت أضع حقيبة السفر، لاحظت بقعة دم جافة على الحائط خلف سريري.

أعطيت فريدًا بعض النقود وذهب لشراء الطعام. عاد بأربعة أسياخ من الكباب تطلق من الحرارة، و«نان» طازج، وسلطانية من الأرز الأبيض. جلسنا على السرير وبلعنا الطعام بلعًا. كان ثمة شيء لم يتغير في كابول في نهاية المطاف: كان الكباب وافر العصارة ولذيذاً مثلما أتذكره.

تلك الليلة، احتلت السرير ورقد فريد على الأرض، وقد لف نفسه ببطانية إضافية جاءنا بها المالك مقابل أجر إضافي. لم يكن يدخل الحجرة نور إلا من أشعة القمر المتسللة من النافذة المكسورة. قال فريد إن المالك

أخبره أن كابول بلا كهرباء منذ يومين الآن، وأن المولّد بحاجة لإصلاح.
تكلّمنا لبعض الوقت. حكى لي عن صباه في مزار الشريف، وجلال أباد.
حكى لي عن الفترة التي أعقبت انضمام والده للجهد ضد الروس في
وادي «بنجشير». تركوا بلا طعام واضطروا لأكل الجراد حتى يظّلوا على
قيد الحياة. حكى لي عن اليوم الذي قتلت فيه نيران طائرة مروحية والده،
عن اليوم الذي سلبه فيه لغمّ أرضي ابتتيه. سألني عن أمريكا. قلت له إنك
في أمريكا تستطيع الدخول إلى محل بقالة والاختيار بين خمسة عشر أو
عشرين نوعًا مختلفًا من الحبوب. الضأن طازج دائمًا واللبن بارد، والفاكهة
وفيرة والماء نقي. في كل منزل تلفزيون، ولكل تلفزيون جهاز للتحكم عن
بعد، ويمكنك أن تشتري طبقًا لاستقبال الأقمار الصناعية إذا أردت، وأن
تستقبل أكثر من خمسمائة قناة.

قال مندهشًا:

- خمسمائة؟

- خمسمائة.

غرقنا في الصمت لبعض الوقت. وحين ظننت أن فريدًا راح في النوم،
وجدته يضحك هامسًا:

- أغا، هل تعرف ما فعله الملا نصر الدين عندما عادت ابنته إلى المنزل
تشكو من أن زوجها ضربها؟

كان بوسعي أن أشعر به يبتسم في الظلام، وتشكّلت ابتسامة على وجهي.
ليس ثمة أفغاني في العالم لا يعرف على الأقل بضع نكات عن الملا الأخرق.

- ماذا؟

- ضربها هو الآخر، ثم أرسلها لتقول لزوجها إن الملا ليس أحمر: إذا كان ابن الزنا هذا يضرب ابنته، فالملا سوف يضرب له زوجته.

ضحكت. أضحككني النكتة نعم، لكن أضحككني أيضًا أن حس الأفغان الساخر لم يتغير قط. اندلعت الحروب، واختُرع الإنترنت، وتدحرج الإنسان الآلي على سطح المريخ، وفي أفغانستان نحكي نكات الملا نصر الدين لا نزال. قلت:

- هل سمعت عن المرة التي وضع فيها الملا حقيبة ثقيلة على كتفيه وهو يركب حماره؟

- لا.

- استوقفه أحدهم في الشارع وقال له لماذا لا تضع الحقيبة على الحمار؟ فقال له: «حرام، أنا ثقيل بما فيه الكفاية على ذلك الكائن المسكين».

تبادلنا نكات الملا نصر الدين حتى نفذ مخزوننا منها فران الصمت مجددًا.

قال فريد، موقظًا إياي وقد كدت أنام:

- أمير أغا!

- نعم.

- لماذا أنت هنا؟ أقصد، لماذا أنت هنا حقًا؟

- قلت لك!

- من أجل الصبي؟

- من أجل الصبي!

تقلّب فريد على الأرض:

- يصعب تصديق ذلك.

- أحيانًا يصعب عليّ أنا نفسي تصديق أنني هنا.

- لا... كنت أقصد أن أسألك لماذا هذا الصبي؟ لقد قطعت ذلك الطريق من أمريكا من أجل... شيوعي؟

قتلت كلمته الضحكة بداخلي. والنوم أيضًا. قلت:

- أنا متعب. دعنا نَنم وحسب.

سرعان ما تردد شخير فريد في الغرفة الخاوية. ظللت مستيقظًا، ويداي معقودتان على صدري، أحرق في الليلة المضاءة بالنجوم عبر الشباك المكسور، وأفكر أن ما يقوله الناس عن أفغانستان ربما كان صحيحًا. ربما كانت مكانًا لا رجاء منه.

* * *

كانت الجماهير الصاخبة تملأ استاد غازي عندما دخلنا من أنفاق الدخول. آلاف الناس يروحون ويجيئون في المدرجات الأسمتية شديدة التكدس. أطفال يلعبون في الممرات يطارد بعضهم بعضًا طلوعًا ونزولًا على الدرج. رائحة الحمص بالصوص الحار معلقة في الهواء، مختلطة برائحة الروث والعرق. مررت أنا وفريد من أمام باعة جائلين يبيعون السجائر، وجوز الصنوبر، والبسكويت.

شدني صبي نحيل في معطف من صوف التويد من مرفقي وتكلم في أذني. سألني إن كنت أريد شراء بعض «الصور المثيرة».

قال:

- مشيرة جدًا، أغا.

كانت عيناه المتيقظتان تقفزان من جانب إلى جانب - ذكّرني بفتاة كانت، قبل بضع سنوات، تحاول أن تبيعني الكوكايين في حي «تندرلوين» في سان فرانسيسكو. فتح الفتى أحد جانبي معطفه وسمح لي بنظرة خاطفة إلى صورته المشيرة: بطاقات بريدية تحمل صورًا لأفلام هندية تعرض ممثلات ساخنات بعيون ظباء، بكامل ملابسهن، بين أذرع رجالهن الأقوياء. كرر قوله:

- مشيرة جدًا.

قلت، وأنا أدفعه وأواصل طريقي:

- لا، شكرًا.

غمغم فريد:

- إذا قبض عليه، سوف يجلدونه جلدًا يوقظ والده من قبره.

لم يكن هناك تخصيص للمقاعد، بالطبع. ولا أحد يرافقنا بأدب إلى القسم والممر والصف والمقعد المخصص. لم يكن الأمر كذلك قط، حتى في الأيام الخوالي للملكية. عثرنا على موقع جيد، على يسار منتصف الملعب مباشرة، مع أن الأمر تطلب بعض التدافع واللكز من جانب فريد.

تذكرت كم كان عشب الملعب أخضر في السبعينيات عندما كان بابا يصطحبني لمباريات كرة القدم هنا. الآن أصبح الملعب مهترئًا. كانت هناك حُفَرٌ ونُقَرٌ في كل مكان، أبرزها حفرتان عميقتان في الأرض خلف قائمي المرمى الجنوبي. ولم يكن هناك عشب على الإطلاق، تراب فقط. عندما نزل الفريقان أخيرًا أرض الملعب - وجميعهم يرتدون سراويل

طويلة، على حرارة الجو - وبدأت المباراة، أصبح من الصعب متابعة الكرة وسط سحابات التراب التي تثيرها أقدام اللاعبين. وكان شبان من الطالبان يمسكون بسياط ويجوبون الممرات يضربون كل من يهتف بصوت عالٍ.

أتوا بهما بعد صافرة نهاية الشوط الأول. شاحتان نصف نقل حمران متربتان، مثل تلك التي أراها في البلدة منذ وصولي، دخلتا الاستاد من البوابة. وقف الحشد على أقدامه. كانت امرأة ترتدي برقعاً أخضر وتجلس في مؤخرة إحدى الشاحتين، ورجل معصوب العينين في الأخرى. دارت الشاحتان حول الملعب، ببطء، كما لو كانتا تريدان للحشد أن يلقي نظرة مطولة. وكان لذلك التأثير المرجو: اشرأبت أعناق الناس، ووقفوا على أطراف أصابعهم بجواري، كانت تفاحة آدم في عنق فريد تعلو وتهبط وهو يتمتم هامساً بالدعاء.

دخلت الشاحتان الحمران إلى الملعب، وسارتا نحو أحد طرفيه وسط سحابتين توأمين من التراب، وأشعة الشمس تنعكس على أغطية إطاراتهما. وقابلتهما شاحنة ثالثة عند طرف الملعب. كانت مؤخرة تلك الأخيرة مملوءة بشيء ما، وأدركت فجأة الغرض من هاتين الحفرتين خلف المرمى. أفرغوا حمولة الشاحنة الثالثة. وهمهم الحشد مترقباً.

قال فريد بنبرة جادة:

- هل تريد أن تبقى؟

قلت:

- لا.

لم أرغب في حياتي في الابتعاد عن مكان قدر رغبتني الآن.
- لكن يجب أن نبقي.

كان اثنان من الطالبان بينديتي كلاشينكوف تتأرجحان مائلتين على كتفيهما يساعدان الرجل معصوب العينين على النزول من الشاحنة الأولى واثنان آخرون يساعدان المرأة الملثمة بالبرقع. التوت ركبتا المرأة أسفلها وسقطت على الأرض. سحبها الجنديان إلى أعلى فسقطت ثانية. عندما حاولا رفعها من جديد شرعت في الصراخ وأخذت ترفس بقدميها. لن أنسى، طالما ظلت أنفاسي تتردد، صوت تلك الصرخة. صرخة حيوان مفترس يحاول أن يخلص قدمه من الفخ الذي أطبق عليها. انضم اثنان آخرون من الطالبان وساعدا في إجبارها على النزول في إحدى الحفرتين العميقتين حتى الصدر. على الجانب الآخر، سمح الرجل معصوب العينين لهم بهدوء بإنزاله في الحفرة المحفورة له. الآن كان جذعا الزوجين المتهمين وحدهما يبرزان فوق سطح الأرض.

وقف شيخ سمين بلحية بيضاء يرتدي عباءة رمادية قرب المرمى وتنحنح في ميكروفون يمسكه بيده. من خلفه كانت المرأة في الحفرة لا تزال تصرخ. تلا آيات مطولة من القرآن بصوته الأجش الذي يتردد وسط الصمت المفاجئ لجماهير الاستاد. تذكرتُ شيئاً قاله لي بابا قبل زمن طويل: «أتبول على لحي كل أولئك القردة مُدَّعي الصلاح، إنهم لا يفعلون شيئاً إلا التسبيح وقراءة كتاب كُتب بلسان لا يفقهونه حتى. فليكن الله في عوننا جميعاً إذا سقطت أفغانستان في أيديهم».

عندما انتهت التلاوة، تنحنح الشيخ، ثم شرع يقول بالفارسية وصوته يهدر في أرجاء الاستاد:

- إخواني وأخواتي. نحن هنا اليوم لنطبق الشريعة. نحن هنا اليوم لنطبق العدالة. نحن هنا اليوم لأن إرادة الله وكلمات النبي محمد، عليه الصلاة والسلام، حيّة هنا في أفغانستان، وطننا الحبيب. نحن نسمع ما يقوله الله ونطيع لأننا لسنا سوى عبيد فقراء إلى الله. وماذا يقول الله؟ أسألكم! ماذا يقول الله؟ يقول الله «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ». تلکم لیست کلماتی، ولا کلمات إخواني. تلکم کلمات الله!

أشار بيده الحرة إلى السماء. رأسي تدق والشمس حامية.

كرر الشيخ في الميكروفون، وهو يخفض صوته، لافظًا كل كلمة ببطء، ودرامية:

- «إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ»، وكيف ننتقم، إخواني وأخواتي، من الزناة؟ كيف نعاقب أولئك الذين ينتهكون حرمة الزواج؟ كيف نرد على أولئك الذين يرمون نوافذ بيت الله بالحجارة؟ سنرجمهم بالحجارة!

أطفأ الميكروفون. وانتشرت همهمة خفيضة بين الحشود.

إلى جواري، كان فريد يهز رأسه. همس قائلاً:

- ويسمّون أنفسهم مسلمين.

ثم خطا رجل طويل عريض المنكبين من مؤخرة الشاحنة. وأثارت رؤيته هتافات الاستحسان من بعض المشاهدين. تلك المرة، لم يُضرب أحد بالسوط على الهتاف بصوت عال. تلاّأت عباءة الرجل الطويل البيضاء الناصعة في ضوء شمس الظهيرة. وكان ذيل قميصه الخارج من بنطاله يرف مع النسيم، وذراعا مفرودتان كذراعي المسيح على الصليب. حيّا الحشد

بأن دار ببطء دورة كاملة. عندما واجه القسم الذي نجلس فيه، رأيته يضع نظارة مدورة داكنة مثل تلك التي كان يرتديها «جون لينون».

قال فريد:

- لا بد أنه رجلنا.

سار الطالبان الطويل ذو النظارة السوداء باتجاه كومة الحجارة التي أفرغوها من الشاحنة الثالثة. التقط حجرًا وعرضه على الحشد. هدأت الضوضاء، وحل محلها صوت طنين تردد صدهاء في الاستاد. نظرت حولي فرأيت أن الجميع كانوا يطرقعون بألستهم. ألقى الطالبان، الذي كان يبدو - للعبث - كرامي بيسبول في دائرة الرمي، بالحجر صوب الرجل معصوب العينين في الحفرة. أصاب رأسه من الجنب. صرخت المرأة ثانية. أصدر الحشد صوت «أوه!» فزع. أغمضتُ عينيَّ وغطيت وجهي بيديَّ. كانت «أوه!» المتفرجين تتردد مع كل رمية حجر، واستمر الأمر لفترة. عندما توقفوا، سألت فريدًا إذا كان الأمر قد انتهى. فقال لا. خمنت أن حلق الناس تعب. لا أعرف كم من الوقت ظللت جالسًا ويداي على وجهي. أعرف أنني فتحت عينيَّ ثانية عندما سمعت الناس من حولي يتساءلون:

- «مرد؟ مرد؟» (هل مات؟)

كان الرجل في الحفرة قد أصبح الآن كومة مختلطة من الدم والأسمال الممزقة. رأسه ملقى إلى الأمام، وذقنه على صدره. كان الطالبان بنظارة «جون لينون» ينظر إلى أسفل صوب رجل آخر مقرفص إلى جوار الحفرة، يُلقي الحجر إلى أعلى وأسفل بيده. وكان الرجل المقرفص يضع أحد طرفي سماعة طبية في أذنيه ويضغط بالطرف الآخر على صدر الرجل في

الحفرة. رفع السماعه عن أذنيه وهز رأسه بلا للطالبان ذي النظارة الشمسية.
وتأوهت الحشود.

سار «جون لينون» عائداً إلى الكومة.

عندما انتهى الأمر، عندما أُلقيت الجثتان الداميتان بلا اكتراث في مؤخرتي
الشاحنتين نصف النقل الحمرأوين - كل في شاحنة - هرع بضعة رجال
بجواريف ليظمروا الحفرتين. وحاول أحدهم عابراً أن يُغطي البقع الدموية
الكبيرة بركل التراب فوقها. بعد بضع دقائق، نزل الفريقان إلى أرض الملعب.
وبدأ الشوط الثاني.

جرى ترتيب مقابلتنا في الثالثة بعد ظهر ذاك اليوم. وفاجأتني السرعة التي
جرى بها تحديد الموعد. كنت أتوقع تأجيلاً، جولة من الاستجواب على
الأقل، وربما فحصاً لأوراقنا. ولكن ذلك ذكّرني بالشكل غير الرسمي الذي
لا تزال تجري به حتى الأمور الرسمية في أفغانستان: كل ما كان على فريد أن
يفعله هو أن يخبر أحد الطالبان حملة السياط بأننا نريد مناقشة أمور شخصية
مع الرجل ذي الرداء الأبيض. تبادل فريد بعض الكلمات معه. ثم أوماً حامل
السوط وصاح بشيء بالبشتو لشاب في الملعب، جرى باتجاه المرمى الجنوبي
حيث كان الطالبان ذو النظارة الشمسية يثرثر مع الشيخ السمين الذي ألقى
الخطبة. تحدث الثلاثة معاً. رأيت الرجل ذا النظارة الشمسية ينظر إلى أعلى.
أوماً برأسه. قال شيئاً في أذن الرسول. ونقل الشاب الرسالة لنا.

تم تحديد الموعد. في الثالثة.

أبطأ فريد من سرعة الـ«لاندكروزر» في مدخل بيت كبير في وزير أكبر خان. صفَّ السيارة في ظلال أشجار الصفصاف بفروعها المنسابة على جدران المجمع السكني القابع في شارع ١٥، «سراك مهمانه»، شارع الضيوف. أبطل المحرك وجلسنا لدقيقة، ننصت لطققة المحرك وهو يبرد، من دون أن ينبس أحدا بكلمة. راوح فريد مكانه وعبث بالمفاتيح التي لا تزال معلقة أسفل عجلة القيادة. كنت أعرف أنه يهين نفسه ليقول لي شيئا.

قال أخيراً، بنبرة فيها شيء من الاعتذار ولم ينظر إليّ:

- أظنني سأنتظرك في السيارة. هذا شأنك الآن. أنا...

ربتُّ على ذراعه:

- لقد عملتَ بأكثر مما تقاضيتَ. لا أنتظر منك أن تذهب معي.

لكنني كنت أتمنى لو لم يكن عليّ الدخول بمفردي. وعلى الرغم مما عرفته عن بابا، تمنيت لو كان يقف بجانبني حينذاك. كان بابا سيقترح الباب الأمامي ويطلب أن يأخذوه إلى المسؤول، ويبول على لحية كل من يقف في طريقه. لكن بابا مات منذ زمن، ودُفن في القسم الأفغاني من مقبرة صغيرة

في هايوارد. وقد وضعت أنا وثرىا، الشهر الماضي فقط، باقة من زهور الربيع والسوسن بجوار شاهد قبره. أنا الآن وحدي.

خرجت من السيارة وسرت باتجاه البوابة الأمامية الخشبية العالية للمنزل. ضربتُ الجرس لكنني لم أسمع رنينه - ما زالت الكهرباء مقطوعة - وكان عليّ أن أطرق الباب. بعد لحظة، سمعت أصواتًا خافتة من الجانب الآخر وفتح الباب رجلان يحملان بندقيتي كلاشينكوف.

ألقيت نظرة على فريد الجالس في السيارة، وحركت شفتيّ بكلمة «سأعود»، من دون يقين أنني سأفعل.

فتّشني الرجلان المسلحان من رأسي إلى قدميّ، خبطا على ساقيّ، وتحسّسا مُلتقى الساقين. قال أحدهما شيئًا بالبشتو ثم تضاحك الاثنان همسًا. عبرنا البوابة الأمامية. رافقني الحارسان عابرين أرضًا معشبة مشذبة بأناقة، مارين من أمام صف من زهور الـ«جيرانيوم» وشجيرات مقلّمة تصطف بطول الجدار. كانت هناك بئر قديمة بمضخة يدوية في الطرف البعيد من الباحة. تذكرت بئرًا كهذه في منزل كاكاهمايون في جلال أباد - وكنت أنا والتوأمان فضيلة وكريمة نلقي الحصى فيها، ونستمع إلى الرنين.

ارتقيننا بضع درجات ودخلنا منزلًا كبيرًا، قليل الزخارف. عبرنا الردهة - وكان على أحد الجدران علم كبير لأفغانستان - واصطحبني الرجلان إلى الطابق العلوي، إلى غرفة بها أريكتان توأمان خضراوان بلون النعناع وشاشة تلفزيون كبيرة في الزاوية البعيدة، وسجادة صلاة مرسوم عليها الكعبة مستطيلة قليلًا مسمّرة إلى أحد الجدران. أشار أكبر الرجلين نحو الأريكة بفوهة سلاحه. جلست. وغادرا الغرفة.

عقدت ساقيّ. فككتهما. وضعت يديّ المتعرقتين على ركبتيّ. هل يجعلني

ذلك أبدو متوترًا؟ ضممتها معًا، وقررت أن ذلك أسوأ، فعقدت ذراعيَّ على صدري. اندفع الدم إلى صدغيَّ. شعرت بأنني وحيد تمامًا. كانت الأفكار تحوم في رأسي، لكنني لم أرغب في التفكير على الإطلاق، لأن جزءًا وافيًا مني يعرف أن ما أوقعت نفسي فيه ضرب من الجنون. كنت على بعد آلاف الأميال من زوجتي، أجلس في غرفة تبدو لي زناينة، أنتظر رجلًا رأيته يقتل شخصين في ذلك اليوم نفسه. كان ذلك جنونًا. والأسوأ، كان جنونًا غير مسؤول. كان ثمة احتمال واقعي للغاية: أن أترك ثريا «بيوه» (أرملة)، في سن السادسة والثلاثين. وكان جزء مني يقول: هذا ليس أنت يا أمير. أنت جبان. لقد جُبلت هكذا. وذلك ليس شيئًا سيئًا لأن ما يشفع لك هو أنك لم تكذب على نفسك قط في هذا الشأن. ليس في هذا الشأن. ليس ثمة خطأ في الجبن طالما يصحبه التعقل. لكن عندما يتوقف الجبان عن تذكر ماهيته... فليكن الله في عونته.

كان بجوار الأريكة طاولة قهوة. قوائمها على شكل حرف «X»، ترصع الحلقة التي تتقاطع عندها القوائم كرات نحاسية بحجم الجوز. رأيت طاولة مثلها من قبل. أين؟ تذكرت: في المقهى المزدهم في بيشاور، تلك الليلة التي ذهبت فيها للتمشية. على الطاولة كانت سلطانية من العنب الأحمر. قطفت حبة وألقيتها في فمي. كان عليَّ أن أشغل نفسي بشيء، أي شيء، لأسكت ذلك الصوت في رأسي. كانت حبة العنب حلوة. تناولت واحدة أخرى، غير مدرك أنها ستكون آخر قضمة من الطعام الصلب سأتناولها لوقت طويل.

فُتح الباب وعاد الرجلان المسلحان، وبينهما الطالبان الطويل ذو القميص الأبيض، لا يزال واضحًا نظارة «جون لينون» الداكنة، يبدو كولي صوفي عريض المنكبين من أولياء العصر الحديث.

جلس على مقعد قبالي وأراح يديه على ذراعي المقعد. لوقت طويل، لم يقل شيئًا. جلس يراقبني فقط، إحدى يديه تطبّل على حشية المقعد، والأخرى تدور مسبحة زرقاء فيروزية. كان يرتدي صُدرة سوداء فوق القميص الأبيض الآن، ويضع ساعة يد ذهبية. رأيت بقعة من الدم الجاف على كفه الأيسر. ولم أصدق ذلك الهوس الذي جعله لا يغير ملابسه بعد عمليتي الإعدام اللتين نفذهما في وقت سابق من ذاك اليوم.

كانت يده الحرة تعلو وأصابعها تخبط شيئًا ما في الهواء بانتظام. كانت تتأرجح بطيئًا، إلى أعلى وأسفل، من جانب إلى جانب، كما لو كانت تربت على حيوان أليف غير مرئي. كان أحد كميّه مشمّرًا ورأيت علامات على ساعده - رأيت تلك الآثار نفسها على المشردين الذين يعيشون في الأزقة الوسخة في سان فرانسيسكو.

كانت بشرته أفتح كثيرًا من بشرة الرجلين الآخرين، شاحبة تقريبًا، تومض على جبهته حفنة من حبات العرق الضئيلة أسفل حافة عمامته السوداء مباشرة. وكانت لحيته، الطويلة حتى الصدر مثل الآخرين، أفتح لونًا أيضًا.

قال:

- السلام عليكم.

- سلام.

قال:

- يمكنك أن تتخلى عن هذه الآن.

- معذرة؟

أدار كفه نحو أحد الرجلين المسلحين وأشار له. «ننترزعع». فجأة

شعرت بلسعات في خدي وكان الحارس يمسك بلحيتي في يده ويرميها إلى أعلى وأسفل، وهو يقهقه. ابتسم الطالبان.

- إحدى أفضل اللحى التي رأيته منذ فترة. لكنني أظن أن الوضع الآن أفضل كثيرًا بحق، أليس معي؟

دور أصابعه، طرقتها، قبضته تنفتح وتنغلق:

- إذن، هل استمتعت بالعرض اليوم، إن شاء الله؟

قلت:

- أكان ذلك عرضًا؟

وأنا أحكّ خدي، آملًا ألا يفضح صوتي انفجار الرعب الذي شعرت به بداخلي.

- العدالة العلنية أعظم أنواع العروض، يا أخي! دراما. إثارة. وفوق كل هذا، عبرة لمن يعتبر.

طرع بإصبعيه. فأشعل له أصغر الحارسين سيجارة. ضحك الطالبان. غمغم بشيء لنفسه. كانت يدها ترتعشان وكاد يُسقط السيجارة:

- لكن إذا أردت عرضًا حقيقيًا، كان عليك أن تذهب معي إلى مزار الشريف. كان ذلك في أغسطس ١٩٩٨ - معذرة.

- تركناهم مرميين للكلاب.

أدركتُ ما كان يرمي إليه.

وقف، دار حول الأريكة مرة، واثنين. جلس ثانية. تكلم في سرعة:

- كنا نتنقل من باب لباب، ننادي على الرجال والصبيان. كنا نطلق الرصاص عليهم هناك أمام أسرهم. نجعلهم يرون. نجعلهم يتذكرون مَنْ هم، وإلى أي مكان ينتمون.

كان يكاد يلهث الآن:

- أحيانًا، كنا نحطم أبوابهم ونقتحم بيوتهم. و... كنتُ... كنت أدير فوهة بندقيتي الآلية حول الغرفة وأطلق النار وأطلق حتى يعميني الدخان.

انحنى عليّ، كما لو كان سيكشف لي سرًا خطيرًا:

- لن تعرف معنى كلمة «تحرير» حتى تفعل ذلك، تقف في غرفة مليئة بالأهداف، وتدع الرصاصات تطير، من دون إحساس بالندم أو الحسرة، مدركًا أنك فاضلٌ صالحٌ محترمٌ، مدركًا أنك تقوم بعمل الله. إنه أمرٌ يحبس الأنفاس.

قبل مسبحته، ودورها في يده:

- هل تتذكر يا جويد؟

رد أصغر الحارسين قائلاً:

- نعم، أغا صاحب. كيف أنسى؟

كنت قد قرأت عن مذبحه الهزاره في مزار الشريف في الصحف. وقعت فور استيلاء طالبان على مزار الشريف، إحدى آخر المدن التي سقطت. تذكرت ثريا وهي تناولني المقالة على الإفطار، ووجهها خال من الدماء.

قال الطالبان:

- من باب لباب، لم نكن نستريح إلا للطعام والصلاة.

قالها بحنين، مثل رجل يحكي عن حفل عظيم حضره.

- تركنا الجثامين في الشوارع، وإذا حاولت أسرهم التسلل لسحبهم إلى منازلهم، نطلق النار عليهم أيضًا. تركناهم في الشوارع لأيام. تركناهم للكلاب. لحم الكلاب للكلاب.

سحق سيجارته. حكَّ عينيه بيدين مرتعشتين:

- هل جئت من أمريكا؟

- نعم.

- كيف حال تلك العاهرة هذه الأيام؟

انتابتنى رغبة مفاجئة في التبول. دعوت أن تمر.

- أنا أبحث عن صبي.

قال:

- أليس هذا هو حال الجميع؟

ضحك الرجلان حاملًا الكلاشينكوف. كانت أسنانهما خضراء من تبغ الـ«نسوار».

قلت:

- عرفت أنه هنا، معك. اسمه سهراب.

- سأسألك سؤالًا: ماذا تفعل مع تلك العاهرة؟ لماذا لست هنا، مع

إخوانك المسلمين، تخدم بلادك؟

- غادرت منذ زمن بعيد.

كان ذلك كل ما استطعت التفكير فيه. كان رأسي ساخنًا جدًا. ضغطت ركبتيَّ معًا، قابضًا على مثانتي.

استدار الطالبان إلى الرجلين الواقفين بجوار الباب، وسألهما:

- هل هذه إجابة؟

قالا في صوت واحد، مبتسمين:

- لا، أغا صاحب.

أدار عينيه إليَّ. هز كتفيه:

- يقولان إنها ليست إجابة.

سحب نفسًا من سيجارته.

- هناك أشخاص من حولي يؤمنون بأن التخلي عن الوطن وهو في أمس الحاجة إليك لا يختلف عن الخيانة. كان بوسعي أن أعتقلك بتهمة الخيانة، بل أن أطلق النار عليك. هل يخيفك ذلك؟

- أنا هنا من أجل الصبي فحسب.

- هل يخيفك هذا؟

- نعم.

قال:

- يجب أن يخيفك.

أراح ظهره على الأريكة. وسحق السيجارة.

فكرت في ثريا. ومنحني ذلك بعض الهدوء. فكرت في وحمته التي تشبه

المنجل، وانحناءة عنقها اللطيفة، وعينيها المضيئتين. فكرت في ليلة زفافنا، وكل منا يحدق في انعكاس صورة الآخر في المرآة تحت الطرحة الخضراء، وكيف تخرج خداهما عندما همست لها قائلاً إنني أحبها. تذكرت ونحن نرقص على أغنية أفغانية قديمة، ندور وندور، والجميع يراقبوننا ويصفقون، والعالم طيف من الأزهار، والفساتين، وحلل السهرة، والوجوه المتبسمة.

كان الطالبان يقول شيئاً.

- معذرة!

- أقول هل تحب أن تراه؟ هل تحب أن ترى غلامي؟

لوى شفته العليا لأعلى هازئاً وهو يقول تلك الكلمة الأخيرة.

- نعم.

غادر الحارس الغرفة. سمعت طقطقة باب يفتح. سمعت الحارس يقول شيئاً بالبشتو، بصوت قاس. ثم، وقع أقدام، وجلجلة أجراس مع كل خطوة. ذكرني ذلك بالقرْداتي الذي كنا نطارده أنا وحسن في «شهر نو». كنا ندفع له روية من مصروفنا مقابل رقصة. كان الجرس حول رقبة القرد يصدر صوت الجلجلة ذاته.

فُتح الباب ودخل الحارس. كان يحمل جهاز كاسيت على إحدى كتفيه. يتبعه صبي يرتدي «بيرهن ثُمبان» أزرق ياقوتياً.

كان الشبه مذهلاً. مربكاً. لم تكن صورة رحيم خان قد أوفته حقه.

كان للصبي وجه أبيه المستدير كالقمر، وذقنه البارزة، وأذناه الملويتان اللتان تشبهان الأصداغ البحرية، والبنية النحيفة ذاتها. كان وجه الدمية الصينية لطفولتي، الوجه الذي كان يبرز من خلف أوراق اللعب المفرودة

كالمروحة طوال أيام الشتاء، الوجه خلف الناموسية عندما كنا ننام على سطح دار والدي في الصيف. كان رأسه حليقًا، وعيناه مكحلتين، وخذاه متوهجين بحمرة غير طبيعية. عندما توقف في منتصف الغرفة، توقفت الأجراس الملفوفة حول كاحليه عن الجلجلة.

وقعت عيناه عليّ، تأملني لبعض الوقت، ثم أشاح ببصره. نَظَرَ إلى قدميه الحافيتين.

ضغط أحد الحارسين على زرٍّ فصدحت موسيقى البشتو في الغرفة. الطبلّة، وأرغن الهارمونيوم، ونواح الـ«دل روبا». فكرتُ أن الموسيقى ليست حرامًا طالما تصدح في آذان الطالبان. وشرع الرجال الثلاثة في التصفيق. أخذوا يُنشدون:

– «واه واه!» ما شاء الله!

رفع سهراب ذراعيه ودار ببطء. وقف على أطراف أصابعه، لف برشاقة، انحنى إلى ركبتيه، انتصب، ثم دار ثانية. كانت يداه تدوران من عند الرسغين، وأصابعه تطرقع، ورأسه يتأرجح من جانب إلى جانب مثل البندول، وقدماه تطرقان الأرض، والأجراس تجلجل في تناغم كامل مع إيقاع الطبلّة. وظلت عيناه مغمضتين.

هتفوا:

– ما شاء الله! «شاباش!» برافو!

صَفَّرَ الحارسان وضحكا. وكان الطالبان في القميص الأبيض يهز رأسه إلى الأمام وإلى الخلف مع الموسيقى، وفمه نصف مفتوح في خُبث.

رقص سهراب في دائرة، وعيناه مغمضتان، رقص حتى انتهت الموسيقى.

جلجلت الأجراس مرة أخيرة عندما دق بقدمه مع آخر أنغام الأغنية. تجمّد في منتصف الدوران.

قال الطالبان وهو يدعو سهراب إليه:

- «بيا، بيا»، يا غلامي.

ذهب سهراب إليه منكس الرأس، وقف بين فخذه. أحاطه الطالبان بذراعيه. قال:

- كم هو موهوب، أليس كذلك، غلامي الهزاره هذا!

انزلت يده على ظهر الطفل، ثم طلعتا ثانية، وتحسستا تحت إبطيه. لكز أحد الحارسين الآخر وغمغم. أمرهما الطالبان أن يتركانا وحدنا.

قالا وهما يخرجان:

- حاضر، أغا صاحب.

أدار الطالبان الصبي حتى أصبح في مواجهتي. شبك ذراعيه حول بطن سهراب، وأراح ذقنه على كتف الصبي. نظر سهراب إلى أسفل عند قدميه، لكنه ظل يختلس النظر بخجل، نظرات متلصصة تجاهي. انزلت يد الرجل إلى أعلى وأسفل على بطن الصبي. أعلى وأسفل، ببطء ولطف.

قال الطالبان، وعيناه الحمراءوان بلون الدم تحدقان فيّ من فوق كتف سهراب:

- كنت أتساءل: ماذا حدث لبابالو العجوز؟

خبطني السؤال مثل مطرقة بين عينيّ. شعرتُ بالدم ينسحب من وجهي. وصارت ساقي باردتين. مخدرتين.

ضحك:

- ماذا كنت تظن؟ أنني لن أتعرف عليك عندما تضع لحية مستعارة؟ هناك شيء أراهن أنك لم تعرفه عني قط: أنا لا أنسى الوجوه. إطلاقاً.

داعب أذن سهراب بشفتيه، مثبتاً عينيه عليّ:

- سمعت أن والدك قد مات. «تسك تسك». لطالما أردت النيل منه. يبدو أنني سأكتفي بابه المخنث.

ثم خلع نظارته الشمسية وثبت عينيه الزرقاوين الداميتين على عينيّ:

حاولت أن ألتقط نفسي فلم أستطع. حاولت أن أطرف فلم أستطع. بدت اللحظة سريالية - لا، ليست سريالية، عبثية - حتى إنها كتمت أنفاسي، وثبتت العالم من حولي. كان وجهي يحترق. ماذا كانت المقولة القديمة عن القرش المنحوس؟ كان ماضيّ هكذا، دائماً يرجع إليّ. صعد اسمه من الأعماق ولم أُرِد أن أنطق به، كما لو كان النطق به قد يستحضره. لكنه كان هناك، بشحمه ولحمه، يجلس على بعد أقل من عشر أقدام مني، بعد كل تلك السنوات. فرّ اسمه من بين شفتيّ:

- آصف!

- أمير جان.

- ماذا تفعل هنا؟

قلتها مدركاً مدى حماقة السؤال، لكنني لم أستطع التفكير في أي شيء آخر أقوله.

رفع آصف أحد حاجبيه:

- أنا؟ أنا في مكاني. السؤال هو: ماذا تفعل أنت هنا؟

قلت:

- لقد أخبرتك.

كان صوتي يرتعد، وتمنيت لو لم يرتعد، تمنيت لو لم ينقبض لحمي على عظامي.

- الغلام؟

- نعم!

- لماذا؟

قلت:

- سأدفع لك المقابل. يمكنني أن أرسل في طلب النقود.

قال آصف:

- نقود؟

قهقه ضاحكًا.

- هل سمعت عن «روكنجهام»؟ غربي أستراليا، قطعة من الجنة. يجب أن تراها، أميال وأميال من الشواطئ، مياه خضراء، وسماوات زرقاء. والداي يعيشان هناك، في فيلا على البحر مباشرة. ثمة ملعب جولف خلف الفيلا وبحيرة صغيرة. يلعب والدي الجولف كل يوم، ووالدتي، تفضل التنس - يقول والدي إن لديها ضربة خلفية فاجرة. يمتلكان مطعمًا أفغانيًا ومتجرين للمجوهرات، وتسير أعمالهما على نحو رائع.

قطف حبة عنب حمراء، ووضعها، بحب، في فم سهراب:

- لذا، إذا أردت نقودًا، فسوف أجعلهما يحولان لي نقودًا.

قبل جانب عنق سهراب. جفل الصبي قليلاً، وأغمض عينيه:

- ثم إنني لم أحارب الروس من أجل النقود، ولا انضممت إلى الطالبان من أجل النقود. هل تريد أن تعرف لماذا انضممت إليهم؟

كان الجفاف قد أصاب شفتي. لعقتهما فوجدت أن لساني جف هو الآخر.

قال آصف مبتسمًا بشماتة:

- هل تشعر بالعطش؟

- لا.

- أظنك تشعر بالعطش.

قلت:

- أنا بخير.

وكانت الحقيقة أن الغرفة بدت فجأة شديدة الحرارة - وكان العرق يتفصد من مسامي، ويوخز جلدي. وهل كان ذلك يحدث بالفعل؟ هل كنت أجلس حقًا قبالة آصف؟

قال:

- كما تريد. على أية حال، أين كنا؟ آه نعم، كيف انضممت إلى الطالبان؟ حسنًا، كما قد تتذكر، لم أكن متدينًا، لكن في يوم ما رأيت رؤيا. رأيتها في السجن. هل تريد أن تسمع؟

لم أقل شيئًا.

- طيب. سأخبرك. قضيت بعض الوقت في السجن، في بوله - شرخي، بُعيد أن استولى «بابرك كرمَل» على السلطة عام ١٩٨٠. انتهى بي الأمر هناك ذات ليلة، عندما اقتحمت مجموعة من جنود الـ«برتشمي» بيتنا وأمروني أنا ووالدي بالسير خلفهما تحت تهديد السلاح. أولاد الزنا لم يوضحوا الأمر، ولم يجيبوا عن أسئلة أمي. لا أقول إن الأمر كان غامضاً؛ كان الجميع يعرف أن الشيوعيين ليس لهم أصل. كانوا ينحدرون من عائلات فقيرة بلا اسم. والآن، كان نفس الكلاب الذين لم يكونوا مؤهلين للتعق حذائي قبل مجيء الروس يأمروني تحت تهديد السلاح، والعلم الـ«برتشمي» على صدورهم، يتحدثون حديثهم التافه عن سقوط البورجوازية، ويتصرفون وكأنهم ذوو أصل. كان هذا ما يحدث في كل مكان: داهم الأثرياء، القى بهم في السجن، واجعلهم عبرة لمن يعتبر. على أية حال، كنا مكдسين في مجموعات من ستة في تلك الزنازين التي لا يزيد حجم كل منها عن حجم ثلاجة. وكل ليلة، كان أمر السجن، وهو شيء نصف هزاره نصف أذربك تفوح منه رائحة حمار نتن، يأمر بواحد من السجناء فيُسحب خارج الزنزانة، ويضربه حتى ينهمر العرق على وجهه السمين. ثم يشعل سيجارة، ويُطرق مفاصله، وينصرف. في الليلة التالية، كان يختار شخصاً آخر. وذات ليلة، اختارني. في توقيت ما كان يمكن أن يكون أسوأ من ذلك؛ إذ كنت أتبول دمًا منذ ثلاثة أيام. حصوات في الكلية. وإذا لم تكن قد أُصبت بها من قبل، صدقني عندما أقول إنها أسوأ ألم يمكن تخيله. وقد أُصبت بها أمي أيضًا، وأتذكر أنها أخبرتني ذات مرة أنها تفضل آلام الولادة عن آلام حصاة في الكلية. على أية حال، ماذا كان بوسعي أن أفعل؟ سحبوني إلى الخارج وشرع هو في ركلي. كان له حذاء طويل يصل إلى الركبتين بمقدمة حديدية، ينتعله كل ليلة من أجل مباراة الركل الصغيرة، واستخدمه عليّ. كنت أصرخ وأصرخ وظل هو يركلني، ثم فجأة، ركلني على كليتي اليسرى فسقطت الحصاة. هكذا! أوه، الراحة!

ضحك آصف:

- وصرختُ أنا: «الله أكبر»، فركلني ثانية بقوة أكبر وشرعت أضحك. جُن جنونه وضربني بقوة أكبر، وكلما كان يركلني أقوى، كنت أضحك بقوة أكبر. ألقوا بي إلى الزنزانة ثانية وأنا أضحك. ظللت أضحك وأضحك لأنني عرفت فجأة أن تلك كانت رسالة من الله. لقد كان بجانبني أنا. لقد أرادني أن أحيأ لسبب ما. تعرف، صادفت آمر السجن في ميدان المعركة بعدها ببضع سنوات - أمر غريب كيف يرتب الله الأمور. وجدته في خندق خارج «ميمنه»، ينزف من شظية أصابت صدره. كان لا يزال ينتعل الحذاء نفسه. سألته إن كان يتذكرني. قال لا. فأخبرته بما أخبرتك به للتو، أنني لا أنسى الوجوه. ثم أطلقت النار على خصيتيه. ومن يومها، وأنا في مهمة مقدسة. سمعتُ نفسي أقول:

- أي مهمة مقدسة تلك؟ رجم الزناة؟ اغتصاب الأطفال؟ جلد النساء اللاتي ينتعلن أحذية بكعب عال؟ ذبح الهزاره؟ كل هذا باسم الإسلام؟ اندلقت الكلمات فجأة ومن دون توقُّع، خرجت قبل أن أكبح جماحها. تمنيت لو كان بوسعي سحبها، ابتلاعها، لكنها خرجت. تجاوزت الحد، وأي أمل ضئيل في أن أخرج حيًّا، تبخر مع تلك الكلمات.

لاحت على وجه آصف دهشة عابرة، قصيرة، ثم اختفت. قال هازئًا:
- أرى أن ذلك قد يصبح ممتعًا في نهاية المطاف. لكن ثمة أشياء لا يفهمها الخونة أمثالك.

- مثل ماذا؟

اختلج حاجب آصف:

- مثل الافتخار بشعبك، بعاداتك، بلغتك. أفغانستان مثل بيت جميل
تنتشر القمامة في أرجائه وعلى شخص ما أن يجمع تلك القمامة.

- هل هذا ما كنت تفعله في مزار الشريف وأنت تنتقل من باب إلى باب؟
تجمع القمامة؟

- بالضبط.

قلت:

- في الغرب، لديهم مصطلح لذلك. يسمونه تطهيرًا عرقيًا.

أشرق وجه آصف:

- حقًا؟ تطهير عرقي. يعجبني ذلك. تعجبني صوتياته.

- لا أريد سوى الصبي.

غمغم آصف، وهو يتذوق الكلمتين «تطهير عرقي».

قلت ثانية:

- أريد الصبي.

حوّل سهراب عينيه ناحيتي. كانتا عيني خروف يستعد للذبح. بل كانتا
مكحلتين - أتذكر كيف كان الملا في باحتنا الخلفية، يوم عيد القربان، يكحل
عيني الخروف ويطعمه مكعبًا من السكر قبل أن يحز عنقه. ظننت أنني أرى
تلك النظرة المتوسلة في عيني سهراب.

قال آصف:

- قل لي لماذا.

عَضَّ شحمة أذن سهراب بين أسنانه. ثم تركها. والعرق ينحدر على جبهته.
- هذا شأني.

قال:

- ماذا تريد أن تفعل به؟

ثم ابتسم ابتسامة خبيثة:

- أو فيه؟

قلت:

- هذا مقزز.

- كيف تعرف؟ هل جربت؟

- أريد أن أصطحبه لمكان أفضل.

- قل لي لماذا.

- هذا شأني.

لم أعرف ما الذي جرأني على تلك الحدة، ربما حقيقة أنني كنت أظنني
ميتاً في كل الأحوال.

قال آصف:

- أتساءل. أتساءل عن السبب الذي دعاك لقطع هذا الطريق كله، أمير، هذا
الطريق كله من أجل هزاره؟ لماذا أتيت إلى هنا؟ لماذا أتيت إلى هنا حقاً؟

قلت:

- لدي أسبابي.

قال آصف باحتقار:

- حسنًا جدًا إذن.

خبط على ظهر سهراب، ودفعه إلى الطاولة مباشرة. اصطدم فخذ سهراب بالطاولة، فقلبها رأسًا على عقب واندلق العنب. سقط عليها، بوجهه أولًا، وتلطح قميصه بعصير العنب الأرجواني. وانقلبت ساقا الطاولة اللتان تتقاطعان عبر كرات نحاسية، فأصبحتا تشيران إلى السقف.

قال آصف:

- خذه، إذن.

ساعدت سهراب على الوقوف على قدميه، ونفضت عنه قطع العنب المسحوق التي التصقت بينطاله مثلما تلتصق الطحالب بالصخور.

قال آصف، وهو يشير إلى الباب:

- اذهب، خذه واذهب.

تناولت يد سهراب. كانت صغيرة، جلدها جاف ومتشقق. تحركت أصابعه، وتشابكت في أصابعي. رأيت سهراب في تلك الصورة ثانية، كيف كانت ذراعه ملفوفة حول ساق حسن، ورأسه مستريحة على فخذ والده. كان كلاهما يبتسمان. وجلجلت الأجراس فيما نقطع الغرفة.

وصلنا إلى الباب.

قال آصف من خلفنا:

- بالطبع، لم أقل إن بوسعك أن تأخذه مجانًا.

استدرت:

- ماذا تريد؟

- عليك أن تفوز به.

- ماذا تريد؟

قال آصف:

- لدينا عمل لم ينته، أنا وأنت. تتذكر، أليس كذلك؟

لم يكن عليه أن يقلق. فلم أكن لأنسى اليوم الذي أعقب إطاحة داود خان بالملك. طوال حياتي التالية، وكلما سمعت اسم داود خان، كان ما أراه هو حسن بنبلته المصوبة تجاه وجه آصف. وحسن يقول إنهم سوف يسمونه آصف الأعور بدلاً من آصف «جوشخاور». أتذكر كم حسدت حسناً على شجاعته. وكان آصف قد تراجع، متوعداً أنه سينال منا نحن الاثنين يوماً ما. وقد أوفى بوعده مع حسن. والآن جاء دوري.

قلت:

- حسناً.

ولم أكن أعرف ماذا يمكن أن أقول. لم أكن لأتوسل، لم يكن ذلك ليغير شيئاً، إلا أن يزيد اللحظة حلاوة بالنسبة إليه.

نادى آصف على الحارسين ليدخلا الغرفة ثانية. قال لهما:

- اصغيا إليّ: بعد لحظة، سوف أغلق الباب، ثم سأنهي أنا وهو شأننا قديماً، أيّاً كان ما تسمعانه لا تدخل! هل تسمعانني؟ لا تدخل!

أوما الحارسان. نظرا من آصف إليّ:

- حاضر، أغا صاحب.

قال آصف:

- عندما ينتهي الأمر، سيخرج واحد منا فقط من تلك الغرفة حيًّا. إذا كان هو، سيكون قد كسب حرّيته، فاتركاه يمر، هل تفهمان؟

راوح الحارس الأكبر بين قدميه:

- لكن، أغا صاحب...

صرخ آصف:

- إذا كان هو، اتركاه يمر!

جفل الرجلان لكنهما أوما برأسيهما. استدارا ليخرجا. واتجه أحدهما إلى سهراب.

قال آصف:

- دعه يبقى.

ابتسم.

- دعه يشاهد. الدروس أمر طيب للغلمان.

غادر الحارسان. وضع آصف مسبحته. دس يده في الجيب العلوي لصُدرته السوداء. ولم يدهشني ما أخرجه من جيبه على الإطلاق: قبضة نحاسية مطلية بالصلب المقاوم للصدا.

* * *

في شعره جل وفوق شفّتيه الغليظتين شارب «كلارك جيبيل». تسرب الجِل في مسام كاب الجراحة الورقي الأخضر، صانعًا بقعة داكنة على شكل أفريقيا.

أتذكر ذلك عنه. ذلك والسلسلة الذهبية التي تحمل لفظ الجلالة والتي تحيط رقبته الداكنة. ينظر إليّ من عليّ، ويتكلم بسرعة بلغة لا أفهمها، الأوردو، كما أظن. وتتابع عيناى تفاحة آدم التي تعلو وتهبط، أعلى وأسفل، وأريد أن أسأله عن عمره بأية حال - يبدو صغيراً جداً، كممثل في مسلسل تلفزيوني أجنبي - لكن كل ما أستطيع الهمهمة به هو: أظنني صمدت في المعركة معه. أظنني صمدت في المعركة معه.

* * *

لست واثقاً من أنني صمدت في المعركة مع آصف. لا أظنني صمدت. وكيف كان لي أن أصمد؟ كانت أول مرة أعارك فيها أي شخص، بل لم ألكم أحداً في حياتي.

إن ذكرياتي عن المعركة مع آصف مذهشة في حيوية تفاصيلها: أتذكر آصف وهو يشغل الموسيقى قبل أن يضع قبضته النحاسية. سقطت سجادة الصلاة، التي تحمل صورة الكعبة المستطيلة، عن الحائط عند نقطة ما ونزلت على رأسي؛ وقد جعلني التراب المتطاير منها أعطس. أتذكر آصف وهو يدفع العنب في وجهي، وتكشירתه تكشف عن أسنان تلمع من اللعاب، وعيناه الداميتان تدوران. سقطت عمامته في لحظة ما، فحررت لفات شعره الأشقر الذي يصل إلى الكتفين.

ثم النهاية، بالطبع. تلك التي ما زلت أراها بوضوح تام. وسوف أظل أراها هكذا.

عموماً، أتذكر ما يلي: قبضته النحاسية تلمع في ضوء الأصيل؛ كم كانت باردة مع الضربات الأولى وكيف تدفأت بسرعة بدمائي. أطيح بي إلى الحائط، فغرس في ظهري مسمار ربما كانت تُعلّق عليه صورة في إطار ذات مرة. سهراب

يصرخ، طبله، هارمونيوم، «دل روبا». يطوح بي إلى الحائط. القبضة النحاسية تهشم فكي. أختنق بأسناني، أبتلعها، أفكر في كل الساعات التي لا حصر لها التي قضيتها في تسليكها بالخيط الطبية وغسلها بالفرشات. يطوح بي إلى الحائط. أتمدد على الأرض، والدم النازف من شفتي العليا المقطوعة يبقع السجادة الأرجوانية، الألم يمزق أحشائي، وأتساءل متى أتمكن من التنفس ثانية. صوت ضلوعي تطلق مثل فروع الأشجار التي كنا أنا وحسن نكسرهما لتتبارز بها على الثلوج مثل سندباد في تلك الأفلام القديمة. سهراب يصرخ. يرتطم صدغي بزاوية حامل التلفزيون. صوت الطقطقة ثانية، تلك المرة أسفل عيني اليسرى مباشرة. موسيقى. سهراب يصرخ. أصابع تشد شعري، وتسحب رأسي إلى الخلف، يريق الصلب المقاوم للصدأ. ها قد جاءوا. صوت الطقطقة من جديد، الآن أنفي. أعض على شفتي من الألم، وأنتبه إلى أن أسناني لم تعد مصفوفة مثلما كانت من قبل. أركل. يصرخ سهراب.

لا أعرف عند أي نقطة بدأت في الضحك، لكنني ضحكت. كان الضحك يؤلمني، يؤلم فكي، وضلوعي، وحلقي. لكنني كنت أضحك وأضحك. وكلما اشتدت ضحكاتي، اشتدت ركلاته، ولكماته، وضربات.

ظل آصف يجأر مع كل ضربة:

- علام تضحك؟

تناثر لعبه وسقط في عيني. صرخ سهراب.

جأر آصف:

- علام تضحك؟

ضلع آخر يطقطق، تلك المرة أسفل جنبي الأيسر. ما كان مضحكاً هو

أن تلك كانت أول مرة منذ شتاء ١٩٧٥ أشعر فيها بالسكينة. كنت أضحك لأنني رأيت أنني، في ركن منزوٍ من أركان عقلي، لطالما كنت أتطلع إلى تلك اللحظة. تذكرت يوم كنا على التل وأنا أرشق حسناً بشمار الرمان محاولاً استفزازه. وقف، ولم يفعل شيئاً، والعصير الأحمر يلطخ قميصه مثل الدم. ثم أخذ الرمانة من يدي، وسحقها على جبهته. قال بصوت خافت: «هل أنت راضٍ؟ هل تشعر بتحسن؟» لم أكن سعيداً ولم أشعر بتحسن، على الإطلاق. لكنني شعرت به الآن. كان جسدي يتحطم - لن أعرف إلى أي حد إلا لاحقاً - لكنني كنت أشعر أنني أتعافى. أتعافى أخيراً. وكنت أضحك.

ثم النهاية. تلك التي سأصطحبها إلى قبري:

كنت على الأرض أضحك، وأصف يركب على صدري، ووجهه قناع من الجنون، تحيطه خصلات من شعره، تتأرجح على بعد سنتيمترات من وجهي. كانت يده الخاوية مطبقة على حلقي. والأخرى، ذات القبضة النحاسية، مرفوعة فوق كتفه. رفع قبضته عالياً، رفعها لضربة أخرى.

ثم:

- «بَسْ»!

صوت رفيع.

ونظرنا نحن الاثنين.

- أرجوك، كفى!

تذكرتُ شيئاً قاله مدير دار الأيتام عندما فتح الباب لي أنا وفريد. ماذا كان اسمه؟ «زمان»؟ قال إنه لا ينفصل عن النبلة. يدسها في بنطاله حيثما ذهب.

- كفى!

كان خيطان من الكحل الأسود، المختلط بالدموع، يسيلان على خديه، ملوَّثين أحمر الخدود. وكانت شفته السفلى ترتعش. والمخاط يسيل من أنفه. وقال بصوت متحشرج:

- «بَسْ»!

كانت يده مرفوعة فوق كتفه، يمسك قوس إطلاق النبلة في نهاية الشريط المرن، الذي كان مسحوبًا إلى آخره للخلف. كان هناك شيء في القوس، شيء لامع وأصفر. طرفتُ كي أسقط الدم عن عينيّ فرأيتُ إحدى الكرات النحاسية من الحلقة في قاعدة الطاولة. كان سهراب يصبوب النبلة إلى وجه آصف.

قال، بصوت مبحوح ومرتعش:

- كفى، أغا. أرجوك. كف عن إيذائه!

تحرك فم آصف من دون صوت. كاد أن يقول شيئًا. ثم توقف. وقال أخيرًا:

- ماذا تظنك فاعل؟

قال سهراب، ودموع جديدة تتراكم في عينيه الخضراوين، ممتزجة بالكحل:

- توقف أرجوك!

قال آصف همسًا:

- أنزلها أيها الهزاره. أنزلها وإلا سيكون ما أفعله به قرصة أذنٍ خفيفة مقارنة بما سأفعله بك.

انفجرت الدموع. وهز سهراب رأسه، ثم قال:

- أرجوك، أغا. توقف!

- أنزلها!

- توقف عن إيذائه!

- أنزلها!

- أرجوك!

- أنزلها!

- «بَسْ»!

- أنزلها!

ترك آصف حلقي، واندفع تجاه سهراب.

أصدرت النبلة صوتًا «سوووووويت» عندما حرر سهراب القوس. ثم صرخ آصف، ووضع يده على المكان الذي كانت عينه اليسرى تشغله قبل لحظة. وبض الدم من بين أصابعه. الدم وشيء آخر، شيء أبيض يشبه الجِل. وقلت لنفسي: هذا يسمى الماء الزجاجي. لقد قرأت هذا في مكان ما. الماء الزجاجي.

تقلّب آصف على السجادة. تقلّب من جنب إلى جنب وهو يصرخ أَلْمَا، ويده ما زالت مدورة على محجره الدامي.

قال سهراب:

- هيا بنا!

أخذ يدي. ساعدني على الوقوف على قدمي. كان كل جزء من جسدي المضروب ينوح أَلْمَا. وخلفنا، كان آصف يواصل الصراخ.

جار قائلاً:

- اخرجوا! اخرجوا!

مترنحًا، فتحتُ الباب. اتسعت عيون الحارسين عندما شاهداني وتساءلتُ كيف أبدو. كانت معدتي تؤلمني مع كل نفس. قال أحد الحارسين شيئًا بالبشتو ثم اندفعا من جانبنا، داخلين إلى الغرفة حيث آصف لا يزال يصرخ:

- اخرجوا!

قال سهراب، وهو يسحب يدي:

- «يا» (هيا بنا)!

تعثرت وسقطت في الطريقة، ويد سهراب الصغيرة في يدي. ألقيت نظرة توجس أخيرة. كان الحارسان منكبين على آصف، يفعلان شيئًا بوجهه. ثم فهمت: كانت الكرة النحاسية لا تزال محشورة في المحجر الفارغ.

كان العالم بأكمله يهتز إلى أعلى وأسفل، يتأرجح من جانب إلى جانب، عرجتُ على درجات السلم، مستندًا على سهراب. من أعلى، كانت صرخات آصف تتواصل بلا توقف، صرخات حيوان جريح. وصلنا إلى الخارج، في ضوء النهار، ذراعي حول كتف سهراب، ورأيت فريدًا يجري باتجاهنا.

قال، وقد جحظت عيناه لرؤيتنا:

- بسم الله! بسم الله!

أدار ذراعي حول كتفه ورفعني. حملني إلى السيارة وهو يركض. أظنني صرخت. شاهدت كيف كان صندله يخبط الرصيف، ويصطدم بكعبيه المتشققين الأسودين. كان التنفس يؤلمني. ثم كنت أنظر إلى أعلى تجاه سقف الـ«لاندكروزر»، في المقعد الخلفي، وكان تنجيده بُنيًا وممزقًا، سمعت أصوات «دينج دينج دينج» التي تشير إلى فتح الأبواب. وقع خطوات تجري

حول السيارة. فريد وسهراب يتبادلان كلمات سريعة. أبواب السيارة تُصَفَع
ويدور المحرك. تقفز السيارة إلى الأمام وأشعر بيد ضئيلة على جبهتي.
سمعت أصواتًا في الشارع، بعض الصراخ، ورأيت أشجارًا ضبابية تجري
في النافذة. كان سهراب ينشج، وفريد يكرر مرة بعد أخرى:

- بسم الله! بسم الله!

عند تلك اللحظة فقدت الوعي.

تبرز وجوه من الضباب، تلبث قليلاً، ثم تختفي. تنحني، تسألني أسئلة. كلهم يسألون أسئلة. هل أعرف من أنا؟ أين أشعر بالألم؟ أعرف من أنا وأشعر بالألم في كل موضع. أريد أن أخبرهم بهذا لكن الكلام يؤلمني. أعرف ذلك لأنه منذ فترة، من عام ربما، أو عامين، أو عشرة، حاولت أن أتكلم إلى طفل بخدين أحمرين وعينين ملطختين بالسواد. الطفل. نعم، أراه الآن. نحن في سيارة ما، أنا والطفل، ولا أظن أن ثريا هي من تقود لأن ثريا لا تقود بتلك السرعة. أريد أن أقول شيئاً للطفل - ويبدو لي أنه شيء مهم جداً. لكنني لا أتذكر ما أريد قوله، أو أين تكمن أهميته. ربما أريد أن أطلب منه أن يتوقف عن البكاء، وأخبره بأن كل شيء بات على ما يرام الآن. ربما لا. لسبب لم أستطع تحديده، أريد أن أشكر الطفل.

وجوه. كلها تضع طواقي خضراء. ينزلقون داخليين وخارجين إلى مجال الرؤية. يتكلمون بسرعة، يستخدمون كلمات لا أفهمها. أسمع أصواتهم، وضوضاء أخرى، صافرات وأجراس إنذار. ومزيد من الوجوه دوماً. تنحني. لا أتذكر أيّاً منها، إلا ذلك الوجه صاحب الجبل على شعره وشارب «كلارك جيبيل»، الوجه صاحب بقعة أفريقيا على طاقيته. السيد

نجم المسلسلات التلفزيونية. أمر طريف. أريد أن أضحك الآن. لكن الضحك يؤلم هو الآخر.
أفقد الوعي.

* * *

تقول إن اسمها عائشة، «اسم زوجة النبي». شعرها الذي وخطه الشيب مفروق من المنتصف ومربوط في ذيل حصان، وأنفها مخروم بدبوس على شكل شمس. تضع نظارة سمكة تجعل عينيها جاحظتين. ترتدي الأخضر أيضًا ويدها ناعمتان. تراني أنظر إليها فتبتسم. تقول شيئًا بالإنجليزية. يوخزني شيء في جنب صدري.
أفقد الوعي.

* * *

رجل واقف إلى جوار سريري. أعرفه. إنه داكن البشرة، ونحيف. له لحية طويلة. يضع قبعة - ماذا تسمى تلك القبعات؟ «بكول»؟ يضعها مائلة على أحد الجانبين مثل شخص شهير راح اسمه من ذهني الآن. أعرف ذلك الرجل. أقلني إلى مكان ما قبل بضعة أعوام. أعرفه. هناك مشكلة في فمي. أسمع أصوات بقبة.
أفقد الوعي.

* * *

تحرقني ذراعي اليمنى. المرأة ذات النظارة السمكة والدبوس على شكل شمس منحنية على ذراعي، تلصق أنبوبًا بلاستيكيًا نظيفًا به. تقول إنه «بوتاسيوم». تقول «إنه يلسع كالنحلة، أليس كذلك؟» هو كذلك. ما اسمها؟

شيء له علاقة بالنبى. أعرفها هي الأخرى منذ بضع سنوات. كانت وقتها تربط شعرها في ذيل حصان. الآن بات مسحوبًا إلى الخلف، ومعقوصًا. ثريا كانت تمشط شعرها بتلك الطريقة عندما تحدثنا لأول مرة. متى كان ذلك؟ الأسبوع الماضى؟

عائشة! نعم.

ثمة مشكلة في فمى. وذلك الشيء الذى يوخز صدرى.
أفقد الوعى.

* * *

نحن في جبال سليمان في بلوشستان وبابا يصارع الدب الأسود. إنه بابا طفولتى، «طوفان أغا»، الرمز العملاق للقوة البشتونية، ليس ذلك الرجل الداوى تحت البطاطين، الرجل ذا الخدين الغائرين والعينين الخاويتين. يتقلبان على بقعة من العشب الأخضر، رجل ووحش، يتطاير شعر بابا البنى المجعد. يزأر الدب، أو ربما بابا. يتطاير رذاذ اللعاب والدم، يخمش المخلب وتهوى اليد. يسقطان على الأرض بدمدمة عالية ويجلس بابا على صدر الدب، تُغرس أصابعه في خطمه. ينظر إلى أعلى تجاهى فأرى. إنه أنا. أنا أصارع الدب.

أستيقظ. عاد الرجل النحيف الداكن بجوار سريرى. اسمه فريد. أتذكر الآن. ومع الطفل من السيارة. يذكرني وجهه بصوت الأجراس. أنا عطشان. أفقد الوعى.

أظل أستيقظ وأفقد الوعى.

* * *

تبين أن اسم الرجل صاحب شوارب «كلارك جيبيل» الدكتور فاروقي. لم يكن نجمًا في المسلسلات التلفزيونية على الإطلاق، وإنما جراح رأس وعنق، مع أنني ظلمت أظنه شخصًا اسمه «أرماند» في مسلسل مثير تجري أحداثه في جزيرة استوائية.

أردت أن أسأل: أين أنا؟ لكن فمي لم يكن ليُفتح. قطبت جبیني. أخرجت آهة مكتومة. ابتسم أرماند، كانت أسنانه ناصعة البياض.

قال:

- ليس بعد، أمير، لكن قريبًا. عندما نفك الأسلاك.

كان يتحدث الإنجليزية بلكنة أوردو بطيئة وغليلة.

(أسلاك؟)

عقد «أرماند» ذراعيه، كان ساعدها مُشعّرين ويضع خاتم زواج ذهبيًا.

- لعلك تتساءل أين أنت، وماذا حدث لك. هذا طبيعي تمامًا، دائمًا ما يكون المريض مرتبكًا بعد الجراحة. لذا سأخبرك بما أعرفه.

أردت أن أسأله عن الأسلاك. بعد الجراحة؟ أين عائشة؟ أردتها أن تبسم لي، أردت يديها الناعمتين في يديّ.

قطب «أرماند» جبينه، ورفع أحد حاجبيه كشخص يعرف أهميته:

- أنت في مستشفى في بيشاور. ظللت هنا ليومين. وقد عانيت من بعض الإصابات شديدة الخطورة، أمير، يجب أن أخبرك بذلك. وأقول إنك محظوظ جدًا لأن تظل على قيد الحياة، صديقي.

كان يهز سبابته إلى الأمام والخلف كبندول وهو يتكلم:

- لقد تمزَّق طحالك، وأغلب الظن أن تمزقه تأخر، لحسن حظك. كانت هناك علامات على نزيف مبكر في تجويفك البطني. وكان على زملائي من وحدة الجراحة العامة أن يجروا لك جراحة طارئة لاستئصال الطحال. لو تمزق قبلها بقليل، لنزفت حتى الموت.

رَبَّتْ على ذراعي، الذراع المتصلة بالمحقن الوريدي، وابتسم:

- لقد انكسرت لك سبعة أضلع. أحدها تسبب في استرواح صدري.

قطبت جبينني. حاولت أن أفتح فمي. تذكرت أمر الأسلاك.

شرح «أرماند»:

- هذا يعني ثقبًا في الرئة.

شد الأنبوب البلاستيكي الجديد المعلق إلى شمالي. شعرت بالوخز مجددًا في صدري.

- سددنا التسرب بهذا الأنبوب الصدري.

تابعتُ الأنبوب الذي يبرز من الأربطة على صدري باتجاه حاوية نصف ممتلئة بأنابيب مياه. كان صوت البقبة يأتي منها.

- وقد أُصبت أيضًا بجروح قطعية. ذلك يعني جروحًا غير نافذة أو عميقة.

أردت أن أخبره بأنني أعرف معنى الكلمة؛ فأنا كاتب. أردت أن أفتح فمي. نسيت أمر الأسلاك ثانية.

قال «أرماند»:

- أسوأ الجروح القطعية كانت في شفتك العليا. وكانت النتيجة قطع شفتك العليا إلى جزأين، في المنتصف تمامًا. لكن لا داعي للقلق، فقد

خاطها جراحو التجميل وهم يعتقدون أن النتيجة ستكون رائعة، وإن كانت ستخلف ندبة مكانها. هذا أمر لا مفر منه. كان هناك أيضًا كسر محجري في الجانب الأيسر، في عظمة محجر العين، وكان علينا أن نصلحه أيضًا. سوف نفك الأسلاك من فكّيك بعد نحو ستة أسابيع. وحتى ذلك الوقت لن تتناول سوى السوائل والطعام المخفوق، ستفقد بعض الوزن وتتكلم مثل «آل باتشينو» في الجزء الأول من فيلم «العراب» لبعض الوقت.

ضحك:

- لكن عليك مهمة اليوم. هل تعرف ما هي؟

هزرت رأسي.

- مهمتك أن تُخرج الغازات. إذا فعلت ذلك سنبدأ في إطعامك بعض السوائل. لا غازات، لا طعام.

ضحك مجددًا.

لاحقًا، بعد أن غيّرت عائشة أنبوب الحقن الوريدي ورفعت رأس السرير كما طلبت منها، فكرت فيما أصابني. طحال ممزق، أسنان مكسورة، رئة مثقوبة، محجر عين مكسور. لكن وأنا أراقب حمامة تنقر فتات الخبز على عتبة الشباك، ظللت أفكر في شيء آخر أخبرني به «أرماند» - الدكتور فاروقي. لقد قال:

- كانت النتيجة قطع شفتك العليا إلى جزأين، في المنتصف تمامًا.

في المنتصف تمامًا. مثل شفة أرنبية.

* * *

جاء فريد وسهراب لزيارتي في اليوم التالي. قال فريد، نصف مباح:

- هل تعرف اليوم من نحن؟ هل تتذكر؟

أومات.

قال ووجهه يُشرق:

- الحمد لله. لا مزيد من الهذيان.

قلت عبر فكين مربوطين بالأسلاك:

- شكرًا، فريد.

كان «أرماند» على حق - كان صوتي يشبه صوت «آل باتشينو» في «العرب». ولساني يدهشني كلما نخس فيها إحدى المساحات الخاوية التي خلفتها الأسنان التي ابتلعناها.

- أشكرك، وأعني ذلك. أشكرك على كل شيء.

أشاح بيد، وتضرج وجهه قليلًا. قال:

- «بَس»، لم أفعل ما يستحق الشكر.

التفتُ إلى سهراب. كان يرتدي طاقم ملابس جديدًا، «بيرهن ثُمبان» بنيًا فاتحًا بدا كبيرًا عليه قليلًا، وطاقية سوداء. كان ينظر إلى قدميه، يعبث بأنبوب الحقن الوريدي المُلوكب على السرير.

قلت:

- لم نتعارف على الوجه السليم بعد.

مددتُ له يدي:

- أنا أمير.

نظر إلى يدي، ثم إليّ. قال:

- أنت أمير أغا الذي كلمني والدي عنه؟

- نعم.

تذكرت الكلمات في رسالة حسن: «حكيتُ عنك كثيرًا لفرزانه جان وسهراب، كيف كبرنا معًا وكيف لعبنا معًا وجرينا معًا في الشوارع. ويضحكان حين يسمعان كل الشقاوات التي كنا نقوم بها». قلت:

- أنا مدين لك بالشكر أنت أيضًا، سهراب جان. لقد أنقذت حياتي.

لم يقل شيئًا. أسقطتُ يدي عندما لم يتناولها. وغمغمتُ:

- تعجبني ملابسك الجديدة.

قال فريد:

- إنها لابني. لقد كبر عليها. وأرى أنها تناسب سهراب تمامًا.

قال إن سهراب بوسعه أن يظل معه حتى نجد مكانًا له.

- ليس لدينا مساحة كبيرة، لكن ماذا أفعل؟ لا يمكن أن أتركه للشوارع.

ثم إن أطفالي أحبوه. «ها»، سهراب؟

لكن الصبي ظل ينظر إلى الأرض، يدور الأنبوب بإصبعه.

قال فريد، بقدر من التردد:

- كنت أريد أن أسألك: ماذا حدث في ذلك المنزل؟ ماذا حدث بينك

وبين الطالبان؟

قلت:

- لنقل إننا كلينا نلنا ما نستحقه.

أوما فريد، ولم يلح. خطر لي أننا، في وقت ما بين المرة التي غادرنا فيها
بيشاوور متجهين إلى أفغانستان وبين الآن، أصبحنا أصدقاء.

- كنت أريد أن أسألك شيئاً أنا الآخر.

- ماذا؟

لم أرغب في السؤال. كنت خائفاً من الإجابة. قلت:

- رحيم خان.

- لقد رحل.

خفق قلبي.

- هل...

- لا، فقط... رحل.

ناولني ورقة مطوية ومفتاحاً صغيراً:

- أعطاني مالك البيت هذه الأشياء عندما ذهبت للسؤال عنه. قال إن

رحيم خان قد غادر اليوم التالي لرحيلنا.

- أين ذهب؟

هز فريد كتفيه:

- قال المالك إنه لا يعرف. قال إن رحيم خان ترك لك خطاباً ومفتاحاً

ثم غادر.

نظر إلى ساعته:

- الأفضل أن أذهب. «يا»، سهراب.

قلت:

- يمكنك أن تتركه هنا لبعض الوقت. أن تأتي لاصطحابه لاحقًا؟

التفتُ إلى سهراب:

- هل تريد البقاء معي هنا لبعض الوقت؟

هز كتفيه ولم يقل شيئًا.

قال فريد:

- بالطبع. سأتي لاصطحابه قبل صلاة العشاء.

* * *

كان في الغرفة ثلاثة مرضى آخرون. اثنان أكبر سنًا، أحدهما بجيرة حول ساقه، والآخر يُحسّرج من الربو، وفتى في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة أُجريت له جراحة استئصال الزائدة الدودية. كان صاحب الجيرة يحدق فيها من دون أن تطرف عيناه، تتحول عيناه مني إلى الصبي الهزاره الجالس على المقعد. وكان أقارب زملائي في الغرفة - نساء في قمصان «شلوار»، وأطفال، ورجال يضعون الطواقي على رؤوسهم - يصولون ويجولون بصخب داخلين وخارجين. يجلبون معهم «بكورا» و«نان» و«سمبوسك» و«برياني». وأحيانًا كان أناس يتجولون وحسب في الغرفة، مثل الرجل الطويل الملتحي الذي دخل قبل وصول فريد وسهراب. كان يرتدي حرامًا بنيًا ملفوفًا حوله. وسألته عائشة سؤالًا بالأوردو. فلم يعرها انتباهًا ومسح الغرفة بعينه. وظننتُ أنه ينظر إليّ أطول قليلًا من اللازم. وعندما تحدّثت الممرضة إليه ثانية، استدار ورحل في صمت.

سألت سهراب:

- كيف حالك؟

هز كتفيه، ونظر في يديه.

قلت:

- هل تشعر بالجوع؟ لقد أعطتني السيدة طبقًا من الـ«برياني»، لكنني لا أستطيع تناوله.

لم أعرف ماذا أقول له غير ذلك.

- هل تريده؟

هز رأسه.

- هل تريد أن تتكلم؟

هز رأسه ثانية.

جلسنا هكذا لبعض الوقت، صامتين، أستند بظهري على رأس الفراش، وأتكئ على وسادتين، وسهراب على كرسي بثلاثة أرجل إلى جوار سريري. رحت في النوم عند لحظة ما، وعندما استيقظت، كان ضوء النهار قد خبا قليلاً، وتمددت الظلال، وسهراب لا يزال جالسًا إلى جواري. ولا يزال ينظر إلى يديه.

* * *

تلك الليلة، بعدما جاء فريد وأخذ سهراب، فتحت خطاب رحيم خان. كنت قد أجلت قراءته بقدر الممكن. جاء فيه:

أمير جان،

عسى أن يصلك هذا الخطاب وأنت في أمان إن شاء الله. أدعو الله ألا أكون قد تسببت لك في أي نوع من الأذى وألا تكون أفغانستان قد قست عليك. لقد ظللتُ أدعو لك في صلاتي منذ غادرت. كنتَ محققًا طيلة تلك السنوات في شكوكك بأنني كنت أعرف. كنت أعرف. أخبرني حسن بُعيد وقوع الأمر. ما فعلته كان خطأ، أمير جان، لكن لا تنسَ أنك كنت صبيًا عندما وقع الأمر، صبيًا صغيرًا مضطربًا. قسوتَ على نفسك أكثر من اللازم وقتها، وما زلت كذلك - رأيت ذلك في عينيك في بيشاور. آمل أن تتبه لذلك: الرجل الذي لا يمتلك ضميرًا، ولا خيرًا، لا يعاني. آمل أن تنتهي معاناتك مع انتهاء الرحلة إلى أفغانستان.

أمير جان، أشعر بالخجل لأننا كذبنا عليك طيلة تلك السنوات. كنتَ محققًا في غضبك في بيشاور. كان من حقك أن تعرف. وحسن أيضًا. أعرف أن ذلك لم يكن ليحل أي شخص من أي شيء، لكن كابول التي عشنا فيها في تلك الأيام كانت عالمًا غريبًا، عالمًا تكتسب فيه بعض الأشياء أهمية أكبر من الحقيقة. أمير جان، أنا أعرف كم قسا والدك عليك في صباك. ورأيتك وأنت تعاني وتشتاق لمحبتة، وكان قلبي يدمي لك. لكن والدك كان رجلًا ممزقًا بين نصفين، أمير جان: أنت وحسن. أحبكما كليكما، لكنه لم يستطع أن يحب حسنًا بالطريقة التي يتوق إليها، على الملأ، كأب. وهكذا، أسقط ذلك عليك أنت - أمير، النصف الشرعي في عين المجتمع، النصف الذي يمثل الثروات التي ورثها، وما صاحبها من حق ارتكاب الآثام من دون عقاب. عندما كان يراك، كان يرى نفسه. يرى ذنبه. ما زلت تشعر بالغضب وأنا أعرف أنه من المبكر جدًا أن تتقبل

ذلك، لكن ربما ترى يومًا ما أن والدك عندما كان يقسو عليك، كان يقسو على نفسه أيضًا. كان والدك، مثلك، روحًا معذبة، أمير جان.

لا أستطيع أن أصف لك عمق ما أصابني من حزن وكآبة عندما عرفت بوفاة. كنت أحبه، ليس فقط لأنه كان صديقي، وإنما لأنه كان - أيضًا - رجلًا صالحًا، بل ربما رجلًا عظيمًا. وهذا ما أريدك أن تفهمه، إن الخير، الخير الحقيقي، في والدك وُلد من رحم الندم. أحيانًا أظن أن كل ما كان يفعله: إطعام الفقراء في الشوارع، وبناء دار الأيتام، وإغداق المال على أصدقائه المحتاجين، كل ذلك كان وسيلة للتكفير عن ذنبه. وتلك هي التوبة النصوح في رأيي، أمير جان، أن يقودك الإثم إلى الصلاح.

أعرف أن الله سوف يغفر في نهاية الأمر. سوف يغفر لوالدك، ولي، ولك أيضًا. وآمل أن تستطيع ذلك أنت أيضًا؛ أن تغفر لوالدك ما استطعت. أن تغفر لي إن أردت. لكن، الأهم، أن تغفر لنفسك.

تركت لك بعض النقود، معظم ما تبقى لي، في واقع الأمر. أظنك ستحتاج إلى بعض النفقات عندما ترجع إلى هنا، وأظن أن النقود ستكفي لتغطيتها. هناك بنك في بيشاور، فريد يعرف مكانه. النقود مودعة في خزانة بداخله. وقد أعطيتك المفتاح. أما أنا، فقد حان وقت رحيلي. لم يعد أمامي كثير من الوقت وأريد أن أقضيه وحدي. رجاء لا تحاول البحث عني. هذا آخر ما أطلبه منك.

أتركك في رعاية الله.

صديقك دائمًا

رحيم

مسحت عيني بكم قميص المستشفى. طويت الرسالة ووضعتها أسفل المرتبة. (أمير، النصف الشرعي في عين المجتمع، النصف الذي يمثل الثروات التي قد ورثها، وما صاحبها من حق ارتكاب الآثام من دون عقاب.) قلت إن ذلك ربما كان السبب الذي جعل بابا يتأقلم بتلك الدرجة مع الولايات المتحدة. أن يبيع سقط المتاع مقابل مبالغ ضئيلة، وظائفنا المهينة، شقتنا البائسة - النسخة الأمريكية من الكوخ، ربما كان بابا عندما ينظر إليّ في أمريكا، يرى جزءًا صغيرًا من حسن.

لقد كتب رحيم خان يقول: «كان والدك، مثلك، روحًا معذبة». ربما كان الأمر كذلك. لقد ارتكبنا نحن الاثنان الإثم والخيانة. لكن بابا وجد طريقة لإخراج الصلاح من ندمه. وماذا فعلت أنا، سوى أنني أسقطت الإثم على الناس الذين خنتهم أنفسهم، ثم حاولت نسيان الأمر بأكمله؟ ماذا فعلت، سوى أنني أصبحت مصابًا بالأرق؟

ما الصواب الذي فعلته في حياتي؟

عندما دخلت الممرضة - ليست عائشة وإنما امرأة حمراء الشعر ضاع اسمها من ذاكرتي - بمحقن في يدها وسألته إذا كنت بحاجة إلى حقنة مورفين، قلت نعم.

* * *

خلعوا أنبوب الصدر في وقت مبكر من الصباح التالي، وأعطى «أرماند» الإشارة لمرؤوسيه كي يسمحوا لي بتناول بعض عصير التفاح. طلبت من عائشة مرآة وهي تضع كأس العصير على الطاولة المجاورة لفراشي. رفعت نظارتها السميكة إلى جبهتها وهي تفتح الستائر لتسمح لشمس الصباح أن تغمر الحجرة. قالت وهي توليني ظهرها:

- تذكّر، الآن، أنها ستبدو أفضل بعد بضعة أيام. وقعت لزوج ابنتي
حادثه دراجة نارية العام الماضي. وقد سُحل وجهه الوسيم على الأسفلت
وأصبح أرجوانيًا مثل الباذنجان. الآن عاد جميلًا مرة أخرى، مثل نجم من
نجوم «لوليوود».

على الرغم من تطميناتها، انحبست أنفاسي لدى نظري في المرأة ورؤيتي
للشيء الذي أصرّ على أنه وجهي. بدا لي كما لو أن شخصًا غرس خرطوم
مضخة هواء أسفل جلدي وفتح الصمام. كانت عيناï منفوختين وزرقاوين.
والأسوأ أن فمي كان كتلة بشعة من الأرجواني والأحمر، مليئة بالكدمات
والغُرز. حاولت الابتسام فترددت صاعقة من الألم في شفتيّ. لن أفعل ذلك
لفترة. كانت هناك غُرز في خدي الأيسر، وتحت الذقن، وعلى الجبهة أسفل
خط الشعر مباشرة.

قال الرجل ذو الجبيرة في ساقه شيئًا ما بالأوردو. هززت كتفيّ ورأسي.
أشار إلى وجهه، وربّت عليه، وابتسم ابتسامة واسعة، ابتسامة خالية من
الأسنان. قال بالإنجليزية:

- جيد جدًا. إن شاء الله.

همست:

- شكرًا.

دخل فريد وسهراب فوضعت المرأة جانبًا. جلس سهراب على كرسيه،
وأراح رأسه على الحاجز الجانبي للسرير.

قال فريد:

- تعرف، كلما أخرجناك من هنا أسرع، كان أفضل.

- الدكتور فاروقي يقول...

- لا أقصد المستشفى. أقصد بيشاور.

- لماذا؟

قال فريد:

- لا أظنك ستكون بأمان هنا لفترة طويلة.

خفض صوته:

- الطالبان لديهم أصدقاء هنا. سوف يبدأون في البحث عنك.

غمغمت:

- أظنهم بدأوا بالفعل.

فكرت فجأة في الرجل الملتحي الذي جاء يتجول في الغرفة ووقف
يحدق فيّ.

انحنى فريد للأمام:

- بمجرد أن تستطيع المشي، سوف آخذك إلى إسلام آباد. ليست الأوضاع
آمنة بالكامل هناك، لا يوجد مكان آمن في باكستان، لكنه أفضل من هنا. على
الأقل سوف يمنحك ذلك بعض الوقت.

- فريد جان، الوضع ليس آمنًا بالنسبة إليك أنت أيضًا. ربما يجدر بك
ألا تُرى بصحبتني. لديك عائلة تعتني بها.

أشاح فريد بوجهه:

- أولادي ما زالوا صغارًا، لكنهم يتمتعون بالفطنة. يعرفون كيف يعتنون
بأمهاتهم وأخواتهم.

ابتسم:

- ثم إنني لم أقل إنني سأفعل ذلك من دون مقابل.

قلت:

- وأنا لن أسمح لك لو عرضت.

نسيْتُ أنني لا أستطيع الابتسام فحاولت. سال خيط ضئيل من الدم إلى
ذقني:

- هل أطلب منك معروفًا آخر؟

قال فريد:

- من أجلك، ألف مرة ومرة!

وهكذا، شرعت أبكي. كنت أنفّر نفخات من الهواء، والدموع تتدفق على
خديّ، تلسع اللحم النّبيّ لشفتيّ.

قال فريد، متبهاً:

- ما الخطب؟

دفنت وجهي في إحدى يديه ورفعت الأخرى. كنت أعرف أن الغرفة
بأكملها تراقبني. بعدها، شعرت بأنني متعب، وخاو. قلت:

- أنا آسف!

كان سهراب ينظر ناحيتي بتقطيية جعّدت جبينه.

عندما صار بوسعي أن أتكلّم ثانية. قلت لفريد ما أحّتاّجه.

- قال رحيم خان إنهما يعيشان هنا في بيشاور.

قال فريد، وهو يتفحصني بحذر، كما لو كان يتساءل ما الذي قد يُطلق
عناني ثانية:

- ربما يجدر بك أن تكتب لي اسميهما.

كتبت اسميهما على منديل ورقي.

- «توماس وبيتي كالدويل».

وضع فريد الورقة المطوية في جيبه. قال:

- سأبحث عنهما بأسرع ما يمكن.

استدار إلى سهراب:

- أما بالنسبة إليك، فسوف آتي لآخذك في المساء. لا تُجهد أمير أغا كثيرًا.

لكن سهراب كان قد سار إلى النافذة، حيث تتبختر نصف دسته من
الحمامات جيئة وذهابًا على عتبة الشباك، تنقر في الخشب وفُتات الخبز القديم.

* * *

في الدرج الأوسط للخزانة المجاورة لفراشي، وجدتُ عددًا قديمًا من
مجلة «ناشيونال جيوغرافيك»، وقلم رصاص مقروصًا، وفرشاة بأسنان
مفقودة. وما كنت أمد يدي إليه الآن، والعرق يتصبب على وجهي من
الإجهاد، مجموعة من أوراق اللعب. عددها في وقت سابق، واندشت

حين وجدتها كاملة. سألت سهراب إن كان يريد أن يلعب. لم أتوقع أن يجيب، ناهيك عن أن يلعب. ظل صامتًا منذ هرب من كابول، لكنه استدار عن النافذة وقال:

- اللعبة الوحيدة التي أعرفها هي الـ«بنجبار».

- أشعر بالأسف عليك من الآن، لأنني أستاذ من أساتذة الـ«بنجبار». مشهور على مستوى العالم.

جلس على الكرسي المجاور لي. فرّقت له أوراقه الخمس:

- أنا ووالدك في سنك، كنا نلعب تلك اللعبة. خصوصًا في الشتاء، عندما تهطل الثلوج ولا نستطيع الخروج. كنا نلعبها حتى تغرب الشمس.

ألقي بورقة وسحب أخرى من الكومة. اختلست نظرات له وهو يفكر في أوراقه. كان يشبه والده في أشياء كثيرة: الطريقة التي يفرد بها الأوراق بكلتا يديه، الطريقة التي يضيق بها عينيه وهو يقرأ الأوراق، وأنه نادرًا ما ينظر إلى الشخص في عينيه.

لعبنا صامتين. فزت بالدور الأول، وتركته يفوز بالثاني، ثم خسرت أمامه الأدوار الخمسة التالية بالعدل والقسطاس. قلت بعد خسارتي الأخيرة:

- أنت ماهر كوالدك، وربما أفضل. لقد كنت أغلبه أحيانًا، لكنني أظنه كان يتركني أفوز.

توقفت قبل أن أقول:

- لقد رضعنا أنا ووالدك من المرأة نفسها.

- أعرف.

- ماذا... ماذا قال لك عنا؟

قال:

- إنك كنت أفضل صديق له في حياته.

دوّرت الولد الديناري بين أصابعي، وثنيته إلى الأمام وإلى الخلف. قلت:
- أخشى أنني لم أكن صديقًا جيدًا. لكنني أرغب في أن أكون صديقك.
أعتقد أنني يمكن أن أكون صديقًا جيدًا لك. هل يناسبك هذا؟ هل تحب؟
وضعت يدي على ذراعه، بحماس، لكنه جفل. أسقط الأوراق وسحب
كرسيه للخلف. سار باتجاه النافذة مجددًا. كانت السماء مغطاة بـوَخُطَات من
الأحمر والأرجواني فيما كانت الشمس تغرب على بيشاور. ومن الشارع،
أتت سلسلة من أصوات نفير السيارات ونهيق الحمير، وصافرة شرطي.
وقف سهراب في الضوء القرمزي، وجهته مضغوطة على الزجاج، وقبضته
مدفونتان في إبطيه.

* * *

ساعدني أحد مساعدي عائشة على أن أخطو أولى خطواتي تلك الليلة.
مشيت حول الغرفة مرة واحدة، إحدى يديّ تمسك بالمحقن الوريدي المعلق
على حامل متحرك، والأخرى تقبض على ساعد المساعد. استغرق الأمر
عشر دقائق كي أعود إلى السرير، وفي ذلك الوقت، كانت الخياطة في بطني
تنبض فأتفصّد عرقًا. رقدت على السرير، أجاهد أنفاسي، وقلبي يدق في
أذنيّ، أفكر كم أوحشتني زوجتي.

ظللنا نلعب الـ«بنجبار» أنا وسهراب، في صمت أيضًا، طيلة اليوم التالي.
واليوم الذي تلاه. كنا نادرًا ما نتكلم، فقط نلعب الـ«بنجبار»، أنا مستند برأسي

على رأس السرير، وهو جالس على كرسي بثلاث أرجل، لم يكن يكسر نظامنا المعتاد إلا التمشية حول الغرفة، أو الذهاب إلى الحمام في آخر القاعة. رأيت حلمًا في تلك الليلة. حلمت بأصف يقف في فتحة باب غرفة المستشفى، والكرة النحاسية لا تزال في محجر عينه. كان يقول:

-إننا واحد، أنا وأنت. رضعت معه، لكنك توأمي أنا.

* * *

قلت لـ«أرماند» في صباح اليوم التالي إنني سأغادر.

اعترض «أرماند»:

- ما زال الوقت مبكرًا على الخروج.

لم يكن يضع زي العمليات الجراحية ذلك النهار، بل كان في حلة فاخرة زرقاء داكنة وربطة عنق صفراء. وكان الجل باديًا في شعره.

- ما زلت تتناول المضادات الحيوية في الوريد و...

قلت:

- يجب أن أذهب. أقدر كل ما فعلتموه لي، جميعكم. حقًا. لكن يجب أن أغادر.

قال «أرماند»:

- إلى أين ستذهب؟

- أفضل ألا أقول.

- إنك تستطيع المشي بالكاد.

قلت:

- أستطيع المشي حتى نهاية القاعة ذهابًا وإيابًا. سأكون بخير.

كانت الخطة هكذا: أغادر المستشفى. أسحب النقود من خزانة الودائع وأدفع فاتورة العلاج. أذهب لدار الأيتام وأترك سهراب مع «توماس وبيتي كالدويل». ثم أجد توصيلة إلى إسلام أباد وأبدّل تذكرة الطائرة. أعطي نفسي بضعة أيام حتى أتحسن. ثم أعود إلى البيت.

تلك كانت الخطة، على أية حال. حتى وصل فريد وسهراب ذلك الصباح.
قال فريد:

- صديقك، هذان المدعوّان «توماس وبيتي كالدويل»، ليسا في بيشاور. استغرق الأمر عشر دقائق حتى أنزلق داخل الـ«بيرهن ثُمان». كان صدري يؤلمني، عند المنطقة التي شقوها لإدخال أنبوب الصدر، كلما رفعت ذراعي، ومعدتي تنقبض كلما انحنيت إلى الأمام. كنت أسحب أنفاسًا مقطّعة من الجهد الذي بذلته فقط في حزم بضع متعلقات في حقيبة ورقية بنية. لكنني استطعت أن أستعد، وكنت جالسًا على حافة الفراش عندما دخل فريد جالبًا تلك الأخبار. جلس سهراب على السرير إلى جوارى.

سألت:

- أين ذهابًا؟

هز فريد رأسه:

- أنت لا تفهم...

- لأن رحيم خان قال...

قال فريد وهو يلتقط حقيبتى:

- ذهبت إلى القنصلية الأمريكية. ليس هناك من يحمل اسم «توماس وبيتي كالدويل» في بيشاور. وفقًا للناس في القنصلية، لم يوجد قط. ليس هنا في بيشاور، على أية حال.

إلى جوارى، كان سهراب يتصفح العدد القديم من مجلة «ناشيونال جيوغرافيك».

* * *

سحبنا النقود من البنك. ظل المدير، وهو رجل بكرش عظيمة وبقعتين من العرق تحت ذراعيه، يلقي بالابتسامات ويخبرني أن أحدًا في البنك لم يلمس النقود. قال بجدية، وهو يهز سبابته بنفس طريقة «أرماند»:
- لا أحد على الإطلاق.

كانت القيادة إلى بيشاور بذلك الكم الكبير من النقود في حقيبة ورقية تجربة مخيفة إلى حد ما. ثم إنني كنتُ أشبه في كل رجل ملتجٍ يحدّق فيّ باعتباره قاتلاً من طالبان أرسله آصف. وزاد من خوفي أمران: هناك كثير من الملتحين في بيشاور، والجميع يحدّقون.

قال فريد، وهو يساعدني لأمشي متحاملاً من مكتب حسابات المستشفى عائدين إلى السيارة:
- ماذا نفعل به؟

كان سهراب في المقعد الخلفي للسيارة الـ«لاندكروزر»، يتابع المرور من النافذة المفتوحة، وذقنه تستند على كفيه.
قلت لاهثاً:

- لا يمكن أن يظل في بيشاور.

قال فريد:

- لا، أمير أغا، لا يمكن.

كان قد قرأ السؤال في كلماتي.

- أنا آسف. كنت أتمنى لو...

قلت:

- لا توجد مشكلة يا فريد.

ابتسمت ابتسامة متعبة.

- لديك أفواه تطعمها!

كان ثمة كلب يقف إلى جوار السيارة الآن، منتصبًا على قائمته الخلفيتين، ومستندًا بالأماميتين على باب السيارة، يهز ذيله. كان سهراب يربّت على الكلب. قلت:

- أظنه سيذهب إلى إسلام آباد معي في الوقت الحالي.

* * *

نمتُ أغلب الرحلة التي استغرقت أربع ساعات إلى إسلام آباد. حلمت كثيرًا، ولم أتذكر معظم أحلامي إلا كأضغاث مختلطة من الصور، لقطات من الذاكرة البصرية تبرز في رأسي مثل بطاقات في عجلة تدوير الملفات: بابا ينقع اللحم استعدادًا لحفل عيد ميلادي الثالث عشر. أنا وثرثيا نمارس الحب للمرة الأولى. الشمس تطلع من الشرق، وموسيقى الزفاف ما زالت تطن في آذاننا، يداها المُحنَّتان مشبوكتان في يدي. المرة التي اصطحبنا فيها

بابا أنا وحسن إلى حقل التوت في جلال أباد - كان المالك قد قال لنا إنه يمكننا أن نأكل قدر ما نريد إذا اشترينا أربعة كيلوات - وكيف انتهى بنا الأمر أنا وحسن بالآلام في المعدة. كم بدا دم حسن داكنًا، أسود تقريبًا، على الثلج، وهو يقطر من مقعدة بنطاله. «إن الدم شيء قوي، بَتَشِم». الخالة جميلة وهي تربت على ركبة ثريا وتقول: «الله يفعل ما فيه الخير، بَتَشِم، ربما ليس مُقَدَّرًا أن يحدث». النوم على سطح دار والدي. بابا يقول إن الخطيئة الوحيدة الكبيرة هي السرقة: «عندما تكذب، تسرق حق شخص في معرفة الحقيقة». رحيم خان على الهاتف، يخبرني أن ثمة طريقة لأعود صالِحًا من جديد: «طريقة لتعود صالِحًا من جديد».

إذا كانت بيشاور المدينة التي ذكّرتني بما كانت عليه كابول، فإسلام أباد المدينة التي كان يمكن أن تكون عليها كابول ذات يوم. كانت الشوارع أوسع من شوارع بيشاور، وأنظف، تصطف على جانبيها الكركديه وأشجار اللهب. كانت الأسواق أكثر تنظيمًا وأقل ازدحامًا بعربات الـ«توك توك» والمشاة. كان المعمار أكثر أناقة أيضًا، وأكثر حداثة، ورأيت متنزهات تتفتح فيها أزهار الياسمين في ظلال الأشجار.

عثر فريد على فندق صغير في شارع جانبي يمتد أسفل تلال مرج الله. مررنا من أمام جامع شاه فيصل الشهير في طريقنا إلى هناك، أكبر جوامع العالم، بأعمدته الأسمنتية العملاقة ومناراته الشاهقة. اشرب سهراب لمرآى الجامع، أخرج رأسه من النافذة وظل ينظر إليه حتى انعطف فريد عند الناصية.

* * *

كانت غرفة الفندق أفضل كثيرًا مقارنة بالغرفة التي مكثنا فيها أنا وفريد في كابول. كانت البياضات نظيفة، والسجاد مكنوسًا، والحمامات خالية من البقع. كان هناك شامبو وصابون، وشفرات للحلاقة، وحوض للاستحمام،

ومناشف تفوح منها رائحة الليمون. ولا بُقِع من الدماء على الجدران. وهناك شيء آخر: جهاز تلفزيون على الطاولة في مواجهة السريرين المُفْرَدَيْن.

قلت لسهراب:

- انظر!

شَغَلْتُ التلفزيون يدويًا - فلا جهاز للتحكم عن بعد - وأدّرت المؤشر. وجدت برنامجًا للأطفال يعرض دميّتين على شكل خروفين يغنيان بالأردية. جلس سهراب على أحد السريرين وضم ركبتيه إلى صدره. انعكست صور التلفزيون على عينيه الخضراوين وهو يشاهد، بوجه متحجر، ويهتز إلى الأمام وإلى الخلف. تذكرت المرة التي وعدت فيها حسنًا بشراء تلفزيون ملون لأسرته عندما تكبر.

قال فريد:

- سوف أذهب، أمير أغا.

- اقضي الليلة معنا. إنها رحلة طويلة. اذهب في الصباح.

- «تشكر». لكنني أريد أن أرجع الليلة. لقد اشتقت لأطفالي.

في طريقه للخروج من الغرفة، توقف في فتحة الباب، وقال:

- وداعًا، سهراب جان.

انتظر ردًا، لكن سهراب لم يعره انتباهًا. فقط كان يهتز إلى الأمام وإلى الخلف، وجهه مضاءً بالوهج الفضي للصور التي ترفُّ عليه من الشاشة.

في الخارج، أعطيته ظرفًا. عندما فضّه، فغرفاه.

قلت:

- لم أعرف كيف أشكرك. لقد فعلتَ لي الكثير.

قال فريد، وهو لا يزال في شيء من الحيرة:

- كم هنا؟

- أكثر قليلاً من ألفي دولار.

بدأ:

- ألفي دو...-

ثم صمت. كانت شفته السفلى ترتعش قليلاً. لاحقاً، عندما انطلق بالسيارة من موقفها، أطلق نفيhre مرتين ثم لَوَّح لي. لَوَّحت له. ولم أره بعد ذلك.

عدت إلى غرفة الفندق فوجدت سهراب راقداً على السرير، مقوساً على شكل حرف «c» كبير. كانت عيناه مغمضتين لكنني كنت أعرف أنه ليس نائماً! كان قد أطفأ التلفزيون. جلستُ على سريري ووجهي يتلوى من الألم، أجفف العرق البارد عن جبينني. تساءلت إلى متى أتألم حين أقف، أو أجلس، أو أتقلب على الفراش. تساءلت متى يمكنني أن أتناول طعاماً صلباً. تساءلت عما سأفعل بذلك الصبي الصغير الجريح الراقداً على الفراش، وإن كان جزءٌ مني يعرف بالفعل.

كانت هناك زجاجة مياه على المنضدة. صببت كوباً وتناولت حبتين من حبوب «أرماند» المسكنة للألم. كان الماء دافئاً ومرّاً. فتحت الستائر، وعُدت بطيئاً إلى السرير، وتمددت. ظننت أن صدري سوف يتمزق. عندما خف الألم قليلاً واستطعت التنفس مجدداً، سحبت البطانية إلى صدري وانتظرت حتى تبدأ حبوب «أرماند» مفعولها.

* * *

عندما استيقظت، كانت الغرفة أكثر إظلامًا، بدت شريحة من السماء تلوح من بين الستائر غسقًا أرجوانيًا يتحول إلى الليل. وكانت البياضات غارقة في البلب ورأسي ينبض. كنت أحلم ثانية، لكنني لم أتذكر موضوعات الأحلام.

شعرت بانقباض في قلبي عندما نظرت إلى فراش سهراب فوجدته خاويًا. ناديت عليه. أفرعني رجع صوتي. كان الأمر مربكًا، وأنا أجلس في غرفة فندق مظلمة، على بعد آلاف الأميال من البيت، جسدي محطم، أنادي باسم صبي لم أقابله إلا قبل أيام قليلة. ناديت باسمه ثانية فلم أسمع شيئًا. جاهدت كي أخرج من الفراش، بحثت في الحمام، ونظرت في الطريقة الضيقة خارج الغرفة. لقد رحل.

أغلقت الباب وعرجت نازلاً إلى مكتب المدير في البهو، ويدي تتشبث بالقضيب المثبت على جدار البهو. كان هناك نخيل صناعي مترب في زاوية البهو وطيور «بشروش» وردية تحلق على ورق الحائط. وجدت مدير الفندق يقرأ جريدة خلف مكتب الاستقبال المغطى بالفورمايكا. وصفت له سهراب، وسألته إذا كان قد رآه. أنزل جريدته وخلع نظارة القراءة. كان له شعر مزيت وشارب مربع صغير وخطه الشيب. وكانت تفوح منه رائحة غامضة لفاكهة استوائية لم أتمكن من تحديدها.

قال وهو يتنهد:

— الأولاد، إنهم يحبون الجري هنا وهناك. لدي ثلاثة منهم. طوال النهار يجرون هنا وهناك، ويزعجون أمهم.

روح على وجهه بالجريدة، وهو يحدق في فكيّ.

قلت:

- لا أظنه يجري هنا وهناك. ونحن لسنا من هنا. أخشى أن يكون قد تاه.

هزَّ رأسه من جانب إلى جانب:

- إذن كان عليك أن تبقي الصبي تحت نظرك، مُستر.

- أعرف. لكنني نعست وعندما استيقظت، كان قد رحل.

- الأطفال يحتاجون رعاية، تعرف.

قلت، ونبضي يتسارع:

- نعم.

كيف يكون بهذا القدر من اللامبالاة أمام قلقي؟ نقل الجريدة إلى يده الأخرى، وواصل الترويح:

- إنهم يريدون دراجات الآن.

- مَنْ؟

قال:

- أولادي. يقولون: «بابا، بابا، هات لنا دراجات وسوف لن نزعجك من فضلك يا بابا!».

أطلق ضحكة قصيرة من أنفه، وواصل:

- دراجات. أمهم سوف تقتلني، أقسم لك.

تخيلت سهراب مُلقى في حفرة. أو في مؤخرة شاحنة ما، مكبَّلاً ومكَمَّمًا. لم أكن أريد دمه على يدي. ليس هو أيضًا. قلت:

- أرجوك...

حدّثت. قرأت الاسم المكتوب على صدر قميصه الأزرق القطني
قصير الأكمّام.

- سيد فياض، هل رأيته؟

- الصبي؟

كظمت غيظي:

- نعم، الصبي! الصبي الذي جاء معي. هل رأيته أم لا، بالله عليك؟

توقف عن الترويح. وضّقت عيناه:

- لا تنفعل عليّ يا صاح. لست أنا من أضاعه.

لم يستطع منطقه أن يوقف الدم عن الاندفاع إلى وجهي.

- أنت محق. أنا مخطئ. إنه خطئي. والآن، هل رأيته؟

قال بجفاء:

- آسف!

وضع نظارته ثانية. وفتح جريدته بحدة صفعت الأوراق:

- لم أر هذا الصبي.

وقفت عند المكتب لدقيقة، أحاول ألا أصرخ. وفيما كنت أخرج من

البهو، قال:

- هل لديك فكرة عن المكان الذي قد يذهب إليه؟

قلت:

- لا.

شعرت بأنني متعب. متعب ومرعوب.

قال:

- هل لديه أية هوايات؟

رأيته وقد طوى جريدته.

- أولادي على سبيل المثال، سوف يفعلون أي شيء من أجل أفلام الأكشن الأمريكية، خصوصًا تلك التي يقوم ببطولتها «أرنولد واتسنيجر».

- الجامع! الجامع الكبير.

تذكرت كيف تجمّد سهراب من الدهشة لمرآى الجامع ونحن نمر بالسيارة من أمامه، كيف أطل برأسه من النافذة لينظر إليه.

- شاه فيصل؟

- نعم، هل يمكن أن تأخذني إليه؟

- هل تعرف أنه أكبر جامع في العالم؟

- لا، ولكن...

- ساحته وحدها يمكن أن تسع أربعين ألف شخص.

- هل يمكن أن تأخذني إليه؟

قال وهو يبدأ في التحرك من مكانه خلف المكتب:

- إنه لا يبعد إلا كيلو مترًا واحدًا من هنا.

- سأدفع لك مقابل التوصيلة.

تنهد وهز رأسه:

- انتظر هنا.

اختفى في الغرفة الخلفية، ثم عاد وهو يضع نظارة أخرى، وييده سلسلة مفاتيح، وخلفه امرأة قصيرة سميكة ترتدي ساريًا برتقاليًا. جلست على كرسيه خلف مكتب الاستقبال. قال وهو يتقدمني:

- لن آخذ نقودك. سأوصلك لأنني أب مثلك.

* * *

ظننت أن الأمر سينتهي بنا ونحن ندور في أرجاء المدينة حتى الليل. رأيت نفسي أتصل بالشرطة، وأصف لهم سهراب تحت نظرات فياض اللوامة. سمعت الضابط، صوته مجهود ولا مبالٍ، يسألني أسئلته الاعتيادية. وتحت الأسئلة الرسمية، سؤال غير رسمي: من ذا الذي يهتم بطفل أفغاني ميت آخر؟

لكننا وجدناه على بعد نحو مائة ياردة من الجامع، جالسًا في ساحة انتظار السيارات نصف الممتلئة، على جزيرة من العشب. توقّف فياض عند الجزيرة وأنزلني. قال:

- يجب أن أعود.

- لا مشكلة. سنعود مشيًا. شكرًا سيد فياض، شكرًا جزيلاً.

انحنى على المقعد الأمامي عندما نزلت:

- هل يمكن أن أقول شيئًا؟

- بالطبع.

في الغسق المعتم، لم يلح من وجهه سوى عدستي نظارة تعكسان الضوء الخافت:

- مشكلتكم أيها الأفغان هي أنكم ... حسنًا، أنتم متهورون قليلًا.

كنت متعبًا ومتألمًا. وكان فكاي ينقبضان. وكانت تلك الجروح اللعينة في صدري ومعدتي أشبه بأسلاك شائكة تحت جلدي. لكنني شرعت في الضحك على أية حال.

كان فياض يقول:

- ماذا... ماذا...

لكنني كنت أقهقه لحظتها، تنفجر من حلقي قهقهات مدوية، وتنطلق من فمي المربوط بالأسلاك.

قال:

- ناس مجانيين!

وصرّت إطاراته وهو ينطلق ماضيًا في سبيله، وأنواره الخلفية ترتعش بالأحمر في الضوء الخابي.

* * *

قلت:

- لقد أزعبتني.

جلست إلى جواره، وانقبض وجهي من الألم وأنا أنحني.

كان ينظر إلى الجامع. جامع شاه فيصل مصمم على شكل خيمة عملاقة. تجيء السيارات وتذهب، يتدفق سيل المصلين بأزيائهم البيضاء دخولًا وخروجًا. جلسنا صامتين، أنا مستند إلى شجرة، وسهراب إلى جداري، ركبته مضمومتان إلى صدره. أنصتنا للأذان، وشاهدنا المئات من أنوار

المبنى تسطع وضوء النهار ينحسر. كان الجامع يتلأأ مثل ماسة في الظلام.
أضاء السماء، ووجه سهراب.

قال سهراب، وذقنه مستندة على ركبتيه:

- هل ذهبت إلى مزار الشريف من قبل؟

- منذ زمن بعيد. لا أتذكره الآن.

- أبي اصطحبني إلى هناك وأنا صغير. وجاءت ماما وساسا أيضًا. اشترى لي أبي قردًا من السوق. ليس قردًا حقيقيًا، ولكن ذلك النوع الذي يجب أن تنفخه. كان بُنيًا وكانت له فيونكة حول عنقه.

- ربما كان عندي واحد مثله وأنا طفل.

قال سهراب:

- أخذني أبي إلى الجامع الأزرق. أتذكر أنه كان هناك حمام كثير جدًا خارج المسجد، ولم يكن يخاف من الناس. كان يأتي إلينا مباشرة. أعطتني ساسا قطعًا من الـ«نان» وأطعمت الطيور. وسرعان ما كانت الحمامات تهدل من حولنا. كان ذلك ممتعًا.

- لا بد أنك مشتاق كثيرًا لوالديك.

تساءلت ما إذا كان قد شاهد الطالبان يسحبون والديه إلى الشارع. وتمنيت لو أنه لم يشاهدهم.

سألني، وهو يسند ذقنه على ركبتيه، ويرفع رأسه ناحيتي:

- هل تفتقد والديك؟

- هل أفقد والدي؟ حسنًا، لم ألتق بأمي قط. وأبي مات قبل بضع سنوات، ونعم، أفقده. أحيانًا ما أفقده كثيرًا.

- هل تتذكر كيف كان شكله؟

فكرت في رقبة بابا الغليظة، عينيه السوداوين، شعره البني الأشعث. كان الجلوس على حجره مثل الجلوس على جذعين من جذوع الأشجار. قلت: - أتذكر كيف كان شكله. وكيف كانت رائحته أيضًا.

قال سهراب:

- بدأت أنسى وجهيهما. هل هذا أمر سيء؟

قلت:

- لا. هذا فعل الزمن.

فكرت في شيء. فتّشت في جيب معطفي. وجدت صورة حسن وسهراب. قلت:

- ها هنا.

قرّب الصورة حتى باتت على بعد سنتيمترات من وجهه، أمالها حتى يسقط أنوار الجامع عليها. تأمل فيها طويلًا. ظننت أنه قد يبكي، لكنه لم يبكِ. فقط، أمسك بها بكلتا يديه، وتحسس سطحها بإصبعه. فكرت في مقولة قرأتها في مكان ما، أو ربما سمعتها من شخص ما: في أفغانستان كثير من الأطفال، والقليل من الطفولة. مديده ليعيدها إليّ.

قلت:

- احتفظ بها. إنها لك.

- شكرًا.

نظر إلى الصورة مجددًا ودسها في جيب صدرته. مرت من أمامنا عربة

يجرها حصان، وتعالى صوت الحوافر وهي تدق «كليب كلاب» على أرض موقف السيارات. كانت أجراس صغيرة تتدلى من عنق الحصان وتجلجل مع كل خطوة.

قال سهراب:

- كثيرًا ما فكّرت في الجوامع مؤخرًا.

- فعلاً؟ ماذا عنها؟

هز كتفيه:

- أفكر فيها وحسب.

رفع وجهه، نظر في عينيّ مباشرة. كان يبكي الآن، بهدوء، وصمت:

- هل أسألك سؤالاً، أمير أغا؟

- بالطبع.

شرع يقول:

- هل سيضعني الله...

ثم غصّ قليلاً.

- هل سيضعني الله في النار لما فعلته بذلك الرجل؟

مددت يدي إليه فجفل. أعدتها. قلت:

- لا. بالطبع لا.

أردت أن أجذبه نحوي، أن أحتضنه، أن أخبره أن العالم كان قاسياً معه،

وليس العكس.

تلوّى وجهه وتوتر ليكبح البكاء:

- كان والدي يقول إنه من الخطأ أن نوّذي حتى الأشرار. لأنهم لا يفهمون،
ولأن الأشرار أحياناً يصبحون طيبين.

- ليس دائماً، سهراب!

ألقي إليّ نظرة متسائلة.

قلت:

- الرجل الذي آذيتَه، أعرفه منذ سنوات طويلة. أظنك أدركت ذلك
من الحديث الذي دار بيني وبينه. لقد... لقد حاول إيذائي ذات مرة وأنا
في عمرك، لكن والدك أنقذني. كان والدك شجاعاً جداً، وكان دائماً
ينقذني من المشاكل، يقف ليذود عني. وهكذا، في يوم، آذى الرجل
الشرير والدك بدلاً مني. آذاه أذى فادحاً، وأنا... أنا لم أستطع إنقاذ
والدك كما كان ينقذني.

قال سهراب، في صوت هامس متحشرج:

- لماذا كان الناس يرغبون في إيذاء والدي؟ إنه لم يؤذِ أحداً!

- أنت محق. كان والدك رجلاً طيباً. لكن هذا ما أحاول أن أقوله لك،
سهراب جان. إن في هذا العالم أناساً أشراراً، وأحياناً يظل الأشرار أشراراً.
وأحياناً عليك أن تواجههم. ما فعلته أنت بذلك الرجل هو ما كان يجب أن
أفعله أنا قبل سنوات طويلة. لقد أعطيتَه ما يستحق، بل يستحق أكثر من ذلك.

- هل تظن أنني خيبت أمل والدي؟

قلت:

- أعرف أنك لم تخيب أمله. لقد أنقذت حياتي في كابول. أعرف أنه
فخور جدًا بك لهذا الأمر.

مسح وجهه بكمّ قميصه. فرقع فقاعة من اللعاب تشكلت على شفثيه.
دفن وجهه في يديه وبكى لوقت طويل قبل أن يعاود الحديث. قال بصوت
متحشرج:

- اشتقت لأبي، ولأمي أيضًا، واشتقت لساسا، ورحيم خان صاحب.
لكنني أحيانًا أشعر بالسعادة لأنهم... لأنهم لم يعودوا هنا.
- لماذا؟

لمست ذراعه. فسحبه إليه.

قال، وهو يشهق ويختلج بين شهقاته:

- لأنني... لأنني لا أريدكم أن يروني... إنني نجس!

شهق بقوة ثم ترك نفسه يمر في نشيج طويل:

- أنا نجس وملئ باللاثم.

قلت:

- أنت لست نجسًا، سهراب!

- أولئك الرجال...

- أنت لست نجسًا على الإطلاق!

- لقد فعلوا أشياء... الرجل الشرير والرجلان الآخران... فعلوا أشياء..

أشياء بي!

- لست نجسًا، ولست مليئًا بالإثم!

مددت يدي ثانية، بلطف، وسحبته تجاهي. همست:

- لن أؤذيك. أعدك.

قاوم قليلًا، ثم ارتخى، وتركني أجذبه نحوي وأريح رأسه على صدري. كان جسده الصغير ينقبض بين ذراعيّ مع كل شهقة.

ثمة صلة قريبي بين الناس الذين يرضعون من الصدر نفسه. الآن، فيما كان ألم الصبي يتسرب متغلغلًا عبر قميصي، عرفت أن صلة قريبي قد تجذرت بيننا أيضًا. ما حدث في تلك الغرفة مع آصف ربط بيننا رباطًا لا ينفصم.

كنت أنتظر الوقت المناسب، اللحظة المناسبة، لأسأله سؤالًا يطن في رأسي ويُسهدني بالليل. وقررت أن اللحظة مناسبة، هنا، الآن، حيث تشرق علينا الأضواء الساطعة من بيت الله:

- هل تحب أن تأتي لتعيش في أمريكا معي ومع زوجتي؟

لم يُجب. شهق قليلًا في قميصي، وتركته يفعل.

* * *

لأسبوع، لم يأت أحدنا على ذكرِ للسؤال الذي وجهته له، كما لو كان السؤال لم يُطرح أصلًا. ثم، في أحد الأيام، أخذنا أنا وسهراب سيارة أجرة إلى «دَماني كوه» (طرف الجبل). من فوق تلك البقعة الواقعة في منتصف الطريق الصاعد لتلال مرج الله، يمكنك أن تستمتع بمنظر بانورامي لإسلام آباد، صفوف الشوارع النظيفة المحفوفة بالأشجار والبيوت البيضاء. أخبرنا السائق أن بوسعنا رؤية القصر الرئاسي من أعلى. قال:

...إذا هطلت الأمطار وصفوا الهواء، يمكنك أن ترى حتى ما بعد روالبندي.

رأيت عينيه في المرأة الأمامية، تنتقلان من وجه سهراب إلى وجهي، ثم تعود، رائحة غادية. رأيت وجهي أنا أيضًا. لم يعد منتفخًا كما كان من قبل، لكنه اصطبغ بصبغة صفراء بفعل تشكيلة الكدمات الخابية.

جلسنا على مقعد في واحدة من مناطق التنزه، في ظلال شجرة صمغ. كان يومًا دافئًا، والشمس منتصبة في كبد السماء الزرقاء الياقوتية. على المقاعد المجاورة، عائلات تتناول وجبات خفيفة من السمبوسك والـ«بكورا». وفي مكان ما، راديو يصدح بموسيقى هندية ظننتني أتذكرها من فيلم قديم، ربما كان فيلم «بكيزا». كان الأطفال، كثير منهم، يطاردون كرات قدم، يقهقهون، ويتصايحون. تذكرت دار الأيتام في «كارته سه»، تذكرت الفأر الذي مر بين قدمي في مكتب «زمان». انقبض صدري قليلًا بدفقة غضب غير متوقع على الطريقة التي كان أبناء وطني يدمرون أرضهم بها.

سأل سهراب:

...ماذا؟

أجبرت نفسي على الابتسام وقلت له إن الأمر لا يهم.

فردنا واحدة من فوط الحمام التي جلبناها من الفندق على طاولة التنزه الخاصة بنا ولعبنا الـ«بنجبار» عليها. كان شعورًا طيبًا أن أكون هناك، مع ابن أخي غير الشقيق، نلعب الورق، ودفع الشمس يربّت على قفائي. انتهت الأغنية وبدأت أغنية أخرى، أغنية لم أتعرف عليها.

قال سهراب:

...انظر.

كان يشير بأوراقه إلى السماء. نظرت إلى أعلى، فرأيت صقراً يحوم في دوائر في السماء الفسيحة الصافية. قلت:

- لم أكن أعرف أن في إسلام أباد صقوراً.

قال، وعينه تتابعان تحليق الطائر الدائري:

- ولا أنا. هل لديكم صقور حيث تعيش؟

- سان فرانسيسكو؟ أعتقد. لكنني لا أستطيع أن أقول إنني رأيت الكثير.

قال:

- أوه!

كنت أمل أن يسألني المزيد، لكنه فرّق دوراً آخر وسألني إذا كان يمكننا أن نأكل. فتحت الحقيبة الورقية وناولته ساندويتش كفتة. كان غدائي يتكون من فنجان آخر من عصير الموز مع البرتقال - كنت قد استعرت خلاط زوجة السيدة فياض طوال الأسبوع. شفطت من أنبوب الشفط وامتلاً فمي بالفاكهة المخلوطة الحلوة. سال بعض من العصير على زاوية شفتي. ناولني سهراب منديلاً وراقبني وأنا أنقر على شفتي. ابتسمت، فابتسم لي.

قلت:

- أنا ووالدك أخوان.

خطر لي أن أقول هذا. أردت أن أخبره بذلك في تلك الليلة التي جلسنا فيها بجوار الجامع، لكنني لم أخبره. لكن من حقه أن يعرف؛ لم أكن أرغب في إخفاء أي شيء بعد ذلك.

- أخوان غير شقيقين، في واقع الأمر. من الأب نفسه.

توقف سهراب عن المضغ. وضع الساندويتش:

- لم يقل لي والدي إن له أخًا!

- لأنه لم يكن يعرف.

- لماذا لم يعرف؟

قلت:

- لم يخبره أحد. ولم يخبرني أحد أنا أيضًا. اكتشفت ذلك مؤخرًا.

طرف سهراب بعينه. كما لو كان ينظر إليّ، ينظر إليّ حقًا، للمرة الأولى:

- لكن، لماذا أخفى الناس ذلك عن أبي وعنك؟

- تعرف، سألت نفسي السؤال ذاته في ذلك اليوم. وثمة إجابة، لكنها

ليست إجابة جيدة. لنقل فقط إنهم لم يخبرانا لأنني ووالدك... لم يكن من المفترض أن نكون أخوين.

- لأنه كان هزازه؟

أجبرت عيني على النظر إلى عينيه:

- نعم.

- هل كان والدك...

شرع يقول وهو ينظر إلى الطعام:

- هل كان والدك يحبك ويحب والدي بالقدر نفسه؟

فكرت في يوم قبل زمن طويل عند بحيرة غارغا، عندما سمح بابا لنفسه أن يربّت على ظهر حسن بعد أن نطّت حصاة حسن أكثر من حصاتي على

سطح البحيرة. تذكرت شكل بابا في غرفة المستشفى، وكيف أشرق وجهه وهم يفكون الأربطة عن شفتي حسن:

- أعتقد أنه كان يحبنا بالقدر نفسه ولكن بشكل مختلف.

- هل كان يخجل من والدي؟

قلت:

- لا. أظنه كان يخجل من نفسه.

التقط ساندويتشه وبدأ يقضم في صمت.

* * *

غادرنا قرب المساء، متعبين من الشمس، إنما تعبٌ لطيف. وطوال طريق العودة، كنت أشعر بسهراب يراقبني. طلبت من السائق التوقف أمام متجر يبيع كروت الاتصالات. أعطيته النقود وبقشيشًا لينزل ويشتري لي واحدًا.

تلك الليلة، كنا راقدين في فراشنا، نشاهد برنامج «توك شو» في التلفزيون. كان شيخان بلحيتين طويلتين رماديتين وخطهما الشيب وعمامتين يستقبلان مكالمات هاتفية من المؤمنين في جميع أنحاء العالم. سأل أحد المتصلين من فنلندا، رجل اسمه أيوب، إذا ما كان ابنه المراهق سوف يذهب إلى النار لأنه يرتدي بنطالًا واسعًا ساقطًا يكشف حد لباسه الداخلي.

قال سهراب:

- رأيت صورة لسان فرانسيسكو ذات مرة.

- حقًا؟

- كان ثمة جسر وبناية بقمة مدببة.

قلت:

- عليك أن ترى الشوارع.

- ماذا عنها؟

كان ينظر إليَّ حينذاك. على شاشة التلفزيون، كان الشيخان يتبادلان المشورة.

- إنها منحدره جدًا، عندما تقود صاعدًا فكل ما تراه هو غطاء محرك سيارتك والسماء.

قال:

- يبدو ذلك مخيفًا!

تقلّب على جنبه، وأصبح يواجهني، وظهره للتلفزيون.

- مخيف في المرات القليلة الأولى. لكنك تتعود على ذلك.

- هل تسقط الثلوج هناك؟

- لا، لكن لدينا كثير من الضباب. هل تعرف ذلك الجسر الأحمر الذي رأيته؟

- نعم.

- أحيانًا يكون الضباب كثيفًا في الصباح، حتى إنك لا ترى سوى قمة البرجين المنتصبين في منتصفه.

لاحت الدهشة على ابتسامته:

- أوه!

- سهراب؟

- نعم.

- هل فكرت فيما سألتك عنه من قبل؟

خَبَتِ ابتسامته. انقلب على ظهره. شَبَّكَ يديه خلف رأسه. قرر الشيخان أن ابن أيوب سوف يذهب إلى النار بعد كل هذا الزمن من ارتداء البنطال بهذه الطريقة. زعما أن ذلك مذكور في حديث. قال سهراب:

- فكرتُ.

- ثم؟

- إنه يخيفني.

قلت، متشبهاً بطرف خيط الأمل هذا:

- أعرف أنه مخيف قليلاً. لكنك ستتعلم الإنجليزية سريعاً وتعود على...

- ليس هذا ما أقصده. هذا يخيفني أيضاً، ولكن...

- ولكن ماذا؟

تقلَّب ثانية ناحيتي. سحب ركبتيه إلى أعلى.

- ماذا لو مللت مني؟ ماذا لو لم تحبني زوجتك؟

جاهدت لأنزل من السرير وعبرت المسافة بيننا. جلست إلى جواره.

قلت:

- لن أملَّ منك أبداً، سهراب. أبداً. هذا وعد. أنت ابن أخي، هل تتذكر؟

وثرى جان امرأة طيبة جداً. ثق بي، سوف تحبك. أعدك بذلك أيضاً.

خطر لي خاطر. مددتُ يدي وتناولتُ يده. انقبض قليلاً لكنه تركني أمسكها.

قال:

- لا أريد أن أذهب إلى دار أيتام أخرى.

- لن أدع ذلك يحدث أبداً. أعدك بهذا.

أحطت يده بكلتا يدي:

- عد معي إلى البيت.

كانت دموعه تغرق الوسادة. لم يقل شيئاً لوقت طويل. ثم ضغط بيده على يدي، وأوماً برأسه. أوماً برأسه.

* * *

تم الاتصال في المحاولة الرابعة. رن الجرس ثلاث مرات قبل أن ترفع السماعة:

- ألو؟

كانت الساعة السابعة والنصف مساءً في إسلام آباد، حوالي الوقت نفسه صباحاً في كاليفورنيا. وهذا يعني أن ثريا استيقظت منذ ساعة، وتستعد للذهاب إلى المدرسة.

قلت:

- إنه أنا.

كنت أجلس على فراشي. أراقب سهراب وهو نائم.

- أمير!

كانت تصرخ تقريبًا:

- هل أنت بخير؟ أين أنت؟

- في باكستان.

- لماذا لم تتصل قبل ذلك؟ لقد مرضتُ من «التشويش»! أمي تدعو لك،
وتنذر نذرًا كل يوم.

- آسف أنني لم أتصل. أنا بخير الآن.

كنت قد قلت لها إنني سأعود بعد أسبوع أو اثنين على الأكثر. وقد غبتُ
لنحو شهر. ابتسمت.

- وقولي للخالة جميلة أن تتوقف عن ذبح الخراف.

- ماذا يعني «بخير الآن»؟ وماذا حلَّ بصوتك؟

- لا تقلقي على ذلك الآن. أنا بخير. حقًا. ثريا، ثمة قصة يجب أن أخبرك
بها، قصة كان يجب أن أخبرك بها قبل زمن طويل، لكنني أولا أريد أن أخبرك
بشيء واحد.

قالت:

- ما الأمر؟

وكان صوتها قد انخفض حينذاك، وبات أكثر حذرًا.

- لن أرجع إلى البيت وحدي. سأحضر معي صبيًا صغيرًا.

توقفت قليلًا:

- أريد أن نتبناه.

- ماذا؟

نظرت إلى ساعتني:

- لديّ سبع وخمسون دقيقة متبقية في كارت الاتصالات الغبي هذا وأمامي الكثير لأخبرك به. اجلسي في مكان ما.

سمعت أرجل الكرسي وهي تُسحب بسرعة على الأرضية الخشبية.

قالت:

- تفضل.

ثم فعلت ما لم أفعله طيلة زواجنا الذي استمر خمسة عشر عامًا: أخبرت زوجتي بكل شيء. كل شيء. لقد تصورت تلك اللحظة كثيرًا، وارتعبت منها، لكنني، وأنا أتحدث، شعرت بشيء يُرفع من فوق صدري. تخيلت أن ثريا قد جربت شيئًا مشابهًا جدًا ليلة الـ «خواستجاري»، عندما أخبرتني عن ماضيها.

عندما انتهيت من قصتي، كانت تبكي.

قلت:

- ماذا تعتقدين؟

- لا أعرف ماذا أعتقد، أمير. لقد قلت لي الكثير مرة واحدة.

- أفهم هذا.

سمعتها تتمخط.

- لكنني أعرف هذا: يجب أن تحضره معك إلى البيت. أريدك أن تحضره.

قلت، وأنا أغمض عيني وأبتسم:

- هل أنت واثقة؟

قالت:

- واثقة؟ أمير، إنه من قومك، لذا فهو من قومي أيضًا. بالطبع واثقة.
لا يمكن أن تتركه في الشوارع.

ومرت لحظة قصيرة.

- ما شكله؟

ألقيت نظرة على سهراب النائم على السرير.

- إنه حلو، إنما بوقار.

قالت:

- مَنْ يلومه؟ أريد أن أراه يا أمير. أريد أن أراه حقًا.

- ثريا؟

- نعم.

- «دوستت دارم». أحبك.

قالت:

- وأنا أيضًا.

كان بوسعي أن أسمع الابتسامة في كلماتها.

- خذ حذرك.

- سوف أفعل. وأمرٌ آخر: لا تخبري والديك عن هويته. إذا كان يجب أن يعرفا، فالأجدر أن يعرفا مني.
- أوكيه.

ووضعنا السماعه.

* * *

كان العشب أمام السفارة الأمريكية في إسلام آباد مشذبًا بإتقان، تتناثر عليه مجموعات دائرية من الأزهار ويحده سياج من الأشجار منتظم كشفرة الموسيقى. كان المبنى نفسه يشبه كثيرًا مباني إسلام آباد: مسطحًا وأبيض. عبرنا عدة حواجز على الطريق كي نصل إلى هناك، وقام مسؤولو أمن مختلفين بتفتيشي جسديًا بعدما أطلقت الأسلاك في فكي صافرة بوابة كشف المعادن. عندما دخلنا في النهاية من حرّ النهار، ضرب هواء التكييف وجهي مثل دفقة من الماء المثلج. ابتسمت السكرتيرة في البهو، وهي امرأة شقراء ناحلة الوجه تجاوزت الخمسين، عندما أعطيتها اسمي. كانت ترتدي بلوزة بيج وسترة سوداء - أول امرأة أراها منذ أسابيع ترتدي شيئًا غير البرقع أو قميص الـ«شلوار». فتّشت عن اسمي في قائمة المواعيد، ونقّرت بالممحاة في مؤخرة قلمها الرصاص على المكتب. عثرت على اسمي وطلبت مني الجلوس.

سألت:

- هل تريد بعض الليمونادة؟

قلت:

- لا، ليس لي. أشكرك.

- وماذا عن ابنك؟

- معذرة؟

قالت، وهي تبسم لسهراب:

- الجنتلمان الشاب الوسيم.

- أوه! سيكون هذا كرمًا منك، أشكرك!

جلسنا أنا وسهراب على الأريكة الجلدية السوداء في مواجهة مكتب الاستقبال، إلى جوار علم طويل لأمريكا. سحب سهراب مجلة من طاولة القهوة ذات السطح الزجاجي. وتصفحها، من دون أن ينظر حقًا إلى الصور.

قال سهراب:

- ماذا؟

- معذرة؟

- كنت تبسم.

قلت:

- كنت أفكر فيك.

منحني ابتسامة متوترة. التقط مجلة أخرى وتصفحها في أقل من ثلاثين ثانية.

قلت، وأنا ألمس ذراعه:

- لا تخف. هؤلاء الناس ودودون. استرخ.

وكانها كانت نصيحة لي. ظللت أراوح مكاني على الأريكة، أفك رباط

حذائي وأربطه. وضعت السكرتيرة كوبًا طويلًا من الليمونادة بالثلج على طاولة القهوة.

- تفضل.

ابتسم سهراب بخجل، وقال بالإنجليزية:

- شكرًا جزيلاً.

خرجت من بين شفتيه «تارك يو ويرى ماتش». كانت تلك هي العبارة الإنجليزية الوحيدة التي يعرفها، كما قال لي، هي و«طاب يومك». ضحكت.

- عفواً

عادت إلى مكتبها، وكعباها العاليان يدقان على الأرضية.

قال سهراب بالإنجليزية:

- طاب يومك.

* * *

كان «رايموند أندروز» رجلاً قصيراً بيدين صغيرتين، وأظافر مشدبة بعناية، يضع في إصبعه خاتم زواج. صافحني على عجل ومن دون اكتراث؛ بدت مصافحته مثل اعتصار عصفور في قبضتي. فكرتُ، حين كنت أنا وسهراب نجلس في مواجهة مكتبه، أنها اليد التي تمسك بمصائرننا. كان خلف مكتب «أندروز» ملصق لمسرحية «البؤساء» معلقاً على الحائط إلى جوار خريطة طبوغرافية للولايات المتحدة. وكان في الشمس على حافة الشباك إناء به نبات طماطم.

- سيجارة؟

كان صوته جهيرًا وعميقًا لا يتناسب مع هيئته النحيفة.

قلت، من دون أن أهتم مطلقًا بأن «أندروز» لا يولي سهراب اهتمامًا، أو لا ينظر إلي وهو يحدثني:

- لا شكرًا.

فتح درجًا من أدراج مكتبه وأشعل سيجارة من علبة نصف فارغة. وأخرج أيضًا زجاجة غسول من الدرج ذاته. نظر إلى نبات الطماطم وهو يمسح يده بالغسول، والسيجارة تتدلى من زاوية فمه. ثم أغلق الدرج، وأسند مرفقيه على سطح المكتب، وأطلق زفرة. وقال وهو يغضّ عينيه من أثر الدخان:

- إذن. أخبرني بقصتك.

شعرتُ كما لو أنني «جان فالجان» المسكين جالسًا أمام المفتش «جافيرت» في «البؤساء». ذكّرت نفسي بأنني الآن على أرض أمريكية، وأن ذلك الرجل كان في صفّي، وأنه يتقاضى راتبه من أجل مساعدة أمثالي. قلت:

- أريد أن أتبنّى هذا الصبي، وأن أعود به إلى الولايات المتحدة.

كرر وهو يزيح بسبابته رماد السيجارة عن المكتب المنظّم، ثم ينفذه إلى سلة القمامة:

- أخبرني بقصتك.

قصصت عليه الرواية التي كنت قد اشتغلت عليها في رأسي منذ أغلقت الخط مع ثريا: لقد ذهبت إلى أفغانستان لاستعادة ابن أخي غير الشقيق، ووجدتُ الصبي في وضع مزرٍ، جائعًا وضائعًا في دار للأيتام. دفعت لمدير دار الأيتام بعض النقود وسحبت الصبي. ثم عدت به إلى باكستان.

- أنت عم الصبي غير الشقيق؟

- نعم.

ألقى نظرة على ساعته. انحنى وأدار نبتات الطماطم على حافة الشباك:

- هل تعرف أي شخص يمكن أن يشهد بذلك؟

- نعم، لكنني لا أعرف مكانه الآن.

استدار لي وأومأ برأسه. حاولت أن أقرأ صفحة وجهه لكنني لم أستطع. تساءلت إن كان قد جرب يديه الصغيرتين هاتين في لعبة البوكر.

قال:

- أظن أن الأسلاك في فكّيك ليست من قبيل التماشي مع الموضة.

أدركت ساعتها أنني وسهراب في مشكلة. قلت له إنني تعرضت للسطو في بيشاور.

قال:

- بالطبع.

ثم تنحنح:

- هل أنت مسلم؟

- نعم.

- هل تصلي؟

- نعم.

الحقيقة أنني لم أكن أتذكر آخر مرة سجدت فيها. ثم تذكرت يوم تنبأ

الدكتور أماني بالمستقبل المرضي لبابا. سجدت على سجادة الصلاة،
لا أتذكر سوى شذرات من الآيات التي حفظتها في المدرسة.

قال وهو يهرش بقعة على الجزء السليم من شعره الأشقر:

- هذا يساعدك نوعًا ما، لكن ليس كثيرًا.

سألته:

- ماذا تقصد؟

مددت يدي نحو يد سهراب، وشبكت أصابعي مع أصابعه، وجال نظر
سهراب بنوع من الشك بيني وبين «أندروز».

- ثمة إجابة طويلة، وأنا متأكد أنني سأقولها لك في النهاية. فهل تريد
الإجابة القصيرة أولاً؟

قلت:

- أعتقد.

سحق «أندروز» سيجارته، والتوت شفتاه، وقال:

- انسَ الموضوع.

- معذرة؟

- التماسك لتبني هذا الصبي. انساه. تلك هي نصيحتي لك.

قلت:

- نصيحتك وصلت. الآن، لعلك تخبرني بالسبب.

قال بصوت خالٍ من الانفعال، لم يتأثر على الإطلاق بحدة نبرتي:

- هذا يعني أنك تريد الإجابة الطويلة.

ضغط كفيه معًا، كما لو كان راکعًا أمام مريم العذراء:

- دعنا نفترض أن القصة التي رويتها لي حقيقية، ولو أنني أراهن براتبي التقاعدي على أن شطرًا كبيرًا منها مُفبرك أو محذوف. لا أقول إنني أهتم بالأمر، سامحني. أنت هنا، وهو هنا، وهذا كل ما يهم. حتى وإن سلّمنا بذلك، فإن التماسك يواجه عقبات مهمة، ليس أقلها أن هذا الطفل ليس يتيماً.

- بالطبع هو يتيماً.

- ليس من الناحية القانونية.

قلت، سعيدًا بأننا نتحدث بالإنجليزية:

- لقد أُعدم والداه في الشارع، وشهد جيرانه الواقعة.

- هل لديك شهادات وفاة؟

- شهادات وفاة؟ نحن نتكلم عن أفغانستان. معظم الناس هناك لا يمتلكون شهادات ميلاد.

لم تطرف عيناه الزجاجيتان حتى:

- أنا لا أضع القوانين، سيدي. وبغض النظر عن غضبك، ما زال عليك أن تُثبت أن الوالدين توفيا. ولا بد أن يُعلن الصبي يتيماً قانونًا.

- ولكن...

- لقد أردت الإجابة الطويلة وأنا أعطيك إياها. مشكلتك التالية هي أنه سيكون عليك التعاون مع بلد ميلاد الطفل. الآن، هذا أمر عصيب في أفضل

الظروف، وكما قلت، نحن نتكلم عن أفغانستان. ليس لدينا سفارة أمريكية في كابول. وهذا يجعل الأمور بالغة التعقيد. أقرب إلى المستحيل.

- هل تقول إنني يجب أن ألقى به إلى الشارع ثانية؟

- لم أقل هذا.

قلت، وأنا أفكر في الأجراس حول كاحلي سهراب، والكحل على عينيه:

- لقد تعرّض لانتهاك جنسي!

- يؤسفني أن أسمع هذا.

قالها بفمه، لكن الطريقة التي كان ينظر بها تجاهي كانت تناسب أيضًا معادثة عن الطقس.

- لكن هذا لن يجعل مكتب الهجرة والتطبيع يصدر تأشيرة لهذا الصبي.

- ماذا تعني؟

- أعني أنك يمكنك، إذا أردت المساعدة، أن تبرع لإحدى منظمات الغوث طيبة السمعة، أو أن تتطوع في معسكر للاجئين. لكننا في هذا التوقيت ننصح المواطنين الأمريكيين بكل قوة ألا يحاولوا تبني أطفالاً أفغاناً.

نهضت. قلت بالفارسية:

- هيا يا سهراب.

انزلق سهراب إلى جواربي، وأراح رأسه على عظمة فخذي. تذكرت صورته هو وحسن يقفان في الوضعية نفسها.

- هل تسمح لي أن أسألك سؤالاً يا سيد «أندروز»؟

- نعم.

- هل لديك أطفال؟

للمرة الأولى، طرفت عيناه.

- حسنًا. هل لديك أطفال؟ إنه سؤال سهل.

ظل صامتًا.

قلت وأنا أتناول يد سهراب:

- هذا ما ظننته. كان عليهم أن يضعوا على كرسيك شخصًا يعرف كيف يكون حال المرء عندما يريد طفلًا.

استدرت لأغادر، يتبعني سهراب.

ناداني «أندروز»:

- هل يمكن أن أسألك أنت سؤالًا؟

- تفضل.

- هل وعدت هذا الطفل أنك ستأخذه معك؟

- وماذا لو كنت فعلت؟

هز رأسه:

- إنه أمر خطير، أن تعد الطفل بشيء.

تنهّد وفتح درج مكتبه ثانية. قال، وهو يفتش في الأوراق:

- هل تنوي مواصلة الأمر؟

- أنوي مواصلة الأمر.

أخرج بطاقة تعريف.

- إذن أنصحك بأن تحصل على محامي هجرة جيد. عُمر فيصل يعمل هنا في إسلام آباد. يمكنك أن تخبره أنني أرسلتك.

تناولت البطاقة من يده، وغمغمت:

- أشكرك.

قال:

- حظاً سعيداً.

وفيما نخرج من الغرفة، اختلست نظرة توجس. كان «أندروز» يقف في مربع من ضوء الشمس، شاردًا يحدق خارج النافذة، ويداه تدوران أصيص نباتات الطماطم تجاه الشمس، وتربّت عليها بحب.

* * *

قالت السكرتيرة، ونحن نمر من أمام مكتبها:

- رافقتكما السلامة!

قلت:

- يمكن لرئيسك أن يتعامل ببعض اللياقة.

توقعت أن كلماتي ستدير عينيها، وأن تومئ بما معناه: «أعرف، الجميع يقولون هذا». لكنها خفضت صوتها:

- «راي» المسكين. لم يعد كما كان منذ تُوفيت ابنته.

رفعت حاجبًا.

همست:

- متحرة.

* * *

في طريق العودة إلى الفندق في سيارة الأجرة، كان سهراب يريح رأسه على النافذة، ويحدّق في البنايات التي تمر، وصفوف أشجار الصمغ. وقد جعلت أنفاسه الزجاج يتشبر، ثم يصفو، ثم يتشبر من جديد. انتظرت أن يسألني عن المقابلة، لكنه لم يسأل.

* * *

على الجانب الآخر من باب دورة المياه المغلق كانت المياه تواصل الجريان. منذ يوم وصولنا إلى الفندق، وسهراب يأخذ حمامًا طويلًا كل ليلة قبل النوم. في كابول، كانت المياه الساخنة، شأنها شأن الآباء، بضاعة شحيحة. أما هنا فيقضي سهراب ساعة تقريبًا كل ليلة في حوض الاستحمام، غاطسًا في الماء المصبّن، يحك جسده. جلست على حافة الفراش، وهاتفت ثريا. ألقيت بنظرة على خيط الضوء الرفيع أسفل باب الحمام. (ألم تشعر بأن جسّدك قد أصبح نظيفًا بعد، سهراب؟)

نقلت لثريا ما أخبرني به «رايموند أندروز». قلت:

- ما رأيك إذن؟

- علينا أن نفترض أنه مخطئ.

قالت لي إنها هاتفت بضع وكالات تبني من تلك التي تنظم عمليات

التبني الدولية. ولم تعثر حتى الآن على واحدة تفكر في القيام بعملية تبني أفغانية، لكنها ستواصل البحث.

- كيف تعامل والدك مع الأخبار؟

- ماما سعيدة لنا. تعرف مشاعرها تجاهك، أمير، أنت في عينيها معصوم من الخطأ. أما بابا... حسنًا، كالعادة، أصعب قليلًا أن تقرأ أفكاره. إذ لا يقول الكثير.

- وأنت؟ هل أنت سعيدة؟

سمعتها تنقل السماعه إلى يدها الأخرى:

- أظننا سنكون رحمة لابن أخيك، وربما يكون هو رحمة لنا أيضًا.

- كنت أفكر في الأمر نفسه.

- أعرف أن ذلك يبدو ضربًا من الجنون، لكنني أجد نفسي أتساءل عن نوع الـ«قورمه» المفضل لديه، أو مادته المفضلة في المدرسة. أتصور نفسي وأنا أساعده على إنجاز فروضه المنزلية...

ضحكت. في الحمام، كانت المياه قد توقفت عن التدفق. بوسعي أن أسمع سهراب، يتقلب في حوض الاستحمام، ويطرطش الماء على الجانبين.

قلت:

- سوف تكونين رائعة.

- أوه! كدت أنسى! لقد هاتفت كاكا شريف.

تذكرته وهو يتلو قصيدة يوم حفلة «النكاح» من قطعة من ورق المفكرات

التي تطبعها الفنادق. كان ابنه قد أمسك بالمصحف فوق رأسينا أنا وثرينا ونحن نسير باتجاه المنصة مبتسمين لفلاشات الكاميرات.

- ماذا قال؟

- قال إنه سوف يحرك الأمور لنا. سوف يتصل ببعض أصدقائه في مكتب الهجرة والتطبيع.

- تلك أخبار عظيمة حقًا. كم أشتاق لأن تري سهراب.

- وكم أشتاق لرؤيتك.

وضعت السماعة مبتسمًا.

خرج سهراب من الحمام بعدها ببضع دقائق. لم يكن قد نطق سوى عشر كلمات منذ الاجتماع مع «رايموند أندروز»، ولم يكن يستجيب لما بذلته من محاولات لإدارة حديث بيننا إلا بإيماءة أو ردًا من مقطع واحد. اعتلى فراشه، وسحب البطانية إلى ذقنه. وبعد دقائق، كان يغطُّ في نومه.

مسحت دائرة على المرأة المشبرة وحلقت لحياتي بواحدة من شفرات الفندق القديمة، ذلك النوع الذي تفتحه وتضع الشفرة بداخله. ثم استحمت بدوري، واستلقيت في الحوض حتى بردت المياه الساخنة التي يتصاعد منها البخار وبدأ جسدي في الارتعاش. ظللت راقداً هناك، أنجرف مع الأفكار، وأتساءل، وأتخيل.

* * *

كان عمر فيصل سمينًا، داكن البشرة، له غمازتان على خديه، وعينان سوداوان مثل زرين، وابتسامة بشوش تكشف عن أسنان متفرقة. كان شعره الرمادي الخفيف مربوطًا إلى الخلف في ذيل حصان. وكان يرتدي حلة

بنية من القطيفة برقعتين جلديتين عند المرفقين، ويحمل حقيبة جلدية بالية ومحشوة تمامًا. كانت يد الحقيبة مقطوعة، ومن ثمَّ كان يضمها إلى صدره. كان من ذلك النوع الذي يبدأ كثيرًا من العبارات بضحكة واعتذار غير ضروري. من قبيل «لا تؤاخذني، سأكون هناك في الخامسة». ضحكة. وعندما هاتفته، أصر على المجيء لمقابلتنا. قال بإنجليزية سليمة، من دون أي أثر للكنة:

- لا تؤاخذني، سائقو سيارات الأجرة في تلك البلدة مثل أسماك القرش. يشمون رائحة الأجانب فيضا عفواً أجرتهم.

دفع الباب ودخل، بابتساماته واعتذاراته، يحشرج قليلاً ويتصبب عرقاً. مسح جبهته بمنديل وفتح حقيبته، فتَّش فيها بحثاً عن مفكرة، واعتذر عن الأوراق التي اندلقت على الفراش. كان سهراب، الجالس مقرصاً على فراشه، يثبَّت إحدى عينيه على التلفزيون الصامت، والأخرى على المحامي الفوضوي. أخبرته ذلك الصباح أن فيصل سيأتي فأوماً برأسه، وكاد أن يسأل عن شيء ما، ثم عاد لمتابعة برنامج به حيوانات ناطقة.

قال فيصل وهو يفتح مفكرة قانونية صفراء:

- ها نحن. أتمنى أن يطلع أطفالنا لأهمهم في التنظيم. لا تؤاخذني، ربما لا تكون تلك الكلمات التي تريد سماعها من محاميك المستقبلي، هه؟ ثم ضحك.

- على أية حال، «رايموند أندروز» يؤمن كثيراً بقدراتك.

- السيد «أندروز». نعم، نعم. إنه رجل لطيف. الحقيقة أنه اتصل بي وأخبرني بموضوعك.

- هل فعل؟

- أوه، نعم.

- إذن أنت على علم بموقفي.

نقر فيصل بمنديله فوق شفته مجففاً قطرات العرق ثم قال:

- أنا على علم بالرواية التي حكيتها للسيد «أندروز».

ابتسم ابتسامة خجول كشفت عن غمازتيه. استدار إلى سهراب، وقال
بالفارسية:

- لا بد أن هذا هو الشاب الذي يتسبب في كل تلك المشكلات.

قلت:

- هذا سهراب. سهراب، هذا هو السيد فيصل، المحامي الذي قلت لك عنه.

انزلق سهراب عن الفراش وصافح عمر فيصل. قال بصوت خفيض:

- السلام عليكم.

قال فيصل:

- وعليكم السلام، سهراب. هل تعرف أنك سُميت على اسم محارب
عظيم؟

أوماً سهراب. وتسلق فراشه ثانية وتمدد على جانبه لمشاهدة التلفزيون.

قلت بالإنجليزية:

- لم أكن أعرف أنك تتحدث الفارسية بهذه الطلاقة. هل نشأت في كابول؟

قال فيصل:

- لا، وُلدت في كراتشي. لكنني عشت في كابول لسنوات. «شهر نو»،
قرب جامع حجّي يعقوب. ونشأت في بيركلي. فتح والدي متجرًا للموسيقى
هناك في أواخر الستينيات. الحُب الحُر، أربطة الرأس، القمصان المصبوغة
بألوان متعددة، وكل ما يحلو لك.

انحنى إلى الأمام.

- لقد سبق وحضرت مهرجان «وودستوك» الموسيقي.

قلت:

- غير معقول!

ضحك فيصل عاليًا حتى بدأ يعرق من جديد. تابعت:

- على أية حال، ما قلته للسيد «أندروز» هو الحقيقة إجمالًا، باستثناء أمر
أو أمرين. أو ربما ثلاثة. وسوف أقص عليك الرواية الكاملة.

لعق إصبعه وقلب الصفحة، ونزع غطاء قلمه:

- سوف أقدر ذلك، أمير. لماذا لا نتكلم بالإنجليزية من الآن؟

- جيد.

حكيت له كل ما حدث؛ عن لقائي برحيم خان، والطريق إلى كابول،
ودار الأيتام، والرجم في استاد غازي.

همس قائلًا:

- يا إلهي! لا تؤاخذني، فأنا مولع بكابول التي في ذاكرتي. ويصعب عليّ
أن أصدق أنها نفس المكان الذي تخبرني عنه.

- هل ذهبت إلى هناك مؤخرًا؟

- يا إلهي! لا.

قلت:

- إنها ليست «بيركلي». هذا ما سأقوله لك.

- تفضل.

أخبرته بالبقية، اللقاء مع آصف، المعركة، سهراب ونبلته، هروبنا عائدين إلى باكستان. عندما انتهيت، سجل بعض الملحوظات على عجل في الصفحة، وسحب نفسًا عميقًا، ورمقني بنظرة جادة.

- حسنًا، أمير، أمامك معركة عصبية.

- هل يمكنني الفوز فيها؟

وضع الغطاء على قلمه.

- لا أريد أن أبدو مثل «رايموند أندروز»، لكن ذلك ليس محتملاً. ليس مستحيلًا، لكنه احتمال بعيد.

كانت الابتسامة البشوش قد اختفت، والنظرة العابثة في عينيه.

- لكن الأطفال أمثال سهراب هم الذين يحتاجون إلى بيت أكثر من غيرهم. تلك القواعد والقوانين لا تبدو لي منطقية على الإطلاق.

- إنك تنفخ في قربة مقطوعة، أمير. لكن الحقيقة أنك حين تضع في اعتبارك قوانين الهجرة القائمة، وسياسات وكالة التبني، والموقف السياسي في أفغانستان، ستجد أوراق اللعب كلها ضدك.

قلت:

- لا أفهم.

أردتُ أن أصف حالتي بدقة:

- أقصد، أنني أفهم، لكنني لا أفهم.

أوماً عمر وانعقد حاجباه:

- حسنًا، الأمر هكذا. في أعقاب وقوع كارثة، سواء كانت طبيعية أو من صنع الإنسان - والطلاب كارثة، أمير، صدقني - يصعب دائمًا التأكد من أن أحد الأطفال يتيم. يُشرد الأطفال في معسكرات اللاجئين، أو يتخلى عنهم آباؤهم ببساطة لأنهم يعجزون عن رعايتهم. يحدث ذلك طوال الوقت. ومن ثمّ، لا يمنح مكتب الهجرة والتطبيع تأشيرة إلا إذا ثبت بوضوح أن الطفل ينطبق عليه تعريف اليتيم تمامًا. لا تؤاخذني، أعرف أن ذلك يبدو سخيًا، لكنك تحتاج إلى شهادات وفاة.

- لقد ذهبتَ إلى أفغانستان. وتعرف أن ذلك يكاد يكون مستحيلًا.

قال:

- أعرف. لكن دعنا نفترض أننا سلمنا بوفاة الأبوين. حتى عندها، يظن مكتب الهجرة والتطبيع أن الأفضل للطفل أن يُعهد به إلى شخص من بلده حتى يمكن الحفاظ على تراثه.

- أي تراث؟ لقد دمر الطالبان كل ما كان لدى أفغانستان من تراث. لقد رأيتَ ما فعلوا بتمثالي «بوذا» في باميان.

قال عمر وهو يلمس ذراعي:

- لا تؤاخذني، أنا أخبرك بالطريقة التي يعمل بها مكتب الهجرة والتطبيع، أمير.

ألقى نظرة على سهراب وابتسم. واستدار لي ثانية:

- الآن، يجب أن يتم تبني الطفل بطريقة شرعية وفقاً للقواعد والقوانين القائمة في بلده. لكن عندما يكون لديك بلد مضطرب، ولنقل بلدًا مثل أفغانستان، تكون مكاتب الحكومة مشغولة بحالات الطوارئ، ووقتها لا يصبح القيام بإجراءات عملية تبني على رأس الأولويات.

تنهدت ودعكت عيني. كان ثمة صداع مستقر يضرب رأسي خلفهما مباشرة.

قال عمر، وهو يعقد ذراعيه على كرشه البارزة:

- لكن لنفترض أن أفغانستان لملمت شتاتها ووقفت على قدميها بطريقة ما. ربما تظل قوانينها لا تسمح بهذا التبني، بل إن الدول الإسلامية الأكثر اعتدالاً مترددة في قضية التبني لأنه في كثير من تلك الدول لا تعترف الشريعة الإسلامية بالتبني.

سألته، وأنا أضغط بكفي على جبھتي:

- هل تطلب مني أن أتخلى عن الأمر؟

قال:

- لقد نشأت في الولايات المتحدة يا أمير. وإذا كانت أمريكا قد علمتني أي شيء، فهو أن لا أحد يحترم من ينسحب من المعركة. لكن بصفتي محاميك، عليّ أن أعطيك حقائق. وفي نهاية المطاف، فإن أحد إجراءات وكالات التبني إرسال موظف لتقييم البيئة الاجتماعية للطفل، ولن تقوم أي وكالة عاقلة بإرسال موظف إلى أفغانستان.

نظرت إلى سهراب الجالس على الفراش، يشاهد التلفزيون،

ويشاهدنا. كان يجلس بالطريقة التي كان يجلس بها والده، ذقنه مستريح على إحدى ركبتيه.

- أنا عمه غير الشقيق، هل يفيد ذلك بأي شيء؟

- سوف يفيد لو استطعت إثباته. لا تؤاخذني، هل لديك أية أوراق أو أي شخص يمكن أن يدعم روايتك؟

قلت بصوت متعب:

- لا أوراق. ولا أحد يعرف بالأمر. حتى سهراب لم يعرف إلا عندما أخبرته، وأنا نفسي لم أكتشف ذلك إلا مؤخرًا، والشخص الوحيد الذي يعرف الأمر رحل، وربما يكون قد مات.

- همم.

- ما الخيارات المتاحة أمامي يا عمر؟

- سأكون صريحًا. ليس أمامك كثير من الخيارات.

- يا إلهي! ماذا يمكنني أن أفعل؟

سحب عمر نفسًا، نقر على ذقنه بالقلم، ثم أطلق زفيرًا:

- يمكنك أن تملأ استمارة طلب تبني، وتأمل في الأفضل. يمكنك أن تقوم بتبني مستقل، وذلك يعني أنه سيكون عليك أن تعيش مع سهراب هنا في باكستان، يومًا بعد يوم، على مدار السنتين التاليتين. يمكنك أن تسعى إلى الحصول على حق اللجوء بالنيابة عنه، لكن تلك عملية طويلة وسيكون عليك إثبات الاضطهاد السياسي. يمكنك أن تطلب تأشيرة إنسانية، وتلك متروكة لتقدير المحامي العام ولا تُمنح بسهولة.

توقف قليلاً:

- وهناك خيار آخر، ربما أفضل الخيارات.

قلت، وأنا أنحني إلى الأمام:

- ماذا؟

- يمكنك أن تعهد به إلى إحدى دور الأيتام هنا، ثم تملأ استمارة طلب تبني. وتبدأ في إجراءات الاستمارة «I-600» والفحص المنزلي وهو في مكان آمن.

- ماذا يعني هذا؟

- لا تؤاخذني، استمارة «I-600» إجراء رسمي من إجراءات مكتب الهجرة والتطبيع. والفحص المنزلي فحص تجريه وكالة التبني التي تختارها. تعرف، إجراء للتأكد من أنك وزوجتك لستما من المجانين السعرائين.

قلت وأنا أنظر ثانية إلى سهراب:

- لا أريد أن أفعل ذلك. لقد وعدته ألا أرسله إلى دار أيتام ثانية.

- كما قلت، ربما يكون ذلك خيارك الأفضل.

تكلمنا قليلاً بعدها، ثم أوصلته إلى السيارة، خنفساء قديمة طراز «فولكس فاجن». كانت الشمس تغرب على إسلام أباد في ذلك الوقت، غيمة حمراء ملتهبة في الغرب. تابعت السيارة وهي تميل تحت ثقل عمر بعد أن استطاع، بشكل ما، أن ينزلق خلف عجلة القيادة. أنزل الزجاج.

- أمير.

- نعم.

- أردت أن أقول لك هذا بالداخل، حول ما تحاول أن تفعله... أظنه
أمرًا عظيمًا.

لوّح لي ثم انطلق في طريقه. وحين كنت أقف خارج غرفة الفندق وألّوح
له، تمنيتُ لو كانت ثريا معي.

* * *

عندما عدت إلى الغرفة كان سهراب قد أطفأ التلفزيون. جلست على
حافة فراشي، وطلبت منه أن يجلس إلى جوارِي. قلت:

- السيد فيصل يعتقد أن ثمة طريقة لأصطحبك معي إلى أمريكا.

قال سهراب:

- حقًا؟

وهو يبتسم ابتسامة خفيفة للمرة الأولى منذ أيام:

- متى نذهب؟

- طيب، هذا هو الوضع. ربما يستغرق بعض الوقت، لكنه قال إنه أمر
ممکن وإنه سوف يساعدنا.

وضعت يدي على مؤخرة عنقه. من الخارج، رُفع الأذان في الشوارع.

سأل سهراب:

- كم من الوقت؟

- لا أعرف. بعض الوقت.

هز سهراب كتفيه وابتسم، ابتسامة أوسع تلك المرة:

- لا يهم. بوسعي الانتظار. الأمر مثل التفاح المُر.

- التفاح المُر؟

- ذات مرة، وأنا صغير جدًّا، تسلقت شجرة وتناولت تلك التفاحات الخضراء المُرّة. انتفخت بطني وأصبحت صلبة مثل الطبلّة، وشعرت بالألم أيضًا. قالت أُمِّي إنني لو انتظرت التفاحات حتى تنضج، لما مَرَضْتُ. الآن، كلما أردت شيئًا، أحاول أن أتذكر ما قالته لي عن التفاح المر.

- التفاح المُر. ما شاء الله. أنت أذكى فتى قابلته، سهراب جان.

احمَرَّت أذناه خجلًا.

قال:

- هل ستأخذني إلى الجسر الأحمر؟ ذلك الذي يغطيه الضباب؟

- طبعًا، طبعًا.

- وسنقود السيارة في تلك الشوارع، تلك التي لا ترى فيها إلا مقدمة السيارة والسماء؟

قلت، وعيناي تحرقانني من الدموع فأطرف لأطردها:

- في كل شارع منها.

- هل الإنجليزية صعبة التعلم؟

- أقول إنك، في عام واحد، سوف تتحدثها بطلاقة كالفارسية.

- حقًا؟

- نعم.

وضعت إصبعًا أسفل ذقنه، ورفعت وجهه إلى أعلى في مواجهتي.

- لكن ثمة أمر واحد، سهراب.

- ماذا؟

- السيد فيصل يعتقد أنه سيفيدنا كثيرًا إذا... إذا طلبنا منك أن تقيم في بيت للأطفال لبعض الوقت.

قال، وابتسامته تخبو:

- بيت للأطفال! هل تقصد دار أيتام؟

- سيكون ذلك لوقت قصير.

قال:

- لا. لا. أرجوك!!

- سهراب، سيكون ذلك لوقت قصير. أعدك.

- لقد وعدتني أنك لن تضعني في أحد تلك الأماكن، أمير أغا.

كان صوته يتهدج، والدموع تتجمع في عينيه. وشعرت أنا بوخزة:

- الأمر مختلف؛ سيكون هنا، في إسلام آباد، لا في كابول. وسوف أزورك طوال الوقت حتى نتمكن من إخراجك واصطحباك إلى أمريكا.

قال بصوت متحشرج:

- أرجوك! أرجوك! لا! أنا أخاف من هذا المكان. سوف يؤذونني! لا أريد أن أذهب.

- لن يؤذيكَ أحد. لن يحدث ذلك ثانية أبدًا.

- بل سيؤذونني! دائماً يقولون إنهم لن يفعلوا ولكنهم كاذبون! كاذبون!
أرجوك، بالله!

مسحت الدموع السائلة على خده بإبهامي. قلت له بهدوء:

- التفاح المُر، هل تتذكر؟ الأمر مثل التفاح المُر تمامًا.

- لا، ليس كذلك. ليس هذا المكان. يا إلهي، يا إلهي. أرجوك، لا!

كان يرتعد، يختلط على وجهه المخاط بالدموع.

- «ششش».

جذبتة نحوي، ولففت ذراعي حول جسده الصغير المرتعش:

- «ششش». سيكون الأمر على ما يرام. وسوف ترجع معي إلى البيت.
سترى، سيكون الأمر على ما يرام.

كان صوته مخنوقاً في صدري، لكنني سمعت نبرة الذعر فيه:

- أرجوك عدني بأنك لن تفعل! آه، يا إلهي، أمير أغا! أرجوك عدني
بأنك لن تفعل!

كيف أعده؟ ضممته إليّ، ضممته بقوة، وأخذت أهتز إلى الأمام والخلف.
بكى في قميصي حتى جفت دموعه، حتى توقف ارتعاشه وخبث توسلاته
المحمومة إلى همهمات مدغمة. انتظرت، أهدهده حتى هدأت أنفاسه
وارتخى جسده. تذكرت شيئاً قرأته في مكان ما منذ وقت طويل: «هكذا
يتعامل الأطفال مع الخوف. ينامون».

حملته إلى فراشه، ووضعتة عليه. ثم رقدت في فراشي، أنظر من النافذة
إلى سماء إسلام أباد الأرجوانية.

* * *

كانت السماء حالكة السواد عندما أفزعني الهاتف من نومي. دعكت عيني وأضأت الأباجرة. كانت قد تجاوزت العاشرة والنصف مساءً بقليل؛ نمت لنحو ثلاث ساعات. التقطت سماعة الهاتف:

- ألو؟

جاء صوت فياض الرتيب:

- مكالمة من أمريكا.

قلت:

- شكرًا لك.

كان نور الحمام مضاءً؛ سهراب يأخذ حمامه الليلي. نقرتان ثم جاء صوت ثريا:

- سلام!

بدت الإثارة على صوتها.

- أهلاً.

- كيف سارت المقابلة مع المحامي؟

أخبرتها باقتراح عمر فيصل. قالت:

- طيب، يمكنك أن تنسى. لن يكون علينا أن نفعل ذلك.

انتفضت جالسًا:

- «راستي»؟ (لماذا، ما الأمر؟)

- تلقيت ردًا من كاكاشريف. قال إن المفتاح يكمن في إدخال سهراب

إلى البلاد. بمجرد دخوله، ثمة طرق للإبقاء عليه هنا. وعليه، أجرى بضع مكالمات مع أصدقائه في مكتب الهجرة والتطبيع. وردَّ عليَّ الليلة وقال إنه متأكد تقريباً أنه يستطيع الحصول على تأشيرة إنسانية لسهراب.

قلت:

- بجد؟ آه، الحمد لله! يالروعتك يا شريف جان!

- أعرف، على أية حال، سنكون نحن الرعاية. يجب أن يتم ذلك بسرعة. قال إن التأشيرة ستكون صالحة لعام كامل، وهو وقت يكفي للتقدم بالتماس للتبني.

- سيحدث ذلك فعلاً يا ثريا، هه؟

قالت:

- يبدو كذلك.

بدت السعادة على صوتها. أخبرتها بأنني أحبها فقالت إنها تحبني أيضاً. وضعت السماعة.

- سهراب!

ناديته وأنا أنزل من فراشي.

- لدي أخبار عظيمة.

طرقتُ باب الحمام:

- سهراب! ثريا جان اتصلت بي من كاليفورنيا. لن نضطر إلى وضعك

في دار الأيتام، سهراب. سنذهب إلى أمريكا، أنا وأنت. هل تسمعني؟ سنذهب إلى أمريكا!

فتحت الباب. وخطوت داخل الحمام.

فجأة كنت على ركبتيّ، أصرخ. أصرخ عبر أسناني المسّمة. أصرخ حتى
كاد حلقي يتمزق وكاد صدري ينفجر.

لاحقًا، قالوا لي إنني ظللت أصرخ حتى وصول سيارة الإسعاف.

لم يسمحوا لي بالدخول.

أراهم وهم يدفعونه عبر باب هزاز فأتبعهم. أندفع من الباب، تلفحني رائحة اليود وماء الأكسجين، لكن الوقت لم يسعني سوى لرؤية رجلين بكابين من كابات الجراحة وامرأة برداء أخضر محتشدين حول نقالة. تتدلى ملاءة بيضاء على جانبي النقالة فتحتك ببلاط الأرضية القذر متعدد الألوان. قدمان صغيرتان داميتان تبرزان من تحت الملاءة وأرى أن ظفر الإصبع الكبيرة في القدم اليسرى مكسور. ثم رجل طويل ضخم في بنطال أزرق يضع كفّه على صدري ويدفعني إلى الخلف خارج الباب، خاتم زواجه باردٌ على جلدي. أقاومه وأندفع إلى الأمام وأنا أشتمه، لكنه يقول إنه لا يمكنني البقاء هنا، يقولها بالإنجليزية، صوته مهذب لكنه صارم. يقول:

- يجب أن تنتظر.

ويقودني نحو قاعة الانتظار، الآن يغلق الباب الهزاز من خلفي بصري، وكل ما أراه قمة كابتي الجراحة على رأسي الرجلين عبر شباك الباب المستطيل الضيق.

يتركني في ممر واسع بلا نوافذ يعج بأناس يجلسون على كراسي معدنية قابلة للطّي، مصفوفة على طول الجدران، وآخرون على سجادة رفيعة بالية. أريد أن أصرخ ثانية، وأتذكر آخر مرة انتابني فيها ذلك الشعور، حين كنت مع بابا في خزان شاحنة الوقود، مطمورًا في الظلام مع اللاجئين الآخرين. أريد أن أنتزع نفسي انتزاعًا من ذلك المكان، من تلك الحقيقة، أن أنتصب مثل سحابة وأنجرف مع التيار، أن أذوب في تلك الليلة الصيفية الرطبة وأتحلل في مكان بعيد، فوق التلال. لكنني هنا، ساقاي كتلتان من الخرسانة، رتّاي خاويتان من الهواء، حلقي يحترق. لن يكون هناك انجراف مع التيار. لن تكون هناك حقيقة أخرى الليلة. أغمض عينيّ، ويمتلئ منخاراي بروائح الممر، العرق والنشادر، الكحول الطبي والكاربي. على السقف، تسقط الفراشات على أنابيب الضوء الرمادية الباهتة المعلقة بطول الممر وأسمع رفيف أجنحتها. أسمع ثرثرة، نشيجًا مكتومًا، شهقات، أحدهم يتأوه، آخر يتنهد، أبواب المصعد تفتح بصوت «بينج»، النداء الآلي يستدعي شخصًا بالأردية.

أفتح عينيّ ثانية وأعرف ما يجب أن أفعله. أنظر حولي، قلبي مطرقة في صدري، والدم يدمدم في أذنيّ. ثمة غرفة إمدادات صغيرة معتمدة إلى يساري. فيها، أجد ما أحтаجه. سوف أفعلها. أسحب ملاءة سرير بيضاء من كومة من البياضات المطوية وأعود بها إلى الممر. أرى ممرضة تتكلم مع شرطي قرب دورة المياه. أمسك بمرفق الممرضة وأسحبها، أريد أن أعرف اتجاه الغرب. لا تفهم ويتجعد وجهها وهي تقطب جبينها. يؤلمني حلقي ويلسع العرق عيني، كل نفس يشبه استنشاق نار، وأفكر أنني أبكي. أسأل ثانية. أتوسل. ثم يردُّ عليّ الشرطي، مشيرًا إلى القبلة.

ألقي بالملاءة، البديل المؤقت لسجادة صلاة، أسجد، وتبلل دموعي الملاءة. أتذكر أنني لم أصل منذ خمسة عشر عامًا، أنني نسيت الكلمات

منذ زمن طويل. لكن، لا يهم، سوف أتلو تلك الكلمات القليلة التي ما زلت أتذكرها: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله». أرى الآن أن أبي كان مخطئاً، ثمة إله، لطالما كان موجوداً. أراه هنا، في عيون الناس في ممر اليأس هذا. هذا بيت الله الحق، وهنا يمكن للناس الذين فقدوا الله أن يجدوه، ليس في المسجد الأبيض ذي الأنوار الماسية والمنارات الشاهقة. ثمة إله، يجب أن يكون ثمة إله، والآن سأصلي، وسأدعوه أن يغفر لي غفلي عنه كل تلك السنين. يغفر لي أنني خنت، وكذبت، وأثمت محصّناً من العقاب، ولم أتذكره إلا الآن في ساعة الحاجة. أدعوه هو الغفور الرحيم. أسجد وأقبل الأرض وأتعهد بأن أؤدي الزكاة، بأن أقيم الصلاة، بأن أصوم رمضان، وبأن أواصل الصوم بعد انتهاء رمضان، بأنني سأحفظ كل كلمة جاءت في كتابه الحكيم، وبأنني سأحج إلى بيته في مكة المكرمة. سوف أفعل هذا كله وسوف أذكره كل يوم من الآن فصاعداً لو أنه فقط يمنحني تلك الأمنية الوحيدة: إن يديّ ملطختان بدم حسن؛ أدعو الله ألا يدعهما تتلطختان بدم ابنه أيضاً.

أسمع من يجهش بالبكاء، وأدرك أنه أنا، شفتاي مُملحتان بالدموع التي تنساب على وجهي. أشعر بعيون كل من بالمر تراقبني فأواصل سجودي. أدعو، أدعو ألا تتحقق هواجسي ولا أعود قادراً على التخلص من ذنوبي.

* * *

تحل ليلة ليلاء خالية من النجوم على إسلام أباد. مرت عدة ساعات وأنا جالس على أرض الاستراحة الصغيرة في الممر الذي يفضي إلى غرفة الطوارئ. أمامي طاولة قهوة بنية كثيبة وعليها جرائد مبعثرة ومجلات مطوية الحواف - عدد إبريل ١٩٩٦ من مجلة «تايم»، صحيفة باكستانية يظهر عليها وجه صبي صغير صدمه قطار فأرداه قتيلاً الأسبوع الماضي، مجلة ترفيه يتسم على غلافها اللامع ممثلون من «لوليوود». قبالي، تجلس امرأة عجوز ترتدي

قميص «شلوار» بلون اليشم، وشالاً من الكروشيه، مطأطئة الرأس في كرسي متحرك. وبين لحظة وأخرى، تصحو فزعة وتتمتم بأدعية بالعربية. أتساءل مجهداً أي دعاء سيُستجاب الليلة، دعاؤها أم دعائي. أتصور وجه سهراب، الذقن اللحيمة البارزة، أذنيه الصغيرتين اللتين تشبهان القواقع البحرية، عينيه المسحوبتين كأوراق البامبو اللتين تشبهان كثيراً عيني أبيه. يغزوني أسى أسود كالليل بالخارج، وأشعر بغصة في حلقي.

أحتاج إلى هواء.

أنهض وأفتح النافذة. الهواء القادم من الشباك عطن وحرار - رائحته أشبه بالبلح الذي طاب حتى فسد، أو برائحة الروث. أدفعه دفعاً إلى رثتي بكميات كبيرة، لكنه لا يوقف تلك الغصة في صدري. أعود لأقعي على الأرض. ألتقط مجلة «تايم» وأتصفحها. لكنني أعجز عن القراءة، أعجز عن التركيز في أي شيء. أرميها على الطاولة وأعود للتحديق في المسار المتعرج للتشققات في أسمنت الأرضية، في شبّاك العناكب في زوايا السقف، في الذباب الميت المتناثر على عتبة الشباك. ولا أكف عن التحديق في ساعة الحائط. لم تتجاوز الساعة الرابعة صباحاً وقد ظللت مُستبعداً عن الغرفة ذات الباب الهزاز لأكثر من خمس ساعات. ولم أسمع أية أخبار بعد.

بدأت أشعر وكأن الأرض من تحتي جزء من جسدي، وصار تنفسي أثقل، وأبطأ. أريد أن أنام، أغمض عيني وأريح رأسي على تلك الأرضية المتربة الباردة. أن أنجرف مع التيار. عندما أستيقظ، ربما يتبين لي أن كل ما رأيته في حمام الفندق كان جزءاً من حلم: قطرات المياه التي تتساقط من الصنبور وتسقط بصوت «بليנק» في حوض الاستحمام الدامي، الذراع اليسرى المتدلّية من فوق جانب الحوض، الشفرة المغمورة بالدماء على خزان المرحاض - الشفرة ذاتها التي حلقت بها لحيتي في اليوم السابق.

وعيناه، نصف مفتوحتين لا تزالان، إنما خاليتان من الضوء. ذلك أكثر من أي شيء. أريد أن أنسى العينين.

يأتي النوم سريعًا فأتركه يسحبني. أحلم بأشياء لا أتذكرها لاحقًا.

* * *

ينقر أحدهم على كتفي. أفتح عيني. ثمة رجل يركع إلى جوارِي. يضع كآبًا مثل الرجلين خلف الباب الهزاز وقناعًا طبيًا على فمه - يغوص قلبي لدى رؤية قطرة من الدماء على القناع. كان قد سجّل صورة لطفلته الصغيرة التي لها عينان كعيون الأطباء على جهاز ندائه الآلي. ينزع قناعه وأسعد بأنني لم أعد مضطرًا للنظر إلى دماء سهراب بعد. بشرته داكنة مثل الشوكولاتة السويسرية المستوردة التي كنا نشتريناها أنا وحسن من السوق في «شهر نو»، له شعر خفيف وعينان عسليتان تظللهم رموش مقوّسة. في لكنة بريطانية، يقول لي إن اسمه الدكتور نواز، وفجأة تتتابني رغبة أن أبتعد عن هذا الرجل، لأنني لا أظنني قادر على سماع ما جاء ليخبرني به. يقول إن الصبي قد أصاب نفسه بجرح عميق وفقد كثيرًا من الدماء، ويبدأ فمي في تلاوة الشهادتين مجددًا: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله».

كان عليهم أن ينقلوا وحدات كثيرة من خلايا الدم الحمراء...

(كيف أخبر ثريا؟)

وقد أنعشوه مرتين...

(سأقيم الصلاة، وأؤدي الزكاة.)

كان سيضيع منهم لولا أن قلبه صغير وقوي.

(سأصوم.)

إنه حي.

يبتسم الدكتور نواز. أستغرق برهة لكي أتبين ما قاله للتو. ثم يقول المزيد لكنني لا أنصت إليه. لأنني كنت قد أمسكت بيديه ورفعتهما إلى وجهي. أذرف ارتياحي في يدين صغيرتين لحيمتين لشخص غريب فلا يقول شيئاً. ينتظر.

* * *

وحدة العناية المركزة على شكل حرف «L» ومعتمة الإضاءة، تتكدس فيها شاشات ترسل إشارات وآلات تنز. يتقدمني الدكتور نواز بين صفين من الأسرة تفصل بينها ستائر بلاستيكية بيضاء. فراش سهراب الأخير حول الزاوية، الأقرب لمكتب التمريض حيث تدون ممرضتان في ملابس جراحة خضراء ملحوظات على ألواح متابعة الحالة، وتثرثران همساً. وأنا أستقل المصعد صامتاً بصحبة الدكتور نواز، ظننت أنني سأبكي ثانية لدى رؤية سهراب، لكن عندما جلست على الكرسي عند قدم سرير، ناظراً إلى وجهه الأبيض عبر شبكة من الأنابيب البلاستيكية اللامعة ووصلات الحقن الوريدي، ظلت عيناى جافتين. وأنا أراقب صدره وهو يعلو ويهبط على إيقاع هسيس جهاز التنفس، اجتاحني خدرٌ، يشبه الخدر الذي يشعر به المرء لثوانٍ بعد أن ينعطف بسيارته متفادياً تصادمًا في اللحظة الأخيرة.

غفوت، وعندما أفقت، رأيت الشمس تشرق في سماء بلون اللبن الرائب عبر النافذة المجاورة لمكتب التمريض. يتسرب الضوء إلى الغرفة، فيلقي بظلي على سهراب، الذي لم يتحرك من وقتها.

تقول لي ممرضة:

- الأفضل أن تنعم ببعض النوم.

لا أتعرف عليها - لا بد أن الوردية تغيرت في أثناء قيلولتي. تصطحبني إلى استراحة أخرى، خارج وحدة العناية المركزة مباشرة. أجدّها خاوية. تناولني وسادة وبطانية من بطانيات المستشفى. أشكرها وأرقد على أريكة من الفينيل في زاوية الاستراحة. أروح في النوم على الفور.

أحلم بأنني عدت إلى الاستراحة في الطابق الأسفل. يدخل الدكتور نواز فأنهض لمقابلته. يخلع قناعه الطبي، وتبدو يده فجأة أكثر بياضاً مما أتذكر، وأظافره مطلية، وشعره مفروق بانتظام. وأرى أنه ليس الدكتور نواز على الإطلاق، وإنما «رايموند أندروز»، رجل السفارة الضئيل صاحب أصيص الطماطم. يرفع «أندروز» رأسه. ويضيق عينيه.

* * *

نهارًا، كانت المستشفى متاهة من الطرقات المتقاطعة الخاصة بالبشر، خليطًا ضبابيًا من أنوار الفلوريسنت ساطعة البياض فوق الرؤوس. تعرفتُ على تصميمها، وعرفت أن زر الطابق الرابع في مصعد الجناح الشرقي لا يضيء، وأن باب دورة مياه الرجال في الطابق نفسه لا يفتح بسهولة، وعليك أن تدفعه بكتفك كي تفتحه. عرفت أن الحياة بالمستشفى لها إيقاع خاص، هرج ومرج قبيل تغيير وردية الصباح، نشاط محموم في منتصف النهار، سكون وهدوء آخر ساعات الليل التي يقطعها من حين إلى آخر طيف الأطباء والممرضات وهم يندفعون لإنعاش أحد المرضى. كنت أظل مستيقظًا إلى جوار فراش سهراب نهارًا وأتسكع في طرقات المستشفى الأفعوانية ليلاً، أنصت إلى دقات كعب حذائي على بلاط الأرضية، أفكر فيما أقوله لسهراب عندما يفيق. ثم أعود، في نهاية المطاف، إلى وحدة العناية المركزة، إلى جوار أزيز جهاز التنفس الصناعي بجانب فراشه، من دون أن أقرب من إجابة عن ذلك السؤال.

بعد أيام ثلاثة في وحدة العناية المركزة، سحبوا عنه أنبوب التنفس الصناعي وحولوه إلى سرير في الطابق الأرضي. لم أكن هناك وهم ينقلونه. كنت قد عدت إلى الفندق تلك الليلة لأحصل على قسط من النوم وانتهى بي الأمر وأنا أتقلب في الفراش طيلة الليل. في الصباح، حاولت ألا أنظر إلى حوض الاستحمام. كان نظيفاً الآن، إذ مسح شخص الدماء، وبسط فرشاً جديداً على الأرضية، ودَعَكَ الجدران. لكنني لم أستطع أن أمنع نفسي عن الجلوس على حافته الخزفية الباردة. تصورت سهراب وهو يملأه بالماء الدافئ. رأيته يخلع ملابسه. رأيته يدير مقبض شفرة الحلاقة ويفتح ضلفتي الأمان على قممها، ويُخرج الشفرة، يمسكها بين إبهامه وسبابته. تصورته وهو يغطس جسده في المياه، يتمدد هناك لبرهة، مغمض العينين. تساءلت ماذا كانت آخر أفكاره وهو يرفع الشفرة وينزلها.

كنت أخرج من البهو عندما استوقفني مدير الفندق، السيد فياض، وقال لي:

- إنني شديد الأسف، ولكنني أطلب منك أن تغادر فندقي، من فضلك! هذا الحادث مضرٌ بعملتي، مضرٌ للغاية.

قلت له إنني أفهم ودفعت حسابي وغادرت. لم يحاسبني على الأيام الثلاثة التي قضيتها في المستشفى. وأنا أنتظر سيارة أجرة خارج بهو الفندق، فكرت فيما قاله لي السيد فياض في الليلة التي خرجنا فيها للبحث عن سهراب: «مشكلتكم أيها الأفغان أنكم متهورون قليلاً». كنت قد ضحكت من كلامه، لكنني الآن أتساءل: هل خلدتُ إلى النوم حقاً بعدما كشفتُ لسهراب عن أخبار تمثل أكبر مخاوفه؟

عندما ركبت السيارة الأجرة، سألت السائق عما إذا كان يعرف أية مكاتب

فارسية. قال إن ثمة واحدة على بعد كيلو مترين جنوبًا. توقفنا عندها في الطريق إلى المستشفى.

* * *

كانت جدران غرفة سهراب مطلية باللون الكريمي، بكرانيش رمادية داكنة مشطوفة في السقف، وبلاطات مصقولة ربما كانت بيضاء يومًا ما. كان يتقاسم الغرفة مع صبي بنجابي انكسرت ساقه، كما عرفت لاحقًا من إحدى الممرضات، عندما انزلق من فوق سطح حافلة وهي تتحرك. كانت ساقه في جبيرة، مرفوعة ومعلقة بملاقط مشدودة بسيور إلى أثقال عدة.

كان سرير سهراب بجوار النافذة، نصفه الأسفل مضاء بنور شمس الأصيل المتدفق عبر الشباك المربع. وكان رجل أمن يرتدي الزي الرسمي واقفًا عند النافذة، يلوك بذور البطيخ المحمصة - كان سهراب يخضع لمراقبة الانتحار لأربعة وعشرين ساعة في اليوم، وهو أحد بروتوكولات المستشفى، كما أخبرني الدكتور نواز. كان الحارس يلمس طرف قبعته عندما يراني ويغادر الغرفة.

كان سهراب يرتدي بيجاما المستشفى قصيرة الأكمام ويتمدد على ظهره، والبطانية مسحوبة إلى صدره، ووجهه ناحية النافذة. ظننته نائمًا، لكن عندما جررت كرسيًا تجاه سريره رفّت عيناه وانفتحتا. نظر إليّ، ثم أشاح بوجهه. كان شاحبًا جدًّا، على الرغم من كل ما نقلوه له من دماء، وكانت هناك كدمة قرمزية عند ثنية ذراعه اليمنى.

قلت:

- كيف حالك؟

لم يُجب. كان ينظر من النافذة إلى صندوق أطفال رملي وأرجوحة

موضوعين في حديقة المستشفى. كانت هناك تكعيبية مقوسة قرب الملعب، قابعة في ظل صف من أشجار الكركديه، وقد تسلقت التعريشة الخشبية بضع عنبات خضراء. وكان بضعة أطفال في الصندوق يلعبون بالرمال مستخدمين المغارف والدلاء. كانت السماء زرقاء خالية من السحب ذلك اليوم، ورأيت طائرة ضئيلة تخلف خطين أبيضين. استدرت إلى سهراب:

- لقد تحدثت مع الدكتور نواز قبل دقائق ويعتقد أنك ستخرج خلال يومين. أخبار جيدة، هه؟

قابلني بالصمت من جديد. تقلب الصبي البنجابي على الطرف الآخر من الغرفة في نومه وأنّ بشيء ما. قلتُ، محاولاً ألا أنظر إلى رسغي سهراب الملفوفين بالشاش:

- أحب غرفتك، إنها مشرقة، وتطل على منظر جميل.

صمت. مرت بضع دقائق مرتبكة أخرى، ثم تجمّع عرق خفيف على جبهتي، وشفتي العليا. أشرت إلى سلطانية «أوش» الفول الأخضر التي ظلت على الطاولة المجاورة لسريره من دون أن يمسه، والملعقة البلاستيكية غير المستخدمة:

- الأفضل أن تتناول شيئاً، كي تستعيد قوتك. هل تريد أن أساعدك؟

نظر لعينيّ، ثم أشاح بوجهه، وجهه الثابت كالحجر. كانت عيناه لا تزالان خاليتين من الضوء، رأيتهما، خاويتين، كما وجدتهما عندما سحبتة من حوض الاستحمام. مددت يدي نحو الحقيبة الورقية بين قدميّ وأخرجت النسخة المستعملة من الـ«شاهنامة» التي اشتريتها من المكتبة الفارسية. قلبتُ الغلاف حتى يراه سهراب:

- كنت أقرأ منه لوالدك ونحن طفلان. كنا نصعد التل المجاور لمنزلنا ونجلس أسفل شجرة رمان...

خَفَت صوتي حتى الصمت. كان سهراب ينظر عبر النافذة ثانية. أجبرت نفسي على ابتسامة:

- كانت القصة المفضلة لدى والدك قصة رستم وسهراب، ومنها جاء اسمك، أعرف أنك تعرف ذلك.

توقفت، شاعرًا ببعض البلاهة:

- على أية حال، لقد قال في رسالته إنها قصتك المفضلة أنت أيضًا، لذا فكرت أن أقرأ لك بعضًا منها. هل تحب ذلك؟

أغمض سهراب عينيه. غطاهما بذراعه، تلك الذراع ذات الكدمة.

فتحت على الصفحة التي ثنيت زاويتها في سيارة الأجرة. قلت:

- ها نحن.

وكنْتُ أتساءل للمرة الأولى أية أفكار خطرت برأس حسن عندما استطاع أن يقرأ الـ«شاهنامة» أخيرًا بنفسه واكتشف أنني خدعته كل تلك المرات. تنحنحت وقرأت. بدأت:

واسمع خبر الاقتتال بين سهراب ورستم، ويا لها من حكاية

تزخر بالدموع. حدث في يوم من ذات الأيام أن نهض رستم

من على أريكته وكان ذهنه مليئًا بالهواجس. تذكر أنه...

قرأت له معظم الفصل الأول، حتى الجزء الذي يأتي فيه المحارب الشاب سهراب إلى والدته، تهمينه، أميرة سمنجان، ويطلب منها أن تخبره بهوية والده. أغلقت الكتاب:

- هل تريد أن أواصل؟ هناك معارك قادمة، تتذكر؟ سهراب يقود جيشه إلى القلعة البيضاء في إيران؟ هل أقرأ المزيد؟

هز رأسه ببطء. أسقطت الكتاب ثانية في الحقيبة الورقية. قلت، متشجعاً باستجابته عموماً:

- طيب. ربما يمكننا أن نكمل غداً. كيف حالك؟

فتح سهراب فمه وخرجت منه حشرة. كان الدكتور نواز قد أخبرني بأن ذلك سوف يحدث، بسبب أنبوب التنفس الصناعي الذي أدخلوه عبر أحباله الصوتية. لعق شفثيه وحاول مجدداً:

- تعبان!

- أعرف. لقد قال الدكتور نواز إن ذلك أمر متوقع...

كان يرتعش في السرير.

- ماذا يا سهراب؟

انكمش عندما تحدث ثانية بذلك الصوت المبحوح الذي لا يزيد عن الهمس إلا قليلاً:

- تعبان من كل شيء!

تنهدت وغصت في مقعدي. كان على السرير بيننا شريط من ضوء الشمس، ولوهلة، كان الوجه الرمادي المطل عليّ من جانبه الآخر شديد الشبه بوجه حسن، ليس حسناً الذي كنت ألعب معه بالكريات الزجاجية حتى يؤذن الملا لصلاة العشاء ويناديننا علي كي نعود إلى البيت، أو حسناً الذي كنت أطارده نازلين عن التل والشمس تغطس خلف أسطح المنازل الطينية

في الغرب، لكن حسن الذي رأيته حيًا للمرة الأخيرة، وهو يجرجر متعلقاته
خلف علي تحت وابل من المطر الصيفي الدافئ، ويكدسها في حقيبة سيارة
بابا فيما أشاهدهم أنا من نافذة غرفتي المغمورة بالمطر.

هز رأسه هزة خفيفة، وكرر:

- تعبان من كل شيء!

- ماذا بوسعي أن أفعل يا سهراب؟ أرجوك قل لي!

بدأ:

- أريد...

ثم انكمش ثانية ووضع يده على حلقه كما لو كان يحاول إزالة الشيء
الذي يحجز صوته، أيًا كان. انجذبت عيناى ثانية إلى رسغه الملفوف بإحكام
بأربطة الشاش الأبيض. همس:

- أريد حياتي القديمة!

- آه، سهراب.

- أريد أبي وماما جان. أريد ساسا. أريد أن ألعب مع رحيم خان صاحب
في الحديقة. أريد أن أعيش في دارنا ثانية.

سحب ذراعه على عينيه:

- أريد حياتي القديمة!

لم أعرف ماذا أقول، وإلى أين أنظر، فحدقت في يديّ. فكرت: حياتك
القديمة. حياتي القديمة أنا أيضًا. لقد لعبت في الباحة نفسها، سهراب.
عشت في الدار نفسها. لكن العشب مات وسيارة الغرباء الجيب تقف في

مدخل سيارات دارنا، تبول الزيت على الأسفلت. راحت حياتنا القديمة
بلا رجعة، سهراب، وكل من كان فيها ميت أو محتضر. لم يعد سواي أنا
وأنت. أنا وأنت فقط.

قلت:

- لا أستطيع أن أعطيك ذلك!

- أتمنى لو لم تـ...

- أرجوك لا تقل هذا!

- لو لم تـ... أتمنى لو أنك تركتني في المياه!

قلت وأنا أنحني إلى الأمام:

- إياك أن تقول ذلك ثانية، سهراب. لا أتحمل سماعك تتكلم هكذا!

لمست كتفه فجفل. سحبته ذراعي. أسقطت يدي، وأنا أتذكر بحسرة
ما آل إليه أخيرًا، في الأيام الأخيرة قبل أن أنقض وعدي له، كيف كان
يستكين للمستتي.

- سهراب، لا أستطيع أن أعيد لك حياتك القديمة، أتمنى من الله لو كنت
أستطيع. لكن يمكنني أن آخذك معي. هذا ما جئت إلى الحمام لأخبرك به.
لديك تأشيرة دخول إلى أمريكا، لكي تعيش معي ومع زوجتي. بجد. أعدك.
تنهد من أنفه وأغمض عينيه. تمنيت لو لم أقل هاتين الكلمتين
الأخيرتين. قلت:

- تعرف، لقد فعلت أشياء كثيرة ندمت عليها في حياتي، وربما أكثرها
نقض الوعد الذي قطعته لك. لكن ذلك لن يحدث ثانية أبدًا، وأنا شديد

الأسف وأعتذر بالغ الاعتذار. أطلب الـ«بخشش» (السماح). هل يمكنك أن تفعل ذلك؟ أن تصفح عني؟ هل يمكن أن تصدقني.

خففت صوتي:

- هل ستأتي معي؟

فيما كنت أنتظر رده، عاد ذهني إلى ذلك اليوم الشتوي قبل زمن طويل، أنا وحسن نجلس على الثلج أسفل شجرة كرز حامض جرداء. كنت قد مكرت على حسن بقسوة ذلك اليوم، عبثت معه، سألته إذا ما كان سيأكل التراب ليثبت إخلاصه لي. الآن كنت أنا الشخص تحت المجهر، الشخص الذي يجب عليه أن يثبت جدارته. وكنت أستحق هذا.

تقلّب سهراب على جنبه، وأولاني ظهره. لم ينطق بشيء لمدة طويلة. ثم، حين ظننت أنه راح في النوم، قال بحسرة:

- أنا «خسته» (متعب) جدًا!

جلست على سريره حتى راح في النوم. كان شيء ما قد ضاع بيني وبين سهراب. حتى لقائي بالمحامي، عمر فيصل، كان بريق من الأمل قد بدأ يتسلل لعيني سهراب مثل ضيف وجّل. الآن ذهب البريق، وهرب الضيف، وتساءلت متى يجرؤ على العودة. تساءلت كم من الوقت يمر قبل أن يتسم سهراب من جديد. كم يمر قبل أن يثق فيّ، إن كان يمكن أن يثق بي ثانية.

وهكذا، غادرت الغرفة وذهبت للبحث عن فندق آخر، غير عالم بأن عامًا آخر سوف يمر قبل أن أسمع سهراب ينطق بكلمة أخرى.

* * *

في النهاية، لم يقبل سهراب عرضي، ولم يرفضه أيضًا. لكنه كان يعرف

أنه، بعد إزالة الأربطة وإعادة ملابس المستشفى إليها، يعود هزاره يتيماً ومشرّداً من جديد. أي خيار كان أمامه؟ إلى أين بوسعه أن يذهب؟ وهكذا، فإن ما أخذته على أنه رد بالإيجاب كان في واقع الأمر ضرباً من الاستسلام الهادئ، ليس قبولاً بقدر ما هو تسليم من جانب شخص منهك لدرجة لا تسمح له باتخاذ قرار، ومتعب بدرجة لا يمكن معها أن يصدّق. ما كان يتوق إليه هو حياته القديمة. وما ناله هو أنا وأمريكا. لا أقول إن ذلك كان مصيراً سيئاً، مع وضع كل الأمور في الحسبان، لكنني لم أستطع أن أقول له ذلك، فالتدبر رفاهية عندما يكون رأسك مسكوناً بحشد من العفاريت لا تكف عن الطنين.

وهكذا جرت الأمور، بعد نحو أسبوع كنا على ممر الطائرات، وجلبت ابن حسن من أفغانستان إلى أمريكا، منتشلاً إيّاه من يقين الاضطراب وملقياً به في اضطراب اللايقين.



ذات يوم، ربما في عام ١٩٨٣ أو ١٩٨٤، كنت في محل للفيديو في فريمونت. أقف في قسم أفلام الغرب عندما أشار رجل إلى جواري، وهو يشفط الكوكا كولا من كأس مكتوب عليها اسم محلات «سيفن إلفن»، إلى فيلم «العظماء السبعة»، وسألني إن كنت قد شاهدته. قلت:

– نعم، ثلاث عشرة مرة. «تشارلز برونسون» يموت فيه، وكذلك «جيمس كوبرون» و«روبرت فون».

رمقني بنظرة متشنجة، كما لو كنت قد بصقت في مشروبه. ثم قال:

– شكراً جزيلاً يا صاح.

وهو يهز رأسه ويتمتم بشيء ويمضي بعيدًا. وقتها عرفت أنه، في أمريكا، لا يجب أن تكشف نهاية الفيلم، وإذا فعلت ذلك، فسوف يُستهجن سلوكك، ويكون عليك الاعتذار بشدة على ارتكاب خطيئة «إفساد النهاية».

في أفغانستان، كانت النهاية كل ما يهم، عندما كنا نرجع أنا وحسن إلى البيت بعد مشاهدة فيلم هندي في سينما زينب، كان كل ما يسأل عنه علي أو رحيم خان أو بابا أو أي من العدد الغفير من أصدقاء بابا - أبناء عمومة من الدرجتين الثانية والثالثة يدخلون ويخرجون من البيت بلا انقطاع - هو: هل وجدت الفتاة في الفيلم السعادة؟ هل أصبح «بتشه» (بطل) الفيلم «كُمياب» وحقق أحلامه، أم صار «نه كم»، وكُتب عليه الفشل؟

هل كانت ثمة سعادة في النهاية، هذا ما كانوا يريدون معرفته.

إذا سألني أحدهم اليوم ما إذا كانت قصتي أنا وحسن وسهراب قد انتهت نهاية سعيدة، لما عرفت بمَ أرد.

هل تنتهي قصة أي شخص نهاية سعيدة؟

في نهاية المطاف، ليست الحياة فيلمًا هنديًا. والأفغان يقولون: «زندجي مجزره» (الحياة تسير)، غير عابئة لا بالبداية ولا بالنهاية، لا بـ «كُمياب» ولا بـ «نه كم»، لا بالمعضلة ولا بالتطهير، تمضي قُدَمًا مثل قافلة متربة وثيدة من البدو الـ «كوتشي».

لم أكن لأعرف كيف أجيب عن هذا السؤال، على الرغم من المعجزة الصغيرة التي حدثت يوم الأحد الماضي.

* * *

وصلنا إلى البيت قبل نحو سبعة أشهر تقريبًا، في يوم حار من أيام أغسطس

عام ٢٠٠١. أقلتنا ثريا من المطار. لم أكن قد ابتعدت عن ثريا طويلاً هكذا من قبل، وعندما شبَّكت ذراعيها حول عنقي، عندما شممت التفاح في شعرها، أدركت كم كنت أفقدها. همست في أذنها:

- ما زلتِ شمس الصباح بعد ليلة الـ«يلدا».

- ماذا؟

- لا تهتمي.

قبَّلت أذنها.

بعدها، انحنت إلى سهراب. تناولت يده وابتسمت له:

- سلام، سهراب جان، أنا خالك ثريا. كنا جميعاً في انتظارك.

وأنا أنظر إليها وهي تبسم إلى سهراب، وعيناها تترقرقان بالدمع، لمحتُ
الأم التي كان يمكن أن تكون، لو لم يخنها رحمها.
راوح سهراب بين قدميه، وأشاح بوجهه بعيداً:

* * *

كانت ثريا قد حوّلت غرفة المكتب في الطابق العلوي إلى غرفة نوم
لسهراب. قادته إليها، وجلس على حافة الفراش. كانت الملاءات مغطاة
بطائرات ورقية مبهجة الألوان تحلق في سماوات زرقاء داكنة. كانت قد
نقشت على الحائط بجوار خزانة الملابس ستيمترات لقياس طول الطفل
النامي. وعند طرف الفراش، رأيت سلة مكدسة بالكتب، وعربة لعبة،
ومجموعة من الأقلام الملونة.

كان سهراب يرتدي التيشيرت الأبيض السادة والبنطلون النيم الجديد

اللذين اشتريتهما له في إسلام أباد قبيل مغادرتنا - كان التيشيرت يتدلى من اتساعه على كتفيه المتهدلتين. ولم يكن اللون قد عاد بعد إلى وجهه، إلا هالة من الدوائر الداكنة حول عينيه. كان ينظر تجاهنا الآن بالطريقة اللامبالية التي ينظر بها لأطباق الأرز المسلوق التي كانت توضع إلى جواره بانتظام في المستشفى.

سألته ثريا إن كانت غرفته تعجبه، ولاحظت أنا أنها تحاول تجنب النظر إلى رسغيه، وأن عينيهما ظللتا تتأرجحان عائدتين إلى تلك الخطوط الوردية المشرشرة. طأطأ سهراب رأسه، وأخفى يديه أسفل فخذه ولم يقل شيئاً. ثم وضع رأسه على الوسادة ببساطة. وبعد أقل من خمس دقائق، كنت أنا وثرثيا نراقبه من فتحة الباب، وكان يغط في نومه.

ذهبنا إلى الفراش، وراحت ثريا في النوم ورأسها على صدري. في ظلام غرفتنا، تمددت يقظاً، مصاباً بالأرق من جديد. يقظاً. ووحيداً مع عفاريتي. أحياناً في منتصف الليل، كنت أنزلق خارجاً من الفراش وأذهب إلى غرفة سهراب. وقفت إلى جواره، أنظر إلى أسفل، فرأيت شيئاً يبرز من أسفل وسادته. سحبته. كان الصورة التي التقطها رحيم خان، الصورة التي أعطيتها لسهراب ليلة كنا نجلس بجوار جامع شاه فيصل. الصورة التي يقف فيها حسن وسهراب جنباً إلى جنب، يضيقان عيونهما في ضوء الشمس، وبيتسمان كما لو كان العالم مكاناً طيباً وعادلاً. تساءلت كم من الوقت ظل سهراب راقداً في فراشه يحدق في الصورة، ويقبّلها بين يديه.

نظرت إلى الهاتف. قال رحيم خان في رسالته: «لكن والدك كان رجلاً ممزقاً بين نصفين». كنت أنا النصف حامل اللقب، المقبول من المجتمع، النصف الشرعي، التجسيد غير المقصود للإثم الذي ارتكبه بابا. نظرت إلى

صورة حسن، بسنيه الأماميتين المفقودتين، وضوء الشمس يميل على وجهه. نصف بابا الآخر. النصف المحروم من اللقب، المحروم من المجتمع. النصف الذي ورث كل ما هو نقي ونبل في بابا. النصف الذي ربما كان بابا يراه، في أعماق قلبه، ابنه الحقيقي.

دستت الصورة حيث وجدتها، ثم أدركت شيئاً: إن تلك الفكرة الأخيرة لم تجلب معها وخزة. وأنا أغلق باب سهراب، تساءلت إن كان الغفران ينمو على هذا النحو، ليس برؤيا صاخبة، وإنما بالألم وهو يللم متاعه، ويحزم حقائبه، ويتسلل راحلاً في منتصف الليل بلا إعلان.

* * *

جاء الجنرال والخالة جميلة على العشاء في الليلة التالية. ناولت الخالة جميلة، بشعرها القصير المقصوص وبدرجة حمار أدكن من المعتاد، ثريا طبق حلوى الـ«مغوت» المكلفة باللوز الذي اشترته لنا. رأت سهراب فأشرق وجهها:

ـ ما شاء الله! أخبرتنا ثريا جان كم أنت «خوش تيب»، لكنك أكثر وسامة في الواقع، سهراب جان.

أعطته سويتر برقبة. قالت:

ـ لقد حبكته من أجلك. للشتاء القادم. إن شاء الله سيكون على مقاسك.

أخذ سهراب السويتر منها.

ـ أهلاً أيها الشاب.

كان كل ما قاله الجنرال، وهو يتكئ بكلتا يديه على عصاه، ناظرًا إلى سهراب بالطريقة التي يفحص بها المرء قطعة ديكور غريبة في بيت مضيفه.

أجبت، وأجبت ثانية، أسئلة خالة جميلة عن إصاباتي - كنت قد طلبت من ثريا أن تخبرهما بأنني تعرضت لحادث سطو - مؤكِّدًا لها أنني لم أصب بأية عاهات مزمنة، وأن الأسلاك سوف تُنزع في غضون أسابيع قليلة وأصبح قادرًا على تناول الطعام الذي تطهوه ثانية، وأنني، نعم، سوف أجرب أن أدهن ندوبي بعصير الراوند مع السكر كي تختفي أسرع.

جلست مع الجنرال في غرفة المعيشة نشرب النبيذ، وثرىا ووالدتها تعدان المائدة. حكيت له عن كابول وعن الطالبان. كان يصغي ويومئ برأسه، عصاه على حجره، وأصدر صوت «تِسْكُ» عندما أخبرته عن الرجل الذي رأيته يبيع ساقه الصناعية. لم أذكر شيئًا عن عمليات الإعدام في استاد غازي، أو عن آصف. سألني عن رحيم خان الذي قال إنه قابله في كابول بضع مرات، وهز رأسه بوقار عندما أخبرته عن مرض رحيم خان. لكنني، ونحن نتكلم، ضببطت عينيّ تحيدان مرة بعد مرة إلى سهراب النائم على الأريكة. كما لو كنا نلف حول ما كان يريد معرفته بالفعل.

- إذن، أمير جان، هل ستحكي لنا لماذا عدت بهذا الصبي معك؟

قالت الخالة جميلة:

- إقبال جان! أي سؤال هذا؟

- فيما كنت مشغولة بحياكة السويتر، يا عزيزتي، كان عليّ أن أتعامل مع نظرة المجتمع لعائلتنا. سوف يسأل الناس، وسوف يريدون معرفة لماذا يعيش صبي هزازه مع ابنتنا. فماذا أقول لهم؟

أسقطت ثريا ملعقتها. واستدارت لوالدها:

- يمكنك أن تقول لهم...

قلتُ وأنا أتناول يدها:

- لا مشكلة، عزيزتي، لا مشكلة. الجنرال صاحب على حق. سوف يسأل الناس بالفعل.

شرعت تقول:

- أمير...

استدرت إلى الجنرال:

- لا بأس. انظر، جنرال صاحب، نام أبي مع زوجة خادمه، وولدت له ابناً اسمه حسن، وقد مات حسن. والصبي النائم على الأريكة ابن حسن. ابن أخي. هذا ما تقوله للناس عندما يسألون.

كانوا يحدقون فيّ جميعاً.

قلت:

- وأمر واحد أخير، جنرال صاحب. لا تقل عنه «صبي هزاره» في حضوري أبداً. اسمه سهراب.

ولم ينطق أحد بكلمة طوال العشاء.

* * *

لا يصح أن أقول إن سهراب كان هادئاً؛ فالهدوء من السكينة. الاطمئنان. الهدوء خفضٌ لمؤشر صوت الحياة.

والصمت ضغط على زر الصوت. إطفاءه. تماماً.

لم يكن صمت سهراب صمتاً ذاتياً من ذلك الذي يفرضونه على أنفسهم

أصحاب القناعات، أو المحتجون الذين يسعون للحديث عن قضيتهم
بألا يتحدثوا على الإطلاق. كان صمت شخص سَحَب غطاءً على نفسه في
مكانٍ مظلم، ثنى كل الحواف ودسها أسفل جسده.

لم يكن يعيش معنا بقدر ما كان يحتل فراغًا، فراغًا ضئيلًا. أحيانًا، في
السوق، أو في المتنزه، ألاحظ كيف كان يبدو على الآخرين أنهم لا يرونه
إلا بالكاد، كما لو كان غير موجود على الإطلاق. أرفع عينيَّ عن كتاب فأجد
سهراب قد دخل الغرفة، وجلس قبالي، من دون أن ألاحظه. كان يمشي
وكأنه يخشى أن يترك آثار أقدام خلفه. ويتحرك وكأنه يريد ألا يحرك الهواء
من حوله. وفي معظم الأحيان، كان ينام.

كان صمت سهراب عصيًّا على ثريا أيضًا. في مكالماتها الهاتفية الدولية
لباكرستان، أخبرتني ثريا عن خططها لسهراب: فصول سباحة، كرة قدم، دوري
بولينج. الآن تمر من أمام غرفة سهراب فتلمح الكتب التي لم تُفتح مكومة
في السلة، مقياس النمو بلا علامات، البازل بلا تجميع، كل شيء يذكّر بحياة
كان يمكن أن تكون. يذكّر بحلم يذبل في المهد. لكنها لم تكن وحدها، فقد
كانت تراودني أنا الآخر أحلام لسهراب.

كان سهراب صامتًا، لكن العالم لم يكن كذلك. في صبيحة ثلاثاء
في سبتمبر الماضي، انهار البرجان التوأمان، وبين عشية وضحاها، تغير
العالم. ظهر العلم الأمريكي فجأة في كل مكان: على هوائيات سيارات
الأجرة الصفراء التي تتعرج في الشوارع، على ياقات المارة السائرين على
الأرصفة في تيار لا ينقطع، وحتى على القبعات المتربة لمتسولي سان
فرانسيסקو الجالسين تحت تندات معارض الفنون الصغيرة والمتاجر
ذات الواجهات المفتوحة. ذات يوم مررت من أمام «إيديث»، المرأة
الشريفة التي تلعب الـ«أكورديون» كل يوم عند ناصية شارع سوتر

وُسْتُكْتون، فلدحت ملصقًا على شكل العلم الأمريكي على حقيبة الـ«أكورديون» عند قدميها.

بُعِيد الهجمات، قصفت أمريكا أفغانستان، ودخل تحالف الشمال، وفر الطالبان كالجرذان إلى الكهوف. فجأة، أصبح الناس يقفون في الطوابير أمام محلات البقالة ويتحدثون عن مدن طفولتي: قندهار، هرات، مزار الشريف. عندما كنت صغيرًا جدًّا، اصطحبنا بابا، أنا وحسن، إلى كُندوز. لا أتذكر عن الرحلة سوى وأنا جالس في ظل شجرة أكاسيا مع بابا وحسن، نتناوب رشف عصير بطيخ طازج من وعاء فخاري ونرى من يمكنه أن ييصق البذور أبعد. الآن أصبح إعلاميون مثل «دان راذر»، و«توم بروكو»، وأناس يرشفون القهوة بالحليب في «ستاربكس» يتكلمون عن معركة كُندوز، آخر معاقل طالبان في الشمال. في ديسمبر من ذلك العام، اجتمع البشتون والطاجيك والأوزبك والهزاره في بون وبدأوا، تحت رعاية الأمم المتحدة، العملية التي قد تُنهي يومًا ما يزيد على عشرين عامًا من التعاسة في وطنهم. وأصبحت قبعة حامد كرزاي المصنوعة من جلد الكاراكول وقفطانه الـ«شابان» الأخضر أشهر من نار على علم.

لكن سهراب ظل يسير نائمًا طوال هذه المعمة.

انغمسنا أنا وثرثيا في مشروعات أفغانية، انطلاقًا من إحساس بواجبنا الوطني، وأيضًا من وحي حاجتنا لشيء - أي شيء - يملأ الصمت في الطابق العلوي، الصمت الذي يشفط كل شيء مثل ثقب أسود. لم أكن نشيطًا قط، لكن عندما اتصل بي رجل يُدعى كبير، وهو سفير أفغاني سابق إلى صوفيا، وسألني إن كنت أرغب في مساعدته في مشروع مستشفى، رددت بالإيجاب. كانت المستشفى الصغيرة تقع قرب الحدود الأفغانية الباكستانية، وبها وحدة جراحية صغيرة تستقبل اللاجئين الأفغان ممن أصيبوا جرّاء الألغام الأرضية.

لكنها أقفلت لنقص التمويل. أصبحت مدير المشروع، وثرىا شريكتي في الإدارة. كنت أقضي جُلَّ يومي في المكتب، أرسل البريد الإلكتروني لأناس حول العالم، أتقدم للمنح، أنظم فعاليات لجمع التبرعات. وأقول لنفسي إن المجيء بسهراب إلى هنا كان الفعل الصائب.

انتهى العام بي وثرىا على الأريكة، والبطانية مفرودة على سيقاننا، نشاهد «ديك كلارك» في التلفزيون. كان الناس يهللون ويتبادلون القبلات عندما تسقط الكرة الفضية، وتبيضُ الشاشة بنُثار الأوراق الاحتفالية. في بيتنا، بدأ العام الجديد بالطريقة نفسها التي انتهى بها العام الجديد. في صمت.

* * *

ثم، قبل أربعة أيام، في نهار بارد وممطر من مارس عام ٢٠٠٢، حدثت أعجوبة صغيرة.

اصطحبت ثرىا، والخالة جميلة، وسهراب إلى اجتماع للأفغان عند منزله بحيرة إليزابيث في فريمونت. كان الجنرال قد استدعي أخيراً إلى أفغانستان في الشهر الماضي ليشغل منصبا وزارياً، وقد غادر إلى هناك قبلها بأسبوعين - ترك خلفه حلتة الرمادية وساعة جيبه. كانت الخطة أن تلتحق به الخالة جميلة بعد بضعة أشهر بمجرد أن يستقر. كانت تفتقده ببشاعة - وقلقة على صحته هناك - وقد أصررنا على أن تظل معنا لبعض الوقت.

كان الخميس الماضي، أول أيام الربيع، رأس السنة الأفغانية - «سال نو» - وقد نظم الأفغان في منطقة الخليج احتفالات على طول الخليج الشرقي وشبه الجزيرة. أما أنا وكبير وثرىا فقد كان لدينا سبب آخر للبهجة: فمستشفانا الصغيرة في روالبندي افتُتحت الأسبوع الماضي، ليس الوحدة الجراحية، فقط عيادة الأطفال. لكنها كانت بداية طيبة، هذا ما اتفقنا عليه جميعاً.

كانت الأيام السابقة مشمسة، لكن صباح الأحد، وأنا أنزل ساقِيَّ من السرير، سمعتُ قطرات مطر ترتطم بالنافذة. فكرتُ أنه حظ الأفغان. وخرجت مني ضحكة خافتة. صليت الصبح وثرىا نائمة - لم أعد مضطراً للقراءة من الكتيب الذي جئت به من الجامع؛ كانت الآيات تنساب الآن بصورة طبيعية، ومن دون جهد.

وصلنا ساعة الظهيرة تقريباً ووجدنا بعض الناس يختبئون أسفل غطاء بلاستيكي مربع كبير قائم على ستة أعمدة مغروسة في الأرض. كان أحدهم قد بدأ في قلي الـ «بولاني»؛ والبخار يتصاعد من أكواب الشاي وإناء «أوش» القرنبيط. وكانت تصدح من الكاسيت أغنية قديمة لأحمد ظاهر بصوت مشوش. ابتسمتُ قليلاً ونحن الأربعة نهول عابرين الحقل العشبي الغارق في الليل، أنا وثرىا في المقدمة، والخالة جميلة في المنتصف، وسهراب خلفنا، وغطاء الرأس المعلق بمعطفه الأصفر يتنطط على ظهره.

قالت ثرىا، وهي تطوي جريدة فوق رأسها:

- ما يضحكك؟

قلت:

- يمكنك أن تنزعي الأفغان عن بغمان، لكن لا يمكن نزع بغمان عن الأفغان.

انحنينا لنحتمي من المطر تحت الخيمة. واتجهت ثرىا والخالة جميلة ناحية امرأة بدينة تحمّر «بولاني» السبانخ. وظل سهراب أسفل المظلة للحظة، ثم رجع إلى المطر، ويداه مدسوستان في جيبي معطفه، وشعره - وقد أصبح الآن بنيّاً وناعماً مثل حسن - ملتصقٌ على فروة رأسه. توقف قرب نقرة بلون القهوة وحدّق فيها. لم يبدُ أن أحداً لاحظته. لم ينادِه أحد لكي يرجع.

مع الوقت، كانت الاستفسارات حول صغيرنا المتبني - والغريب الأطوار قطعاً - قد توقفت لحسن الحظ، وكانت في ذلك راحة كبيرة، حين نضع في الاعتبار ذلك الحد من افتقار اللياقة الذي تصل إليه الاستفسارات الأفغانية في بعض الأحيان. كفَّ الناس عن السؤال لماذا لا يتكلم أبداً؟ لماذا لا يلعب مع الأطفال الآخرين؟ والأفضل على الإطلاق، كفوا عن خنقنا بتعاطفهم المبالغ فيه، الهز البسيط لرؤوسهم، الـ«تِسْكَ تِسْكَ»، الـ«أوه جنج بي شرا» (أوه! يا للأبكم المسكين). لم يعد الأمر جديداً. وامتزج سهراب بالخلفية مثل ورق حائط باهت.

صافحتُ كبيراً، وهو رجل صغير بشعر فضي. قدمني لدسته من الرجال، كان أحدهم مدرساً متقاعدًا، والآخر مهندسًا؛ مهندسًا معماريًا سابقًا، وجراحًا يدير الآن كشكًا للهوت دوج في هايوارد. قالوا جميعًا إنهم عرفوا بابا في كابول، وتحدثوا جميعًا باحترام عنه. بطريقة أو بأخرى، ترك لمسة على حياة كل منهم. قال الرجال إنني محظوظ بأن يكون هذا الرجل العظيم أبي.

ثرثنا حول المهمة العصبية التي تنتظر كرزاي والتي لا حمد فيها ولا شكورًا، عن اجتماع الـ«لويَه جرَكه» المرتقب وعودة الملك الوشيكة إلى بلاده بعد ثمانية وعشرين عامًا في المنفى. تذكرت تلك الليلة عام ١٩٧٣، ليلة أطاح ابن عم ظاهر شاه به؛ تذكرت إطلاق النار والسماء التي تلمع بالفضة - كان علي قد أخذنا في ذراعيه، وقال لنا ألا نخاف، إنهم يصطادون البط وحسب.

ثم ألقى أحدهم نكتة من نكات الملا نصر الدين وأخذنا جميعًا نضحك. قال كبير:

- تعرف، أبوك كان رجلًا فكها أيضًا.

قلت:

- نعم، أليس كذلك.

كنت أبتسم، وأتذكر كيف بدأ بابا، فور وصولنا إلى الولايات المتحدة، يتبرم من الذباب الأمريكي. كان يجلس إلى طاولة المطبخ ممسكًا بمضرب الذباب، يراقب الذباب الذي يندفع من جدار إلى جدار، يئز هنا وهناك، ينطلق ويحتاج. وكان ينفخ ويقول:

- هل هذه بلد، حتى الذباب ليس لديه وقت.

كم ضحكت. وابتسمت للذكرى.

في الثالثة، كان المطر قد انقطع وصارت السماء رمادية متخثرة محملة بكتل من السحاب. هب هواء بارد عبر المتنزه. وظهر مزيد من العائلات. أفغان يحيون بعضهم بعضًا، يتعانقون، ويتبادلون القبلات والطعام. أشعل أحدهم فحمًا في شواية وسرعان ما غمرت رائحة الثوم وكباب الـ«مرغ»، الدجاج، حواسي. كان ثمة موسيقى، مطرب جديد لم أعرفه، وقهقهة الأطفال. رأيت سهراب، ما زال في معطف المطر الأصفر، يستند إلى دلو مهملات، ويحدق في قفص البيسبول الخاوي على الطرف الآخر من المتنزه.

بعدها ببرهة، وأنا أثرثر مع الجراح السابق، الذي قال لي إنه وبابا كانا زميلي دراسة في الصف الثامن، شدت ثريا كمي:

- أمير، انظر!

كانت تشير إلى السماء. وكانت نصف دسطة من الطائرات تطير عاليًا، رقطات ناصعة من الأصفر والأحمر والأخضر على السماء الرمادية.

قالت ثريا:

- انظر هناك.

كانت تشير تلك المرة إلى رجل يبيع طائرات ورقية من فوق طاولة قريبة.
قلت:

- امسكي هذا.

ناولت ثريا فنجان الشاي. استأذنت من الصحبة ومشيت باتجاه طاولة
الطائرات الورقية، حذائي يغوص في العشب المبلل. أشرت إلى «سه برشا»
صفراء. قال بائع الطائرات الورقية وهو يأخذ العشرين دولارًا ويناولني الطائرة
الورقية وبكرة خشبية من الـ«تار» المزجج:

- «سال نو» مبارك.

شكرته وتمنيت له هو الآخر سنة جديدة سعيدة. اختبرتُ الخيط كما
كنت أنا وحسن نختبره، بأن أمسكته بين إبهامي وسببتي وشددته. احمرّ
من الدم وابتسم بائع الطائرات الورقية. فابتسمت له.

أخذت الطائرة إلى حيث لا يزال سهراب يقف، متكئًا على دلو القمامة،
ذراعه معقودتان على صدره. كان يحدّق في السماء.

قلت وأنا أرفع الطائرة الورقية من طرفي القضييين المتصاليين:

- هل تحب الـ«سه برشا»؟

تنقّلت عيناه من السماء إليّ، إلى الطائرة، ثم إلى السماء مجددًا. انسابت
نُهيرات من مياه الأمطار منحدره من شعره على وجهه.

قلت:

- قرأتُ ذات مرة أنهم، في ماليزيا، يستخدمون الطائرات الورقية لاصطياد

الأسماك. أراهن أنك لا تعرف كيف. يربطون فيها خيط صيد ويطيرونها متجاوزة المياه الضحلة، حتى لا تلقي بظل وتخيف الأسماك. وفي الصين القديمة، كان الجنرالات يطيرون الطائرات فوق ساحات القتال ليرسلوا رسائل لرجالهم. بجد. أنا لا أضحك عليك.

أظهرتُ له إبهامي المدمى:

- والـ«تار» أيضًا لا يعيبه شيء.

من زاوية عيني، لمحت ثريا وهي تراقبنا من الخيمة. يداها مدفونتان بتوتر تحت إبطيها. بخلافي، كانت قد تخلّت تدريجيًا عن محاولاتها لإدماجه. الأسئلة التي لا يُجاب عنها، التحديات الخاوية، الصمت، كان كل ذلك مؤلمًا جدًا. كانت قد تحولت إلى «وضعية الاستعداد»، تنتظر ضوءًا أخضر من سهراب. تنتظر.

بللتُ سبابتي ورفعتها عاليًا. قلت:

- أتذكّر كيف كان والدك يختبر الريح بأن يركل التراب بصندله، ويرى إلى أي اتجاه ستعصف به الريح. كان يعرف كثيرًا من الحيل الصغيرة مثل هذه.

أنزلت إصبعي:

- غربًا، على ما أظن.

مسح سهراب قطرة مطر عن شحمة أذنه، ولم ينطق. تذكرتُ ثريا وهي تسألني قبل بضعة أشهر أن أصف لها صوته. فقلت لها إنني لم أعد أتذكره.

قلت وأنا أعقد الطرف السائب من «تار» البكرة بحلقة الخيط المربوطة بمحور الطائرة:

- هل أخبرتك قبلاً أن والدك كان أفضل عداء للطائرات الورقية في وزير أكبر خان؟ وربما في كابول كلها؟ كم كان أطفال جيراننا يغيرون منه. كان يعدو وراء الطائرات من دون أن يرفع بصره إلى السماء، وكان الناس يقولون إنه يطارد ظلال الطائرات. لكنهم لم يعرفوه مثلي. لم يكن والدك يطارد الظلال. كان... يعرف فحسب.

كانت نحو نصف دسطة أخرى من الطائرات قد انطلقت إلى السماء. وبدأ الناس يتجمعون في مجموعات، وفناجين الشاي في أيديهم، وعيونهم مثبتة على السماء.

قلت:

- هل تريد مساعدتي في تطير هذه؟

قفزت تحديقة سهراب من الطائرة إليّ. ثم عادت إلى السماء. هزرتُ كتفيّ:

- حسناً. يبدو أنني سأطيرها «تَنهاي» (بمفرد).

وازنت البكرة في يدي اليسرى وفككتُ نحو ثلاث أقدام من الـ«تار». تدلّت الطائرة الصفراء في طرفه، مرتفعة بالكاد فوق العشب المبلل. قلت: - آخر فرصة.

لكن سهراب كان ينظر إلى طائرتين تشتبكان عاليًا فوق الأشجار. - حسناً. ها نحن.

انطلقت أعدو، حذائي يطرش ماء المطر من النقر، واليد القابضة على طرف الخيط من جهة الطائرة مرفوعة عاليًا فوق رأسي. لم أفعل ذلك

منذ زمن بعيد، منذ سنوات طويلة جدًا، وتساءلت ما إذا كنت سأجعل من نفسي أضحوكة. تركت البكرة تلف في يدي اليسرى وأنا أجري، شاعرًا بقطع الخيط ليدي اليمنى ثانية فيما يتحرر أكثر وأكثر. كانت الطائرة تعلو خلف كتفي الآن، وتدور، كلما ركضتُ أسرع. دارت البكرة أسرع وشقَّ الخيط المزجج جرحًا آخر في كفي اليمنى. وقفت واستدرت. نظرت إلى أعلى. ابتسمت. عاليًا، كانت طائرتي تميل من جانب إلى آخر مثل البندول، مصدرة صوت طائر ورقي يرفُّ بجناحيه، ذلك الصوت الذي طالما ارتبط عندي بصباحات كابول الشتوية. لم أطيّر طائرة منذ ربع قرن، لكن فجأة عدت إلى سن الثانية عشرة من جديد وداهمتني كل غرائزي القديمة.

شعرت بوجود شخص إلى جوارِي فأنزلت بصري. كان سهراب. يدها ممدوستان في جيبَي معطفه الواقِي من المطر. كان قد تبعني. سأَلته:

- هل تريد أن تجرب؟

لم يقل شيئًا. لكن عندما ناولته الخيط، ارتفعت يده من جيبه. تردد. تناول الخيط. تسارعت ضربات قلبي وأنا أدور البكرة لألملم الخيط المفكوك. وقفنا صامتين جنبًا إلى جنب. وأعناقنا مشرَّبة نحو السماء.

من حولنا، كان الأطفال بعضهم يطارد بعضًا، يتزلجون على العشب. وقد شغل أحدهم شريط الصوت المصاحب لأحد الأفلام الهندية. وكان صف من الشيوخ يصلُّون العصر على ملاءة بلاستيكية مفرودة على الأرض. كان الهواء معبًا برائحة العشب المبلول، والدخان، واللحم المشوي. وتمنيت لو يتوقف الزمن.

ثم رأيت أن لدينا صُحبة. كانت طائرة خضراء تقترب. تعقبتُ الخيط وصولاً إلى طفل يقف على بعد نحو ثلاثين ياردة منا. كان شعره مقصوصاً قصة البحارة، حليقاً من الجانبين، ويرتدي تيشيرتاً مكتوباً عليه «روك رولز» بأحرف غليظة منفصلة. رأني وأنا أنظر إليه فابتسم. لَوَّح لي، فلَوَّحت له.

كان سهراب يعيد إليَّ الخيط.

قلت وأنا أتناوله:

- هل أنت متأكد؟

أخذ مني البكرة.

قلت:

- أوكيه. هيا نعطيه «سَبَق» (نعلمه درسًا)، هه؟

تفحصت وجهه سريعاً. غادرت النظرة الزجاجية الخاوية عينيه. وكان بصره يتردد بين طائرتنا والطائرة الخضراء. كان وجهه متضرباً قليلاً، وبدت عيناه فجأة منتبهتين، يقظتين، حيتين. وتساءلت، متى نسيت أنه، مع كل شيء، لا يزال طفلاً وحسب.

كانت الطائرة الخضراء تقوم بمناورتها. قلت:

- لنتظر. سنتركه يقترب أكثر قليلاً.

غاصت مرتين وزحفت باتجاهنا. قلت:

- اقتربي. اقتربي.

ظلت الطائرة الخضراء تقترب، وباتت الآن ترتفع قليلاً فوقنا، غير واعية بالفخ الذي نصبته لها.

- راقب، سهراب. سوف أقدم لك واحدة من حيل أليك المفضلة، حيلة «ارفع واغطس» القديمة.

إلى جوارى، كان سهراب يتنفس بسرعة من أنفه. كانت البكرة تدور في كفه، وأوتار معصمه ذي الندبة مثل أوتار الرباب. ثم رمشت، ولو هلة فحسب، كانت اليدان الممسكتان بالملفاف يدي الصبي ذي الشفة الأرنبية الخشتين ذواتا الأظافر المشطوفة. سمعتُ غرابًا ينعق في مكان ما، فرفعت بصري. وتلألأت الحديقة بثلج شديد الطزاجة، شاهق البياض، يحرق بياضه الأعين. كان يتلألأ بلا صوت من فروع الأشجار ذات الرداء الأبيض. كنت أشم رائحة «قورمه» اللفت في تلك اللحظة. التوت المجفف. البرتقال الحامض. نشارة الخشب والجوز. كان الهدوء المكتوم، هدوء الثلج، يصمُ الآذان. ثم جاء من بعيد، عبر السكون، صوت يدعونا للعودة إلى الدار، صوت رجل يجرجر ساقه اليمنى خلفه.

كانت الطائرة الخضراء تحلق فوقنا مباشرة الآن. قلت، وعيناى ترقآن من سهراب إلى طائرنا:

- سيفعلها. في أي لحظة الآن.

تردّدت الطائرة الخضراء. حافظت على موقعها. ثم انقضّت إلى أسفل. قلت:

- هيا بنا!

فعلتها على أكمل وجه. بعد كل تلك السنوات. فح «ارفع واغطس» القديم. أرخيتُ قبضتي وجذبت الخيط، فغطست وتفاديت الطائرة الخضراء. سلسلة من الشدات الأفقية وانطلقت طائرنا إلى أعلى بعكس اتجاه عقارب الساعة، في نصف دائرة. فجأة أصبحت أنا فوقه. وصارت الطائرة الخضراء تتخبّط، وقد أصابها الذعر. لكن الأوان قد فات. وقد خدعته بحيلة حسن.

شدت بقوة فانقضت طائرتنا، وأنا أكاد أشعر بخيطنا وهو ينشر خيطه.
أكاد أسمع التكة.

ثم، هكذا، كانت الطائرة الخضراء تدور حول نفسها متهاوية وخارجة
عن السيطرة.

من خلفنا، تعالت الهتافات، وضجَّ الناس بالصفير والتصفيق. كنت
ألّهث. آخر مرة شعرت فيها بحماسة مثل تلك كان ذلك النهار في شتاء
عام ١٩٧٥، بعد أن قطعت آخر طائرة، عندما لمحت بابا فوق سطح دارنا،
وجهه مشرق، ويصفق لي.

خفضت بصري تجاه سهراب. وكانت إحدى زاويتي فمه قد انقلبت
لأعلى هكذا.

ابتسامة.

بزاوية الفم.

تكاد لا ترى.

لكنها هناك.

من خلفنا، كان الأطفال يركضون، ومعمعة من عدائي الطائرات الورقية
يتصايحون وهم يطاردون الطائرة المتهاوية التي تجرفها الرياح عاليًا فوق
الأشجار. رمشتُ واختفت الابتسامة. لكنها كانت هناك. لقد رأيتها.

- هل تريدني أن أعدو لآتي لك بهذه الطائرة؟

برزت تفاحة آدم في عنقه ونزلت وهو يبتلع ريقه. رفعت الريح شعره.
وخلتني آراه يومئ برأسه.

سمعتني أقول:

- من أجلك، ألف مرة ومرة!

ثم استدرت وعدوت.

كانت مجرد ابتسامة، ليس أكثر. لم تجعل كل شيء على ما يرام. لم تجعل أي شيء على ما يرام. مجرد ابتسامة. شيء صغير جدًا. ورقة شجر في الغابة، ترتجف، مع انطلاقة طائر جفل.

لكنني سأخذها. بذراعين مفتوحتين. لأن الربيع عندما يأتي يذيب الثلوج ندفة بعد ندفة، وربما كان ما شهدته للتو أول ندفة تذوب.

عدوتُ. رجل ناضج يعدو وسط معمة أطفال يتصايحون، لكنني لم أهتم. عدوتُ والريح تصدم وجهي، وابتسامة واسعة مثل وادي «بنجشير» تتراقص على شفتيّ.

عدوتُ.

«إنها قصة لا تُنسى، تظل معك لسنوات... إنها قوية لحدّ جعل كل ما
قرأته بعدها، ولفترة طويلة، يبدو لي بلا طعم»
إيزابيل أَلليندي

«مذهلة... يندر أن تجد كتابًا يناسب أوانه لهذه الدرجة، ويحمل، في
الوقت نفسه، تلك القيمة الأدبية العالية»
بيلشرز ويكلي

أفغانستان عام ١٩٧٥: أمير فتى في الثانية عشرة من عمره، يحلم بالفوز
في مسابقة الطائرات الورقية. ويساعده صديقه المخلص حسن. ولكن
لم يكن أيّ من الصبيين ليتصور ما سيحدث لحسن بعد ظهر ذلك اليوم،
حدثٌ سيحطم حياتهما.

بعد الاجتياح السوفييتي واضطرار أمير ووالده للهرب إلى الولايات
المتحدة، يدرك أمير أنه، عاجلاً أم آجلاً، عليه العودة إلى أفغانستان،
تحت حكم الطالبان، ليجد الشيء الوحيد الذي لن يهبه له عالمه الجديد:
التكفير عن الذنوب **مكتبة بغداد**

twitter@baghdad_library

«قصة شيقة ومفعمة بالحياة تُذكرنا بالكفاح الطويل لهذا الشعب»
نيويورك تايمز بوك رفيو

«رواية رائعة... إنها رواية على الطراز القديم الذي يحتاجك بحق»
سان فرانسيسكو كرونيكل

www.bqfp.com.qa

ISBN 978-99921-78-96-6



90100



9 789992 178966



دار بلومزبري - مؤسسة قطر للنشر
BLOOMSBURY
QATAR FOUNDATION



أيضاً
بالمكتبات
الرواية
المصورة